قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد

«تراجم مصرية وأجنبية»

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

١٩٩٨



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت: ٣٩٢٦٤٠١

قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد

«تراجم مصرية وأجنبية»

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

١٩٩٨



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت ٣٩٢٦٤٠١

تقديم

رابح لطفى جمعه

تحتل التراجم والسير فى مجال الكتابات التاريخية والأدبية مكاناً مرموقاً ، فالسيرة أو الترجمة هى البحث عن الحقيقة فى حياة إنسان فذّ والكشف عن مواهبه من ظروف حياته التى عاشها والأحداث التى واجهها والأثر الذى خلفه بعمله فى محيطه ومجتمعه ، فبقدر مايعظم هذا العمل ويعظم أثره فى جيله ، بقدر مايحفل به التاريخ .

وتعتبر السيرة أو الترجمة أكثر نبضاً بالحياة من التاريخ ، ففيها نلتمس الإنسان المترجم له عن طريق الأحداث ، ولذلك كانت الترجمة أكثر إثارة وإمتاعاً وتشويقاً للقارىء من كل كتابة تاريخية سواها .

وكتابة التراجم أو السير فنّ يعتمد على الوثائق والمدونات والرسائل والمذكرات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء والزيف والادعاء ، وتحتاج الى حصيلة ضخمة من المواد والمراجع والمصادر التى تمكن من فهم نفسية الشخصية التى يترجم لها وتدرس آثارها وأعمالها . كذلك قد تعتمد كتابة التراجم - عدا ماذكرنا - على المعاصرة أى العلاقة الشخصية التى قد تربط بين المترجم والمترجم له .

وعلى مدى العصور المختلفة للأدب العربى ، بلغت كتابة التراجم على يد العرب مالم تبلغه عند المؤرخين الإغريق والرومان وفى مقدمتهم « بلوتارك » فى كتابه « حياة العظماء » الذى يستوى على القمة من أعمال المؤرخين فى عهده وإلى ما بعد عهده بحقب طويلة .

وقد ذخرت المكتبة العربية بالعديد من كتب التراجم والسير ، نذكر منها فى القديم كتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة والأغانى لأبى فرج الأصفهانى وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الذى جمع فيه أخبار المشرق وأدبائه ليتحف به أهل وطنه فى الأندلس ، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان وهو من كتب التراجم القيمة وقد تمم عليه محمد بن شاكر الكتبى بكتابه الذى سماه فوات الأعيان ، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى وتاريخ دمشق وأعلامها لابن العساكر ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، وكتاب الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة لابن بسام الأندلسى وبغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى، دع عنك كتب طبقات الرجال مثل طبقات الصحابة وطبقات الصوفية وطبقات الشعراء وطبقات النحاة وطبقات الأطباء وغيرهم .

أما فى العصر الحديث فقد نشطت كتابة السير والتراجم وأوفت على جهود المؤرخين فى كتابة التاريخ العام ، فإذا نظرنا الى الكتابات فى مجال التراجم نجد أعمالاً قيمة وموسوعات ضخمة يربى بعضها على أكثر من عشر مجلدات ، نذكر منها موسوعة عمر رضا كحالة المعروفه باسم « أعلام المؤلفين » وتقع فى خمسة عشر مجلداً، وموسوعة خير الدين الزركلى التى تنتظم ترجمة عشرة آلاف علم من أعلام العرب والمسلمين فى القديم والحديث وقد بدأها المؤلف سنة ١٩١٢ وانتهى منها سنة ١٩٧٩ وتقع فى عشرة مجلدات ، كذلك موسوعة زكى مجاهد المعنونة « الأعلام الشرقية فى المائة الرابعه عشرة للهجرة » ، وقد بدأ ظهورها سنة ١٩٤٨ ونشر منها خمسة أجزاء تنتظم تراجم رجال الشرق من الدول العربية والإسلامية ، وكتاب جرجى زيدان « أشهر مشاهير الشرق » ، وكتاب يوسف أسعد داغر « مصادر الدراسة الأدبية » الذى خصّ الجزء الثانى منه للأدب العربى الحديث وأعلام الراحلين .

ومن موسوعات التراجم أيضاً فى العصر الحديث موسوعات تتضمن ترجمة لطبقات معينه من الأعلام مثل كتاب معجم الأطباء للدكتور أحمد عيسى وهو تكملة لكتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة ، وكتاب « تاريخ الصحافة العربية » للكونت فيليب دى طرازى وهو موسوعة لأعلام الصحافة العربية وتقع فى أربعة مجلدات وتحتوى على ترجمة للعديد من رجال الصحافة ، ومعجم الشعراء العرب المعاصرين الذى أصدرته مؤسسة البابطين للإبداع الشعرى سنة ١٩٩٥ فى ستّ مجلدات .

كذلك من ألوان التأليف فى التراجم والسير أن يتناول المؤلف أعلام قرن من الزمان بعينه ، وهى سنّة جرى عليها كتاب التراجم بعد ابن خلكان فى الترجمة لأعلام كل عصر على حدة ، فتتصل بذلك تراجم أعلام العصور قرناً فقرناً ، فكتاب « الدرر الكافية » لشهاب الدين بن حجر العسقلانى أرّخ لأعلام القرن الثامن الهجرى ، فى حين أن كتاب « الضوء اللامع » للسخاوى ترجم لأعلام القرن التاسع الهجرى ، وكتاب « الكواكب السائرة » للغزى ترجم فيه المؤلف لرجال القرن العاشر الهجرى ، وكتاب « خلاصة الأثر » للمحبى ترجم فيه المؤلف لرجال القرن الحادى عشر الهجرى ، أما كتاب « سلك الدرر » للمرادى فقد انتظم ترجمة رجال القرن الثانى عشر الهجرى، وأخيراً تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر للهجرة لأحمد تيمور ، وقد سبق أن ذكرنا موسوعة زكى مجاهد المعنونة « الأعلام الشرقية فى المائة الرابعه عشرة للهجرة » .

وبعد ....

فهذا كتاب محمد لطفى جمعه الذى أسماه « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » وينتظم ترجمة اثنين وستين شخصية عربية وأجنبية من رجال الفكر والدين

والسياسة والصحافة والمحاماة وغيرهم ، ويتميز هذا الكتاب بالعديد من المميزات التى تجعله فريداً فى بابه من بين كتب التراجم العربية الحديثة .

ولعل أولى هذه المميزات أن المؤلف اعتمد فى الترجمة لبعض الشخصيات على المشاهدة والمعاشرة والصلة الشخصية والمعاصرة ، ومما لاشك فيه أن المعرفة الشخصية والصداقات والزمالة فى العمل تعتبر أكبر عون لكتاب التراجم ومصدراً هاماً من مصادر التراجم ، ولذلك فقد أولى الباحثون أهمية كبرى للكتابات التى كتبها بعض كتاب السير والتراجم عن شخصيات ارتبطوا بها بصلات شخصية وعدّوها فى درجة الشهادة وهى أكبر من درجة الرواية والنقل .

وتتمثل الصلة الشخصية فى أحوال ثلاث ، الأولى صلّة الصداقة أو الزمالة ، والثانية صلة التلمذة ، والثالثة صلة العمل ، وتجمع المعاصرة هذه الصلات جميعها ، وتختلف الكتابة فيها باختلاف نوع الصلة ، فيغلب على صلة التلمذة طابع الحب والولاء والإعجاب بالمترجم له والدفاع عنه وقلما ترتفع هذه الكتابات إلى التعرف على أوجه النقص أو الضعف فى الشخصية .

أما فى مجال الصداقة بين المؤلف والمترجَم له ، فإن الكاتب يستطيع أحياناً أن يواجه صاحبه بشىء من الجراه والقدرة على كشف أعماق النفس دون خشية من عتاب أو لوم ، اعتباراً بأن الإنسان إنسان بخيره وشره ، وجدّه وهزله ، وتساميه ومباذله ، ومعايبه وفضائله ، ذلك أن مهمة المترجم كما يقول إميل لودفيج أشهر كتاب التراجم « هى أن يكشف لنا الإنسان العادى المختبىء فى هيكل العظم وأن يتبين الملامح الإنسانية البسيطة المختفية وأن يمكننا من أن نرى الانسان نفسه » .

أما التراجم التى تعتمد على صلة العمل فلا تكاد تخرج عن نوعين من الكتابه... الأول التعاطف والولاء ، والثانى الخصومة والعداء .

وجملة القول فى كتابة التراجم التى تعتمد على المعاصرة والصلة الشخصية هى أن هذه الصلة قد استطاعت أن تقدم لنا فى فن التراجم والسير إضافات هامة ونافعة للنقاد وعلماء النفس .

وفى هذا الكتاب الذى نحن بصدده اعتمد لطفى جمعه فى تأليفه على صلاته الشخصية بالمترجم لهم ، سواء أكانت هذه الصلات صلة تلميذ بأستاذه أم صلة الصداقة أم صلة الزمالة فى العمل ، فمعظم ما كتبه عن الشخصيات التى ترجم لها هو تسجيل لذكرياته عنهم وعن أعمالهم وعلاقته بهم وعلاقتهم به ، وبذلك يذكرنا المؤلف بكتاب « جامع التواريخ أو نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » للتنوخى الذى ألف كتابه معتمداً فيه على صلاته الشخصية بمن تحدث أو نقل عنهم وسجله من أحداث وشخصيات .

وهذا ما أكده لطفى جمعه نفسه فى ترجمة عبد الله بكرى أحد ظرفاء مدينة بورسعيد حيث يقول : « أشعر أحياناً بالغضب والألم كلما وقع تحت قلمى حادث مكدر أو نقص فى الأخلاق منسوب إلى أحد ممن أكتب عنه ، لأننى أحببت أن تكون هذه الأخبار الصادقة دالة على معالى الأمور مرشدة لكريم الأخلاق زاجرة عن الدناءة ناهية عن القبح باحثة عن صواب التدبير وحسن التقدير ، ولذا أدونها بصراحة وحسن نية ، حتى إذا تناولها القارىء أخذ نفسه بأحسنها ، وخلصها من مساوىء الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها ، وروّضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم ، وإنما مثل هذه المذكرات مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، فإذا مّر بالقارىء حديث فيه إفصاح بذكر عيب أو نقيصة أو وصف سيئة فلا يحملنّه على السخط والنقد فيعرض بوجهه ، فإن ذكر المساوىء لايوثم وإنما المآثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب

وأكل لحوم الناس بالغيب . وقد حاولت أن أجرى فى بعضها على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولى فى ذلك أسوة ببعض الكتاب الأماثل كالتنوخى فى نشوار المحاضرة وأحمد بن يوسف فى كتاب المكافأة وغيرهما ، فإن بمثل هذين يحصل التهذيب وتتم الغاية المقصودة من التأليف » .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كتب التراجم والسير غالباً مايتحدد إطارها بالزمان والمكان اللذين عاش فيهما المترجم لهم ، فالزمان هو مدى الوقت الذى امتدت فيه حياة هؤلاء الأشخاص ، والمكان هو البيئة أو المجتمع الذى امتدت فيه تلك الحياة ، وبالنظر الى إطار الزمان والمكان فى كتاب لطفى جمعه ، نجد أنه يتميز أيضاً فى هذه الناحية، فبالرغم من قصر الزمان « حوالى نصف قرن » وعدم شمولية المكان (مصر وبعض البلدان الأوربية) ، فقد تمكن المؤلف من إعطائنا صورة للعديد من أعلام عصره وجمع بين أشتات مختلفة ومتنوعة من هؤلاء الأعلام ، وقدم لنا نماذج من قطاعات متعددة من المجتمع المصرى خلال نصف قرن من الزمان .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد اقتصر المؤلف فى كتابه على الترجمة - فى الأغلب الأعم - على أعلام عصره الراحلين دون الأحياء منهم ، ولاشك فى أن هذه ميزة تحسب للكتاب ، لأن المعاصرة حجاب ، بمعنى أن من يترجم لشخصية من شخصيات العصر الأحياء قد يجنح إلى المبالغة فى الإعجاب والإطراء بقدر ماقد يجنح إلى التطرف فى الخصومة والعداء ، بعكس من يترجم لشخصية من المتوفين بعد أن انقطعت الأسباب بينه وبين الناس .

كذلك يتميز الكتاب بأن المؤلف حرص على وصف بعض الشخصيات المترجم لها ووصف أخلاقهم وطباعهم ، ونحن عندما نطالع الكتب التى ألفت قديماً أو حديثاً فى

تراجم الأعلام من الأدباء والشعراء والعلماء والمفكرين والقادة ورجال الدولة وغيرهم ، فإننا قلما نعثر فيها على وصف للمترجم له أو وصف ثيابه أو أخلاقه وطباعه مع أهمية ذلك عند علماء النفس ورجال الاجتماع والنقاد ٠

وقد تميز كتاب لطفى جمعه عن كثير غيره من كتب التراجم والسير بأن أعطانا المؤلف صورة أو ملامح عامة ولو أنها سريعة ومقتضبة عن الأعلام الذين ترجم لهم سواء من حيث وصف الوجه وطول القامة أو قصرها واعتدال الجسم أو بدانته أو نحافته ووصف الثياب التى كان المترجم له يرتديها ، وأحياناً وصف أخلاقه وطباعه بحيث إذا قرأنا لعديد ممن ترجم لهم المؤلف استطعنا بقدر أو بآخر أن نتمثلهم فى أذهاننا ، وهذه ناحية لاتخلو من أهمية ، ذلك أن إعطاء مؤلف التراجم لنا بعض الملامح الجسدية والخلقية لمن ترجم لهم والاشارة إلى ما اتصفوا به من طباع وأخلاق ووصف ملابسهم وأنواع ثيابهم ، كل هذا وغيره يساعد الناقد والمؤرخ وعالم النفس وعالم الاجتماع على الوقوف على المزيد من المعلومات عن الشخصية التى يتناولها كل منهم بالدراسة والبحث والتحليل ٠

كذلكً من أبرز مايتميز به هذا الكتاب أن المؤلف أورد لنا فيه طرفاً من ملامح الحياة الاجتماعية فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين وذلك من خلال حديثه عن بعض الشخصيات التى ترجم لها ٠

وأود أن أشير هنا إلى أننى قد أضفت إلى الشخصيات التى تحدث عنها المؤلف فى هذا الكتاب - بعض الشخصيات الأخرى التى سبق وأن كتب عنها مقالات فى بعض الصحف والمجلات ، كما أضفت إلى بعض الشخصيات التى ترجم لها المؤلف فعلاً فى هذا الكتاب ماسبق وأن كتبه عنها أيضاً فى مقالات نشرت ببعض الصحف والمجلات ، وأشرت فى الهامش إلى هذا وذاك فى موضعه ٠

هذا وقد عثرت على ورقة أورد فيها المؤلف بخط يده أسماء لبعض الشخصيات وكتب قرين هذه الأسماء عبارة « تضاف إلى التراجم بمقدمة صغيرة » . ومن هذه الأسماء شخصيات ممن أضفتها إلى الكتاب على نحو ماذكرت آنفاً وهم حفنى ناصف وعلى فوزى وعبد العزيز الثعالبى وويلفريد اسكوين بلنت .

أما الشخصيات الأخرى التى لم يقدر للمؤلف أن يترجم لها وإن كان قد كتب عن بعضها فى مذكراته المخطوطة ، فهى محمود واصف وعبد الفتاح بيهم ومحمد كرد على وعبد القادر المغربى وأحمد نجيب المحامى وعبد العزيز خليل ومحمود عمر ومحمد خطاب وعبد الله لطفى وعبد المجيد رضا وأحمد سالم وهاوتون وأمين عمر وفيضى باشا وطنطاوى جوهرى وعبد الجواد عبد العال وادوار ڤانديك وحسن حسيب وعبدالله سلامة ومحمد فهمى ومحمد فريد وحامد العلايلى وإبراهيم رمزى وعبد العزيز جاويش وأمين سعيد ومحمد خالد وأحمد موسى وأحمد شفيق باشا وأحمد زكى شيخ العروبة والدكتور محمد سليمان وعثمان باشا غالب والغرابلى وأحمد ماهر ومصطفى المراغى وجرجى زيدان وإسماعيل كامل وتوفيق دياب ومحمد على الأسمر وحسين رمزى وأبو ذرّ رؤوف .

والقارىء لهذه الأسماء يلاحظ أن من بينها أعلاماً فى الدين والأدب والسياسة والصحافة والاستشراق ، وكم كنا نود لو أن المؤلف كان قد كتب عن هذه الشخصيات خدمة للتاريخ والأدب ، سيما وأنه كان على صلة شخصية بها وممن ربطت بينهم وبينه المعاصرة والعلاقة الشخصية واتصلت أسبابهم بأسبابه ، فعرفهم عن قرب وخبر من أمورهم ماقد يخفى على كثير من أبناء هذا الجيل .

على أننى أذكر أننى فى كتابى « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام » المطبوع سنة ١٩٩١ قد تحدثت عن بعض هذه الشخصيات التى لم يقدر للطفى جمعه أن يكتب

عنها وأوردت ماكتبه عنها فى مذكراته المخطوطة ، كما أوردت بعض الرسائل التى بعثوا بها إليه من أمثال محمد فريد وجرجى زيدان والشيخ طنطاوى جوهرى ومحمد كرد على والكاتب المسرحى إبراهيم رمزى وأمين سعيد وأحمد زكى شيخ العروبة .

هذا ما عنَّ لنا من تقديم هذا الكتاب للقارىء ، ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى تجلية أهم مايتميز به هذا الكتاب القيم الفريد فى بابه الممتع فى مضمونه ومحتواه .

والله ولى التوفيق ،،

رابح لطفى جمعه

٢١ شارع أمين الخولى - مصر الجديدة

القاهرة

القاهرة فى ٣ مارس ١٩٩٧

إبراهيم دسوقى أباظة

عرفت من الأسرة الأباظية عشرات الأفراد وكلهم أصدقاء أوفياء ولكل منهم معى سكرمة وهى أسرة من خير الأسر فى مصر وفيها رجولة ووفاء ووطنية وعلم وأدب . أول من عرفت منهم المرحوم شاكر أباظه وكان شاباً أديباً صحفياً ينشر جريدة أسبوعيه باسم الحماية ، ولا علاقة لها بالسياسة ولكن كان اسمها مصادفة يكتب فيها وأصدقاؤه المرحوم إبراهيم رمزى بك ومحمد الباسل بك ودكتور مصرى غاب عنى اسمه كانت له عيادة وصيدلية بشارع محمد على وهو أول من رأيت عنده كتب ابن سينا فتناولت أحدها لأقرأه فقال لى حتى تشيب ياولدى ثم تقرأ ابن سينا، ولكن أراد الله أن أقرأها قبل أن يدب الشيب فى رأسى .

وكان شاكر يقيم فى حلوان وزرته فيها مرات عدة وكان مجلسه مجلس ادب ووقار وله صلة بالأدباء أمثال المرحومين البابلى وحافظ إبراهيم خلة ورثها عن آبائه وأعمامه . ومنهم المرحوم إسماعيل باشا وكان وزيراً غير معين بمرسوم للخديو عباس وكان فحلا فى السياسة والأدب والاقتصاد وقد وقف مواقف مشرفة ، منها موقفه فى الرد على سعد باشا سنة ١٩١٠ فى مشروع قناة السويس وكان دأبه أن يكتب فى الصحف بعنوان واحد وهو « بيان لابد منه » وكان داهية فى الذكاء وآية فى التنظيم والترتيب وصواب الرأى ، ومنهم الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظه بك وكان زميلى فى المدارس وهو أول من تولى الوزارة منهم « الشئون الاجتماعية » وهو من أساطين حزب الأحرار الدستوريين . ومن زملائى فى الدرس المرحوم محمود عثمان وأخوه إسماعيل عثمان ولى صحبة بفؤاد باشا والأستاذ فكرى وهو صحفى ومحام وله مواقف مشرفة فى مجلس النواب ومقالات قيمة فى الصحف .

ولى صلة بعبد الحميد بك نجل إسماعيل باشا وهو شهم حاذق حسن الإدارة جيد السهر على الأموال يأتمنه لفيف من أمراء العرب على أملاكهم وإدارة شؤونهم ، ونجله محام قدير ، ومنهم زكى أباظه بك وكان قاضياً فى المحاكم ، وعثمان بك أباظه وعبد الله بك وعشرات فى مصلحة الأملاك وفى الأمن العام وفى الطب وفى الإدارة . ولا يمكننى أن أحصيهم ، ويكفى للدلالة على كثرتهم المباركة أن لأسرتهم مجلة خاصة بها تلمهم وتجمعهم فى صفحاتها وتنشر مايهم أفرادها، ولم تكن لهم فى المحاكم فيما بينهم إلا قضية واحدة اهتموا بها اهتماماً كبيراً وجاءت نتيجتها على مايرغبون .

ولم أقصد بهذه الكلمة أن أحيط بتاريخ أسرتهم فرداً فرداً ولا بجميع أصدقائى منهم ، ولكن أردت أن أذكر بعضهم بالخير الذى يستحقونه . وبيوتاتهم بيوتات مجد وشرف وكرم فى مديرية الشرقية من قديم الزمان ، ولم أدر إن كانوا من أصل تركى أو قوقازى أو عربى ولكن وجوههم تدل على أنهم ليسوا عرباً ولعلهم الى غرب آسيا أقرب لما يبدو فى أعينهم وحواجبهم من الشبه الأسيوى كالچراكسه والتتار ، ويعجبنى فيهم تضامنهم وتآلفهم ونظافة أيديهم وطهارة ذممهم ووفاؤهم لأصدقائهم ولبادئهم فى غير تعصب ولا حرج ولا ضيق عطن ، وإن كانوا جميعاً فضلاء إلا أن كل فرد منهم قد استقل بفضيلة أو خلة جميلة تميزه عن سواه .

أما ميادين نشاطهم فمتعددة :

أولا : وظائف الحكومة الإدارية .

ثانيا : القضاء وكان منهم جمال الدين بك مستشارا .

ثالثا : المحاماة .

رابعا : الصحافة وهى فى دم معظمهم ، فأولهم إسماعيل باشا الذى أنشأ جريدة الأهالى ثم شاكر بك ثم فكرى ثم إبراهيم بك الذى حرر فى السياسة اليومية .

خامسا : الزراعة والسياحات ، اختص بها فؤاد باشا .

سادسا : الاقتصاد والشركات ، أكثر من ثلاثة منهم .

سابعا : السياسة القومية ، أكثر من خمسة منهم .

ثامنا : الطب ، أكثر من واحد .

تاسعا : التأليف ، انفرد به إبراهيم بك وفكرى وله كتاب واحد ، الضاحك

عاشرا : الخطابة ، إسماعيل باشا وإبراهيم بك .

حادى عشر : إدارة الأموال ، عبد الحميد بك .

ثانى عشر : تنسيق المعارض ، إسماعيل عثمان بك وغيره .

وبالجملة لايمكنك أن تخطو فى مجال الحياة العامه خطوة حتى تلقى أباظياً أديباً كريماً مستعداً لمعونتك على الحق وحمايتك من شرور الباطل .

ولم يحدث لى حادث مكدر مع أحدهم إلا مرة فى سنة ١٩٢٢ وكان أحدهم وكيلا لمصلحة الأملاك وكان رجلاً ضخما أفلح أعلم يحمل مذبة ملونة ويهيمن على المصلحة لقرب مكانته من رئيسها الانجليزى إذ ذاك مستر أنتونى ، وكان الأباظى المحترم من جيل سابق أو الأسبق لجيلى فلم أعرفه فشكا له الدكتور أحمد حلمى بك (توفى) - وكان زوج إحدى الأميرات - بالباطل أنه رسا علىّ مزاد «قطعة أرض فى منشأة البكرى» بانحياز رئيس اللجنة المرحوم أحمد الأزهرى بك . وكان هذا الدكتور غير صادق فى كل ما رواه ، لأنه بعد أن زاد فى سعر الأرض الى أضعاف ثمنها علىّ وزدتُ بعد ذلك معاندة انسحب وأخذ فى أعقابه اثنين من أصهاره البكوات المطمرين المطقمين كأنهما جوادان فى حلبة السباق . وكان ثلاثتهم موضع انتقاد الحاضرين من موظفين ومشترين الذين أدركوا أن الطبيب الذى كانت تربطنى به صداقة علمية أراد أن يكيدنى ويتقن « مقلباً » ولم أجن عليه ذنباً غير أننى رجوته أن يتخلى عن هذه القطعة لأن له ولحرمه أملاكاً كثيرة وأردت أن أبنى بيتاً لأولادى .

فلما انسحب الثلاثة وانتظرت اللجنة حتى دقت الساعة الثانية عشرة فأعلن رئيسها المرحوم أحمد الأزهرى بك رسو المزاد علىّ ، وكان من أطهر الرجال ذمة وأشرفهم يداً حتى اختاره ويلكوكس كاتباً لأسراره أثناء تقسيم أراضى الدائرة السنية . وكان موضع احترام رؤسائه وثقتهم أينما حلّ وكان مايزال يلبس العمامة والجبة ويجيد الكلام بالانجليزية . ولما انقضى الموعد المحدد قال لى « إنى أعرف أن ثمن الأرض مرتفع ولكن هكذا نظام بيع أراضى الحكومة وأنا لم أعرفك من قبل إلا بالاسم ولايسعنى بعد تمام الصفقة إلا أن أبارك لك » ، وفى تلك اللحظة دخل البك الوكيل ووراءه الفرسان الثلاثة الدكتور وصهراه . وأخذ البيك الوكيل يسأل عنى وهو غاضب لأن الثلاثة ملأوه ببلاغهم الكاذب ، ثم هوى على أوراق اللجنة فاختطفها وطلب الى الأعضاء والرئيس أن يلحقوا به فى غرفته ، ولم أحرك ساكناً وتم التحقيق فأظهر براءة الأزهرى بك ، وكتبت الى مدير المصلحة « أنطونى » بالتفصيل وكان له سكرتير سورى رقيع مُخطط ومكحل كان واسطة سوء ، ولكن أنطونى بعد أن استوفى البحث وأصغى الى مندوبى الأميرة اكتفى بإلغاء الصفقة لأن ثمنها ارتفع بسبب العناد وإصرار الطرفين على المبالغة فى تقدير الثمن . ولما عرفنى البيك الوكيل أظهر أسفه وندم على تعجله .

ولم يفز الدكتور حلمى بك الذى كان طبيب سجن طره بطائل .. وقد أسفت لأن أباظه بك وكيل المصلحة لم تطل حياته بعد ذلك ، مع أنه كان فى عنفوان القوة وقيل إنه كان من رجال البوليس الممتازين وله عند انطونى يد فقدّمه وتعهدّه بالترقية التى كان يستحقها .

وقد زرت ليمان طره مع تلاميذى فى الحقوق سنة ١٩١٧ قبل هذه الحادثة بخمس سنين واستبشعت قسوة هذا الطبيب لأنه أخبرنى أن بعض المحكوم عليهم بمدة طويلة يتمارضون وقد جعل لفحصهم والتثبت من صدقهم أداة للتعذيب وهى مقراض من

الحديد يحكم تمكينه فى أبدانهم فإن أحسوا به اتهمهم بالكذب وطلب معاقبتهم بالجلد. وقال لى إنه أطلق سراح بعض من لم يستشعروا الكلاليب ثم علم أنهم شفوا بعد خروجهم ، فظن أنهم تصنعوا وطلب استردادهم ، وبالجملة كان من القسوة بمكان عظيم ، ومن العجب أنه كان فى مجلسه مع العلماء والأدباء بمقهى « اسبلندد بار » حيث كان يجتمع بالدكتور شبلى شميل ورفيق العظم ومحمد كرد على والشيخ رشيد رضا وبنا - لطيف المعشر موفور الأدب ، وكذلك كان فى حواره ونقاشه وجدله مع شميل على صفحات الجرائد .

ولكنه فى يوم المزايدة افتخر بأنه ابن شقيق فيضى باشا « مدير الأوقاف فى عهد عباس ومدير الغربية الذى سجن فى عهده المنشاوى باشا بتهمة اشتراكه والمدير فى تعذيب المتهمين بسرقة ثيران الخديو عباس ١٩٠٣ » ، فقلت له يادكتور أنا لم أعرف المرحوم الباشا فما دخله فى هذا النزاع وإن انتسابك إليه لايزيدك شرفاً لأنك شريف بعلمك وأدبك ومهنتك ومنصبك .

ولم يكلمنى الرجل بعد ذلك عشر سنين ، ثم دخل يوما فى حديقة « يلْديز » قبيل الإفطار فى أحد أيام رمضان فجلس بجوارى وتكلم إلىّ كأنه لم يحدث شىء بيننا . ثم نهض أو نهضت لا أدرى بعد ذلك ببرهة قصيرة ولم أره بعد ذلك .

وهذا الأباظى كان أيضاً فاضلا لولا أن أوغر صدره هذا الطبيب وصهراه المطمرين المطقمين فلم يدخل فى روعه أنهم يكذبون ، ولم يغظنى شىء بقدر التهمة الكاذبة التى وجهوها الى المرحوم أحمد الأزهرى بك ورفقائه أعضاء لجنة المزايدة .

ابراهيم طه أبو زيد

توفى فى مقتبل العمر رحمه الله فى آخر سنة ١٩٤٣ بعد مرض استمر شهرين ، وهو شاب نوبى أقرب إلى السودان منه إلى النوبة يعمل كاتباً فى محكمة مصر الأهلية لايدل مظهره على حقيقة حاله لصغر سنه وهدوء طبعه وطول صمته وتجنبه مالا يعنيه ، وكان أول عمل رأيته فيه دائباً تدوين محاضر الجلسات فى دعوى حامد العلايلى وأخيه أمين على أرملة شقيقهما المتوفى عبد الحليم العلايلى ، وكان إبراهيم شديد الحرص على أوراق الدعوى وقوى الشكيمة على كل من حاول التقرب منه لإحداث الفساد أو الفتنة على نقيض من يشبهونه فى الوظيفة ويزاملونه فى العمل ، فقد اختلت ذمم كثير منهم وصار استهواءهم واستدراجهم الى الباطل أسهل من اتباعهم طريق الحق ، فكثيراً مايحدث تزوير فى المحاضر تضيع وراءه الحقوق ، وكثيراً ماتفقد المستندات والحجج لقاء رشوة ضئيلة أو هدية رخيصة واذا رفع المظلوم أو المغبون صوته بالشكوى ذهب صوته صرخة فى واد ونفخة فى رماد ، ومعظم هؤلاء الموظفين سواء أكانوا مستجدين أو قدامى متعلمين أو جهالاً يستهترون بعملهم ويعتذرون بتراكم الواجبات وضيق الوقت والإرهاق فى العمل . وأمثال ابراهيم طه أبو زيد قليل فهو حاد الذكاء قوى الذاكرة يتحرى الإتقان فى عمله ويجعل نفسه بمثابة الميزان بين الخصوم ويشايع الحق ولو كان على أقرب الناس اليه .

وقد حفزتنى استقامته وفطنته لاستقصاء خبره فعلمت أنه ابن رجل من النوبة اسمه طه أبو زيد كان مقرباً من رجال الحكم حتى نال الرتب ونجح فى الانتخاب النيابى وجلس فى مجلس النواب عن أهل بلده وأنه بذل جهوده فى تعليم أولاده ومنهم إبراهيم هذا وولد آخر اسمه حسن طه أبو زيد ، وعلمت عن هذا الابن ووالده أخباراً

عجيبة" ، منها أن حسن طه أبوزيد كان مهندسا فى إحدى جهات الحكومة المصرية وكان ذا مذهب سياسى يأبى المظالم وذا فطرة حرة تثور على الاستبداد وتستهين بكل شيء فى سبيل الحق • فلما اغتصب إسماعيل صدقى منصب الوزارة فى صيف ١٩٣٠ وقلب نظام الدولة وألغى دستور ١٩٢٣ وأتى بالمظالم والمغارم فى ظل المرحوم الملك فؤاد وأخمد أنفاس الحرية وتحكم بالقوة الغشوم فى مسالك الحق فى هذه الأمة الضعيفة الذليلة ولم يجد من يقاومه ، نهض هذا الشاب حسن طه لمقاومته بالطرق المشروعة وهى المجادلة بالتى هى أحسن • وكان أبوه إذ ذاك عضوا فى مجلس النواب ومستمتعا برضى هذا الباشا الظالم المدعو إسماعيل صدقى الذى سبب قتلاً كثيراً واعتداء بغير حق على أفراد وجماعات من المدافعين عن الحق فى ذلك الوقت، وقد تهتك إسماعيل صدقى فى الظلم وخلع قناع الحياء فى الاستبداد ولم يخش فى الباطل لومة لائم وأضاف الى فساد الحكم فساد الخلق وكانت حياته الخاصة لاتقل تعسفا وتعديا عن حياته العامة حتى أضجر الناس وأحرج الضمائر وأدخل الغيظ على الناس حتى صارت صدورهم تغلى كالمراجل ولكن أحداً منهم لم يرفع صوته ولم يمد يده •

وفى أحد الأيام بينما كان هذا الوزير البَغيض يتحفز للسفر من القاهرة الى الأسكندرية فى ديوان خاص قبض على حسن طه أبو زيد وقيل إنه مستخف وراء الستار وأنه كان يحمل « بلطه » (وهو سلاح عريض من أسلحة القتل والحرب) تحت ثيابه وانه كان يوشك أن يحطم بها رأس الوزير الظالم المتهتك فى المظالم لولا حذره وفطنته ويقظته التى أورثه إياها شعوره بظلمه وخوفه الاغتيال لكثرة ماحمل كاهله من الآثام ضد الوطن وضد الأفراد والجماعات ، فلما قبض على حسن طه أبو زيد ألصقت به تهمة عجيبة وهى نية القتل وهى ليست جريمة لأن النية لا عقاب عليها مالم تقترن بفعل مادى ظاهر ولا يعد حمل البلطه ولا الاختفاء فى « عربة » الظالم دليلاً عليها ولا تنفيذاً لها ، لأننا لو افترضنا صحة التهمة وأن هذا الشاب كان ينوى حقا قتل الرجل ولكنه عدل فى اللحظة الأخيرة فلا عقاب عليه ولا عقاب إلا على الفعل نفسه

أو على الشروع فيه ولا يكون شروع إلا إذا خاب قصد الجانى بفعل خارج عن إرادته . وكل هذا لم يقع وبعضه لم يقع ، وكان أقصى مايجوز من العقوبة سؤال المتهم عن سبب وجوده فى عربة الوزير وسبب حمله البلطه فلو قال كنت أنوى قتل الوزير ولكنى عدلت عن ذلك فى آخر لحظة فلا عقاب عليه .

غير أن الحكومة كانت خاضعه فى هذا الزمن لسلطان هذا الرجل وحتى القضاء الذى يظن أنه أنزه عناصر الحكم ، ولكن ظهر أنه دائماً وأبداً يتحزب للقوى الحاكم ويخضع للأوامر الصادرة اليه من صاحب السلطة سواء أكانت فى جانب الحق أو الباطل ، فلما قبض على حسن طه أبو زيد ، كان أول صدمة أصابته تبرأ أبيه منه علانية لأن هذا الرجل نجح فى إنتخابات النواب فى ظل حكومة إسماعيل صدقى وإسماعيل صدقى حاميه ومولاه ولعله هو الذى جلب له الرتبة ولقب «البيه» أو «البيك» ، فهو ولى نعْمته أو من أولياء نعمته ولكن خضوع طه أبوزيد الوالد للوزير ودخوله مجلس النواب عن طريقه لم يمنع ولده حسن من الثورة على الظلم ، فكان الأجدر بطه أبو زيد وهو شيخ متقدم فى السن جداً أن يستقيل من النيابة وأن يلزم الصمت لا أن يعلن سخطه على ولده ويعلن براءته منه ثم يذهب فيلقى بوجهه تحت أقدام إسماعيل صدقى راجياً عفوه وصفحه عن انتساب ولده اليه فلم يحفظ كرامته ولا كرامة ولده ولا كرامة جنسه ووطنه مع أنه لم يكن مسئولا عن أعمال ولده ولم يكن صدقى يملك إقالته من المجلس أو طرده أو حرمانه لأنه نائب عن الأمة ، ولكن ما قولك فى الجبن والطمع وضعف الخلق وروح الاستعباد المتمكنة من الوالد ولم تسر الى روح الولد .

ولم يفطن طه أبوزيد إلى أن هذا المسلك منه يعد اعترافاً ضمنياً بجريمة ابنه ، لأنه صدر منه قبل أن ينظر القضاء فى أمره ، فمهد بسلوكه السبيل للظلم ، وقد حكمت المحكمة على حسن طه أبو زيد بالسجن سبع سنوات فرفع نقضاً وهو يعتقد أن محكمة النقض لاتقر هذا الحكم ، وطلب إلى إدارة السجن وهى تابعة لوزارة الداخلية

التى يرأسها خصمه وغريمه إسماعيل صدقى المذكور آنفاً ان يحضر جلسة النقض ، فلم تجبه إدارة السجن الى طلبه مع أن القانون ينص على إجابة طلب المتهم حضور جلسة النقض وأبرمت محكمة النقض الحكم الصادر عليه بالعقوبة ، فلما علم بذلك أضرب عن الطعام بتاتاً وقضى معظم أيام إضرابه فى المستشفى وتوفى إلى رحمة الله بعد اثنين وسبعين يوماً ، فكأنَّ حكم إسماعيل صدقى وقضائه على حسن طه كان حكماً بالإعدام لا حكماً بالسجن ، وذهب هذا الشاب النبيل البرىء ضحية ظلم الأوغاد والأشرار والبغاة وأهل الفسوق ، ولم يحتج أحد ولم يغضب أحد ، ولكن أباه لم يعش بعده إلا بضعة أيام ثم قضى نحبه ولعل السبب الأكبر فى موته ندمه على أنه خذل ابنه وأعان عليه الظالم وبادر الى إعلان ذنبه قبل أن يقول القضاء كلمته ، وكان يمكنه أن يدافع عنه أولاً وأن يبذل جهوده فى الدفاع قبل أن يسلم بجريمة لم يعترف بها المتهم نفسه . وقد ذهب عمر حسن طه وشبابه وتضحيته عبثا فى بلد يعبد الظالمين ويتملق القساة وأهل الفسق ويتواطأ مع عدوه على نفسه ولا يبالى فانظر الفرق بين هذين الرجلين حسن طه أبو زيد النوبى ابن النوبى ذى الحظ القليل من العلم والجاه والمال وذلك الرجل إسماعيل صدقى المصرى الذى ينتمى الى الأعيان وذوى الرتب والألقاب نسباً وحسباً ومصاهرة وجاهاً ومالاً وتعليماً ، فقد ضحى حسن طه بنفسه فى سبيل مايعده حقا وعدلا وهو فى مقتبل العمر ولم يلتمس فائدة من الدنيا بل بذلها وطلقها وتبرأ منها وهانت عليه وهو فى عنفوان الشباب ومقتبل العمر ، وكان غيره بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصب فلم يكن لها همة إلا السمن وانما حتفها فى السمن .

وكذلك فشا لإسماعيل صدقى ولأولاده وأهله وأصهاره هيأة فى لباسهم وأعراسهم ومركباتهم ومنازلهم وطعامهم ليس للمصريين مثلها واتخذ القصور فى المصايف والمشاتى والذهبيات فى النيل والمساكن الأنيقة فى الضياع والأباعد وكانت له أثناء

ذلك قصص ونوادر وتواريخ وأحاجى ، فكان عهده عهد من أدركته عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة ، وما ساق الله به خيراً قط ولا منع به سوءاً قط ، اللهم إلا لنفسه ولذويه وعن نفسه وعنهم ، ولايروى أحد عنه أنه أنصف فى مسألة ولا أقام العدل ولو ساعة من نهار إلا لذى هيبة ومكانة يرجوه أو يخشاه كالملك أو البطريق أو الحاخام أو سفير دولة أجنبية أو وكيل شركة عقارية أو حليل امرأة جميلة أو وسيط فى معاملة مريبة أو دخيل يلتمس نفعاً مؤاتياً مباشراً لقاء نفع مؤاتٍ مباشر ، ومايزال هذا الرجل يتدرج فى مراقى الثراء المادى وينحدر فى مهاوى الفاقة الروحية ويكب على وجهه فى حضيض الانحطاط الخلقى وكذلك يفعل هو وأمثاله .

ولم يمض على وفاة حسن طه أبو زيد إلا بضعة أشهر حتى ظهرت فضائح إسماعيل صدقى ظهوراً مخزياً ، فكانت فضيحة الكورنيش أضخمها ، وفشل الرجل فى مُفاوضة وزير الخارجية الإنجليزية فى جنيف وغضب عليه الملك فؤاد الذى كان يعتقد أنه أقوى سياسى فى مصر ونبذه نبذ النواة وأقصاه فسقط دم حسن طه على رأسه وزلقت فيه قدماه وعزل من السلطة وخلع من منصب الوزارة ولم ينفعه إلا الأموال التى اغتالها وسرقها واغتصبها بالحيل الذميمة ، وقد أقيمت التماثيل والنصب فى مصر لكل من قال كلمة وكان له عون من المشاهير لإحياء ذكراه إلا حسن طه أبو زيد الذى مات مُوتة الشهداء وصدر عليه حكم جائر وصام أكثر من سبعين يوماً وهى أقصى مايتحمل الجسم البشرى فى مقاومة الجوع ، ومات أبوه حزناً عليه وندماً على تفريطه فى حقوق الأبوة والبُنوة ولم يفكر فى إحياء ذكره أحد .

ألا حيا الله الاستطراد وبيّاه فلولا إبراهيم طه أبو زيد ماتذكرت أخاه حسناً أحسن الله اليه ولا ذكرته بهذا الإ سهاب ، غير أننى لم أزعم أننى أرّخت أو دونت وإنما ألفتُ نظر المؤرخين ليتحفزوا لكتابة مايجب أن يكتب عن عهد إسماعيل صدقى من صيف ١٩٣٠ الى شتاء ١٩٣٤ ، ثم النظر فى ملف هذه الدعوى ودعاوى الشروع فى اغتياله كدعوى العامل الذي حاول ذلك فى محطة مصر ولم يسعفه الحظ بالقضاء عليه ولعل حياة أمثال هذا الرجل أشد عذاباً وتنكيلاً له من موته .

ابراهيم المويلحي وولده(*)

منذ بضعة أسابيع توفى إلى رحمة الله المغفور له محمد المويلحى الذى كان فى وقت من الأوقات علماً من أعلام البيان فى مصر .

وقد بادر لفيف من البقية الباقية من أصدقائه إلى الاحتفال بتأبينه بعد موته بقليل ، كما كان شأن المرحوم أحمد تيمور باشا وذلك خشية أن يُنسى أحد الرجلين ويهمل رثاؤه كما حدث فى حالة المرحومين حفنى ناصف بك والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى .

وإن وفاة المرحوم محمد المويلحى أعادت إلى ذهننا ذكرى المرحوم والده إبراهيم بك المويلحى الذى توفى منذ عشرين عاما ولم يحتفل بتأبينه أحد وقد رأيناه فى أواخر أيامه وكان رجلا ظريف العشرة بسيط المظهر ، على جانب وافر من الذكاء وسعة الحيلة .

أسرة المويلحى قديمة وعريقة فى المجد ونذكر من أفرادها المرحوم عبد السلام المويلحى باشا الذى كان وكيلا لمجلس النواب المصرى الأول وله كلمة مشهورة تشبه كلمة ميرابو نشرتها جريدة التيمس وأشار إليها المستر روتستين فى كتابه خراب مصر .

أما إبراهيم بك فكان كاتباً قديراً وسياسياً محنكاً وقد لعب فى عهد المرحوم إسماعيل باشا خديو مصر دوراً مهما وكان فى وقت من الأوقات كاتماً لأسرار

(*) مقال نشر بجريدة البلاغ فى ٢١ يونيه سنة ١٩٣٠ . كما كتب لطفى جمعه مقالا آخر نشر بجريدة البلاغ فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن » تحدث فيه عن هذا الكتاب .

إسماعيل (ص ٢٤٩ من تاريخ الاحتلال تأليف المأسوف عليه ويلفريت سكوين بلنت وقد نشرته جريدة البلاغ بالعربية) .

وسافر الى القسطنطينية واتصل بالسلطان عبد الحميد الثانى وكانت له حوادث وأخبار فى المابين واختبر الحياة السياسية التركية فى أغرب أوقاتها وألف فى ذلك كتاباً ممتعاً صادقاً مفصلا اسمه « ما هنالك » نشرته جريدة المقطم فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأظنه نفذ منذ بضع سنين[1] وهو فى بعض أوصافه قد يصل الى سمو أسلوب ماكيافيلى فى كتاب الأمير .

وقد جاء فى الكتاب على وصف كثيرين من الأشخاص المعروفين لعهده مثل الشيخ أبى الهدى الصيادى والشيخ ظافر اللذين لعبا دوراً مهما فى حياة عبد الحميد وحياة الدولة ، وأمثال عزت العابد وغيره من وزراء العرب والترك الذين دالت دولة آل عثمان على أيديهم .

ويظهر أن المرحوم إبراهيم المويلحى كان مجهزاً بكل الأدوات التى يحتاج اليها العظماء فى حياتهم ، ولكن ميوله الأدبية وعبقريته الفنية حجبته عن الوصول الى ماوصل إليه من هم أقل منه بمراحل ، فإن إبراهيم المويلحى يعد فى نظرنا أعظم كاتب عربى فى عصره ، ولم يبلغ أحد من الكتاب والصحفيين شأوه من حيث براعة الأسلوب ودقة التعبير والخروج بالمعانى من ثياب الألفاظ القديمة بحيث يصحً أن يعتبر أول المجددين ، لأن كتاب ماهنالك لم ينسج أحد من الكتاب قبله فى مصر ولابعده على منواله ، كذلك كان الرجل صحفيا بالفطرة ، فقد أنشأ فى أواخر أيامه جريدة مصباح الشرق وهى أعظم الصحف الأسبوعية وأولاها ، ويعد صاحبها مؤسساً للصحف الأسبوعية فى مصر ، وقد نسج على منواله كثيرون بعده ولم يبلغوا شأوه فقد جمع فى

---

(١) أعيد نشر هذا الكتاب سنة ١٩٨٥ مع تحقيق ودراسة مطولة للأستاذ احمد حسين الطماوى ، عن المركز العربى للإعلام والنشر .

تلك الصحيفة جد الكلام وهزله ، وبلاغة الوصف وحلاوة الأسلوب الفكاهى المبتكر إلى مرارة النقد المؤلم ، ولايوجد فى مصر الآن شيء يشبه ماكان يكتبه المويلحى الكبير فى المصباح ، الذى كان يصدر صباح الخميس وينتظره الكتاب والأدباء بفارغ الصبر، ولاتزال بعض مقالاته ونبذه محفوظة فى الصدور ، وياحبذا لو تفضل أحد أنجاله أو أحفاده بنشر مختارات من المصباح ، ليتعلم كثيرون من المحدثين كيف يكون «التحرير والتحبير» من ذلك الكاتب القديم ، وكان المصباح ينقل أحياناً من الصحف الفرنسية بعض مقالاتها الطريفة ، ويظهر لنا أن المرحوم محمد بك هو الذى كان ينقلها ويعرضها على والده فى بداية أمره لينقحها ويكسوها ثوبها العربى .

وفى هذا الوقت كان كتاب عيسى بن هشام ينشر تباعاً فى المصباح ، وهو كما علم القارىء وصف للحياة المصرية الخليعة فى العشرتين الأخيرتين من القرن التاسع عشر .

وقد أحسن على الشمسى باشا بتقرير هذا الكتاب للمدارس الثانوية ، فقد كان فى ذلك إحياء للمرحوم محمد بك فى أواخر أيامه وكان تجديداً فى تنويع مطالعات الطالب الثانوى الذى تهرأت جفونه فى مطالعة الكلام الغثّ من وضع « خوجات المدارس » الذين نجحوا فى تقرير مؤلفاتهم السخيفة بالدس والحيلة .

طبعاً ستحكم الأجيال الآتية على قيمة هذا الكتاب عندما يأتى الوقت المناسب والرجال القادرون لتدوين تاريخ الأدب المصرى ، فنحن لانتعجل الزمن ولا نسارع إلى الحكم على الأشياء ، غير أننا نتنبأ بأنه سيكون لهذا الكتاب مكانته الصحيحة .

توفى المرحوم إبراهيم بك بعد أن عمر ثمانين عاماً على الأقل ، وقد اتصل بحكام مصر وساستها . كما اتصل بحكام إسلامبول وساستها . وكان متقناً لفنون الحياة الشرقية ، ولكن مصر بلد العجائب فهى تنسى الرجال بمضى المدة ، واذا انقضى على الرجل خمس سنين غائباً أو مريضاً أو ساكناً أو قانعاً أو معرضاً عن

الظهور فقد « راحت عليه » فى مصر ونسيه الكبار والصغار ، بل نسيه أصدقاؤه الحميمون ، وإننى أخشى أن أقول إن أهله الذين يعيشون معه ليل نهار قد ينسونه أيضاً . وليس قصور الذاكرة فى مصر مقصوراً على الرجال ، بل هو يمتد إلى الحوادث ... والمصرى ينساها أيضاً وبسرعة مدهشة جداً ، فكانت نتيجة ذلك ضياع الرجال وفقد الموعظة .

لقد انزوى المرحوم إبراهيم بك قليلا فى أواخر أيامه وكف عن العمل فأعرض الناس عنه ونسوه وكان واجباً عليهم أن يمجدوه ويجعلوه رئيساً للكتاب ومرجعا للأدباء كما يفعل الأوربيون .

وقد كان إبراهيم المويلحى شيخ الكتاب ومقدمهم وباقعتهم وداهيتهم ومنشىء حرفتهم فى العصر الحديث ، ومع ذلك فلم يأبه له أحد ، وهو فى كسر داره ... يريد المصريون أن تكون حياة الرجال العظماء كشرائط الصور المتحركة ، معروضة أبداً عليهم صارخة صاخبة ، لأن النطق وحده لايكفى ، أما الكرامة ، أما الشيخوخة ، أما القناعة ، أما الابتعاد عن مواطن الذلة والمهانة ، فهذه ذنوب لايغفرها الجمهور المصرى الذى لايعرف رجلا إلا إذا كان دائما معروضاً وراء « فترينه الشهرة » اليومية .

وهذه الحالة مشاهده للأسف فى الحياة الأدبية والحياة السياسية والاجتماعية والعلمية بل فى كل ناحيات الحياة القومية .. ولدينا فى أمثال العوام التى هى أمثالنا: « الغايب مالوش نايب » و « البعيد عن العين بعيد عن القلب » .. دع عنك أمثال عدم الاكتراث بالغير ، كقولهم « أردب ماهولك ... إلخ » .

وقد وقع المرحومان إبراهيم المويلحى وولده محمد بك تحت أحكام هذا القانون الجائر ، فمات إبراهيم بك فى هدوء وسكون ، وحتى حفلات التأبين التى كانت تقام لبعض الناس الذين لم يذكروا فى حياتهم ، لم تقم له مثلها حفلة .

ويظهر أن المرحوم محمد بك قد ورث عن أبيه التبرم بالحياة والإعراض عنها، فقد كان حيناً موظفاً بديوان الأوقاف ثم ذهب إلى المعاش وهو من قبل ذلك بعشرات السنين لم يحرك ساكناً ولم يكتب سطراً في مجلة أو صحيفة ، ويظهر أنه كسر يراعته بعد وفاة أبيه أو بعد انطفاء مصباح الشرق .

عرفت المرحوم فرأيت فيه رجلاً هادئاً متألما صبوراً ، لطيف العشرة لايدل حديثه على أنه من كبار الكتاب ، ولعل انقطاعه عن المطالعة والدرس في العشرين سنة الأخيرة ذهبت بكثير من مواهب الشباب ، وكان كثير التأنق في ثيابه وطعامه وشرابه وحديثه ، كأنه يريد أن يقضي الحياة على طريقة خاصة به .

كان قصير القامة أسمر اللون مستطيل الوجه ، لاتدل سحنته على شيء من الذكاء بعكس المرحوم والده الذي كان يشبه شارلس ديكنز الكاتب الإنجليزي ، وكان محمد بك يشبه بعض أعراب البادية ولعله احتفظ بالسحنة العربية الصحيحة المتسلسلة من أعراب البيداء ، فهو وأسرته ينتمون إلى مويلح وهي إحدى واحات سينا، فلم يكونوا مصريين إلا بطول الاقامة في مدينة القاهرة ، ولكنهم بلا ريب من عنصر شريف ولعل آباءهم كانوا زعماء قبيلتهم ، وهذه الوراثة العربية هي التي حمت محمد بك من كثير من الصغائر والدنايا التي تلصق ببعض الأدباء في بعض البيئات الشرقية عامة والمصرية خاصة . وقد قرأت له خطاباً كتبه بخطه يتألم فيه أشد الألم من إحتفاء جماعة منا بأحد الأدباء الشرقيين(١) ، وينعى على المصريين احتفاءهم بالغرباء ونسيانهم أبناء وطنهم ، وكان لهذا الخطاب صدى في إحدى المجلات الأسبوعية ، فقابلته عقيب ذلك وكان لي معه حديث طويل لا محل لذكره الآن ، غير

---

(١) هو الكاتب اللبناني أمين الريحاني الذي احتفى به الأدباء المصريون ومنهم لطفي جمعه عند قدومه الى مصر سنة ١٩٢٢ .

أننى أقول إن الرجل كان واقفاً على حقائق الأمور ودقائقها ولم يكن يرى شيئاً أفضل ولا أشد حفظاً للكرامة من الانقطاع والعزلة .. لأن أبسط احتكاك بالناس لمن كان شديد الإحساس مثله كان يسبب له أكداراً لاتنتهى ، وكأن لسان حاله كان يقول «مات الذين يعاش فى أكنافهم» ..

ولعل الشعر الذى قيل فيه يعد مصدراً صحيحاً لمعرفة أخلاقه ووصف حاله ، لأن الناظمين وهما شوقى وحافظ كانا من عشرائه وأصدقائه ، ولأنه لم يكن من أرباب الجاه الذين تنظم القصائد المكذوبة فى رثائهم احتفاظاً بمودة خلفائهم من الأحياء .

فقد أقر شوقى أن فوز المويلحى فى عالم الأدب لم يكن إلا لحين « استخف العقول حيناً يراعه » .

ثم انتقل لوصف أخلاقه فشبهه بالأسد فى الكبْر حتى الجوع ، وقال إنه صارع العيش وقهر الحياة بمهجة حرة وخلق أبىّ ووصف وحدته وعزلته وزهده بقوله :

ياو وحيدا كأمس فى كسر بيت
ضيق بالنزيل رحب ذراعه
كل بيت تحله يستوى عنـ
ـدك فى الزهد ضيقه واتساعه

وقد كان حافظ إبراهيم بك أقرب الى الحقيقة من شوقى بك فى نقط كثيرة ، فقد وصف مشهد الجنازة وقلة السائرين فيه :

لم يجاوز منازل البدر عداً
من بقايا الصديق والأحباب
لم يسر فيه من يحاول أجراً
عند حى مؤمل أو يحابى

وقال فى وصف أخلاقه :

كنت نعم الصبور إن حزب الأمـ
ـر وسدّت مسارح الأسبـاب
كم تجمّلـت والأمانـىّ صرعـى
وتماسكت والحظـوظ كوابـى
عشت ماعشت كالجبال الرواسى
فوق نار تذيب صمُّ الصـلاب
مؤثر البؤس والشقاء على الشكـ
ـوى وإن عضك الزمان بناب

لقد رأى الشاعران من أصدقاء المتوفى ناحية واحدة من أخلاقه وهى ناحية الصبر على الفقر والظهور بمظهر الغنى فى حالة الشقاء والبؤس ، وهذا فى نظر شعراء العرب عظمى الفضائل ، لأن الشاعر بفطرته لايستطيع الصبر ولايدركه ، وهو بطبيعة فطرته سريع إلى تحقيق آماله ورغباته ، فهو يدهش إذ يرى رجلا يستهين بهذا الجانب من الحياة .

ولكن رجلاً كأحمد حافظ عوض عرك الدهر وعرف الرجال وذاق مر الشدائد وحلاوة الرخاء يرى جوانب أخرى من حياة المويلحى ، فهو يرى كل شىء فيها غريباً مدهشباً ، ويعتقد أن حياة غريبة كحياة الكاتب البليغ الفيلسوف (!؟) محمد المويلحى جديرة بكتاب تاريخى وتحليل نفسى بسيكولوجى ، ويرى أن حياة المويلحى فصل من فصول كتاب عنوانه وموضوعه فسلفة الحياة لأن محمد المويلحى خبر الدنيا وعالجها من طرفها الأعلى إلى طرفها الأدنى فما اغتر وهو فى أعلى السلم ولا تكدّر وهو فى أسفله .

وقد اضطر حافظ إلى الاعتراف بأن حياة المويلحى وخلقه خرجا عن القياس العادى فما رأى فى حياته وما قرأ فى كتب الثقات فى تحليل الأخلاق أن رجلا جمع بين فلسفتى الاستخفاف بالدنيا وحب الاستمتاع بالحياة كما جمعها محمد المويلحى فى فلسفته ، وقد مشى فى طريق الحياة هادئا على مهل بمحض ارادته مؤثراً ذلك السير الهادىء على العدو السريع إتباعاً لفسلفة اختارها لنفسه .

وقد يستخلص من كل ماتقدم أن محمد المويلحى كان رجلاً متبرماً بالحياة والناس (ميزانتروب) كذلك النبيل الأديب الفرنسى الذى وصفه موليير فى روايته الشعرية التى تحمل هذا الاسم ، وأنه كان أبيقورياً فى حب الحياة والتلذذ بألفاظها ومعانيها وإن يكن ديموقراطى الأصل والنشأة إلا أنه ارستوقراطى النزعة من تلك النفوس التى تعتزّ بمواهبها والتى تستخف بالحياة من حيث المظاهر لأنها ترى أنفسها غنية بعلمها ويقينها عن حب الظهور ومايتبع ذلك من قشور وغرور .

هذا ما أردت الإشارة إليه فى تلك العجالة الوجيزة ولعلنا نعود الى آثار المرحوم الأدبية فنفيها حقها من البحث والتحليل .

أحمد ابراهيم

أحد أساتذة الشريعة الاسلامية ، بكلية الحقوق ، عالم فاضل على خلق كريم وعلم واسع وأدب نفسى جم . له مؤلفات حسنة وكانت دروسه تضارع دروس المرحوم الشيخ زيد الإبيانى وكتبه لاتقل عن كتبه ، فهو أستاذ من الطبقة الأولى . وكان يجلس فى مقاهى باب الخلق ويتسلى بلعبة النرد والشطرنج فى أوقات فراغه وكان لى عوناً فى ردى على منصور فهمى فى سنة ١٩١٣ عندما نشر كتابه الذى عاب فيه فى حق الرسول واستكتب بعض المستشرقين واستعداهم على الاسلام فى كتاب « المرأة المسلمة » واتخذه وسيلة للنيل من الرسول عليه الصلاة والسلام وأمهات المسلمين ، وكان أساتذة منصور قد استدرجوه الى هولاندا بعد أن لقنه ليفى برول ما لقنه وعاد بكتابه مطبوعاً وهو لايعرف مافيه لأنه لم يكتبه وإن يكن أقر فى مقدمته أنه يعلم أنه سيغضب بنشره أهله وأقاربه وأصدقاء ه ولكن الحق عنده أولى بالاتباع من مجاملة الأهل الى آخر مادسه من القول والهراء وندم عليه وتاب وأناب واستغفر وتبرأ مما وصفه بهفوة الشباب .

كان الشيخ أحمد إبراهيم يدلنى على بعض المراجع النافعة كطبقات ابن سعد الكبرى وبعض كتب الحديث فأجد فيها مقاصدى . وهو لم يقرأ الكتاب لأنه بالفرنسية ولكننى كنت أناقشه فى المسائل المحتاجة الى الرد وأصور له طريقة الرد ، فيدلنى على المراجع فأهديت إليه كتبى المطبوعة وأهدى الىّ مؤلفاته وهو رجل هادىء الطبع أشبه الناس بابن رشد إن كانت الصورة التى رأيتها لفيلسوف قرطبة صادقة الشبه بصاحبها جالساً فى المسجد الكبير .

احمد أبو الفتح

مدرس الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق يبلغ عمره خمسة وسبعين عاما وهو الآن عضو فى مجلس النواب وإن يكن ابنه محمود أبو الفتح عضواً فى مجلس الشيوخ ٠

لم أعرفه فى مدرسة الحقوق الخديوية عندما كنت طالباً بها لبضعة أشهر فى سنة ١٩٠٧ ، وكان من أساتذتها غيره الشيخ محمد زيد الإبيانى والشيخ سلامه والشيخ عبد الحكم ، وله مؤلف حسن فى المعاملات الشرعية من جزئين مرتب على الطريقة الحديثة طبعة سنة ١٩١٣ ٠ وأول ما رأيته كان فى مكتبى سنة ١٩١٣ عندما اتهم ابنه محمود أبو الفتح (الآن صاحب جريدة المصرى الناطقة بلسان الوفد المصرى وعضو مجلس الشيوخ فى عهد الوزارة النحاسية الخامسة أو السادسة) ٠ فجاء الشيخ ومعه صهره مرسى بك (؟) أحد رجال الجيش المحالين على المعاش وهو والد قرينة الشيخ الثانية ، وطلب الىّ أن أتولى الدفاع عن ولده وكان متهماً معه محمد زكى الجيزاوى (الآن الدكتور البيطرى زكى الجيزاوى وابن أخت المرحوم محمود بك المرجوشى المستشار فى محكمة النقض والإبرام) فى اختلاس دفتر شيكات وتزوير بعضها بمبالغ لاغتيال أموال المدعو أحمد مختار ممتاز ، وكان الوالد منكوباً وقد نسب إليه إهمال تربية ولديه محمود وحسين اليتيمين من أمهما ٠ واتخذوا زواجه الثانى علة لهذا الإهمال ، ولم أدخل فى تفصيل هذه المسألة وقد أحضر لى الشيخ بعض الفضلاء ليوصينى منهم المرحوم شراره باشا مدير إحدى المديريات ووالد وكيل الخارجية الآن وآخر اسمه أحمد شافعى بك من أعيان ميت غمر ٠ وكان محمود أثناء

القضية ملهوفاً مشدوهاً ولايوجد فى بيت أبيه من يعطف عليه غير أخيه حسين الأصفر منه .

ولما انتهت القضية انتقل ابنه محمود للاسكندرية وعاد إلىّ الرجل الفاضل للدفاع عنه فى تهمة جديدة وهى إحراز سلاح بدون رخصة (مسدس عاطل) فتوليت الدفاع ، ولم يقطع الرجل مودته عنى وقد عمّر ورزق من زوجته الجديدة أبناء وبنات وعاش حتى رأى ابنه بعد ثلاثين عاما من تاريخ القضية ناجحاً مشهوراً يملك جريدة كبيرة ومطبعة كبيرة وثروة كبيرة ونقيباً للصحافة المصرية وعضواً فى مجلس النواب والشيوخ ومرشحاً للوزارة ترشيحاً جدياً (ربيع سنة ١٩٤٢) ، فلم نر تكفيراً عن هفوة كتكفير محمود أبو الفتح الذى كان فى سنة ١٩١٣ متهماً باختلاس وتزوير (وقد استرد اعتباره من الحكم الذى أصابه) سرياً وغنياً ونقيباً ومرشحاً للوزارة فى سنة ١٩٤٢. وكان والده يمد له يد المعونة على قدر طاقته فأعانه أثناء إقامته بالأسكندرية التى هاجر اليها ليبعد عن أقران السوء وليصلح سمعته وأثناء رحلته فى سنة ١٩١٩ الى مؤتمر الصلح بباريس فى صحبة الوفد المصرى ، ومازال يتعهده حتى التحق بجريدة الأهرام بعد فشله فى مشروع جريدة يومية (الجمهور) .

من الأعيان الذين ساقهم الشيخ أحمد أبو الفتح الىّ للتوصية بابنه الشيخ أحمد إبراهيم بك أستاذ الشريعة بكلية الحقوق وكان هذا سبب الصداقة بين هذا العالم الفاضل وبينى ، وقد رد الابن جميل والده فجعله بفضل النحاس باشا عضوا فى مجلس النواب وعضوا فى الهيأة الوفدية مع أن الرجل لم يسبق له اشتغال بالسياسة فكان هذا الوفاء من الولد لأبيه جميلاً حقاً وقد حظيت بهما الأمة وعمرت بصوتيهما المجالس النيابيه وهكذا الرجال وإلا فلا !.

احمد زكى ابو شادى

أحمد زكى أبو شادى شاعر وناثر ومؤسس جماعة « أبوللو » وصاحب مدرسة جديدة فى الشعر والأدب ، عرفته سنة ١٩٠٥ عندما تعرفت بوالده محمد أبو شادى أحد كبار أصدقائى فى الصحافة والمحاماة والوطنية وصاحب جريدة « الظاهر » .

ولد أحمد زكى أبو شادى لسيدة جركسية هى شقيقة أحمد نجيب والد سليمان نجيب الأديب والممثل المسرحى المعروف ، أرسله والده بعد وفاة والدته الى اصطامبول ثم الى لندن ليتم دراسة الطب فأتمها وعاد الى مصر سنة ١٩٢٤ متأهلا بزوجة انجليزية . وقد طالت إقامته فى عاصمة الانجليز وأتقن فنونا كثيرة منها أعمال المعامل الكيماوية كما أتقن الأدب الإنجليزى حتى إنه يكتب فيه النثر والشعر ، كما أتقن النحالة وأسس فنها فى مصر وأنشأ مجلة لخدمة هذا الفن وكان رئيس نادى النحالة فى لندن . كما أتقن تربية الدواجن ونشر بضع مجلات فى وقت واحد . فكان دائب الحركة يتمشى مع سرعة آلات الطباعه بنشاطه وفكره ومشاعره فى سبيل فكرته وإعداد مجلاته ومراجعة أصولها والإشراف على إخراجها وإبراز آثاره الشعرية .

كان أحمد زكى أبوشادى طويل القامة أبيض اللون معتدل الوزن أقرب الى الطفولة والبساطة فى الحديث ، ولايفهم النكتة ولايقولها ولا يدخن ولا يشرب الخمر ولا يسهر خارج منزله وله أسرة حسنة ، يبر أهله وأقاربه وأصدقاءه الجدد حتى اذا ما طال عليهم القدم تخلى عنهم وقال إنه كان مخدوعا فيهم ، وفيما عدا ذلك فهو رجل ظريف مؤدب حسن العشرة كريم الخلق يلتف حوله الناس ويعجبون به ولكنه ليس عميق الصداقة .

وكان فوق هذا كله شاعراً مكثارا ومؤلفا تمثيليا وكاتبا سيال القلم ، فانشأ

جماعة أبوللو وجعل لها مجلة باسمها وأنفق عليها من ماله ولمَّ فيها شعث الشعراء البادئين وأظهر فريقا منهم أمثال صالح جودت وعلى محمود طه وأبى القاسم الشابى شاعر الشباب التونسى والمنجورى ومختار الوكيل والآنسة جميلة العلايلى وحسن كامل الصيرفى ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ورمزى مفتاح وغيرهم .

وقد أعان بيرم التونسى فى غربته ونشر أشعاره فى مجلة « الإمام » على الرغم من غضب القصر على بيرم ، كما أعان إسماعيل أدهم الأديب الذى توفى منتحراً سنة ١٩٢٩ بعد أن ضاق ذرعه بالناس والحياة .

كان أدبه سبب اضطهاده فى وزارة الصحة ولكن حكومة الوفد كانت تحميه بسبب علاقة والده بالمرحوم سعد زغلول الذى عينه فى مجلس النواب ورأس الاحتفال بتأبينه فى دار الأوبرا سنة ١٩٢٤ .

وترجع حالة أحمد زكى أبو شادى الى جملة عوامل أولها تيتمه المبكر من والدته وقسوة امرأة أبيه وخيبة أمله فى امرأة خطبها وأخذت منه اغتصاباً فأرغم على مفارقة البلاد فكانت له فى الغربة وحدة ووحشة كالتى كان يعانيها فى وطنه . فنبت فى نفسه سوء الظن بالناس واستشعر انطباعهم على الغدر . وشدة حساسيته وعدم تحمله الضيم الصحيح أو المتوهَّم من صديق .

كان يتخذ بعض الناس لقضاء مآربه الشريفة ولكنه يسأمهم بعد حين وينتظر منهم عرفان الجميل العميق .

وقد حدث مع المدعو « البطاح » أحد صغار الكتاب بالأسكندرية أن أذاع عن الدكتور أحمد أنه ملحد وأنه أباحى واستشهد ببعض كتاباته فى ابوللو وإنكاره النبوة وقوله بنبوة تولستوى وفرويد ..... إلخ . فلما أذاع عنه البطاح هذه الدعاوى أخذته وزارة الصحة واتهمته بالاشتغال بالسفاسف ونهته عن التهتك فى الشعر وفيما لايعنيه غير وظيفته . فكف أبو شادى وطلق اللغة العربية وبدأ ينشر كتباً باللغة الانجليزية

منها كتابه المسمى « عفو الخاطر » .

وكان للدكتور أبو شادى خلافات مع كامل كيلانى ومنازعات وخصومات حامية فاستعمل له كيلانى أشخاصا مثل محمد مصطفى حمام فكتبوا عنه أمورا تشيب لها الأطفال فى مجلات هزلية كالمطرقة والبعكوكة فشكاهم أبو شادى الى النيابة ووسط بعض الفضلاء فرجوهم فى الكف عن مخاصمته فى الصاعقة ومجلة الاسلام التى كان يصدرها أمين عبد الرحمن وأقاموا الدنيا عليه ولم يقعدوها ، وقارنوا بينه وبين المرحوم والده الذى كان مغرقا فى التدين وشيخ الطريقة القاوقجية النقشبندية .

ويرجع الخلاف بينه وبين كامل كيلانى الى منافستهما على رآسة « رابطة الأدب العربى » .

وللدكتور أبو شادى أكثر من ثلاثين ديوانا من الشعر وقد أنفق مالا طائلا على غير طائل فى طبع ونشر شعره وآثاره ، وهو مكثر جدا ، وقد سئل فى ذلك مرة فقال : افرضوا أننى نظمت ألف ألف بيت من الشعر ، ألا يبقى لى على وجه الدهر خالدا بيت شعر واحد ؟ .. قيل له : ربما قال : هذا يكفينى !!

ولعل كثيرين لايعلمون شيئاً عن محنة زكى أبو شادى وأسبابها ، وقد حاول البعض أن يستشف أسباب تلك المحنة وارتاب فى حقيقتها حتى انتهى الى أنها قصة مشكوك فيها ، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها أن أبا شادى عاش محنة حقيقية قاسية تكشف عنها وعن تفاصيلها بكل وضوح رسائله العديدة إلىَّ ومذكراته التى رفعها الى المسئولين فى الحكومة حينذاك[1] . فهذه الرسائل وتلك المذكرات تلقى أضواء كثيرة على ما أصابه من اضطهاد بسبب أفكاره وآرائه .

---

(١) للوقوف على نصوص هذه الرسائل والمذكرات راجع كتاب « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام » تأليف رابح لطفى جمعه ، سنة ١٩٩١ ، ص ٤٠٤ - ص ٤٢٢ .

كتب إليّ في إحدى رسائله يقول « ومن حيث إنني لا أستطيع كبت تفكيري والحجر على عواطفي فحسبي أن الجأ في المستقبل نثراً وشعراً الى اللغة الانجليزية ، ومادمت أستطيع أن أعالجها كما أعالج لغتي الوطنية ومادمت أجد من أهلها أضعاف التقدير الذي أجده من أبناء وطني دون أن تنالني منهم إساءة .

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٦ قابلت شخصا تكلم معي مّن تلقاء نفسه عن زكي أبوشادي وقضيته فقال لي : إن العمل الذي عمله في شعره ونثره والالحاد ... إلخ ، هو مقصود ولم يجيء اعتباطا فهو وجد أن كل جهوده السابقة لم تثمر ولم تلفت الأنظار اليه فصنع هذا الكتاب « أدبي » ليلفت الأنظار اليه ، لأنه رأى أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تشهر الشخص ، وهذا ماحصل لطه حسين وزكي مبارك وغيرهما ، فعمد الى هذه الطريقة وهو يعمل ذلك شاعراً به قاصدا اليه وهو يقول في كتاب « أدبي » ما فرطنا في الكتاب من شيء !! ، ويقول إنه هدم كل شيء حتى الرتب والنياشين طلب إبطالها ولهذا فهو يجمع الكفريات من كل الكتب ليؤيد بها نظرته حتى الطعن في الآله الذي يظنه في شعر المعري ولاسيما اللزوميات ويقول إن مقاله عن فرويد هي أفكاره الشخصية وليست أفكار فرويد .

أحمد شوقي

قال كاتب يصف شوقي في شيخوخته(*) :

« حدثنا شوقي يومئذ أحاديث كثيرة وقد لاحظت أن ابتسامته كانت حلوة الى حد الفتنة حتى ليذهل اللب حين يتمثل المرء ماكانت عليه تلك الابتسامة فى نضارة الشباب » .

ومن يرد أن يتمثل ماكان عليه شوقي وابتسامته فى نضارة الشباب فليتأمل صورته التى تمثله متلفعاً بقباء الطلاب وعلى رأسه قبعتهم الصغيرة السوداء ، فقد كان ذلك الثوب وتلك القلنسوة دليلا على حياة الطالب فى باريس اذا التحق بإحدى كليات الجامعة وسكن فى حى الطلاب والعلماء وأرباب الفنون « كارتييه لاتان » .

هذه الصورة هى المظهر الخارجى الوحيد الذى عاد به شوقى من فرنسا بعد دراسة الحقوق . ولكن ما اختفى فى نفسه من الميول والعواطف وتوجيه النفس وما طرأ على فكره من التحول والتغير كان أعظم بكثير من دلالة الرداء والقبعة على شخصية الطالب المصرى الذى غادر مصر قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين عاما ليدرس الحقوق .

ومن الغريب أن كل شاب فى الشرق والغرب يتوسم فى نفسه ميلا للأدب يبادر الى درس الحقوق ظنا منه أن بين القانون وفنون النثر والشعر رابطة نسب . ومايزال هذا الظن متمكنا من نفسه حتى يشارف على نهاية دراسته فيرى بعين الأسف أن علم الحقوق والأدب إن لم يتناقضا فهيهات أن يخضعا لإرادة واحدة أو يسيرا فى حياة الرجل المعذب بالجمع بينهما على نسق واحد أو وتيرة واحدة . لأنه من لزوم رجل

(*) محاضرة ألقاها لطفى جمعه فى دار الأوبرا يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وقد نشرت بجريدة البلاغ يومى ٥ ، ٨ ديسمبر سنة ١٩٣٢ تحت عنوانين الأول « أحمد شوقى والأدب المسرحى » ، والثانى « أثر الشعر الأوربى فى نظم شوقى » .

القانون أن يكون بليغا وأن يكون ملما بالأدب والتاريخ وعلم النفس والاجتماع . ولكن الأديب ليس فى حاجة الى القانون .

وقد كان أحمد شوقى أديبا بأصله ومولده ونشأته وتكوينه وخلقه وعواطفه وميوله وجميع عناصر استعداده . ولكن أنظمة الحياة الشرقية ضحت بوجوب تنمية كل مواهبه الأدبية والروحية فى سبيل الحصول على شهادة فنية تكفل العمل الرسمى وتضمن الرزق وتجعل الأدب ضيفاً يحل فى رحب الوظيفة . وفى الحق أن الأدب والشعر والفنون وحب الجمال والافتتان بصناعات البلاغة كانت عند شوقى الكل فى الكل وكانت علاقة شوقى بالقانون كعلاقة الشاب الذى يتزوج من سيدة لايحبها ولكن حياءه يوجب عليه أن يجاملها فى حين أن قلبه مشغول بسواها . وهذه هفوة للدهر لاتغتفر ، لأن شوقى لو قضى شبابه فى درس الفنون التى تلائم عبقريته فلا يعلم إلا الله مدى ماكان يصل اليه بالشعر العربى والأدب المصرى الحديث . لأن شوقى لم يعط الأدب واللغة العربية كل ماكان مستعداً لإعطائه ومثله كمثل المنجم الذي لم يستخرج كل ذهبه ، بل إن ناحيات من ذلك المنجم بقيت طول حياته بكرا لم تمسسها يد فذهب وبعضه إن لم يكن معظمه مجهول لنفسه ولمعاصريه . ربما كان أفضل شعر شوقى لم يقله شوقى لأنه كان يتطلب جهوداً لم يستطع بذلها وعاقته عن محاولتها موانع عرضت له فى شبابه ورجولته .

ومن العجب العاجب أن هذا الرجل الذى أرغم على درس القانون إرغاما وأهملت مواهب الأدب فيه إلا بقدر ماتطلعت اليه نفسه فبذل من الجهد الشخصى ما أظهر حكمة الطبيعة فيه هو الرجل الذى انتخبته العناية ليكون لسان مصر الناطق، فمنحته مالم تمنح سواه وشدت أزره بما لم يتهيأ لغيره وخلعت عليه من الاقتدار والاستطاعة ووسائل السيادة ولوازمها مايكفى شعبا فى ظهور عبقريته الشعرية ومايجعل أحمد شوقى خليفه بنتاؤر والمتنبى والشريف الرضى والبحترى والمعرى وأبى

تمام وابن الرومى وقد أراد أن يكون فى شعره من روح هيجو وموسيه وفيرلين وبودلير وفينى ولامارتين .

وفى أواخر أيامه أراد أن يشابه ايشيل وسوفوكليس وأوريبيد واريستوفان لأنه فى السنتين الأخيرتين من عمره تقدم الى نظم القصة التمثيلية ، فأتم منها ست قطع أقربها إلى الكمال مجنون ليلى وأصدقها فى الوصف كلوباتره ولم يقنع شوقى بهذا كله بل تراه احيانا ينظم المواعظ والأمثال على خطة لافونتين .

سافر شوقى الى فرنسا وعاش فى باريس فى عصر هيجو وفيرلين وموسيه ، وعاش فى ظلال السوربون والضفة اليسرى لنهر السين وهو الذى رأى فيرلين جالسا بقهوة فاشيت غارقا فى بحار تأملاته وبحار أخرى من بنت الكروم يمر به ثلاث عشر ألف طالب من جامعة باريس ومدارسها العليا لدى انصرافهم فيحيونه فرداً فرداً وهو لاه عن تحياتهم بما هو فيه من ذهول العبقرية التى توشك أن تودع الدنيا .

وكان شعر هيجو وأدبه وديوان الفرد ديموسيه القديم والجديد بين أيدى الشباب والشيوخ وشعراء الديكادنس والپارناس ينظمون شعرهم وشوقى يعاصرهم ويرقب حياتهم عن كثب . وكانت المطابع فى مصر تنشر دواوين الشعراء المتقدمين والمحدثين ولا سيما المصريين منهم أمثال البهاء زهير وابن نباته وابن مطروح والساعاتى وهو أول النهضة والبارودى ، كأن الطبيعة أعطت شوقى كل مايحتاج إليه العبقرى فى الوقت المناسب ، فنشرت له صحائف الشعر بكل اللغات ولم تفرط فى وقته الثمين علماً سابقاً منها بعظم الواجب الذى ندبته اليه العناية العليا .

ترى شوقى وقد حل أرض فرنسا فى عهد نهضة وطنية فى سبيل الانتقام بعد حرب السبعين وفى عهد الانحلال الأدبى وهو عهد ديكادنس وفيه بودلير وفيرلين وعهد تجديد فنى يظهر مذهب كتاب الطبيعه والحقيقة « ناتورالست » و « رياليست » أمثال

زولا وفلوبير وموباسان . وقد تأثر شوقى بالنهضة الوطنية لأن وطنه كان حديث العهد بحال تشبه حال فرنسا . وكان شعراء فرنسا فى تلك الفترة وطنيين ، لذا ترى تلك النزعة ظاهرة فى شعره ، كما ظهرت فى شعره حاسة الأسف على مافرط من الجيل السابق فتراه يقول للشباب منذ عشرين عاما :

هل يمد الله لى العيش عسى … أن أراكم فى الفريق السعداء

وإن أسأنا لكم أو لم نسىء … نحن هلكى فلكم طول البقاء

واحكموا الدنيا بسلطان فما … خلقت نضرتها للضعفاء

وتراه متحرقا ينظم الحقائق التى يلمسها ويعتقد انها سبب فى حالة وطنه :

وطنى أسفت عليك فى عيد الملا … وبكيت من وجد ومن إشفاق

لا عيد لى حتى أراك بأمة … شماء راوية من الأخلاق

أيظل بعضهم لبعض خاذلا … ويقال شعب فى الحضارة راق

واذا أراد الله إشقاء القرى … جعل الهداة بها دعاة شقاق

وهذه الأبيات الأربعة نقلها الى الفرنسوية المرحوم عثمان غالب باشا ونشرتها جريدة الطان .

كانت مواهب شوقى طليقة غير مقيدة وأفكاره فى القصيدة الواحدة قد تتناقض ، وقد تختلف المقاصد كما كانت مواهب شعراء العهد الذى عاش فيه وكما كان اختلاف مقاصدهم ، ففى هذه القصيدة نفسها التى تصف ناحية من أخلاق أهل مصر فى أواخر الجيل الماضى تراه يقول فى مطلعها :

رمضان ولى هاتها ياساقى … مشتاقة تسعى الى مشتاق

وهذا الذى يتشوق الى بنت الكروم تراه يلتمس الغفران ويطمع فى عفو الله :

الله غفار الذنوب جميعها … إن كان ثم من الذنوب بواق

وهذا الخيام الحديث يبدو لك خبيرا بمحاسن الغيد وقد كشف عن أوجه الشبه

بينهن وبين الخمر :

حمراء أو صفـراء إن كريمهـا كالغيد كـل مليحـة بمـذاق

وليس هذا الإعجاب بالخمر والتدليل على أنواع الملاح سوى وسيلة ماكرة لوصف حال نفسه وشكوى الدهر من فساد الأخلاق وهو يخاطب الساقى :

لا تسقنـى الا دهـاقـا إننـى أسقى بكأس فى الهموم دهاق

فلعل سلطان المدامة مخرجـى من عالم لم يحـو غيـر نفـاق

ولم يكن شعر بودلير فى ديوان « أزهار الشر » وشعر فيرلين وارتور ريمبو سوى ترديد لهذه المعانى عن الهموم والخمور والملاح ووصف الأوساط البورجوازيه بالنفاق والخداع وانحطاط الأخلاق بتحوير طفيف أفادوه من الرمزية « سمبولزم » .

كان شوقى ذا شخصيات متعددة أهمها تلك الشخصية التى كونتها عيشته الأوربية ، وكان مستعدا لها بأصله وميراثه فقد اجتمع له فى وراثته عنصر عربى وعنصر تركى وعنصر يونانى وعنصر شركسى وجاء هو مصريا فهو أسيوى إفريقى أوروبى ، وصادفت بعثته العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وكان ماكس نورداو المفكر اليهودى النمساوى قد وضع كتابه (Entartung) الذى نقل الى الفرنسية باسم (Degenerescence) وشرح فيه نظرية علمية مؤداها وصول المدنية الأوروبية الى المرحلة الأخيرة التى يصحبها الانحلال ويتلوها الهدم والفناء . وسبب هذا الانحلال تطرف فى الحضارة أورثها الاضمحلال والضعف فى الأبدان والاضطراب فى العقول ، وكان أظهر أعراض هذا الاضمحلال الضجر وعدم الاتزان وقلة اكترات الجيل المعاصر لنورداو بما خلفته الأجيال السالفة من المبادىء والفضائل وأصول الحياة وتعاليم الاجتماع وقواعد الأخلاق التقليدية .

ولما كان الأدب المنثور والمنظوم مرآة لحالة الأمم التى تنتجه ، فلا ريب فى أن

مرآة ذلك العهد كانت تعكس صوراً من الفوضى العقلية التى تمثل آمال ذلك العهد ومطامح بنيه ، ففى فرنسا ظهر كتاب الطبيعة ويمثلهم زولا وجونكير وموباسان وهويسمان والرمزيون (Symbolistes) ويمثلهم رامبو وفيرلين وبودلير وبانفيل .

وفى انجلترا نفسها قامت حركة « أنصار روفائيل » وهم رسكين وروسيتى وولتر باتر وأوسكار وايلد وجورج مور وهم أصحاب المدرسة « الأيستتيك » أو « عشاق الجمال » ، ولم تنج المانيا من ذلك الوباء الجارف بعد أن لاح فى جوها العقلى شوبنهور ونيتشه وايبسن وڤاجنر وهينه . هذا هو شفق الآلهة الذى يسبق غروب الشمس وانغماس الغرب فى ظلمات الفناء الأبدى . وهذا هو الطالع الذى تكهن به نورداو وربما كان مبالغاً ولكنه كان معذوراً فى تقديره ، فمن يقرأ ديوان تيوفيل جوتييه وشعر بودلير وأدب سوينبرن وستيفان جورج وشعر اوسكار وايلد وصورة دوريان جراى وقصيدة رولا لموسييه ولياليه وكتابه الى لامارتين يرى فى ذلك كله دلائل ظاهرة على صدق تلك النبوءة .

وكيف كان لشاعر شاب مثل شوقى أن يعيش فى هذا الوسط ويعاصر هؤلاء النابغين ويحيى حياتهم ويقرأ كتبهم ويخالط بعضهم ثم لايتأثر بهم فى شعره وحياته الآجله ، وقد كان من أحب الأشياء الى نفسه طول حياته أن ينقل بعض شعر ديموسيه ونثره الى العربية ولاسيما اعتراف فتى العصر (Confession d'un enfant du siecle) وما هذا الكتاب الذى فتن شوقى ومؤلفه أقرب الناس خلقا ومواهب لشاعرنا المصرى إلا كتاب جمال وحب وانحلال وهو صورة للحياة فى آخر الزمن . وهو الوصف الذى اتخذه نورداو علما على الحالة المرضية التى شخصها فى جسم الحضارة الأوروبية وهى فى زعمه تحتضر .

عاد شوقى من أوروبا فى منتصف العقد الثالث وهو مشغول بأربع عواطف قوية وهى التى كان لها الفضل الأكبر فى إظهار شاعريته .

عاطفة حب الوطن وقد لازمته طول حياته

عاطفة حب الجمال فى جميع أنواعه وألوانه وأوضاعه

عاطفة الحب بأوسع معانيها، حب الأسرة وحب الصديق وحب الجنس وما يتبعها

عاطفة الاصلاح القومى بتقويم اعوجاج الأخلاق .

أما العاطفة الدينية فقد تحلل منها بالتدريج وصار على مذهب سيدنا محى الدين ابن عربى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى — اذا لم يكن دينى الى دينه دانى

وقد صار قلبى قابلا كل صورة — فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف — وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب انّى توجهت — ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وإن الناظر فى دواوين شوقى الثلاثة التى نشرت فى مدى ثلاثين عاما ليعثر بأسماء الأنبياء والرسل والآلهه القديمة فى مصر وغيرها كأن شوقى يعبدها جميعا :

كنيسة صارت الى مسجد — هدية السيد للسيد

كانت لعيسى حرما فانتهت — بنصرة الروح الى أحمد

ويقول فى مخاطبة الجوهر الآلهى :

فمحمد لك والمسيح ترجلا — وترجلت شمس النهار ليوشع

ما بال أحمد عىَّ عنك بيانه — بل ما لعيسى لم يقل أو يدع

ولسان موسى انحل إلا عقدة — من جانبيك علاجها لم ينجع

ويقول فى مكان آخر :

أين الفراعنة الأولى استذرى بهم — عيسى ويوسف والكليم المصعق

وقال فى مصر :

ملعب مثّل القضاء عليه — فى صبا الدهر آية الصديق

وامّحاء الكليم (آنس نارا) — والتجاء البتول فى وقت ضيق

وكل معنى لعيسى فى محاسنه جاءت به من بنات الشعر عذراء

وقال :

يا ابن الثواقب من رع وابن الزواهر من أمون

نسب عريق فى الضحى بذّ القبائل والبطون

أما الأخلاق فترى شوقى ينعيها فى الشرق عامة وفى مصر خاصة وله بيت سار مسير المثل ، وقد تكرر هذا البيت على صور مختلفة أختلافا طفيفا عشر مرات فى شعر شوقى ، وتراه أحيانا يصف صوراً من أخلاقنا فى رفق ولين لأن الشدة لم تكن من طبعه ولم يكن رجل كفاح ، وكانت الفوضى فى الأخلاق والاجتماع أهم مايلفت نظره وقد رآها فى الثورة العرابية وفى مجموعة المتناقضات التى تلت النهضة الوطنية ورأى الفوضى فى بعثته يدرس القانون الرومانى وهو بدرس اللغة العربية والأدب والفلسفة أحق وأجدر ، وعاد يشغل منصب الترجمة وهو يعمل فى الحقيقة فى دوائر السياسة وكان يجب أن يعيش صريحاً طليقا متحرراً من قيود التكلف والتصنع فإذا الدنيا كلها حوله تأبى الصراحة ومايتبعها ويفسرها من المترادفات ، كان رجل خير فإذا العالم حوله يرزح تحت أعباء الشر والأذى والإثم . قال يخاطب شكسبير ويصف البشر :

كانو الذئاب وكان الجهل داءهم واليوم علمهمو الراقى هو الداء

لؤم الحياة مشى فى الناس قاطبة كما مشى آدم فيهم وحواء

قم أيّد الحق فى الدنيا أليس له كتيبة منك تحت الأرض خرساء

وأين ماضية فى الظلم قاضية وأين نافذة فى البغى نجلاء

أيترك الأرض جانوها وليس بها صحيفة منك فى الجانين سوداء

ولكن شعر شوقى لم يؤثر فى الأخلاق كثيرا ولا قليلا لأن أبياته كانت ترد عفوا فى عرض القصائد التى لها أغراض تاريخية أو شخصية ٠

وقد تأثر شوقى بشعر هيجو ولاسيما فى ديوانه الموسوم بأساطير القرون Legendes des siecles وقد جعله شاعر فرنسا منفذا لمواهبه الفياضة ٠ وحاول شوقى هذا النوع من النظم وكان فيه موفقا ، فإن فكتور هيجو الذى كان شوقى يرمى الى النسج على منواله فى مصر استقل برياسة الشعر ثلاثين عاما نافخا بروحه القوية فى جسد الرومانتزم البالى وأراد أن يجعل للتاريخ الانسانى نصيبا من شعره دون أن يكون لشخصه أثر فى هذا الديوان الذى جعله معرضا لصور رمزية تمثل الوجود الانسانى ٠ وقد ظهرت مواهب شوقى فى الاقتداء به فى قصيدته التى جاء فيها على تاريخ مصر القديم وفى قصيدة أنس الوجود التى قدمها الى روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة :

أيها المنتحى بأسوان دارا ... كالثريا تريد أن تنقضا

اخلع النعل واخفض الطرف واخشع ... لا تحاول من آية الدهر غضا

وقصيدته الأخرى فى النيل التى أهداها الى مرجليوث وفيها عن الآثار :

هى من بناء الظلم إلا أنه ... يبيض وجه الظلم منه ويشرق

لم يرهق الأمم الملوك بمثلها ... فخرا لهم يبقى وذكرا يعبق

ومن هذا النوع « أساطير القرون » قصيدة توت عنخ آمون وحضارة عصره ، والفرق بين هيجو وشوقى فى هذا النوع أن هيجو كان يدرس ويجعل الشعر غلافا للتاريخ وكان نفسه يطول أجزاء ٠ أما شوقى فأطول قصائده وهى النيل فلا تزيد عن

مائتى بيت ٠

وأفاد شوقى من هيجو أنه صار شاعرا عالمياً ، فلم يقصر نظره على وطنه بل أضاف اليه الشرق والغرب ، فنظم فى تاريخ تركيا وجمالها ودمشق واليابان ووصف جمال البوسفور والتيرول وسويسرا والأندلس ٠ وهنا يجب أن أقرر أن شوقى تميز ببراعة الوصف فى الإجمال والتفصيل على طريقة هيجو وهو فى وصف الطبيعة وجمالها والآثار الخالدة وعناصر الكون الثابتة أقدر منه على وصف الأشخاص والنفوس ٠ وكان هذا من مناقب هيجو وعيوبه فإنه لم يجد وصف الأشخاص إلا فى النثر والقصص ٠

ومن صفات العبقرى الصادق أن يلهو بالأدب فى مقتبل العمر ثم تتم مواهبه فيخرج من حيز نفسه الى الكون وتنضج عبقريته وتدنو ثمارها ، وهكذا كان هيجو وايبسن وأناطول فرانس وتوماس مان وجرهارت هويتمن وقد وصف نفسه قال :

« كنت أنظم الشعر أول أمرى لنفسى لأنسى به همومى وخيبتى ثم كتبت بعد ذلك بروح ثائر وحنق أما الآن فأنا الشجرة المخضرة تعرض للشمس زهرها ليزداد ازدهارا وثمرها لينضج » ٠

فشباب العبقرى لايزول بمرور الأعوام ومواهبه تنمو وتنضج كلما طال عمره ، واذا كان عامة الناس يشبّون ويكتهلون ويشيبون ليشيخوا ، فإن العبقرى فى الأدب اذا شب واجتهد لايشيخ وإن كان يشيب ولكنه يعود الى شباب ناضر لأنه لا يحيى حياة البدن وحده ولكنه يحيى حياة القلب والروح وخياله بين انصباب وامتلاء والأفكار توحى بعضها بعضاً والمعانى الجميلة تتوالد وتتوالى وتتواتر وتترى ٠

رأى شوقى بعينيه هيجو متربعا على عرش الرياسة الشعرية ورآه محوطا بالإعجاب والإجلال حتى العبادة وعلم أن سر الوصول الى هذه المكانة العظيمة فى أن هيجو كان لسان الوطنية الناطق وصوت فرنسا الصارخ فى بوق الحرية وسيفها

المسلول على اعناق كل من أرادها بسوء . وكانت فرنسا حديثة عهد بمحنة الامبراطورية والهزيمة والانتقاص من أطراف دولتها . وكما هيأت الحياة ظروف هذا المجد لهيجو كذلك اجتمع لشوقى مالم يجتمع لسواه من النعم والفرص والمعونة وكان المقصود بما ناله شوقى أن يعمل على احياء روح المجد التاريخى فى نفوس أهل مصر وتنوير المصريين بعظمتهم الماضية وإعدادهم للحياة الجديدة والملاحم المقبلة التى تضمن ظفرها وتخرجها أمة سعيدة بين الأمم وتبوئها مكانها فى ضوء الشمس .

وكان شوقى رحمه الله يعلم ما أعدته له الطبيعة وما حدث له من العوائق والموانع ، وعلم أن تنفيذ الخطة قصر دون المثل الأعلى الذى جعله نصب عينيه ، لذا تراه فى سنة ١٩١٤ لدى وصول قدرين وبونييه طائرين من باريز الى مصر يتحرق على شباب مصر الذى لم يبلغ شأو هؤلاء الرجال ويقول فى حزن وحداد :

إن أسأنا لكمو أو لم نسىء ... نحن هلكى فلكم طول البقاء
لاتقولوا حطنا الدهر فما ... هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة فى جهلها ... ظهرت فى المجد حسناء الرواء
باطن الأمة من ظاهرها ... إنما السائل من لون الإناء

وتلك العاطفة الوطنية التى تتجه الى الشباب هى نفسها التى أنطقته وهو بعيد عن وادى النيل بشعره المدهش :

يا ابنة .. اليم ما أبوك بخيل ... ماله مولع بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلا ... فى خبيث من المذاهب رجس

وهذه السينية الخالدة من أساطير القرون أيضا لأن الشاعر تعرض فيها للدول التى حكمت مصر ثم دالت ثم تطرق بعد ذلك الى النوع الذى يمتاز فيه وهو وصف قصر الحمراء .

وإن كان هيجو قد ساعده الحظ بوحدة موضوعه فى إحياء وطنية فرنسا وتخليد مجدها، فإن حظ شاعرنا قد خانه فى ذلك . كان هيجو يحب وطنا واحدا ودينا واحدا ولغة واحدة ويمّجد تاريخا فردا ويؤيد نزعة فذة . أما شوقى الذى يفاخر بأنه ينتمى الى أصول أربعة فقد عانى من تعدد الأوطان والأجناس والمعتقدات واختلاف منازع التاريخ مما ذهب بنصيب كبير من خير شعره لو أن ظروف الشرق ومصر كانت غير ما أراده مجرى الحوادث وأخلاق الأمم والأفراد ، فقد كان نصيبه أن ارتاض بسياسة مبدؤها الوطنية المصرية النزاعة الى الاستقلال وما يتبع ذلك من تمجيد الماضى والتاريخ المصرى القديم والإشادة بذكر الفراعنة وآثارهم ثم مجاملة الدولة العثمانية والمتبوع الأعظم وذكر مفاخرها ومناصرتها فى حروبها مع دول أوروبا كاليونان ، وتمجيد العرب ومدنيتهم والاسلام وحضارته ومحاسنة المسيحية واليهودية ليظهر بمظهر التسامح وينفى عن أمته تهم التعصب ، ثم استجدت فكرة الجامعة الاسلامية التى كان يدعو لها السلطان عبد الحميد والخلافة العربية التى كان يدعو لها مقام كبير فى مصر فى أوائل هذا الجيل . دع عنك سياسة شخصية كان يجب اتباعها مع الأفراد والجماعات تبعا لرغائب الأمير الذى كان يخلد ذكره بمدائحه . وقد كان هيجو فى راحة من هذا العناء ، ونظام الحياة الفرنسية لايقتضى أن يخلد الشاعر أميره كما صنع أبو الطيب ولعل الشاعر هيجو لم ينظم قصيدة مدح وإن كان نظم ديوان الشاتيمان ضد نابليون الثالث ، وهذا تكليف آخر قد يكون أشد الأعباء على كاهل الشاعر الموهوب والمستعد بفطرته لخدمة الجماعة .

ربما كان عند شوقى شاعرية وحيوية وخيال كالتى كانت عند هيجو ، وكانت عنده بلا ريب مؤثرات أقوى من التى كان يحملها دماغ هيجو ، ولكنك إذا نظرت فى

شعر هيجو وجدت المعنى الشامل المتصل بالمجهول وقوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدقيق وترى طبيعته المواتية ، وقد مكنته من استيعاب كل صورة شعرية بخصائصها . أما الشاعر الشرقى عامة والعربى خاصة ماعدا شعراء الفرس الأقدمين، فهو لايقع إلا على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولايحسن أن يتغلغل فيه ولايصل فى الأغلب إلا على نزوات ضئيلة من التفكير وروحه لاتطوف بأسرار الوجود وعظائم الحياة إلا مراً سريعاً كأنها فى منطاد بل إن همومه ومسراته وأوجاعه وأفراحة لون من الوصف لا نوع من الشعور وألفاظ لا معانى وصورة جامدة من نوع الطبيعة الميتة .. واللوم فى ذلك كله على الوسط وفقد المعين والمعجب وهما قوام حياة الشاعر.

وقد تمكن شوقى بحظه السعيد من جهة وبعبقريته النادرة من جهة أخرى أن ينجو من معظم هذا السقوط المجزن ، وفى الواقع أن سعود الدنيا وحسن حظها خدمت شوقى منذ نشأته الى وفاته بما لم تخدم به هيجو ولا شكسبير، ولايقرب منه فى حسن التوفيق إلا جوته . فقد تفرغ شوقى لنظم القوافى خمساً وأربعين سنة قضاها فى التنقل والسفر والجرى وراء كل جديد وطريف وهو فى ظاهر الأمر طليق الفكر خفيف الحركة موفور الرزق مجدودا فى الأسرة والولد والحل والارتحال . وقد كان كل شعراء أوروبا الذين أحبهم وقرأ شعرهم وترسم خطواتهم فى فنونهم على نصيب وافر من الألم الحى والفلاكة والضنك ولكن هذا ألم يحجب عنهم مواهبهم لأنهم مهيأون بتركيب أدمغتهم وأعصابهم للنبوغ الشعرى ولو أرادوا الإعراض عن الشعر ما استطاعوا لأن الجواد الكريم لابد أن يجرى والبلبل الغريد لابد أن يغنى . وكان شوقى بما ثبت فى ذهنه من ضرورة ملازمة الشاعرية للفلاكة تراه فى كثير من الشؤون يعيش عيشة المفلوكين ، فيركب الترام فى مؤخرته ويلبس معطفا يزيد عن قياسه ويتخذ ربطة العنق من صنف لايكلفه عناء عقده ويعتز أحيانا بثياب قديمة ، وكان يغشى مجالس الأدباء أو دور الصحف ليتصل بالكتاب والمنشئين اتصال صديق ودود ، وكان فى كل هذه الأحوال يرى بعين الخيال صورة بول فيرلين وشارل بودلير وبانفيل وبول فور (وكان هو أيضا أمير الشعراء Prince de Poétes) وكل رجال البرناس من هنرى

واذا انتقلنا الى أثر شعراء الغزل والخمر فى فن شوقى فأول مايعرض لنا فيرلين وموسيه . فإن موسيه وإن كان لعهد شوقى قد مات وانطوت صحيفته إلا أن شعره ونثره كانا على قيد الحياة بل قد وردا سجل الخلود وتراه قد ألهب القلوب والأرواح بقصة عشقه جورج ساند وسياحتهما فى إيطاليا وخيانتها إياه وتراشقهما بعد ذلك بالكتب والقصائد، فصار علما من أعلام الأدب الأوروبى بعد نشر ديوانه الجديد وهو الذى حين اكتوى بنار الحب والغدر كتب لياليه الساحرة التى كان شوقى بها شديد الإعجاب ، وهو الذى بعث الى لامارتين شاعر البحيرة مكتوبه الفاجع الذى مطلعه :

« قبيل رحيل بيرون من ايطاليا باحثا فى عرض البحر عن شاطىء قصىّ يقتل على صخوره ما تملكه من ضجر وملال كان ذات عشية مضطجعا تحت أقدام معشوقته مقطب الجبين أصفر اللون ناظرا بعينيه المتقدتين نحو بلاد اليونان فتناولت معشوقته كتابا وفتحته وقرأت فيه قصيدة مهداة لشاعر أوروبا الكبير وهو بيرون وكانت تلك القصيدة من نظم لامارتين » .

وباب النسيب من شعر شوقى كله ملهم من شعر موسيه ولكنه أخفى آلامه المبرحة لأن بعض أخلاق الشرق لاتسمح بأن يفتح الشاعر كل قلبه لجمهور قرائه . وقد عبر عن هذه الحال أحد فحول الشعراء بثلاثة أبيات خالدة .

وكم فى فؤادى من جراح ثخينة	يحجبها بردای عن أعين الناس
أنا الألم الساجى لبعد مزافرى	أنا الأمل الداجى ولم يخب نبراسى
أنا الأسد الباكى أنا جبل الأسى	أنا الرمس يمشى داسيا فوق أرماسى

وكل نابغ وكل أديب صادق وكل مخلص فى الشرق يحق له أن يتخذ هذه الأبيات شعارا له .

بدأ شوقى نسيبه بقصيدته الشهيرة

خدعوهـا !

وأوقع أثر لذكريات حياته فى باريس قصيدته

يا غاب بولون ولـى	ذمم عليك ولـى عهود
زمن تقضى للهـوى	ولنا بظلك هـل يعود
حلم أريد رجوعـه	ورجوع أحلامى بعيد
وهب الزمان أعادها	هل للشبيبة من يعيد

وقد طافت بقلب شوقى نفس العواطف التى طافت بنفس موسييه ، ولكن موسييه كان يفضح معشوقه الخائن ويندب حظه . أما شوقى فيكتفى بالشكوى وقد يذكر الغيرة فيقول :

غـرت حتـى لتـرى أر	ضـى غيرى مـن سمائـى

ويعرض له خاطر استبدال الحبيب ودواء النفس بنفس الداء :

اذا ما اعتضت عن عشق بعشـق	أعيد العهد وامتـد الشـراب
وقالوا فى البديـل رضـا وروح	لقد رمـت البديـل فرمـت صعبـا

ويلجأ الى العلاج الذى وصفه فيرلين :

اذا ما الكأس لم تذهـب همومـى	فقـد تبّـت يـد الساقـى وتبـا

ومن أجمل شعره فى ندب الشباب وحاجة الشاعر المكتهل للحب فى جميع أدوار حياته ما قال مثله موسييه :

الرشد أجمل سيـرة يـا أحمـد	ود الغوانـى مـن شبابـك أبعـد
قد كـان فيـك لودهـن بقيـة	واليـوم أوشكـت البقيـة تنفـد
لما سمعنـك قلـن شعـر أمـرد	يـا ليت قائلـه الطريـر الأمـرد
أئذا وجدت الغيد ألهـاك الهـوى	واذا وجـدت الشعـر عـز الأغيـد
ومن عبث الدنيا وما عبثتْ سـدى	شببنـا وشبنـا والزمـان وليـد

ترى فكرة الشباب والشيب ومسارعة العمر بخطى واسعة وما يتبعها من حرمان وألم والنفس لاتزال فتية وعدم قناعة الشاعر فى كهولته بأدبه وحاجته الملحة الى معشوق فى مقتبل العمر تلك الفكرة قد عذبت موسييه وأورثته الجنون ، فهو تارة ينسب مصابه الى خيانة معشوقته وطورا الى سوء حظه ، ونراه يقنع بآلهة الشعر التى تؤنس وحدته وتلهمه القناعة بأدبه فهو ينشد باكيا ولكنه ينظم ولاتتعطل مواهبه . بل تراه يستمد منها وحيه وهو دائم الشكوى من الفقر والوحدة وغدر المرأة ووحشة الحياة وهذه « الميوز » أو ربة الشعر لاتكترث لشكواه بل تأمره ملحة :

أيها الشاعر خذ قيثارتك   إننى خالدة والدهر لك

ولم تفتر ربة الشعر فى الليالى الأربع عن دعوة الشاعر الى الإنشاد وما تزال به حتى يشكوها بثه فتعالجه ويشفى من دائه . وهذا رمز الجهد الذى تبذله النفس للخلاص من مواطن الضعف حتى تتغلب عليه . وترى فى شعر شوقى لمحات من هذا المعنى .

وقلت له صبرا فكل أخى هوى   على يد من يهوى غدا سيتوب

وراجعت الرشاد عساى أسلو   فما بالى مع السلوان أصبى

ويلتمس لنفسه عذرا لدى الشراب :

على أنى أعف من احتساها   وأكرم من عذارى الدير شربا

وتراه دائما يدعى الحب الأفلاطونى ويقلد البارودى فى قوله :

خرجت أجر الذيل تيها وانما   يتيه الفتى إن عف وهو قدير

حتى فى قصيدة خدعوها :

وعلينا من العفاف رقيب   تعبت فى مراسه الأهواء

وقال :

ملء بردينا عفاف وهوى   حفظ الحسن وصنت الأدبا

ولكن كيف يستقيم هذا الحب الأفلاطونى مع قوله :

أنــــا أهــــواك ولا أر   ضــى الهوى مــن شركائــى
لــيتنـــى كنـــت رداء   لــك أو كنـــت ردائـــى
لــيتنى مــاؤك فــى الغــــلة أو لــيتــك مــائـــى

. و القائل :

وإذا النفوس تطوحــت فــى لـذة   كانــت جنايتهــا علــى الأجســاد

* * * *

فى ٥ أكتوبر من عام ١٩٣٢ فجع العالم العربى بنعى أعظم شاعر عربى ، وارث المتنبى بعد ألف عام ، وخليفته على عرش النظم وسميّه ونظيره فى إعلاء القومية العربية واللغة الشريفة القرشية(*) .

كانت تربطنى بالمرحوم أحمد شوقى منذ حداثة سنى روابط شتى ، فكان أول من جلا صفحة ذهنى بروائع شعره ، وشجّعنى على المضى فى سبيل الأدب هواية ، لا احترافاً ، وجمع بينى وبين نفر من كبار الرجال فى عصره وعصرى . وكانت الألفة بيننا محكمة الأواصر حتى ليتواضع ويسألنى فى كثير من شؤونه الخاصة والعامة ، وكنت من الأفراد المعدودين الذين نعموا بقراءة قصصه المسرحية المنظومة قبل نشرها فى مجلس خاص بقصره ومنهم الأستاذ عبد الرحمن الجديلى والدكتور سعيد عبده ونجله حسين شوقى (سيس) ، وأطلعنى على خواص كتبه التى استعان بها فى وثبة خياله وتقويم بيانه فى الفترة الأخيرة من عمره . وذكر لى خواص أصدقائه فى شبابه ورجولته وكهولته ، وكان فى مقدمتهم المرحومان مصطفى كامل باعث روح الحياة القومية فى مصر وعثمان غالب . وقد درست أخلاقه عن كثب بعاطفة الحب والإجلال .

(*) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقالاً للطفى جمعه نشر بتاريخ ٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨ فى العدد ٢٠ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان « ذكرى أحمد شوقى » .

وأشدّ ما أثر فيّ تكريمه حافظ إبراهيم سنة ١٩٣٢ ورثاءه إياه فى نصف السنة التى لحق به فى آخرها ، فأحببته وقدرته وعلمت أن أحمد شوقى كان يبطن الوفاء وإن قضت بعض ظروف المعاصرة ظهوره بغير ذلك الثوب ..

لم تكن وفاته غير منتظرة إلا لمن لم يخالطوه ، أما عشراؤه فقد أحسوا منذ عامين دنوّ أجله مذ مرض بصلابة الشرايين واستحال عليه هضم أسهل الطعام ، وبلغ منه الضعف والإعياء . ولكنه عاش البقية بقوة العزم وفسحة الأمل ، وكان بعض محبّيه يتوسلون اليه أن يحتمى وأن يعتكف ، ويلزم كسر داره كما يفعل أنداده فى الغرب اذا لحقهم داء كدائه ، وظنوا أنهم يطيلون فى أجله ، وأن فى المداراة عمراً ثانياً . وكان يعدهم ويخلف لأن شوقى كان لايستطيع أن يعيش فى ظلال الهدوء الشامل ، ولا يقنع بالهواء والضياء وحرارة الشمس ، وجريان النيل وخضرة الزرع وسمر الزائرين والعود إلا مرغماً . أما اذا أحس القدرة على السعى واللف وغشيان أحب الأماكن والمجالس الى نفسه ، فلا يعوقه عائق ولا تقف فى سبيله عقبة . وتراه يستمد أحد عناصر الحياة من الحياة الصاخبة، بجلبها وضوضائها وظلامها ونورها وأفراحها وأحزانها ، ويحب أن تطأ أقدامه تلك الشوارع والطرق التى تعود أن يطرقها منذ خمس وثلاثين سنة ، فكان دائما متعطشاً لرؤية القديم ليلتمس الجديد بين ثناياه ، مثله كالقابلة تخرج الولد من الأم ، وتشهد فى كل يوم وليلة كائنات حديثة العهد بالحياة . ذلك الظمأ المقدس يريد إرواءه ، وتلك النار الربانية ، يحاول الاحتفاظ بها مشتعلة فى صدره ، فكنت تراه أبداً يلتمس الإلهام من حركة الحياة الدائمة ويبحث عن الطارف فى التليد ، وهو بين هذا وذاك فى صمت عميق وسكون كسكون البئر المهجورة. وقد أخطأ من حسب أن شوقى كان يتكلم إذ كان يسأل عن شأن من الشئون أو يجيب على مسألة . ، لقد عاش ومات صامتاً ولم ينطق إلا شعراً ، وتراه قد قضى حياته مصفوقاً على نفسه انصفاق المحار على اللؤلؤ الثمين ، لقد كان جدّ

ضنين بألفاظه فى سائر الشئون ماعدا الشعر ، ولو استطاع قضاء حاجة بالإيماء ، لاستغنى عن النطق الصريح .

كان شوقى رجل الصمت ، واذا تكلم إنما تناول فى حديثه أتفه الأمور ، بحيث يدهش السامع للفرق المهول بين سمره وشعره وحق له أن يدهش ، ولم يخن شوقى نفسه إلا نادراً فيبوح أحياناً بدخائل قلبه ، ثم لا يلبث أن ينتبه فيعود الى صمته . وكان معظم حديثه الذى يبيحه مما تحتمه الضرورة . وكان استماعه أكثر من كلامه أضعافاً مضاعفة ، وفى يقينى أنه لم يقل كل شعره ، ولم يؤد كل رسالته ، وأن أعظم ما ألهمه وأروعه وأصدقه وأبلغه قد بقى فى تلافيف مخه العجيب الذي كان حرياً أن يُنزع من جمجمته ليحتفظ به ذخيرة طيبة ، كان شوقى شاعر جيل وشاعر قرون وشاعر أمة وشاعر دولة وشاعر ثورة . كان صالحاً لكل هذه النماذج ولكنه كان شاعر نفسه وبعض قومه فى فترات من الزمن .

لم يبح ذلك السفنكس المجنح بكل أسراره ولا بما يشفى غليلك منها إذا كنت عرفته وعرفت زمانه ووسطه ، كان شوقى كشركة النور الضنينة بتيار الكهرباء أو كشركة الماء الشحيحة بالماء . وسر ذلك معرفة شوقى بالزمان والمكان والسكان ، فأعطاهم على قدر حاجته إليهم ، باعهم زيتاً بدراهمهم المعدودة ، دون إسراف ولا إفراط ، ودون أن يلوث يديه أو يعرض الإبريق للكسر مرة . وقد رأى لؤم الناس ومكرهم ورياءهم وغدر العظماء وضعف العامة وصغار المظلومين وذلهم وصلف الظالمين وجبروتهم ، ورأى فى جانب من يكون الحق دائما ، واطلع على أسرار القصور وخبر قلوب الرجال وسافر فى الشرق والغرب وذاق طعم الحياة فى السلم والحرب . وكان ذا سجية تكفيها الموعظة الحسنة ، وتقنعها الإشارة الخفية فلم يحتج إلى الاختبار الشخصى ، رأى فتعلم فصدق فاتعظ فاتقى . وعلى هذا القياس المحدود نسبة إلى عبقريته المحدودة كان شاعراً لنا وفى هذا الزمن . كان كالسيارة الفخمة القوية تسير

فى طريق غير ممهدة ولا معبدة ، فلم تقطع سوى ما استطاع قائدها أن يدفعها اليه باذلاً بعض جهده ، ونادباً سوء حظه على أن الأقدار ساقته الى تلك الطريق المحفوفة بالمكاره وأسباب العطب .

كان شوقى فى صحبة الأمراء ، وكان لهم عشيراً ووصيفاً وحيناً مستشاراً ونديماً ، وكان يعرف ثمرة الإخلاص وقيمته وثمرة الوفاء وثمنه . وكما عرف هذه المحاسن عرف الأضداد والمساوىء ورأى مصارع الفضائل ومطامع الرذائل وشهد عاقبة الخير والشر ، ولمس بعض الحقائق الأزلية ، هدته الى بعضها سليقته وفطرته الوراثية ، وإلى البعض الآخر أسلمته تجاربه المريرة . كان نصفاً معيناً أمينا لمواليه ونصفاً رجلا طليقاً يصوغ خواطره وينظم قوافيه ، جانب للحياة الحاضرة والعاجلة وجانب للخلود والأدب الحى وإشباع شهوة النبوغ . ولكن طالما طغى الجانب الأول على الجانب الثانى ، وطالما وقف الشاعر وديعاً مطيعاً بين يدى الوصيف ، طالما خضع شوقى الشاعر الفيلسوف لشوقى الموظف فى الديوان الخديوى أو المعية السنية. وطالما ثار شوقى الشاعر على شوقى النديم ، فسخر النديم من المتبرم ونهاه عن الهجوم . وطالما صرخ شوقى الشاعر القانع الدرويش المفلوك فى وجه شوقى الموظف رب الأسرة المحتاج للترف والنعيم والمال الكثير لتنشئة البنات والبنين ..

طالما وقف الشخصان المتناقضان اللذان كان يحويهما هيكل شوقى الضئيل وجهاً لوجه فى معارك دامية لم ير أقرب الناس اليه أثراً من مظاهرها لأنها كانت فى ميدان لايقع تحت الحس ولا تأخذ به الأبصار ، وكانت الغلبة فى معظم المواقع للجنتلمان الهادىء المطمئن المحب للترف والرفاهية ، ولذلك الأبيقورى مذهباً وذلك الرومانى الذى تقلب فى ثنايا النعيم ، وذاق ألذ المآكل والمشارب وتعلق بأهداب السعادة المادية مثل بترونيو صديق نيرون ولم يخرج الشاعر مهزوماً دائماً بل كان يثأر لنفسه أحياناً بلمحات وفلتات وخوارق تصدر عنه نكاية فى الجنتلمان ، ولهذا

كان شوقى شاعر العربية ولم يكن شاعر الوطن ، كان أمير الشعراء وشاعر الأمراء ، ولم يكن شاعر الشعب ، كان شاعر الدولة العثمانية فى عهد استبدادها ، ولم يكن شاعرها فى عهد نهضتها ودستورها ، كان شاعر المراقص الخديوية ولم يكن شاعر اليقظة التى تعقب الملاهى ، كان يجيد كل لون من النظم ماعدا النوع الذى يشجع الجنود فى المعمعة . وتراه لأجل سد تلك الثلمة وملأ هذا الفراغ ، يخوض غمار كل فن ويفيض فيضان النهر ويغمر كل واد من وديان الأدب المنظوم والمنثور ، إلا الوادى المتعطش لفيضانه ، كان أقرب الى سوينبرن منه الى هيجو ، ولو مد الله فى أجله كان يدنو فى بطىء شديد من تاجور ، لأن تاجور حذق صنعة الحومان حول الحمى دون أن يحرق جناحه بنار العدو .. غزل وشمّ وضمّ وتقبيل .. ثم تعفُّف محتوم . ضرب أمثال ونصائح للصبيان وأغانى وأناشيد للفتيات وقصّ رمزى لمن يدرك الرموز ، كل شىء خاص بالشىء الصريح ماعدا الشىء الصريح نفسه .

ترى السورى والعراقى والمغربى وربما المسلم الهندى كلهم يطربون لشعره ويمدحونه ويشيدون بذكره ويعجبون به ويغبطون مصر على وجوده ، ولكن المصرى نفسه يلتمس علة الإعجاب ويفتش عنها باحثاً ومنقباً ثم ينقلب حائراً لأن العرب يمجدون شاعر العربية . أما المصرى فيريد أن يمجد شاعر الحرية ، شاعر الداء الدفين شاعر الوطنية . والشعوب مهما طال إسارها وقلت معرفتها وضربت عليها أقبية من الذلّ والاستكانة ، فهى لاتخدع ولاتقبل تهنئة على الهوان ولاتهضم تشجيعاً على جبن ولا تلبى دعوة السلام اذا كان وراءه الاستسلام ، ولاتعبد الجمال إذا كان خلواً من الروح ولاتفتن بالفن اذا كان يحيك لها خيوطاً للقيد .

كان شوقى شاعر العربية ولم يكن شاعر الاسلام ، لأنه لم يحاول إفراغ تاريخ تلك الدول الباهرة فى قالب يدنو من الشاهنامة وكانت كل الوسائل بين يديه ، ولو أنه انصرف لنظم تراجم الخلفاء الراشدين ، أو الأمويين أو الدولة العباسية لكفى ، ولكنه

كان بعيداً عن الشعر القصصى بتكوينه الغنائى ، فنظم شعر العواطف ونظم أغانى العواطف ، ولم ينظم شعر التاريخ .

لاتجود الطبيعة بأمثال هذا الرجل الفذ إلا فى مئات السنين ، ولن ترى مصر مثل شوقى تكويناً ونبوغاً واستعداداً قبل أجيال ، وكل الأحياء من الشعراء ، كالأزهار تكوين الباقة التامة .

أحمد عبد الرحمن محرم

شاب شغوف بالموسيقى والفنون من صميم أولاد البلد حامل فى دمه كل صفاتهم ومحتفظ بعاداتهم وتقاليدهم وأهمها المكر والكتمان وسعة الحيلة والتواء الفكر ٠ وقد عرفته بوساطة كاتب فلسطينى كان يفاوضه فى شراء أدوات محطة إذاعة فى سنة ١٩٣٤ ، وكان الشاب يدير محطة وادى الملوك التى يملكها رجل ملطى اسمه شكمبرى ويقيم فى حارة عوراء بقرب الكنيسة القبطية بالدرب الواسع ٠

وكان طريد أسرته وتنطوى حياته على مآسى قاسية وقد كتب فى الصحف اليومية بعض مقالات وألف كتاباً « أمام الميكروفون نشره سنة ١٩٣٧ » سرد فيه ذكرياته عن محطات الإذاعة ، ولكنه كان محاولة غير موفقة لعجزه عن التأليف وكان يشتغل بتجارة الجلود ثم دخل خدمة البريد ساعياً فبائع طوابع ثم كاتباً فى قسم التوفير ٠ وقد حج مرتين وتقدم الى امتحان عام ، وكان دأبه أن يجمع الكتب ويتقن تجليدها ثم لايفتحها ولاينظر مافيها ويحقد على مؤلفيها لأنهم أغلقوا عليه باب الفهم ، وعاطفة الملكية فيه قوية حتى إنه ليطلب من كل صاحب أن يهديه مما عنده سواء أكان المهدى كتباً أو سمكاً مملحاً أو دواء جافاً أو سائلاً أو لعبة أطفال أو أحذية أو معدناً أو صورة ، كأنه يدير مخزن ألف صنف ولو لم تكن به حاجة الى الشىء المطلوب فهو يحب اقتناءه لمجرد الاقتناء ، وقد لقيته بمنى سنة ١٩٤١ فحييته بالتلبية عند مسجد الخيف ثم افترقنا ولم أره بعد ذلك وقد ساهم فى الانتخابات ليخدم رئيساً له يمتّ بالقرابة الى أحد المرشحين ٠

وحكى لى أنه يحذر النساء أشد الحذر لأن كيدهن عظيم ، ولذا فإذا عرف إحداهن بادر الى اقتناص شيء مما تملك لينفرها من نفسه ، وحكى لى أن جده لأبيه تاجر شديد البخل يشبه اليهود ، فإذا أراد أن يقسم على شيء قال يكون « حجُه الى الشيطان إذا كان كذا وكذا » وأن والده وقف بعض أملاكه المتخربة على الحرمين ، وأن جده لأمه كان من كبار الروحانيين الذين يعملون التعاويذ والأسحار ويحسنون التنجيم ، ولكن أصوله مبهمة ولكنه مستغل الى أقصى حدود الاستغلال ولا يبالى أن ينتحل أشياء الآخرين فى الآداب والمادة ، وإذا اؤتمن على شيء فلا يرده ولا يذكره ولايراعى روابط القرابة أو الصداقة ، فقد ادعى لنفسه تأليف قصة وضعها أخ له توفى، وأخذ كتبه لنفسه ولم يعفّ إلا عن ثيابه ، وهو نهم فى الطعام والشراب والمال ويفهم النغم ولا يجيد إخراجه وهو على كل هذه فى العقد الثالث حسن السمت له هيأة مقبولة وتغلب على كلامه لهجة السوقة والعوام .

ولم يتمكن من اكتساب الأدباء وقد أتيحت له فرصة عشرتهم ، وقد حاولت تعليل ذلك فأدركت أن ذكاءه محصور فى الحيلة والتدبير وصغائر الأمور وأن به غباء فطرياً موروثاً لأن نسبه يدل على أنه من الأنغال الذين تجرى فى عروقهم دماء كثيرة من مصادر مختلفة حتى لايمكن ردّه الى أصل واحد أو أصلين ، وهذا النوع فى الحيوان لايصلح لشيء أصلاً بل تقوده فى حياته عناصر متناقضة ، وأول مايبدو من أمرهم تفريطهم فى الأعراض ومتاجرتهم بالأخلاق وقسوة قلوبهم ، ومن نوادر قسوته أنه اضطر الى أن يخفى أبوته لطفل فى الثانية من عمره ، فاتخذ خطة أمام الشخص الذى يهمه أن يخفى عنه بنوة الطفل لأسباب تفهة وهى أن يقسو فى ضرب الطفل ضرباً مبرحاً كلما دنا منه وخصوصاً فى وقت الطعام كعادة الأطفال . ويخفى زواجه لامرأة يعاشرها ، وقُتل أعز أصدقائه بحادثة سيارة صدمته وهو يجرى فذكر مصرعَه وهو يضحك ، وكان الصديق أنبل منه بمراحل وقد ضحى فى سبيله بأشياء كثيرة

وصحبه الى المستشفيات وواساه فى مصائبه وصبر عليه فى أمور كثيرة ولكن كل هذه الحسنات لم يقم لها هذا الشخص وزناً ، وقد يموت أقرب الناس إليه كأخيه أو أخته أو يمرض مرضاً خطيراً فلا يبالى ، وأصابه رمد شديد فلم يكن له هم إلا حزنه على تذكرة سينما اشتراها بثمن مخفض وظهر له أنها ستضيع عليه بسبب رمده ولم يطمئن حتى باعها بربح لأحد عوّاده ، وكان ساعياً فى البريد فسلخ جلود الذين يوزع عليهم رسائلهم بطلب الهدايا والبقشيش مع أن أباه من الأغنياء ونشأ فى بيت نعمة وإنْ يكن بيت بخل ، ولاينظر إلى أحد من معارفه إلا نظرة استغلال وجلب منفعة ولو كان الصديق فقيراً ومحتاجاً فلابد أن يفوز منه بمأرب أو بطائل .

ويقال إن أولاد البلد أهل كرامة وذوق وحسن طبع ومواساة فى السراء والضراء، وهذا الحيوان الجميل لايعرف هذا ولا يستطعمه ولا يطلعك على شيء مما يدور فى خلده ولا يأمنك على سرّ ولا يفضى إليك بدخيلة نفسه إلا إذا كان تلفيقاً وتدبيراً ليصل إلى غاية، كأن يكسب ثقتك عن طريق تظاهره بالثقه فيك ، وبالجملة قد استغرق المكر كل مواهبه وكل قوى تفكيره وحصر نفسه فى دائرة ضيقة ويدور فيها حول نفسه ولايكترث لعهد أو وعد أو وفاء أو ضمير ، ولايفهم النكتة ولايسمح لنفسه بالضحك بل يبتسم ابتسامة ملتوية تجعل فمه كفوهة كيس الدخان المصنوع من المطاط ، فهو دائماً مغلق ولابد أن تدير ثناياه ولفائفه بيدك ليفتح ثم تعود أطرافه الى الإلتواء من تلقاء نفسها .

وقد رأيته مرة تدمع عينه بسبب حرمانه من نصيب فالوذج حجز لسواه وهو إذ ذاك رجل بالغ وزوج ووالد وكان يطمع أن يأكل الفالوذج كله ، وإذا دعوته الى طعام وقد رفع يده من مثله قبل برهة فلا يتورع أن يهجم عليه جائراً ولايفرط فى شيء مما يملك أو مما يتوهم أنه يملك كموسى الحلاقة الذى لايتجاوز ثمنه دانقاً ، أو ربع فرخ ورق أبيض أو طابع بريد بمليم ، وإذا كلفته يقبض مبلغ من المال أو بشراء شيء فلابد

أن يتقاضى عليه أجراً يحتجزه قبل أن يرد إليك حقاً ، ثم إنه لايخطو خطوة فى مصلحة أحد إلا إذا قبض أجره عاجلاً أو وثق أنه لن يفوته . قد يكون هذا شذوذاً وليس كل أولاد البلد على هذا الخلق الذميم ، ولكنه صورة من الطبيعة وخلقه لاشك فى صدق عناصرها وإن لم يكن تعليل كثير من معالمها ممكناً بطريق العلم أو الاستقراء . ولكن الذى أدهشنى أن هذا الشخص اندفع يوماً فى طريق الحج وهو فريضة تقتضى تضحية وجهداً مع أنه لم يضح فى حياته بشىء ولم يقبل أن يتكبد مشقة فى سبيل شىء ، ولكن لعله فعل هذا حيلة ليقنع أباه وجده بتقواه فيقبلا عليه ، فإننى بحسب ما رأيت وتحققت من أخلاق هذا الشخص لا أعتقد أنه يفعل شيئاً خالصاً لوجه الله .

وأن الميل الى الشر فى دمه والاستهتار يجرى فى عروقه والأنانية جزء من تكوينه ومصالح الخلق وأعراضهم رقعة شطرنج بين يديه ينقل أحجارها كيف شاء ، ولكن التلويح له بالمنفعة المباشرة يعمى عينيه ويصم أذنيه ويسلس قياده لمن يحذق فن التلويح بالمنفعة . ولست أدرى إن كان هذا النوع من الأشخاص قد فقدوا رجولتهم أم احتفظوا بها ، فإن فيهم جانباً كبيراً من أخلاق النساء ونعومتهن وعدم اكتراثهن وكيدهن وحيلهن ، وهل تحل بهم هذه الكوارث فى أخلاقهم بعشرة النساء أو من تلقاء أنفسهم ، فإن عشرة المرأة إن لم تكن حازمة مطبوعة على الجد مفطورة على تقدير التبعات فى التربية تؤدى الى أسوأ العواقب .

هذا ولم أر هذا الشخص ميالاً الى شىء من العلوم أو الفنون سوى السماع ، وهو هواية المخنثين ، ومهما توجه الى شىء يعود عليه بنفع فهو يعجز عنه ويأباه ، ومن أمثلة ذلك أنه تناول كتاب أدب الكاتب لابن قتيبه فلما عجز عن متابعة القراءة فيه مع ألوان من اللحن والتصحيف والغلط الفاحش أخذ يسخر من اسم المؤلف ويهزأ به ثم بدأ يسبه ويعاديه كأنه شخص حىّ أمامه ثم فلت من يده . وهو شغوف بأن يذهب إلى أى مكان أو يقع فى أى محظور مادام المدخل لايكلفه شيئاً وأن يتجرع

السم فى هيأة طعام لو كان لايدفع ثمنه ولسان حاله يقول « وجع البطون خير من رمى الطبيخ » ، يقال عند العوام فيمن يفطرون على الطعام البائت ، وقد دأب على أن يحول كل شىء الى شخصه ، فإذا قام بعمل فى وظيفة بحث أولاً وقبل كل شىء فيما يمكن أن يستخرجه من هذا العمل لفائدته كأن يطلع على أسرار الرسائل أو يختلس بعض الأمانات إذا علم أنه لايحاسب عليها ٠

وبالجملة جمع هذا المخلوق كل مايعيب الناس ويؤدى الى انتقاصهم وهو غير شاعر بالتبعات ، ولعل من أسباب هذا التهتك فى السلب والطمع والجشع ، الحرمان والنظر الى مافى أيدى الغير مما يتوهم أنه من حقه أو من حقه أن لايحرم منه ٠

وهذه خلال دنيئة تنشأ فى أحط الأوساط البلدية وينمّيها عدم الردع والتشجيع وعدم الوازع وتفريط الأهل والقدوة السيئة بالأقارب والأجانب ٠ دع عنك نكران الجميل ومقابلة الحسنة بالسيئة وتهزىء الفضائل ، والإمعان فى حب الأذى وبغض الإنسانية ٠ فقد سمعت شخصاً يقول يوماً « لو رزقت ولداً لأنشأته على أنه إذا رأى طفلا فى يده درهم أن يخرق عين الطفل ويأخذ الدرهم ! » ٠

فقلت له : ألاتكتفى بأن يأخذ الدرهم ويترك عين الولد سليمة ؟ فقال جاداً متحمساً مُرتعشاً : كلا ! بل خرق العين أولا وقبل كل شىء ! ، فسكّت ثم احتلت على تحيته وتوديعه ولم أسع للقائه بعد هذا الحديث فإننى خفته ، وكان حيناً فى بطانتى وقد رأيت منه مثل الآخر مخففاً لأنه كان يستتر برداء شفاف من العلم الحديث ٠

وهكذا يدل الاختبار والمعاشرة على شرور الشياطين وأخلاق المجرمين فى أفراد الطبقات التى تخدع الناس وتوهمهم بأنها على نصيب ولو ضئيل من الكرامة والحق ، وأن هؤلاء الأفراد أشبه بالعقارب المنسابة فى خدْر أو مخدع فأنت تحاول لمس الحرير أو الديباج فتلسعك العقارب المختفية فى ثناياها ٠

وموضوع هذه النبذه فى الثلاثين من عمره يحلق شاربيه وينتف حاجبيه ويتظاهر بالتقوى وهو لايصدق أول حرف مما يتلو وعلى الأقل لايفهمه .

وأما الروابط العائلية عند هذا الشخص فلا وجود لها ، فهو يتمنى صباح مساء موت جده وأبيه ويأبى أن يعترف بأخوته لوالده ولو رآهم جثثاً ملقاة فى الطريق ماوقف عندها ، ولو شكا أحدهم الجوع وكان عنده مال قارون ماجاد عليه ببعضه ، وقد يظهر الشفقة على شقيق أو شقيقة ولكن هذا التظاهر لايطول أكثر من لمحة عين ثم ينقلب اهتماماً بذاته ، أما الأجانب حتى الأصدقاء منهم فلا يعرف نحوهم وفاءً ولا صداقة ولاتربطه بهم إلا رابطة المنفعة الخاصة به فى وقتها ، فإن تمتْ فهو يدير عنهم وجهه ويولّى الأدبار ، وإن سأله سائل حسن الظن به عن فلان صديقه أجابه متبجحاً «سيبك منه يلعن ... » .

قد يظن واحد أن مثل هذا النوع من الخلق لايستحق التسجيل ، ولكننى أراه أجدر بالتسجيل من أهل محاسن الأخلاق ، فإن هذا النوع المؤذى يمثل الكثرة ، والفرق بينه وبين غيره قدرة الآخرين على التعمية والاختفاء وراء المظاهر الخلابة وقد يطول انخداع الناس فيهم بقدر قدرتهم على الخداع ، أما هذا الشرير فإنه أبله ، لأنه يسهل اكتشافه بعد مدة وجيزة .

وهذا الشخص بين القصير والطويل ، عريض الأكتاف كالعتل عريض القفا خشن الشعر يبدو كالمخدر ويتظاهر برقة الإحساس وتأثر المزاج ، ولكنه فظ غليظ على الرغم من نعومته ، ولو كان امرأة لقتل زوجه بعد سلب ماله فى ليلة الزفاف ليفر مع خادم معشوق أو شريك من قطاع الطريق وقانا الله شرورهم ، وهو بلا ريب من مواليد هذا القرن الرابع عشر الهجرى .

أحمد محرم

جعلته فى حرف الألف لاشتهاره باسمه وخوف الخلط بينه وبين كثيرين يحملون لقبه . .

شاعر مسن يبلغ الآن سبعين عاماً وهو من مديرية البحيرة ويقيم فى دمنهور . وهو رجل قصير القامة أسمر اللون ضعيف البصر ، قليل الكلام أدركته حرفة الأدب من قديم . ولكنه كاتب قدير وشاعر من الدرجة الأولى يجيد الدفاع عن الوطن والدين بإخلاص وصراحة وشعره جيد جداً ونظمه متين وعلمه باللغة واسع وأخلاقه مستقيمة.

عرفه المرحوم مصطفى كامل منذ أربعين عاماً وعينه وكيلاً لجريدة اللواء ومراسلاً لها طول مدة الحزب الوطنى . ولم يكن ذا حيلة ولا طمع ولا دهاء فلم يفعل مايفعله وكلاء الصحف الكبرى فى الأرياف من الحصول على المال بتمليق الأعيان والحكام والتزلف اليهم بنشر الأكاذيب عن حذقهم ومهارتهم فى القبض على ناصية الأمن ومطاردة الجناة ورد المواشى المسروقة ومحاصرة أرباب السوابق فى شونة خربة كما يحب الحكام أن يكتب عنهم ، ولم يتفان فى وصف الأفراح والليالى الملاح التى يحييها الأغنياء فحفظ كرامته وشرفه وفنه وأضاع فرصة الغنى بالتهليب والتدجيل ، فلما انتهى الحزب الوطنى انقطعت به الأسباب ، لأنه لامجال للأديب الشريف فى مصر ولا أمل له فى النجاح وكسب القوت إن لم يكن صاحب وظيفة فى الحكومة أو ذا مال ينفعه فى خدمة أدبه ، ودمنهور مدينة مشهورة ببخل أهلها وشحهم كدمياط ، فكان نصيبه من الدنيا فى بلده كنصيب على العزبى فى دمياط « أنظر جريدة منبر الشرق أوائل سنة ١٩٤٢ مقالات على العزبى يمر بموكب الحياة »[١] .

---

(١) نشرت هذه المقالات بتاريخ ٢٠ ، ١٩٤٢/٢/٢٧ ، ٦ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ١٩٤٢/٣/٢٧ ، ٣ ، ١٠ ، ١٧ ، ١٩٤٢/٤/٢٤ ، ١ ، ١٣ ، ١٩٤٢/٥/٢٠ .

فلما أنشأ عبد القادر حمزة جريدة البلاغ وكان من أهل البحيرة « إيتاى البارود» وبين والد حمزة باشا وأحمد محرم صحبة قديمة برابطة الأدب والصناعة ، وحمزة يعرفه من أيام اللواء ، وكل إليه أمر البلاغ فى دمنهور تمثيلاً ومراسلة • حتى كبر الرجل وضعف عن العمل وذهب معظم بصره •

ومما يذكر لهذا الشاعر الأديب بالفخر والفضل أنه لم يقصر فى حق مصر فى المناسبات الهامة ، فهو ينظم الشعر الجيد الرصين ويرثى مشاهير الرجال ولا يؤجر على شعره لأنه لايعرف المدح ولا يتناول الهجاء وحكومة مصر وأمة مصر وعظماؤها وأدباؤها يعرفون له هذه الخلال ولم يمد أحد منهم له يداً بالمعونة فى أحرج أوقاته •

ومنذ ثلاثين عاماً ينظم الرجل ديواناً جديداً فى تاريخ الاسلام على نسق مافعله شوقى وحافظ ، وأطلق على هذا الديوان الشعرى التاريخى اسم « الإلياذة الإسلامية » وأعلن عنه فى كل مكان وبذله لكل عظيم وتقدم به للقصر ولوزارة المعارف وللجمعيات الاسلامية لتقوم بطبعه فغلقت الأبواب فى وجهه ، وأخذ بعضهم بعض المخطوط ولم يرده وهو وحده الذى ينظم ويسود ويبيض وقد ابيضت عيناه من الحزن على عمله ، وقد نشر بعض القصائد فى الصحف والمجلات ونالت تقدير الأدباء وانبرى لفيف منهم لتعضيده فلم يجد تعضيدهم شيئاً • وقابله بعضهم بالسخرية كقولهم « يعنى حضرته هوميروس الثانى • ما شأن الإسلام والإلياذة ؟ » ، وفى الحقيقة أن اختيار العنوان خطأ وقع فيه محرم ، لأن الإلياذة أطلقت على شعر حرب طروادة وهو اسم وثنى لا علاقة له بالإسلام ، وهو تسجيل حرب واحدة وذكر أبطالها ومواقعها بالتفصيل الدقيق وفيه فن باهر رفيع وقد ترجمت الى كل اللغات حتى العربية ترجمها نظماً الأستاذ سليمان البستانى وقد وقف على عمله عشرات السنين ودرس بسببها اللغات القديمة والحديثة وأخرج تحفة دَهْرية وأبرز ثروة إنسانية ، وكان سليمان البستانى مثقفا واسع الاطلاع وارثاً العلم والأدب عن آبائه • وليس محرم على شىء من هذا ، غير أن

مـراجـعـه فـى تاريخ الاسـلام أرحب وأفـسح وأغـزر من مـراجع البـسـتـانى فى تاريخ الإليـاذة. ثـم أن البـسـتـانى ترجم وفـسـر وشـرح وطبع ونشـر من مـاله ، فـقـدره الجـيل السالف وأقـام نخبة من العلمـاء والأدباء حفلة لتكريمه كان من رجالها المرحوم الشيخ محـمـد عبده وأعانه إخـوانه السوريون فى الطبع الدقيق والتصـوير والتصـحيح ، وهم كعادتهم كخلية النحل أو قرية النمل يلتفون حول من يجاهد فيمدّونه وحول من يقع فى مأزق فـيخـرجـونه ، أمـا المصـريون والمسلمـون خـاصـة فـأمة متخـاذلة مـتـخـاصـمـة تحب الجدل وتحسد النبوغ وتثبط الهمم .

وإنى أشـفـق على مـحـرم وأعطف عليـه وأحـتـرم رجـولتـه ووطنيـتـه وجـهـاده فى شيخوخته ، ولكن ما الذي منعه منذ ثلاثين عاماً أو عشرين عاماً أن يبدأ بنشر هذه الإلياذة أجزاء متتابعة تظهر كل شهر كدائرة المعارف الإسلامية ، فيعرضها على الجمهور ويستفيد من النشر والنفقات إذ ذاك قليلة والورق متيسر والنخوة متوافرة ؟ وما الذى جعله ينتظر فترة الحرب لينشر هذا الكتاب الضخم بجملته على حساب الغير ؟.

ولو أن المرحوم شوقى كان فقيراً وعرض شعره فى شيخوخته على العالم العربى كله ماقبلوا أن يطبعوا منه قصيدة على نفقتهم . وقد عانى الكاظمى فى مصر خلال القرن العشرين ماعانى ، وعانى حافظ إبراهيم فى شبابه وكهولته ماعانى لولا أن امتدت اليه يد صاحبه أحمد حشمت بوظيفة دار الكتب . فأحمد محرم يجهل حال الأديب فى مصر أو يتجاهله ، ويظن فى بساطته الريفية أن اقتران اسم الإلياذة بالإسلام يشعل العقول والأذهان ويجعل الأغنياء والعلماء يترامون على عتبات ديوانه ليخلدوا مجد الإسلام فى شعره ، وهذا وهم كبير يجب أن يفرغ منه فؤاده وعقله . ولعله لم يندم على تنكبه خطة زميله أحمد الكاشف « من أصل چركسى رومى وجدته خالة أحمد شوقى وكانتا رفيقتين فى الرق الى أن أسلمتا أو بعد ذلك على مارواه

أحمد الكاشف سنة ١٩٤٠ فى جريدة الأهرام » . فإن هذا الشاعر الريفى « من قرية القرشية » شرع خطة عجيبة ، ففى عهد كل وزارة جديدة ينظم قصيدة طويلة فى مدحها وذم أسلافها إما تلميحاً وإما تصريحاً ثم يحملها ويقبل على القاهرة فينزل ضيفاً على أقاربه ويوسطهم لدى الصحف فى نشرها ثم يهبط على الوزارة فيخرج بمئات الجنيهات ويعود بها مسروراً الى القرشية فيشترى الطين ويقوم على الزراعة ويأكل العسل والقشطة والحليب الى أن تنقلب الوزارة فينظم ثم يعود وهكذا دواليك منذ ثلاثين عاماً ، فحشد ثروة وحاز أرضاً ولم يبال بتقلبه ولم يطبع غير ديوان رقيق فى بضعة أوراق كتب له أحمد شوقى ابن خالته مقدمة بليغة وقرظه بقصيدة حسنة لرابطة القرابة التى لم تكن نعرفها قبل سنة ١٩٤٠ .

ولكن أحمد محرم أبعد الناس عن مثل هذه الخطة العجيبة ولو جلبت له مال الأرض ، لأنه رجل ذو مبدأ وعقيدة ولايستحل أن يقبض من الأموال السرية ثمناً لمدحه وتمليقه وبعض الدعوات الصالحات للحكم القائم . ومن العجب أن أحمد الكاشف يمدح الوزير الحى أثناء بقائه فى الوزارة ثم لايتذكره بعد القبض . فإذا مات الوزير المنعم ينبرى أحمد محرم لرثائه إن كان يستحق الرثاء ، ويلزم قبّاض المئات فى قريته القرشية الصمت العميق مشغولاً بنظم الخريدة البيضاء والدرة اليتيمة فى مدح الحكومة المقبلة وقدح الحكومة القديمة . وهذه صور صحيحة صادقة ، وقد عرفت أحمد الكاشف عن قرب وهو يبدو كالمذهول وبعينيه رمد وعمش ولكنه لايعمى عن طريق منفعته ولا عن عد النقود ، فهو يعتبر نفسه أجنبى عن هذه البلاد بموطنه الأصلى وعقيدته القديمة ومنصب جدوده الكشاف الذين نهبوا البلاد وظلموا العباد ، فهذا الحفيد الحديث لم يعدل عن خطتهم ولكنه عدّل خطته بينما الأدباء المصريون أهل الحياء والأدب أمثال أحمد محرم وعبد الحليم حلمى المصرى يتضورون جوعا، وقارن بينه وبين أديب غريب كالمرحوم الكاظمى فإنه منذ نشر عينيته العصماء فى تحية مصر فى

سنة ١٨٩٩ لم ينظم إلا فى الحكمة وشكوى الدهر وإنهاض الشرق والاسلام ولم يقبل أن يقصد الى أمير أو وزير ليقيل عثرته وهو من وطن الشريف الرضى ، وغيره من بلاد جورجيا وقفاقازيا والأرناؤط ، وفينقيا وفى قلوبهم مرض بل أمراض وفيها حنين الى ملتهم وبلدتهم وفيهم عزوف عن العروبة والاسلام والعدل والرحمة ٠

وتمثيل الفريقين ظاهر فى شخص الشاعرين العائشين أحمد محرم وأحمد الكاشف ٠ وقد قرأت أخيراً أن محرم مرض واحتاج الى عملية جراحية فعنى به عبد الواحد الوكيل بك وزير الصحة وأوصى بمراعاته فى علته حتى شفى ، ولعل هذه هى المرة الوحيدة التى اهتم فيها رجل من الحكام بصحته ٠

أحمد منصور العزب

هو فلاح بسيط من إحدى قرى القليوبية ، تقدّم إليَّ فى سنة ١٩١٥ أثناء الحرب وكنت أترافع فى المحكمة المختلطة قبل أن أجزم بالاقتصار على المحاكم الأهلية . وكانت قضيته مرفوعة على رأسمالى يونانى اسمه كوستى ٠خ٠ وموضوع القضية أن اليونانى يداينه فى مبلغ ضخم والفلاح يطعن بأن الدين ينطوى على ربا غليظ مركب ويدعى بأن الخواجا مالك الأرض كان يجنى محصول القطن ويدخله مخازن الوسية ولايعطيه إيصالا ولايدقق وكلاؤه فى الوزن ، وأن القبانى كان متواطئاً معه حتى أن أحمد منصور العزب خسر خسارة مثلَّثه فى الكمية والوزن وتقدير الثمن ومايتزعزع الدين عن أصله مهما قدم المدين المسكين من زرع ونتاج على مدى السنين ، فكان رقيقاً مزدوجاً بعمله وماله ومعيناً عذباً للمرابى الرومى الذى لايرحم ولا يقسط ولم يكن الرجل وحيداً بين أهل القرية ، بل إنه واحد من عشرات إن لم يكونوا مئات ممن استأجروا أرض الرجل ثم استدانوا مبالغ ضئيلة ، فتضخمت ثم جثمت على كواهلهم وصدورهم وصارت كقطع الليل التى لايزيلها إصباح والدفاتر والحساب والرصيد والأصل والخصم كلها بيد الرومى ووكلائه كالخولى وناظر الزراعة ووكيل الزراعة وكلهم أعوان الرجل والقول ما قالت الوسية ، أى هؤلاء السرّاق مجتمعين ومنفردين ، ويأخذون توقيع الرجال وهم أميون ومن لايبصم بختمه يبصم بإبهامه ٠ ومايزال الرومى يكدس ويغتنى ويشترى أرضا ويؤجرها لأمثالهم فلا يملكون إلا أن يعيشوا عيشة ضنكاً هم وأولادهم ونساءهم ولايرجون فكاكاً ٠ ولم يجرؤ على العصيان والوقوف فى وجه هذا الجبار إلا أحمد منصور العزب .

فلما وقعت لى هذه القضية وقلبت أوراقها وناقشت الفلاح وهو شيخ فى الستين من عمره أبيض اللحية ، هالنى أنه لايعرف من أمره شيئاً إلا أنه مظلوم وأنه « ورد » كذا وكذا قطنا وكذا وكذا قمحا وكذا وكذا فولا على جملين له ، ولا ريب انه كان مسئولاً عن مشاركة خصمه وظالمه بجهله وإهماله ولم يحرك ساكناً إلا بعد أن هلك أو كاد ورأى أن حياته وجهوده وجهود أبنائه قد ذهبت هباء . وبيعت مواشيه وحجز على نحاسه ومحراثه ونورجه وشادوفه وأصبح على الحصير .

وعلمت أن عشرات القضايا كهذه قد فركها الأروام بيدهم وفتلوها وذروا فتاتها فى الريح ، فإنهم يملكون مستندات تثبت صدق أقوالهم وحسن معاملاتهم ومخالصات ثابتة التاريخ ، ولايمكن الطعن فيها ، وخصومهم بل ضحاياهم على شاكلة العزب . فلا أمل لهم فى الكسب ولا يربحون إلا عداوة الدائنين الأقوياء وهيهات أن يفروا من أيديهم بغير الحبس بتهمة تبديد بعض القمح أو الشعير الذى يسدُّون به رمقهم .

ودخلت المحكمة أضرب أخماساً لأسداس .. وهناك رأيت قاضياً دنمركياً اسمه نيهولم وكان محامى الخصم رجلا يونانياً أحدب . فلما أبدى الفلاح دفاعه بلسانى أحال نيهولم الدعوى على التحقيق ومعنى هذه الاحالة أنه ضرب بأوراقه وعقوده عرض الحائط وأمر كل فريق بإحضار شهوده . وحضر الخصمان ، فكان فى منظرهما مايكفل توجيه العدل . فقد كان موكلى الفلاح شيخاً أشعث أغبر بالى الثياب مجعد الوجه منحنى الظهر يلبس « لبدة » أكل عليها الدهر وبشتاً شرب عليه الزمان . أما اليونانى ذو الألوف فكان يقرب من سنه ولعله أكبر منه وإنما كان معتدل القامة أحمر الخدين أبيض الشعر ذا بزة حسنة وعينين لامعتين وصوت قوى ، دع عنك الثياب الثمينة والحلى التى يحملها . وقد وقفا أمام القاضى . وكان نيهولم إذ ذاك يناهز الستين أبيض الشعر أزرق العينين ولكن وجهه يشبه التماثيل القديمة الفاخرة . ولم يكن يعرف العربى ولا اليونانى ويتحدث الى المحامين والترجمان بالفرنسية .

فلما بدأ التحقيق ودونت الأسئلة والأجوبة أخذ الرومى يتذمر وهو يذرع غرفة التحقيق ويلوح بيديه ويدمدم ثم أخذ يتكلم بالعربية . فقال أنا راجل نمتى كويس كتير ومس ممكن آكل فلوس راجل زى ده .

فلما نقلت الى القاضى هذه العبارة أمره بالصمت ، وتكررت المقاطعة وتكرر الإنذار .

وأخيراً قال الرومى « أنا راجل غنى كتير يمكن عندى عشرين ألف جنيه ثلاثين ألف جنيه ودى راجل مسكين مس يمسك عسرة قروس » .

ونقلت هذه العبارة الى نيهولم فاعتدل فى مقعده وقال له بصوت هادىء ما ترجمته :

— كوستى .خ. أنذرتك وتوعدتك بالإخراج وأنت لاترعوى وهذا آخر إنذار . وتقول إنك تملك عشرين ألف جنيه وأنا لا أنازعك فى تقدير ثروتك ولا خصمك ينازعك. بل يسره أن يعلم مقدارها كما يسر المحكمة ، لأن هذا التقدير دليل على أنك كومت هذه الثروة الطائلة بالنسبة لك ولأمثالك من دماء خصمك العزب وأمثاله وهم ضحاياك فهذا الذى تقوله عليك ، لا لك .

وتداخل الرومى فى بعضه ، كما تثنى القماش أو تغلق صندوقاً عتيقاً ، ورمى القاضى بنظرة فاتكة ، ثم لزم الصمت وسمع الشهود من الطرفين وأجلت الدعوى للمرافعة وترافعنا وقضى نيهولم بحكم فى ثمانين صفحة ، نعم فى ثمانين صفحة يعد وثيقة إنسانية وحكماً عالمياً ، لأنه طرح فيه مسألة الفلاح المصرى والمرابى الأجنبى وشرح وجوهها قبل أن يدخل فى موضوع الحكم ، فلما وصل اليه فحص كل مبلغ فحصاً دقيقاً وأخذ بكل ما أيده الشهود من أقوال الفلاح بشهادتهم وكلهم من الضعفاء الذين كان يرهبهم الخواجا كوستى الذى خسر دعواه وخرج يعض بنان الندم ورفع

العبء عن كاهل العزب ، لا بفضل محاميه ، ولابعجز محامى خصمه ، ولكن بعدل القاضى الذى أقسم فيما بينه وبين نفسه أن ينصف المظلوم ونشر الحكم فى جريدة أفرنجية فكانت له طنة .

ولم يلبث نيهولم بعد ذلك أن نقل الى محكمة العدل الدولية فى لاهاى فاحتفل به القضاة والمحامون وقدموا له باقات الأزهار يوم سفره وكان على أفريز المحطة شيخ فان يلبس الزعبوط ويعتمد على عكاظ وقف صامتاً ولسانه يلهج بالدعاء للقاضى الراحل ولايحمل فى يده إلا منديلا أحمر يجفف به عرقه . ولم يقصر نيهولم فى مصافحته ولعله لايذكره فظنه بواب العمارة التى كان يقطنها . فهتف الرجل « روح الله ينصرك وينصر كل مظلوم على يديك » .

كان الشيخ الفانى الذى جاء مودعاً وداعياً « أحمد منصور العزب » أرأيت ؟ لاتظن أن أغنياء مصر وكثيراً من باشاواتها وأعيانها أرباب الألوف من الأفدنة يقلون عن كوستى .خ. ظلماً لفلاحيهم ومستأجريهم ، ولكن رعب المظلومين من ظالميهم أكبر من رعب العزب من ظالمه الأجنبى .

إنهم يؤجرون للفلاح ويأخذون عليه عهوداً وعقوداً ممهورة بإمضائه أو ختمه ولا يعطونه مثلها زاعمين أنهم موضع الأمانة والشرف وأن حسابهم لاتتسرب اليه شائبة وأنهم يغالطون ويغشون فى الكمية والوزن والثمن ولا يبالون . وأن بعضهم قد اصطنع « لذراع القبانى » ثقباً دقيقاً صب فيه كمية من الزئبق ، تفوق فى كل وزنة خمسة أو عشرة أو خمسة عشر رطلاً ، وأنهم وأنهم ... ولولاهم ماتعلم الرومى ولا تجرأ على نهش لحم ابن البلد . ولو وجد الرومى من يعتذر له من بنى جلدته أو مستخدميه

وحاشيته أو محاميه كذلك الأحدب الذى انقبض كالجرذ حيال السنور القوى ، فمن يعتذر لهؤلاء الباشوات والأعيان أصحاب الأطيان التى يعجز عن حصرها العدد ، والذين كدسوا فى حياة جيل واحد ، مالم يستطع أحد الفراعنة أن يجمعه . وقد رأينا قضاة مصريين يزعمون أن فلان باشا لايمكن أن يغير الحقيقة (وتغيير الحقيقة ظاهر ثابت) لأجل بضع عشرات من الجنيهات ، لأن مقامه ومكانته أرفع وأسمى من أن يفعل ذلك . فمن لنا نبيهولم ثانٍ أو عشرة من أمثاله !! .

إرمـان بيكيــر

شاب فرنسي من مدينة ليون رفيقي في درس الحقوق بهيّ الطلعة ودود ذو عطف على مصر والمصريين ، كان يدعوني الى بيته ويعينني في دروسي في أول أمري بكلية الحقوق فتوثقت بيننا عرى المودة وقد تخرجنا في وقت واحد من كلية ليون ، فكان يتصل بي بمكاتيبه إلى أن وصلني منه خطاب من تونس في ١٩٢٣/٥/١٩ ، يوصيني فيه بمحام فرنسي نازح من تونس الى مصر اسمه سكورديتو لم أعرف له جنساً ، فقد قيل إنه يوناني وقيل إنه إيطالي إلى أن ظهر أنه إيطالي أثناء الحرب العظمى .

وكانت توصية بيكير عزيزة عليّ جداً فبذلت جهوداً في استقبال صاحبه وأسست له ما أراد وصادقته ، ولكنه كان يختلف عن صديقنا اختلافاً كبيراً . وقد ظهر لي أن حب بيكير للشرق هو الذي دلّه على تونس فاختارها أول ميدان لعمله ، ولاشك أن مثله ينجح نجاحاً باهراً لدى أهل البلاد لما انطوى عليه من الإخلاص والذكاء وحب الإنسانية والعطف الصادق . وقد استمر بيكير يراسلني الى مابعد الحرب الأولى من تونس ومن فرنسا . ولكني لم أسمع من سكورديتو عنه خبراً ، وكان يوجز كلما ذكر اسمه وأخيراً انقطعت عني أخباره فأسأل الله له الخير في حياته واليسر والتوفيق ، فقد كان في أيامي الأولى في ليون كالشعاع المضيء في الظلمة الحالكة ومن كلماته لي « نحن نذهب الى الشرق لنربح ونحكم ونأخذ المال ربما غصباً ولانحب أهله وأنتم تقدمون إلينا لتتعلموا وتنفقوا المال وتحبوننا فكيف لانرحّب بكم ولانبذل في سبيلكم » ، وهو في هذه الخطة كان مخلصاً ، وكان تلميذا باراً لأستاذه وأستاذي ادوار لامبير .

أمين الريحاني(*)

تنقسم حياة أمين الريحاني - الذى عاد أخيراً الى وطنه من أميركا - بعد أن خدم المسألة الفلسطينية وأقام دعوى العرب على غيرهم ودعم قضيتهم بفصاحته ومنطقه - إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول - بداية حياته فى وطنه عندما رأى النور - نور الغرب - وعلم أن لا خلاص لنفسه إلا الهجرة .

والقسم الثانى - اشتغاله بالأدب المنثور والمنظوم فى أميركا باللغتين العربية والأنكليزية ، ويدخل فيه زواجه ورحلته الى انكلترا وتعرفه الى كثير من أهل الفضل والأدب والمال والسياسة أمثال كارنجى وروكفلر وولز وشو وغيرهم .

والقسم الثالث - خوضه غمار الحياة العملية فأصبح طوافاً حول الأرض لخدمة مبادئه السياسية وهى إحداث رابطة قوية بين الممالك العربية التى تأسست عقيب الهدنة التى تلت الحرب العظمى ، ويمكن القول بأن الحياة العقلية والفنية والروحية تحولت الى حياة عملية من سياحة الى سياسة ، ومن تدوين الأفكار الى وصف الأسفار ، ومن مداعبة الخواطر الى مناقشة الوزراء والسفراء فى القاهرة وجدة وصنعاء والطائف والرياض وبغداد والكويت .

وليس أمين الريحانى بالغامض أو المتصوف أو من أرباب الخفاء فى الأدب ، ولكنه واضح كل الوضوح وإن كان يميل أحيانا الى التناقض ، وهو فى الدين حر الفكر على مذهب سيدنا محيى الدين بن عربى صاحب كتاب الفتوحات الشهير .

(*) مقال نشر بجريدة المقطم فى سبتمبر سنة ١٩٣٧ تحت عنوان « ثلاثة رجال عالميون ، فرح أنطون - جبران - أمين الريحانى ولدوا فى لبنان وعاشوا فى أميركا وحاولوا التوفيق بين الشرق والغرب » .

وقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى
إذا لم يكن دينى الى دينه دان
وأصبح قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان وديراً لرهبان
فمسجد أوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب كيف توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمانى

فهو مستشهد بهذه الأبيات (ص ٤٠ ج١ من كتابه) وكان يكثر من ذكرها فى خطبه وكذلك كان المرحوم فرح أنطون ولكنها لم ترد على بال جبران .

وقد تأثر الريحانى فى حياته الأولى بمناظر ومؤثرات مبكية ومضحكة خلدها فى كتابه الأول باللغة الإنكليزية « خالد » الذى سجل فيه حياته الأولى غير مانظمه شعراً فى التصوف[1] والأدب العربى والحياة الشرقية ، فقد كان كثير الإنتاج جريئاً على المثابرة عميق التفكير قليل التدبير ولكنه كان شديد الحرص على كيانه المادى .

يقول الريحانى « كثيرون من المتدينين لايصومون ولايصلون وكثيرون من أولى الألباب الموصومون بوصمة الكفر يغسلون أدران قلوبهم ببركات الصلوات وينيرون بصائرهم بأنوار التأمل والقربان من أجل هذا لايسوغ لنا أن نقول اذاً إن كل من يصلون أتقياء وكل من لايصلون كفرة جهلاء .

خذ لك مثلا جاء فى تاريخ الثورة الفرنسوية الذى ألفه كارليل – أن الأب تيراى كان يختلف الى الكنيسة ليقدس كل يوم وأن (تيرجو) وزير المالية فى عهد لويس

---

(١) من كتبه الإنكليزية رباعيات كرباعيات الخيام وأناشيد درويش أشعار حرة .

السادس عشر لم يكن يدخل قط بيت الله . ولكن تيراى الكاهن كان فاسقاً محتالاً منافقاً ، بل كان لصاً بمعنى الكلمة وكان (تيرجو) رجلا فاضلا صالحاً وفيلسوفاً نزيهاً عفيفاً، فلا الاختلاف الى الكنيسة أصلح الأول ولا أفسد الابتعاد عنها الثانى - ما نفعت كثرة الصلاة المنافق المحتال ولا أضرت قلتها أو عدمها بالصالح الأمين » .

ولقد اتخذ أمين الريحانى أو فيلسوف الفريكة شعاره ومبدأه لا من محى الدين بن عربى شيخ المتصوفة العرب الذى قتل فى سبيل مبدأه كما قتل الحلاج[١] من قبل ، بل اتخذه واستنبطه أيضا من سفر أيوب ومن حديث النبى محمد ومن فلسفة الغزالى ومن عقيدة كانط فى العقل المطلق ونظرية وجود الخالق .

فمن حديث النبى الذى اقتدى به قوله : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من كنوز الدنيا » .

ومن قول أيوب النبى الصبور : « والآن أجيب أنا فى توبتى وأبدى أيضا علمى .. لا أحابى إنسانا ولا أطرى بشراً » .

والغزالى فى قوله فى كتاب مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة .

« ولو لم يكن إلا مايشكك فى اعتقادك الموروث لكفى به نفعاً ، فإن من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى الحيرة والعماية » .

أما رأى كانط[٢] فهو « أن عصرنا هذا عصر الانتقاد والأشياء كافة ينبغى أن تخضع لأحكامه ولكن الكثيرين من الناس يظنون أن قداسة السلطة ترفع الدين

---

(١) قتل محيى الدين لأنه قال لبعض أهل زمنه معبودكم تحت قدمى وكان يقصد الذهب فأساءوا الفهم كما قال الحلاج « أنا الحق وما فى الجبة إلا الله » يقصد غير ظواهر الكلام فحاكموه وذبحوه .

(٢) عمانوئيل كانط فيلسوف ألمانى ولد فى كونجز بورج من والد سروجى أنيوسى الأصل وولد سنة ١٧٢٤ وتوفى سنة ١٨٠٤ وأهم كتبه « نقد العقل الصريح » ولم يتزوج .

والشرائع فوق فتوى النقد وتخرج بها من محكمته الجليلة منكرة صلاحية أحكامها، فإذا فعلت ذلك تدمغ الشرائع الدينيه والمدنية بالشبهة والريب وتفقد الاحترام الذى نقدمه مخلصين للتعاليم التى تمحص فى محكمة النقد - التعاليم التى لايخشى واضعوها والمتشيعون لها أن تفحص فحصا مدققا » .

وهذه المبادىء الأربعة أو الخمسة تدلنا دلالة صريحة على اتجاه فكرة الريحانى فى طور تكوينه الأول فهو يحب أن يكون طليقاً من كل قيد ، على الرغم من الاختلاف بين الشخصيات التى استشهد بنبذ من آرائها ولانريد أن نقول التناقض ، فإن هناك بونا شاسعا بين رغبة الهداية التى تجلت فى حديث النبى وبين النفور من المحاباة والإطراء وإظهار العلم التى بدت فى كلمة أيوب ، كذلك الشك المتجلى فى حكمة الغزالى والعناد وشدة اليأس والقوة فى الحق التى انطوت عليها كلمات كانط .

غير أن الظاهر فى آراء الريحانى أنه رمز حى لفلاسفة القرن الثامن عشرة ، فهو يسأل صاحبه باسم الحب وباسم الحقيقة أن لايخطو خطوة واحدة معه إن لم يتجرد تمام التجرد مما ورثه عن أجداده ولو لبضع ساعات من أطمار الأجيال . وهذا طلب غريب جداً فإنه لاصديق الريحانى أو قارئه ولا الريحانى نفسه يمكنهما أن يتجردا مما ورثاه من الأجداد مهما كانا يمنّيان نفسيهما بجمال الحج والوصول الى كعبة الحقيقة وأمل العثور بالأثواب الموروثة وأثواب أخرى جديدة .

وان الريحانى ليذكر دائما لرفيقه أنه أكل من جفنته وتنوق من وجبته وشرب من إبريقه فتروى برحيقه ونام تحت قبائه فاستظل بظل خبائه وإنها لثلاث خلال خليقة بغرس بذور الإخاء وتنمية زرع الوفاء فإن افترقا فكما ترافقا متحابين لا متعاديين .

ومن أدق الملاحظات أن أمين الريحانى كتب هذه النبذة بخط يده فى مدينة بيروت أول كانون الثانى سنة ١٩١٠ وكأنه تعجل بعين الخيال ما وقع له فى عالم الحقيقة بعد ذلك باثنتى عشرة سنة ، فقد استعار الألفاظ الآتية فى اثنى عشر سطراً

وهى السياحة ، المرافقة ، السير ، السرى ، الكعبة ، الحج ، مئزر الحج ، الجفنة ، الإبريق ، الخيمة ، الأكل ، الشرب ، النوم ، الإخاء ، الافتراق ، المحبة .

فقد حدث أن هذا الرجل الذى استعار تلك الكلمات لمقدمة كتابه (الجزء الأول من الريحانيات سنة ١٩١٠) هو نفسه الذي صارت له تلك الألفاظ حقائق ملموسة فى سنة ١٩٢٢ حيث ساح فى البلاد التى يلجأ فيها السائح إلى تلك الألفاظ وهى بلاد العرب والعراق ، فمن الحجاز إلى اليمن ومن الكويت إلى الخليج الفارسى حيث كان السير والسرى والمئزر والحج والجفنة والإبريق والخيمة والطريق والرفيق حقائق ملموسة وأدوات محسوسة لاشك فى قوتها وأثرها . فهل هذا دليل على قوة العقل الباطن ونفوذه فى أعمال الرجل الواعى أم هى المثابرة فى تحقيق الأمل من وراء ستار الحياة المادية ومعطلاتها ، لأنه لاشك عندنا فى أن الريحانى الذى عرفناه للمرة الأولى سنة ١٩٠٥ لدى عودته من اميركا الى لبنان ماراً بوادى النيل لم تكن نفسه تحدثه بالسياحة فى بلاد العرب ، ولأنه لم يكن قد أتم حلمه فى الولايات المتحدة ، وكان فى سنة ١٩١٠ عندما كتب هذه الأسطر لايزال فى مقتبل العمر ولم تكن الحرب العظمى قد أطلت بأحد قرونها الجهنمية ولولاها ماتفككت أواصر الدولة العثمانية ولا وجدت الممالك والدويلات العربية التى كانت سياحة الريحانى بسببها ونتيجة لها ومبنية عليها، فمن أين له التفكير فى الصحراء والخيام والجفنة والإبريق وهو الذى ولد فى وادى الفريكه وهو واد مهيب أكثر منه جميل ، عميق ملتو ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه فى نهر الكلب ، وإنه لواد صغير ولكنه كثير الزوايا والأسرار يجمع بين الدلب الذى لايعيش إلا بالقرب من الماء والصنوبر الذي يكتفى بمشاهدة البحر من أعالى الجبال.

وإن أمين الريحانى ليشعر بأن روح الوادى تجسدت فيه وروحه تجسدت فى الوادى ، فهو إذن والوادى سواء فى نفس الريحانى مافى الوادى من الظلال

والخيالات والكهوف فى نفسه مافيه من الصخور الشامخة والمنحدرات الهائلة والسواقى الفائضة والأنهر الجارية فى نفسه مافيه من العصافير والجنادب والنسور والهوام والذئاب أيضاً (راجع فى هذا المعنى وهذا الخيال النادر الفصل السابع من كتاب الإنسان الكامل للجيلى) ولم تكن نفس الريحانى تشرف على المستقبل فيما له علاقة بسياحته المقبلة بل امتدت تلك القدرة على المسائل العامة ، اسمع له وهو يقول :

« وإنى أؤكد أن هذه البعوضة الراقدة الآن فى هذه الخيام النحيفة آمن على نفسها من قيصر الروس فى قصره » .

أمين أنيـــس

أحد الوزراء فى مصر عرفته سنة ١٩٠٥ مذ كان مترجماً فى مكتب ملكولم مكلريث المستشار القضائى الأسكتلندى فى مصر ٠ وكان أصحابه محمد شريف وحلمى عيسى وآخرون ممن خدموا ثروت باشا بعد ذلك ٠ وكان أمين أنيس شابا خجولا مهذبا ومحبا للخير ٠ فلما رآنى فى حلوان ومعه صديقه محمد شريف فكرا فى خدمتى فحملا من مكلريث توصيته إلى أحد مديرى الشركات الأنجليزية ليوظفنى بشركته وكنت قد استقلت من وظيفة التدريس بمدرسة حلوان الابتدائية بسبب ضيق عقل ناظرها المدعو خورشيد وكان يجهل أن القرآن مترجم باللغات الأوروبية ٠٠ ، فلما وجد فى كراسات تلاميذى بعض آيات بالأنجليزية منقولة عن بعض التراجم الشهيرة ذعر وتلعثم ووصف هذا بأنه كفر وإلحاد ومخالفة للقوانين واللوائح ... إلخ ، فاستقلت فأنهى الأمر إلى وزارة المعارف فحضر المفتش سوانسون ولما علم بجلية الخبر سأل الناظر إن كان لايعلم حقاً أن القرآن مترجم باللغة الأنجليزية ، فلما أجاب أنه لايعلم ضحك وقال له « أوه كورشيد (خورشيد) بعض خوجاتك أعلم منك » ، ثم عرض علىّ وظائف ترجمة بالديوان العام فتشبثت بالاستقالة وبذل لى مرتباً أكبر فتشبثت ، فقال لى فكر يومين ثم قل رأيك ٠٠٠ وفى هذه الفترة أراد أمين أنيس ومحمد شريف أن يخدمانى كما ذكرت فلما قابلت مُدير الشركة الأنجليزى شعرت بنفور شديد من الدخول فى عمل شركته وانصرفت ، ولكنى لم أنس جميل الصديقين ولاسعيهما فى منفعتى فى حدود قدرتهما ٠

وكان أمين أنيس من أنصار الأنجليز لأنه نشأ فى حجورهم ورضع لبانهم وعلّمه المرحوم ثروت باشا أن لهم الكلمة العليا ولن تكون لسواهم فأخلص لهم وخصوصا فى إعداد بعض القضايا السياسية التى حدثت سنة ١٩٠٦ ، فأوصوا به خيراً هو ولفيف من زملائه وأوصوا عليهم وتعهدوهم حتى وصلوا جميعا الى منصب الوزارة وهم معروفون للخاصة .

وكان أنيس باشا قبل تقلده الوزارة يعيش أعزب فى بيت أخته وكان مستقيماً فاضلاً فأصابته نوريوستانيا بسبب عزلته ووحدته وعزوبته وأعقبها أرق شديد أعجز الأطباء ، فتناول مسدساً وأطلقه فى ليلة ليلاء على مؤخر رأسه فجرح جرحاً كبيراً وأتلفت الرصاصة بعض أعصاب وجهه واستقرت فى العظم ولم تصل بحمد الله الى المخ . وكانت هذه الرصاصة الطائشة سبباً فى شفائه من الأرق . وانفتحت فى وجهه بعدها سبل التقدم والحياة السعيدة فتزوج واستوزر وكان رئيس المحكمة وكان عادلا مهذبا ولايأنف بعد الوزارة أن يقوم بأعباء وظيفة قضائية أو قانونية مادام قادراً على العمل وهى الخطة التى رسمها أحمد طلعت باشا ، إذ قبل رياسة محكمة الاستئناف بعد الوزارة ، وكان الوزراء بعد الاستقالة يتعطلون سنوات عدة فى انتظار الحظ السعيد الذى يؤهلهم لها مرة ثانية فتفنى كهولتهم فى انتظار ليلة القدر وتصدأ مواهبهم ، ولم تكن عادة قبولهم عضوية الشركات المالية قد استجدت وهى التى تدر عليهم وهم فى المعاش ألوف الجنيهات ، وأول من ابتكرها وأفاد منها حسين رشدى باشا ، وقد يصير أحدهم رئيساً أو عضواً فى سبع عشرة شركة فيجمع فى العام الواحد ألوف الجنيهات وهى تربى على عدة مرتبات وزارية . ولكن لانعلم عن أمين أنيس شيئاً من هذا ولم يشتهر به إلا محمود شكرى باشا وإسماعيل صدقى وحسين رشدى وعلى الشمسى وبعض من لهم سابقة اشتغال بالمسائل المالية ولاتحضرنا أسماؤهم .

ولأمين أنيس باشا فضل على كثير من زملائه لأنه لازم الشارعين المصريين أمثال ماك كلريث وبرونيات وردكاسيرا وروسى أيام كانت القوانين تطبخ فى وزارة الحقانية وقبل وجود البرلمان ، فإن قانون العقوبات الذى صدر فى سنة ١٩٠٤ كان كله أو معظمه من عمل برونيات كنصوص الوثائق الرسمية ٠ وكان وجود هؤلاء الشبان فى محل العمل التشريعى يزيد فى مراتبهم ويقربهم من الذين حسبوا أنفسهم خلفاء الشريعة فى مصر ٠ وهذا حق فقد اطلعت على بحوث ومذكرات لهذه الفئة الطيبة واستبنت فيها أثر الثقافة القانونية ، فإن كل الأعمال التجهيزية والمشروعات والمذكرات التفسيرية كانت تمر بأيديهم ، وناهيك بتشريع مملكة كمصر فى القرن العشرين ، وليس هنا موضع السرور أو الأسف فقد كان للمادة ٤٧ مكررة قصة أى قصة فإن مذكرتها التفسيرية وتطمين الوزراء للجمعية التشريعية فى سنة ١٩١٠ من أن هذه المادة لن تطبق إلا فى القضايا الكبرى كاليد السوداء والجمعيات السياسية السرية وقضايا الاغتيال ، لأنها وضعت بسبب براءة شركاء الوردانى ، فقد ضربت المحاكم بهذا كله عرض الحائط ولاسيما محكمة النقض التى قالت مرة إنه نص عام واجب التطبيق فى كل الأحوال حتى ولو كان الاتفاق الجنائى على سرقة مال أو ضرب رجل أو تزييف نقود ٠٠٠ إلخ ٠ والمحاكم فى الواقع معذورة لأنها تطبق نصوص المواد لا ماورد فى المذكرات التفسيرية أو فى وعود الوزراء ٠

وقد دلت الحوادث على مقدرة أمين أنيس إذ انتدبته الحكومة المصرية لوضع أو تنقيح العقد الذى وقعه الخديوى عباس سنة ١٩٣٠ فى أوشى (ضاحية لوزان) بالتنازل عن عرش المملكة المصرية لقاء جعل سنوى قدره ثلاثون ألف جنيه يعطى له مدى الحياة وقد قبض منه حتى الآن ٣٦٠ ألف جنيه أى مايزيد عن ثلث مليون جنيه وقد حضر أمين أنيس باشا توقيع هذا العقد بنفسه ٠

أنطـون جرجـس

أبوه مـؤسس المستـشـفى القـبطى بالقـاهرة ومن زعـمـاء الطائفـة واشـتـغل الابن بالسياسة ورشح للانتخابات وانتخب بعد أن كان يساعد المرشحين الأكبر منه سناً ، ولم يكن على شيء من العلم أو الفطنة إلا بما عليه أمثاله من أبناء الذوات وعاش بغير زواج عيشة مجازفة ومخاطرة فى كنف أبيه والحزب الذى ينتمى اليه . وكان أصغر منى سناً ببـضع سنين ولكن خلة غـريبـة ظهرت فى عـلاقـتى به ، فـإننا مـا اجـتـمـعنا مـصادفـة فى عمل إلا ىكـان التـوفيق مـصاحـبى كـأن حظه يهدى إلىّ الحظ الحسن ، فكنت أتفـاءل به خيراً كلما رأيته وأستبشر ، حدث هذا فهى اجتماعات سياسية وفى قـضايا كـبرى يكون لى فـيـهـا القُدح المعلى سـواءاً كان شـريكى أو خـصـمى غـائبـاً أو حاضراً مجرد حضور .

قـصد الىّ فى المرافعة عن خاله « زكى نصر » فلما خدمته زادت ثقته بى وكان يركن الىّ فى كل الأمور ، واذا اشتدت الخصومة السياسية بين حزبه وحزبى لم يقطع مودتى ويرى أن العلاقة الشخصية فوق نزاع الأحزاب وخصومة القضايا ولاتقتضى التقـاطع بين الأصحـاب . ومـعظم أصـدقـائى الأقـباط على هذه الوتيرة مـاعدا اثنين أو ثلاثة من ذوى العقليات الريفيـة الذين يـخلطون بين الصـحبـة والسـيـاسـة أو الصـحـبة والمنازعة القضائية ، وكان وحيد أبيه ولكنه كان متـهوراً فى قيادة سيارته وفى سـهراته ولو أحسن أبوه لزوجـه مبكراً فـيصـون صـحـته وكرامتـه . وقد وافتـه منيتـه فجـاءه وترك مـيـراثاً حسناً وثروة جيدة كـانت تؤول اليـه لو أنه عاش ، ومن المصـادفـات أنه انتـخب عن بركـة الـسـبع وهى بلدة أهـل أمى ولى فـيـهـا أقـارب وعزوة ولو رشـحت فـيـهـا لفـزت ولكننى طلقت الـسـيـاسـة الـعـمليـة من أول ظهـور البـرلمان لما علمت طريقـة الانتـخـاب وشخصيات المنتخبين وسمعت بأخبار (المعكمة) الشهيرة .

بالا فيتيشينى

« المارجراف تشاكى كونت سوير ديلاتبيسى »

اسم طويل حقاً لأمير مجرى عرفته سنة ١٩١٢ فى مدينة ڤيڤى بسويسرا فى صحبة كريمته التى هى كونتيس منسوبة الى زوجها المفارق لها ٠ وهذا المارجراف كان رجلا نبيلا سرياً أخبرنى أنه قد عرف مصر منذ بضع سنين بزيارة المرحوم مصطفى كامل لقصره ٠ وقد رحب به لأن المجريين يحبون أوطانهم ويمجدون الوطنيين أمثال كيسوث الوطنى المجرى الشهير ٠

والمارجراف عندما لقيته كان شيخاً كبارى طويل القامة أبيض الشعر يربط عينه اليسرى بضمادة سوداء وهو رجل رحب الصدر محب للحياة ولكنه ذو إباء وشمم ، ولابد من سبب قوى لترك وطنه وقصره ورضاه بالاقامة مع ابنته الكونتس وحفيدته فى نزل سويسرى ٠ وتلبس كريمته الحداد وهى امرأة سمراء فى الأربيعين من عمرها وليس لها شىء من الجمال أو الزينه ولكنها ذات آدب جم وعقل راجح وكفاية موسيقية، وقد بذلا لى النصح الخالص وأعانانى فى إحدى محن الحياة التى تصيب الشباب ، فأخلصا وأجهدا نفسهما فى الوقوف بجانبى وإرشادى الى الصواب فى مشكلة حالكة السواد ، وقد تطوعا لخدمتى كأنهما مرسلان من السماء ، وقد كدت أفقد حياتى لولا أن أخذ هذا الفاضل وكريمته جانبى وبصرانى بعواقب الأمور ونصرنى الله على يدهما على الأعداء وكانت عصابة ذميمة لئيمة ففل الله سلاحهم وخذلهم وفرّق شملهم وحمانى من شرهم ، ولم يتردد الماجراف فى الظهور بمناصرتى والوقوف بجانبى وقوف الرجل الشهم ، حتى وصفوه بالدون كيشوت وهو بطل كريم بذل كثيراً فى رفع المظالم ومقاومة الشر ، حتى لقى حتفه وصادف منيته ، فلم يعبأ المارجراف بهذا التشنيع فى سبيل خدمتى وقد شكرت لهما فضلهما وثابرت على الاتصال بهما بضع سنين ٠

پول بيـــك

كان أحد أساتذتى فى كلية الحقوق بليون . وكان تلميذاً مخلصاً لبورجوا الزعيم الاقتصادى السياسى الفرنسى والقائل بمذهب التضامن Solidité الاجتماعى، وقد عمل پول بيك على تأييده فى كتبه ودروسه وبذل جهوداً فى إظهار نفسه باتباع هذا المذهب ، وأقول الحق إننى لم أفهم مرامى هذا المذهب لأن التضامن الاجتماعى موجود بطبيعته بين عناصر الأمة ثم بين الأمم ، ولكنه مذهب فاتر جداً وليس حاراً ولا بارداً وليس ظاهراً ولا خفياً ، فلم أتذوق من هذا المذهب شيئاً ولم أستطعمه ولم أملْ اليه على الرغم من الكتاب الضخم الذي ألفه فيه أستاذى .

وفهمت أن ليون بورجواه وهو رجل هادىء الطبع رأى أن الزعماء قد استنفدوا من قبل جميع الأسماء والصيغ التى تصلح علامة على مناهجهم ، وأن كلمة التضامن مثل لفظ « التساهل » أو الإصلاح الاجتماعى أو الدعوة الى السلام العالمى كلمة فضفاضة لاتحد ولا تضيق بأى معنى ، فنشر شراعها وانطوى تحته وجعل له تعليماً ومبدأ وكتباً ودعاية ، لعله يدعى الى وزارة أو تخلق له وزارة للتضامن الاجتماعى .

ونظرية التضامن معروفة فى القانون المدنى والتجارى وفى بعض النظريات الاقتصادية والسياسية أما أنها تكون علماً على حزب أو مذهب فهذا مالا يخطر ببال أحد غير ليون بورجواه وتلميذه المخلص بول بيك .

وكان الأستاذ يعلمنا التشريع الاستعمارى وهو أفظع مادة من مواد القانون الفرنسى وفيه تاريخ الاستعمار الفرنسى وسرد لمساوئه وجرائمه وأخطائه ومفاسده ومظالمه فى آسيا وافريقيا ولاسيما فى شمالها فى البلاد الاسلامية التى رميت بهذه الكارثة التى تسمى بالاستعمار الفرنسى .

ولهـذا كنت أبغض هذا الدرس وأتقنه لأطلع على دسـائسـهم وفـتنتـهم . وكـان الرجل يتودد الى لأن لامبير أوصاه بى خيراً وكان يظهر ببعض الميل لمصر تحايلاً لأنه كان يطمع فى أن ينزح الى مصر ليدخل أستاذاً فى كلية الحقوق . وقد اهتم بتعزيتنا يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١١ فى وفاة المرحوم أحمد زكى الذى كان طالباً نجيباً فى كليتها وفاق على الأقران فى دراسة القانون واللغة الهيروغليفيه « كان أستاذه لوريه مدير المتحف المصرى سابقاً قبل ماسبرو » وأراد أن يجاملنى فى الامتحان النهائى بأن يسألنى عن موقف الإنجليز فى مصر وأراد أن يزيف علىّ الاعتقاد بأن مصر فى سنة ١٩١١ كانت حماية بريطانية حسب المبادىء المقررة فى كتاب الباطل والخداع والظلم الذى اسمه « التشريع الاستعمارى Legislationl Caloniale » وفيه أن فرنسا وضعت عقوبات إرهابيه كجلد القبائل ونزع ملكية الأراضى بالجملة إذا أجرم فرد واحد فيعاقب المجموع ظلماً ، ويعللون هذه المظلمة بالرغبة فى إرهاب أخيلة الوطنيين Frapper L'imagination des indigénes .

وكانت هذه الكلمة قد أحرقتنى وآلمتنى ، فلما عقد الامتحان وألقى الرجل علىّ هذا السؤال وبيننا من المجاملات الاجتماعيّة مابيننا ، قلت له بصوت مسموع «ياسيدى الأستاذ يامعلمى العزيز Mon cher maitre أنا لاتهمنى نتيجة هذا الامتحان بقدر مايهمنى الدفاع عن وطنى ، وأنا لا أحب أن أتعرض لحكم فرنسا فى تونس ولكن لا أحب أن يطلق على حكم الانجليز فى مصر اسم الحماية فإن الانجليز أنفسهم لم يدعوه لأنفسهم فأرجو أن نبتعد عن هذه النقطة الشائكة وأن تسألنى فى مواد التشريع الاستعمارى الفرنسى» . فصمت الأستاذ فترة ثم قال لى بعبارة فصيحة خالية من المعنى « غير خافٍ عليك أنني لم أفكر قط فى جرح عاطفتك الوطنية فإنى أحرص على حريتك وأثنى على وطنيتك وأنا لم أسألك فى المادة لأننى أعلم مواظبتك على الدرس ومعرفتك التامة بمواد التشريع الاستعمارى . ولهذا فأنا أكتفى بما قلته وسيقدرّ

مجلس الأساتذة إجابتك » ، وهذه إشارة لى بانتهاء الامتحان فنهضت وشكرت وحييت وانصرفت ولا أبالى بالنتيجة ، وقد لقينى لامبير مصادفة بعد خروجى فسألنى عن امتحانى وعن المادة التى أديت فيها فأخبرته بكل شيء ، فقال لى خيراً فعلت مادمت طمأنت قلبه بأنك تترك تونس وشمال افريقيا جانباً فأخوف مايخافه هؤلاء الأساتذة أن تعرض لهم بكلمة نقد . ولعل بيك قد تنكب سؤالك فى هذه المادة لئلا يسمع منك مالا يرضيه أو يخدش سمع شريكيه فى الامتحان .

وقد علمت بعد ذلك أن المجلس وضع لى درجة حسنة وكنت أتوقع الرسوب للانتقام ولم أبال فليس من المنتظر أن يكون بينى وبينهم تضامن .

وفى نفس تلك السنة قصدت الى جران بورنان وهى قرية فى « هوت سافوا » ونزلت بفندق النصر Victoire الذى يملكه رجل اسمه بيلوم . ولشد مادهشت عندما لقيت بيك وزوجته وأولاده على المائدة . فتصافحنا وتحدثنا ثم استدرجنى بيك للكلام فى السياسة فأخبرته برأيى فى حكم فرنسا فى تونس وقد وقفت على المعلومات من المرحومين محمد عبده ومحمد فريد وغيرهما ، فارتجفت زوجته وهى سمراء سمينة وقالت صارخة « أرجوك ياسيدى أن لاتمس تونسنا « كذا » بسوء فقد عزمنا على أن نقضى شيخوختنا فى قطعة أرض اشتريناها على شاطيء البحر (Notre retraite) حيث الحياة سهلة والمعيشة حلوة La vie est douce » فضحكت وفهم بيك وقال لى لاتكترث لقول زوجتى فإنها مثل كل النساء تجهل السياسة ، ثم التفت إليها وقال : هل تستعبد الشعوب يا اميلى لأجل قضاء شيخوختنا ؟ فحمدت له هذه كما حمدت له تعزيتنا فى المرحوم أحمد زكى . وهو رجل لاشك فى فضله وكان له شقيق أستاذ فى الأمراض الباطنية عالمى الشهرة واختصاصى فى أمراض القلب يقصد إليه الأطباء والمرضى من أنحاء العالم .

جــورج أبيــض

لايوجد أستاذ فى الفن ضيعه أهله وأطاعهم مثل هذا الرجل النابغ . فقد سرد أحمد شفيق باشا تاريخ تطلعه الى الفن فى عهد الخديو عباس وشغفه به وتعلقه حتى بعث به للدراسة فى باريس وعاد منها سنة ١٩١٢ وكان فى أول أمره ناظراً لمحطة سيدى جابر . ولما عاد من فرنسا ظهرت حوله طُغمة من أهله وأهل وطنه القديم (سوريا) ونزلوا عليه قبل ظهوره على مسرح الأوبرا نزول العقبان والنسور على فرائسها . وكان كل واحد منهم كالطير الجارح يقاتل بمخالبه ومنقاره ويرقب الغير بأعين الصقور وقد استولوا على إرادته بعد أن عرفوا مواطن ضعفه وهى حاجته الى الطعام الغزير والفرش الوثير والصمت العميق والراحة الطويلة .

عرفته اذن فى سنة ١٩١٢ وقد اتخذ رواياته التمثيلية من السوريين أمثال فرح أنطون وخليل مطران والياس فياض وميشيل ميرزا « وكان رجلاً يتجر فى أحزمة الفتق وليس له فى العير ولا فى النفير إلا سوريته ومجرد رغبته فى الاستغلال » .

وكان جورج فى أول أمره يعتقد أنه لايوجد فى المصريين مؤلف يحسن التأليف ولا مترجم يجيد الترجمة ، ويستدل على ذلك بوسوسة السماسرة « أمثال جورج كساب وميرزا وطنوس وزعرب وفركوح وإلياس » بأن الشيخ سلامه حجازى نفسه لم يقبل من أحدهم رواية وأن مؤلفيه كانوا نجيب حداد وفرح أنطون وإلياس فياض وسامى نوار .. إلخ ، وأن واضع التمثيل فى مصر (كواضع النحو) خليل القبانى وهو سورى . فصدقهم وحصل على رواياته من أبناء جلدته .

كان جورج شاباً طويل القامة نحيلاً ، ظاهر الذكاء ، فجعلوا منه فى بضع سنين شيخاً ضخماً أشمط مترهلاً لايعرف سوى لذتين لذة البطن ولذة النوم . وكان أهله ولاسيما أمه وأخوه سليم (الذى بادر الى الاستقالة من وظيفته بمجرد وصول أخيه جورج ليشترك فى غنيمة استغلال الرجل العظيم القادم من بعيد).

لم يكن لهؤلاء جميعاً « السيدات جوليا الأم وأسما الأخت والتابعات » إلا فكرة الاستغلال ، وتقدم الى معونته وسطاء وطماعون وجهلاء وقد ادعوا جميعاً أنهم أساتذة الفن وقادة الرأى فيه . ولما منعوه من الزواج ألقوا به فى أحضان الدواعر من الممثلات اللواتى اتخذن من صداقته وسيلة للظهور بالأدوار الأولى ، فلم يتحر الرجل ولم يدرس وسطه وأطاع هواه وأهله وأصحابه مع أنه لم تكن تربطه بهم أية رابطة فربح فى أول أمره أرباحاً طائلة استولى على معظمها أهله وأصدقاؤه وأخذوا تدبير أموره فى أيديهم فسيروه لمصلحتهم تسيير الثور فى الساقية أو الطاحون وهو مكفوف البصر ، وقد أتقن تمثيل هذا الدور فى رواية شمشون إذ كان يدير طاحوناً وهو أعمى فى أسر الفلسطينيين . ولم يتزوج إلا فى آخر كهولته بممثله أديبة اسمها دولت صبحى وهى مصرية قبطية . وقد ولدت له فتاة رشيقة تحسن الرقص والتمثيل ولست أدرى من الذى وضع للممثلين الكبار خطة الزواج من ممثلات .

ولم أعرف لجورج أبيض صداقة متينة مع أحد من الأدباء والكتاب لأنه كان ينظر إليهم بعين ويصاحبهم على دَخَل ولم يف لأحد منهم وبينهم الذين خدموه وعاونوه وآزروه أمثال إبراهيم رمزى وفؤاد سليم وعبد الرحمن رشدى .

وقد اشتهر بتمثيل أدوار معدودة كأوديب الملك ولويز الحادى عشر وبضع روايات أخرى لقنه إياها بالفرنسية أستاذه مونيه سولى . ومما يذكر له بالثناء أنه تلقى الفن بالفرنسية واستطاع أن يمثل بالعربية بنطق فصيح ولفظ مقبول خال من اللكنة السورية التى لم يتبرأ منها أحد من أهله وأصدقائه . ولكنه كان سهل الانقياد لهم

يعمل بمشورتهم ولم يلمع نجمهُ إلا أثناء حياة الشيخ سلامة حجازى الذى آزره من سنة ١٩١٢ – ١٩١٧ ، فلما توفى الشيخ انفرط عقد أعماله وأخذ يتجول فى أنحاء القطر ويرحل الى الأقطار المجاورة كالشام وطرابلس الغرب وتونس ويلقى الخيبة فى كل من الأقطار الشقيقة (!!) لأنه يتبع مشورة الأفاقين والمغامرين والمحتالين الذين غرروا به ولا سيما محتال سورى اسمه إلياس .... كان قصير القامة ملتوى الأنف أعجمى اللسان لم تلد الولادة مثله فى الدجل والخداع والنصب ، فإنه بدأ بالصداقة ثم ادعى القرابة والمصاهرة وعاش فى بيت أبيض سنوات عدة وزعم أنه يريد القرب منه ، ثم اغتال أموال السيدتين جوليا وأسما وبعض ما ادخره جورج وسليم ثم ظهر أنه سرق أموال المطارنة والبطارقة والقساوسة وأنه زيف نقوداً وأنه اختلس أموالاً وكان أثناء ذلك يبتكر مشروعات كبيرة باسم مليونير أمريكى شهير نازل بفندق كونتننتال وهو شخص خيالى لا وجود له وأن هذا المليونير يمول الفرقة فتشد الفرقة رحالها الى الأقطار الأجنبية فلا تلقى إلا الخيبة والخسارة ، وكان هذا الياس الشهير بقوله على مائدة أبيض « يخَرب بيته مثل الليمون هذا النازنجج ! » أى ما أحسن هذا النارنج المخلل فإنه كالليمون معضداً من السيدات ومحتمياً بهن وهو يأكل طعامهن ويسرق مالهن ثم اختفى فجأة فى السجون المصرية واختفى أخيراً بالهروب والعودة الى وطنه بعد أن جمع ثروة طائلة عن طريق الإجرام واشترى عربة ماركة منرفا وأخذ يذرع بها شوارع بيروت لينصب شباكاً جديدة . وقد وصلت حاله الى المتاجرة بأجور الصلوات على جثث الموتى فى الكنائس .... إلى هذا الرجل كان أبيض يكل أموره وإلى أمثاله «جورج كساب وميشيل ميرزا وطنوس (!) » . وهو يقصى أمثال إبراهيم رمزى وعباس علام وحسين رمزى وعبد الرحمن رشدى . وأخيراً دخل جورج أبيض عضواً فى الفرقة القومية وقد تضخم جسمه وترهل بدنه وشاب شعره ونسى فنه وألقى قياده الى النساء من جديد وقد تخلى عنه كل الذين شربوا دمه وأكلوا لحمه .

وكانت فرقته فى أول أمرها مشمولة برعاية الخديو عباس فحضر صاحب الأريكة الخديوية تمثيل رواية أوديب الملك ، « وكان اختيارها للافتتاح دليلا على قلة الذوق وسوء الانتقاء فانها كانت نذيراً بزوال الملك ، وفعلا لم يطل عهده بعدها سنتين»، فلما خلع الأمير فى غيبته بخيانة بطلها المدعو حسين رشدى وخلفه السلطان حسين كامل ، بادر جورج أبيض بوضع فرقته تحت رعاية السلطان الجديد ، ولما توفى السلطان أسرع الى القصر لينال رعاية الملك فؤاد فلم يحظ بطائل ، ولكن الملك أكرمه وأمده لأنه كان يحب أن يحمى الفنون الجميلة كوالده إسماعيل ونجله الكريم فاروق الأول الذى شمل برعايته وعنايته جمعية أنصار التمثيل « سليمان نجيب وإخوانه » وأخيراً فرقة نجيب ريحانة « الشهير بكشكش » وقلده وساما بيده فى إحدى سهراته جزاء له على حسن تمثيل رواية « استنى بختك ! » .

ولا يتقن جورج سوى نوع الدرامه وإن كان حاول الكوميدى المصرية فى ترجمة الشيخ متلوف Tartuffe ومدرسة الأزواج والزوجات من تأليف موليير وترجمة المرحوم محمد عثمان جلال فأحياها ، ولكنه لم يوفق لأن هيأته بالعمامة والجبة والقفطان كانت مفارقة لحاله وخارجة عن حدود المهازل. وكان عظيما فى أوديب وفى لويس الحادى عشر وفى قلب المرأة[1] وكان يود أن يمثل نيرون[2] ولكن حظه خانه وحظى بتمثيل هذا الدور المرحوم عبد الرحمن رشدى ، ولايصلح چورج للأدوار الحديثة وإن يكن جيترى (الوالد والوَلد) مخلوقين على غراره إلا أنهما انطبعا منذ صغرهما على الفن الحديث ولم يترسما خطوات سيلفان ومونيه سولى اللذين استغرقا فى القديم والرومانتيك العتيق « هرنانى وأشباهها » .

---

(١) ، (٢) قلب المرأة ونيرون روايتان من تأليف لطفى جمعه وقد مثلت أولاهما على مسرح دار الأوبرا سنة ١٩١٦ ومثلت الثانية بدار الأوبرا أيضاً سنة ١٩١٩ .

وقد طبع الدكتور سيد على إسماعيل الاستاذ بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا مسرحية «قلب المرأة» سنة ١٩٩٧ ، مع اربع مسرحيات أخرى هى «خضر أرضك» و«فى سبيل الهوى» و«يقظة الضمير» و«الأم المتعَّبه» وقدم لها بدراسة نقدية قيمة ، وقد تم تدريس هذا الكتاب على طلبة الفرقة الرابعة بالكلية فى العام الدراسى ١٩٩٦/١٩٩٧ .

وإن يكن صوت أبيض وإلقاؤه يهاودانه ، إلا أنه تعود الصراخ والعويل والهمهمة والدمدمة والمبالغة فى التهويل ولايمكنه الخروج عنهما حتى اشتهر بالتجعير « أصلها من جأر يجأر فقلبت العامة الهمزة عيناً وجعلتها للصياح الغليظ » ، لم يتخل جورج عن تجعيرته إلا فى رواية « مصر الخالدة » وهى درامة تاريخيه مخزية وضعها المدعو فتوح نشاطى المتخرج من باريس على كيس الفرقة القومية ، فوهم أنه يستطيع التأليف ويجيد الترجمة والتمثيل مع أنه بعث للإخراج وإدارة المسرح – ولكن سوريته كانت شفيعا عند مطران ليفتتح بمهزلته المبكية موسم سنه ١٩٤٠ ، وهى رواية منتحلة ومشوهة وأهم مافيها تمجيد الوثنية القديمة وإحياء عبادة آمون وإظهار خيانة القواد المصريين فى حروب الشام، وهى خالية من العقدة (Plot) ومعظمها خطب طويلة فى وصف المواقع وقد حشرفيها أبيض حشراً ليمثل دور رمسيس الثانى فى نهاية حياته وكان مضحكاً أن يظهر رمسيس بضخامة الفيل ثم يقول « ما أنا إلا عصفور رقيق ... الخ » مما أثار الضحك والسخرية ، فإن المعروف أن رمسيس الثانى كان نحيلا ضئيل البدن ، صغير الجسم وقد قام بتمثيل دوره أبيض وهو يزن على الأقل ثلاثة قناطير ويحمل سيفاً من الصفيح اللامع.

وكان من عوامل انحلال تلك الفرقة توجيه بعض الأدوار المهمه لجورج « مثل صلاح الدين التى أخرجها منذ ثلاثين عاماً» والتزام الفرقة بتوجيه الأدوار المهمة الى الست دولت أبيض حرمه المصون بعد إجلاء فاطمة رشدى وعزيز عيد ويوسف وهبى وعبد العزيز خليل، واستبقاء حمدى الحكيم وإدمون تويما وهو من إخوان مطران المقربين .

وقد توفيت أم جورج أبيض وطالت عزوبة أخته وابنتها ، الكسندرا واضمحل سليم أبيض أخوه ولو أنه بقى بوظيفته لكان الآن فى رغد من العيش ، وخرج جورج من مولد الفن بلا حمص ، وتحكمت فى عنقه حرباوات مختلفة الأشكال منهن عوانس ومنهن أرامل وأخريات هاربات من أزواجهن فامتصصن ماء الحياة من عروقه وتركنه أو كدن يتركنه كالقربة المنفوخة .

أما ذكاء الرجل فمحدود جداً ومطامعه لاتتعدى ماذكرناه من القوت والمنامة ، وثقافته معدومة فما رأيناه يقرأ كتاباً فى الأدب أو التاريخ أو العلم الحديث أو مجلة فرنسية أو عربية ولم نره فى مجاضرة ولا درس ولم يحاول قط منذ عودته أن يرقى نفسه أو يتم معرفته ، ولذا كان حديثه أقل من حديث العوام ، وغاب عنه أن الممثل الكبير يجب عليه أن يكون أديباً كبيراً وكاتباً وقد رأيت بالخبرة أنه لايفهم معظم مايلقيه إلا بعد أن يلقنه ويفسر له عشرات المرات ، ومشهور عنه أنه لايحفظ أدواره ويعتمد الاعتماد كله على الملقن حتى يسمع الحاضرون أدواره مرتين مرة على لسان الملقن ومرة على لسانه ، ولكنه يندر أن يخطىء فى النحو والصرف لأنه يعنى بتشكيل الكلمات فى نسخة الملقن .

وقالت أبريز أمامه فى رواية مضحك الملك « وهلّم جرًا » وهى تظنها « هلم بنا نجرى » واستبقت الفرار ، فنظر اليها ودمه بارد فى عروقه ثم سبّها سبا مقذعا ولم يستطع الصبر على جهلها وغبائها وهو مايزال يكدّ ويجدّ ويتصبب عرقاً فى وقت كان فيه جديراً بالراحة من كل تعب .

وفى الحياة أمران يلقيان ضوءاً قوياً على أخلاق الرجل ، الأسفار والخصومات. فهذا الرجل لم أسافر معه ولكننى كنت فى أسيوط فى إحدى السنين وكانت فرقته هناك ، فالتف رجال التمثيل وسيداته فى مجلس وتجاذبنا أطراف الحديث يوماً وليلة لم يظهر خلالها جورج أبيض وقد علم بوجودى وأظهر الشوق العظيم لرؤيتى ولكنه كان نائماً لايخرج من غرفته ، وأخيراً زرته فوجدته مستلقياً فى فراشه يتناول ماء الأوكسجين ليعالج نفسه من أثر تخمة أصابته بعد أكلة ضخمة قوامها الملوخية والفسيخ « السمك المملح » وهو يتأوه .

أما الخصومات فقد قام بينه وبين يوسف وهبى نزاع رفع الى المحاكم وتوليت الدفاع عن أبيض لأن أسرته قصدوا إلىّ ورجونى فى ذلك وبذلت جهداً شديداً فى

الدفاع عنه حتى كدنا نربح الدعوى ، وترافع محامى وهبى وبنى دفاعه على أن وهبى مصرى ناشىء ويجب تشجيعه لأنه يريد أن يقوم بإحياء الفن « كان إذ ذاك يقتله برواياته الملفقة المنسوبة الى قلمه كذبا وبهتاناً » وأن الفريق الآخر سورى ودخيل ... إلخ .وكان القاضى « عبد الحميد ابراهيم » يميل الى هذا الرأى فمازلت به حتى محوت هذه الفكرة الخاطئة من خاطره ، ورجوت أبيض أن يحضر جلسات المرافعة فاعتذر بأنه لايتيقظ إلا ظهراً وأنه يستغرق ساعتين على الأقل فى عمل التواليت « كذا » وأنه لايفطر إلا على أسياخ الكباب « كذا » ليستطيع أن يصلب طوله . وأخيراً وفى فترة ضعف ومهانة وخنوع اصطلح مع خصمه بدون علمى فكسبت عداوة وهبى وأهله كما حدث فى قضية محمود أبو الفتح . فقد خسرت أبا الفتح لأنه صالح خصومه وعادانى عشرة منهم كان بينهم أصدقاء صميمون أمثال المرحوم صالح مجدى وسليمان سامى ومختار ممتاز والمرحوم أبو شادى بك المحامى ، لأن أهل مصر يعتبرون النزاع السياسى والنزاع القضائى سبباً قوياً للكراهة الشخصية ولايميزون بين الأشخاص والأعمال .

وقد حاول أذناب جورج أبيض أن يلتهموا حقوق التمثيل والتأليف فى رواية «قلب المرأة» فتمسك صاحبها[1] بحقوقه وانحاز المرحوم سلامة حجازى الى صفه « وهو إذ ذاك شريك أبيض سنة ١٩١٦ » فتوسط وقاد أبيض من خرطومه الى مقر المؤلف واعتذر عنه بقوله « الموسيو جورج يا أستاذ معذور . ها هو صامت لايتكلم وهو يسمع ولايفهم كل مايقال أمامه .. صدقنى أنا أعرفه معرفة جيدة وكنت أسىء به الظن أولاً حتى عرفت حقيقته . ولكنه أقرب الى تصديق المنافقين والخونة وهذا الذى حرت فى أمره » وفض الشيخ النزاع بكلمة وضحكة ولعبة . وكان رحمه الله لبقاً .

---

(١) يقصد لطفى جمعه نفسه إذ هو مؤلف رواية « قلب المرأة » .

وروى لى إبراهيم رمزى أن صداقة أبيض لاتنفع فقد ترك المدعو عزيز عيد يهينه فى بيته « فى بيت أبيض » لرغبتهم فى اغتيال حقوق تأليفه فى رواية دخول الحمام وهى خير ما أخرجه قلم هذا المؤلف المجتهد قديماً وحديثاً ، واستنجد صاحبه أبيض فلم يحرك ساكناً بينما كان عيد وكان يدمن المخدرات يصول ويجول ويهز هراوة ضخمة فى يده ليحطم بها رأس رمزى . وقد أقسم لى رمزى ولفيف من الممثلين أنهم رأوا هذا المنظر المخزى بأعينهم وحثوا أبيض على التدخل فلم يزد على قوله « هؤلاء أدباء يسوون حسابهم فيما بينهم » .

وبالجملة كان عهد أبيض على التأليف والتمثيل كارثة فى مصر وكان خيراً له أن يعمل ممثلا فى فرقة يتقاضى أجره ، ويتقن عمله تحت رقابة شديدة لا أن يتولى الإدارة التى سلمها كما سلم لحيته للصوص والنوكى والنساء ثم انضوى تحت راية خليل مطران فى الفرقة القومية بجامعة الجنسية والدين وليقوم بتمثيل الأدوار القديمة التى يسميها أخوه سليم هذه الرواية جواد الحرب « تبع أخى » أى مجال عمله وسبب نجاحه ، وقضى أبيض ثلاثين عاما يأكل وينام ويقتل الفن قتلاً بطيئاً وكانت مصر هى الخاسرة .

حفنى ناصف(*)

حفنى ناصف من الأدباء المنسيين ، ونقصد بالمنسيين لفيفاً من الأدباء قضوا نحبهم فى غفلة من الزمن ، فلم يذكرهم أحد بحفلة رثاء أو تأبين كما جرت العادة وذلك لظروف سيئة أحاطت بوفاتهم كما حدث فى حالة المرحوم الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى الذى توفى الى رحمة الله فى يوم أن اعتدى على المغفور سعد زغلول باشا بمحطة مصر ، فلم يتمكن أحباب السيد وأصدقاؤه من القيام بواجبهم نحوه ٠

كذلك نقصد المرحوم محمد عبد الرحيم الذى قضى نحبه فى عنفوان الشباب وميعة الصبا بعد أن ذاق عذاب داء وبيل ، وكان رحمه الله كاتباً أديباً وخطيباً وله الفضل على فن التمثيل الحديث بماألفه وصنفه ، وبالجمعيات التى كونها وتعهدها ٠

وقبل هؤلاء جميعاً نذكر ونقصد المرحوم حفنى ناصف بك الذى كان كاتباً وشاعراً وقاضياً وفقيهاً وقراء ولغوياً وقد أسدى الى اللغة العربية خدمات جليلة لايمكن تقديرها فى هذا الجيل ٠

عرفنا المرحوم شخصياً فى القضاء وفى الأدب وفى المعاشرة الخاصة ، فعرفنا فيه قبل كل شئ رجلا كاملا مهذباً أدبه ربه فأحسن تأديبه ، عف اليد واللسان ، واسع العلم حاضرالبديهة ديمقراطى النزعة متواضعاً بعيداً عن الدعوى ، مخلصاً فى صداقته باراً بأولاده وبأصدقائه ، وقد رأيناه وهو فى آخر أيام مرضه يجر رجليه جراً ويمشى بمشقة شديدة فى يوم شديد القيظ وهو يشيع جنازة أحد أصدقائه ٠

(*) مقال نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٢٣ إبريل سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « المنسيّون ، حفنى ناصف » ٠

كان المرحوم أسمر اللون طويل القامة بادناً متوسط الحسن ليس بالجميل وليس بالدميم وكانت تبدو في حركاته وسكناته آثار البدواة ، ونحن نظنه من أصل عربى صميم وكان قليل العناية بمظهره كثير العناية بنفسه وعقله يملأهما بالعلم والفضيلة ، وكان قوى الذاكرة يحفظ كتباً بأسرها ، فقد روى لنا فصولاً بأكملها من كتاب المزهر وقد ورد ذكره عرضاً فى قهوة اسبلنديد بار أنشد أكثر من خمسين بيتاً فى ملاحن العرب على غير استعداد سابق ولاتجهيز فبهرنا من ذلك مع أنه كان فى العام الأخير من عمره النافع.

ورأيناه مرة وهو مفتش بوزارة المعارف بعد أن ترك القضاء وقد انتدبته إحدى محاكم الجنح ليترجم بينها وبين رجل أبكم فأخذ المرحوم يبدى من الإشارات الفصيحة للأخرس ما جعله يروى له قصته بأجمعها و المرحوم ينقلها نبذة نبذة إلى المحكمة التى أثبتتها فى محضر الجلسة وقضت بمقتضاها وكافأته بستمائه قرش أتعاباً له على مأمورية الخبرة التى أداها ودل بها على أنه كان يعلم حتى لغة الصم البكم وحق فيه قول الشاعر « وأسمعت كلماتى من به صمم » ..

وقد قضى المرحوم نحو أربعين عاماً من عمره يثقف العقول ويروض الأخلاق ويفيض ممّا أكسبته مواهبه ومطالعته وخبرته على متلقى دروسه ومتصفحى طروسه وسامعى خطبه وأحاديثه . ولكنه كان كثير التواضع فى أدبه فلم يجمع شعره ولا نثره مع أنهما كانا فى الطبقة الأولى ولم يطبع ديوانه كما فعل كثيرون من النوكى والحمقى والأدعياء الذين طبعوا دووابن أشعارهم التى لاتستحق ثمن الورق والمداد الذى أنفق فى سبيل نشر سخافتهم ، ولا ريب عندنا فى أنه له فضل لاينكر فى بعث اللغة العربية، فألف فيها كتاب النحو الذى تلقيناه مع أبناء الجيل السابق فى قواعد اللغة العربية ثم كتاب البلاغة ، وصحّح معظم كتب المطالعة التى بين أيدينا وساعد على تقويم ألسنتنا وأقلامنا على مافيها من ضعف وركاكة ولكنه خطا بنا خطوات واسعة

أبعدتنا عن فهاهة أسلافنا الأقربين وضعف أسلوبهم . وألف مجمعاً عربياً لوضع الألفاظ الجديدة وجعل مقره نادى دار العلوم ولكن كان عمره قصيراً شأن المنشآت التى يشرف عليها المشايخ ، ومايحيط بها من الدسائس والفتن والمنازعات التى كان ينهاهم عنها على غير جدوى فمات هذا النادى ومات المجمع الذى كان يصح أن يكون نواة لأكاديمية مصرية .

ولم يكتب عن المرحوم أحد غير صديقه الحميم الوفى لكل أصدقائه صديقنا وشاعرنا الجليل الأديب الكريم الناثر الكامل خليل مطران . فعمل جهده الذى قدر عليه وهو نشر مقالة واحدة فى السياسة الأسبوعية ، ولكن هذا العمل أقل بكثير مما يجب فى حق الأستاذ الراحل الذى يصح أن يقام له نصب أو حجر تذكارى فى وزارة المعارف أو فى الجامعة المصرية التى لو مد الله فى أجله كان أليق الناس بأن يتبوأ فيها «مقعد تدريس» آداب اللغة العربية وفلسفتها وتاريخها ، فلم يكن بالنسبة لنا بأقل من إرنست رينان لفرنسا فضلا عن أن له فضلا فى تأسيس الجامعة كما سيأتى بيانه .

نكتب هذه المقالة بعد مضى عشر سنوات على موته بالدقة ، وقد مات رحمه الله وهو قرير العين إذ رأى بداية الثورة المصرية « توفى فى مارس سنة ١٩١٩ » واطمأن على أن هذه الأمة قد نهضت ، وقد كان لجميع أولاده آثار نافعة فى الحركة الوطنية وقد شهد بعينه قبل موته فجيعة وفاة المرحومة بنته ملك وسجن ولده مجد الدين فى حادثة سياسية مشهورة فكان لهما نصيب الجهاد فى رفعة هذا البلد . شغلت مصر أيامئذ عن أداء فرض خدمته وتأبينه بما كان يشغلها من عميم الخطب فى مهمتها الخطرة ومطلبها الصعب .

فعلينا نحن البقية الباقية من تلاميذه دين نحوه ، فلا يكون سداده بأقل من تذكيرنا أولى الحل والعقد الذين لايقلون عنا محبة للأستاذ تقديراً لفضله وأسفاً على نسيانه طول هذه المدة .

ولد حفنى ناصف وصحة اسمه الحاج محمد الحفنى من سلالة الأمير ناصف الذى استوطن جهة بركة الحج القريبة من القاهرة ، وقد نشأ يتيما مات والده وهو جنين والتحق بالأزهر الشريف فى العقد الثانى من عمره بعد أن أجاد حفظ القرآن الشريف ، فقضى عشر سنين فى الأزهر ودخل مدرسة دار العلوم وتخرج منها ثم عين ناظراً لمدرسة العمى والخرس وهذا سرّ انتدابه فى آخر أيامه كما رأينا خبيراً فى مخاطبة أحد الخرس ، فأظهر كفاية فى تعليم هذين الضربين من ذوى العاهات ، فطال بقاؤه فى المدرسة حرصاً على مستقبل هؤلاء العجزة المساكين الذين تخرج منهم كثيرون من النوابغ ، ولكنه تعب فخاطب الخديو توفيق باشا بقصيدة بليغة مطلعها :

مولاى ! وقفه ثاو بين ذى بصر

بغير سمع وسمع غير ذى بصر

وقد ظل المرحوم عارفاً برموزهم الى أيامه الأخيرة كما أسلفت ، ثم نقل من تلك المدرسة للمنطق والإنشاء بمدرسة الحقوق الخديوية فتخرج منه فحول البلاغة والأدب والوطنية أمثال المرحوم مصطفى كامل باشا . واشتغل بالعلوم القضائية فترجم القوانين مع المرحوم شفيق بك منصور ورفيق بك فتحى ، وولى القضاء وترقى فى درجاته الى أن صار وكيل محكمة طنطا فتوفى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف فحل محله الى أن أحيل على المعاش ، وكان مشتغلا بتدوين القرآن الشريف على شكله المضبوط الأخير الظاهر فى طبعة مصلحة المساحة وهى أتقن طبعة وأدقها وأجملها فختم حياته المباركة النافعة بخدمة جليلة لدينه ولغته وقومه ، ولم يكافأ على هذا العمل الجليل مكافأة تقرب من عشر مايستحق ، ولكنه كان قرير العين هادىء النفس مرتاح الخاطر .

على أن الله ختم له بخدمة القرآن كما افتتح حياته بحفظه وتجويده على أن الرجل كان حر الفكر واسع الصدر شديد التسامح مفتوح الذهن كعلماء أوربا وليس به

شيء من ضيق العطن وحماقة التعصب والرياء التى اشتهر بها كثيرون ممن لم يبلغوا شأوه فى العلم والدراية والتقوى . وقد سبقته المرحومة ابنته ملك الى عالم الخلود قبل وفاته بشهرين .

ولايسعنا إلا أن نثبت أمراً عجيباً خاصاً بوفاة الوالد وابنته ، فقد روى لنا الأستاذ مجد الدين حفنى ناصف شقيقها فى رسالة تحرير المرأة فى الإسلام طبع سنة ١٩٢٤ ما يأتى وقد احترمنا أسلوبه :

« أما وفاتها فكانت هكذا : كنت متهماً بتهريب ضابط سجين وفد على مصر وكان فى حكم المقرر أن يحكم علىّ بالعدم وكانت ملك مريضة بالحمى فى سفح الجبل، وكان محتما ألا تتحرك ولكنها أسرعت بالحضور الى القاهرة لترانى فكان لابد لها من ركوب ٣ قطارات و٣ عربات ، جاءت محمومة مالكة لكل قواها حتى أفرج عنى ، فلم أمت ولم أحبس فأصبحت متهللة مستبشرة ولكنها فى اليوم التالى زادت عليها الحمى فبدأت تتكلم عن حالها الزوجية وعلاقات ... ثم بدأت تهرف ثم خفت صوتها وذبلت وماتت كل ذلك فى أربعة أيام وكان ذلك فى صباح ١٢ أكتوبر سنة ١٩١٨ فى سن ٣٣ سنة .

وقد اجتمعت طائفة من النساء لتأبينها فى الجامعة برياسة السيدة هدى ، واجتمعت كذلك طائفة من الأدباء لتأبينها يوم الأربعين فى نفس القاعة التى حاضرت فيها وكان والدى متعباً سقيماً من أثر الصدمة التى أصابته عند القبض علىّ ولكن قوته بدأت تعاوده ، فلما سمع فى الجامعة من المراثى ماسمع تأثر وعاد لينام فاختبأ فى غطائه وأخذ يبكى بكاء مراً فعاوده المرض ومات بعد ذلك بأيام .

وإنى لأحار فى أمرى كلما تخيلت أن واضع هذه الترجمة التعس « مجد الدين ناصف نفسه » يمكن أن يكون سبباً ولو غير مباشر فى التعجيل على حياة اثنين هما من أركان النهضة الأدبية والاجتماعية فى مصر ربما كان فذين فى نوعهما الى الآن.

فأنا أسائلكم : أباقدامى على ماأقدمت عليه باذلا روحى على مذبح التضحية هل كان من الممكن أن أفكر فى أن الظروف ستعين الزمان على هذين الحملين الوديعين فى مكانهما ؟ وهل ماأقدمت عليه من شأنه أن يعمى بصرى عن كل تقدير آخر ؟ هذا مالم أفكر فيه ومالم يخطر لى ببال وهذا ما أرجو عرضه على كل قارىء عادل .

اللهم إن كنت بهذا مجرماً فجازنى فى نفسى أصرم الجزاء وإن لم أكن مخطئاً فارفع مقتك وغضبك عنى ولاتحملنى مالا طاقة لى بحمله وأزح عنى شبح هذه الصورة المخيفة » .

ونحن نجيب على سؤال مجد الدين من القرآن الشريف الذى ضبط كتابته المرحوم والده بآية شريفة هى الـ ١٥٥ من الجزء الرابع من سورة آل عمران وفيها رد بليغ مقنع لمخاوف مجد الدين ، ولعل فى قراءتها مايهدىء من غليان نفسه وحزن قلبه على أنه ربما كان سبباً غير مباشر فى موت أخته ووالده .

« يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير » .

واعتقادنا الجازم أنه لم يكن لمجد الدين يد بما نسبه الى نفسه .

ولنرجع الى سيرة المرحوم حفنى ناصف فنقول إن له كتاباً نفيسا اسمه «مميزات لغة العرب » قدمه لمؤتمر علوم المشرقيات فى فيينا وله رسالاتا «مارية القبطية» و«السيدة هاجر» تقدم بهما الى مؤتمر المشرقيات فى أثينا وهو الذى حضره معه أحمد شوقى بك .

أما عمله فى الجامعة فقد كان الفقيد من أكبر مؤسسيها وقد عين سكرتيراً لها فى عهد رئيسها الأول سمو الأمير فؤاد « جلالة الملك » ثم عين أستاذاً لتاريخ أدب اللغة العربية بها فى عهدها الأول فطبع ثلاثة أجزاء مما كان يلقيه على الطلاب ولايزال

كثير مما حبّره غير ممثل للطبع ، وله كتاب فى علم البديع وآخر فى الأمثال العامية وآخر فى رسم المصحف العثمانى ، وهو الذى كان أساس عمله الجليل الذى ختم به حياته ، وقد روى لنا شخصياً فى « مشوار فى الترام » ملخص أعماله فى رسم المصحف ، فقد علمت منه إذ ذاك أنه جمع أشتاتاً من المخطوطات وقارن بينها واستخلص قواعد الرسم وجعل يصحح الرسم الحالى على قواعدها موالياً عمله خمس سنين ، وقد عضده فى هذا العمل المرحوم أحمد السكندرى والفاضل مصطفى العنانى مؤلفا كتاب آداب اللغة العربية .

أما حياته فى القضاء فكانت دليل النزاهة والعفة والعدل والاستقامة . وقد حكم على أحد مديرى الغربية وهو قاض فى عاصمتها بالخروج بالقوة من منزل استأثر به بدون إيجار ، وكان لتلك الحادثة وقع عظيم فى نفوس الفلاحين الذين لم يتعودوا ان يروا سلطة فوق المدير ، وحاول أحد أصدقائه رشوته فى قضية أحد العظماء فطرده شر طرده مع أن المال الذى قدم اليه كان يغنيه هو وأسرته من بعده ، وحكم بالحق فى قضية ذلك العظيم ، وأخذ أحد أولاده ، ولعله عصام ، قلماً ملوناً من المحكمة ، فضربه المرحوم ضرباً مبرحاً وقال له « هذه ليست محكمّة أبيك » .

وكان متصلا بالمرحوم جمال الدين الأفغانى واشترك فى الثورة العرابية ولقن خطباء المساجد خطباً ثورية إصلاحية ، وكتب فى الصحف مقالات بإمضاء « إدريس محمدين » ولكنه رفض أن يعمل فيها محترفاً ورفض أجوراً باهظة ، وساعد على نشر المؤيد فى أول عهده فى سائر أنحاء القطر وكان المؤيد إذ ذاك وقبل ظهور لواء المرحوم مصطفى كامل هو الجريدة الوطنية الوحيدة .

أما شعره فكان من الطبقة الأولى فى الجودة والبلاغة وجلاء الديباجة ورقة المعانى ، ولكنه لم يكن ممن يزاحمون بالمناكب وينفقون الأموال ليغتصبوا مكانة فوق مكانتهم الحقة .

ومن شعره اللطيف فى وصف اندهاش الأفرنج لرؤية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله قوله :

كم فى فينا واستكهلم صوّره
مصورو القوم عن بعد وعن كثب

وكم أحاط بنا خلق تسائلنا
من كل منجذب فى إثر منجذب

مليك أى بلاد ذاك قلت لهم
هذا الإمام مليك العلم والأدب

وقوله :

أتقضى معى إن حان حينى تجاربى
وما نلتها الا بطول عناء

إذا ورّث المثرون أبناءهم غنى
وجاها فما أشقى بنى الحكماء

وهناك مجموعة لطيفة من المحاورات الزجلية بينه وبين الشيخ القوصى لم تطبع بعد .

وقد علمنا أن كثيراً من شعر المرحوم المخطوط قد ضاع فى أثناء الحركة الوطنية على أثر تفتيش السلطة العسكرية لمنزل المرحوم بعد وفاته مرات عدة .

ومن نكاته الظريفة أن أحد العسكر الأستراليين خطف طربوشه فى أثناء الحرب الكبرى فأراد التخلص من الخجل أمام الجمهور فقال للجندى « لك دردنيل يترد عليه» .

وكان له صديق قاض ولكنه متأخر فى الدور فمازال يسعى حتى ترقى قبل حفنى بك فأراد أن يهنئه دون أن تفوته النكته فأرسل اليه برقية نصها : « أهنئكم بقلبى » .

وكان يستنقع مع جماعة على شاطىء البحر فى الأسكندرية فمر به حسين رافع أفندى وهو محسوب عليه ولكنه شديد السمرة ، يكاد يكون كالغراب الأسحم وكان يحييه المرحوم كلما رآه بقوله « أهلا بالسواد الأعظم » فلما مر به رافع خارجاً من البحر أشار إليه المرحوم وقال « سودانى وملح » .

وسافر المأسوف عليه سليم سركيس بزى مسلم وطاف بمكة ، فلما عاد كتب اليه المرحوم حفنى بك هذين البيتين :

عليك سلام الله إن كنت مؤمناً

وإن كنت زنديقاً سحبت كلامى

لئن طاف سركيس بمكة محرما

لطاف ببيت الله وهو حرا .. مى

وقال له أحد أولاده وهو يداعبه ، ولعله عصام لأنه كان أطول إخوته لساناً على أبيه صورتك الفلانية وحشة ، قال المرحوم أيوه ! قال الولد وصورتك اللى عملتها فى جهة كذا وحشه قال الوالد : تمام ! قال الولد والصورة الفلانية وحشة برده فقال الوالد : ده ده أبقى أنا اللى وحش !

وكتب لنجله السابق مداعباً وكان مسافراً فى طريقه الى أوروبا :

ولقد ذكرتك والرياح عواصف

والبحر يعلو بالسفين ويهبط

فكأنما هى أنت حين تسير فى

جوز الطريق مهرولا تتخبط

وإننى فى ختام هذه الكلمة لأرجو أن يبادر أصدقاؤه وتلاميذه وعارفو فضله إلى تأليف لجنة للنظر فيما يحفظ ذكره ويخلد أدبه ويحيى سيرته العطرة بين الناس .

حمد الباسل

أسرة الباسل من أشهر الأسر العربية التى تقيم فى مديرية الفيوم فى بلدتهم «قصر الباسل» ولهم فيها قبيلة بل قبائل وأراض زراعية تربى على الألوف ولهم كرامة ووجاهة . وقد سكنوا الجدار على حد تعبير المرحوم حمد باشا من مئات السنين ويعدون بدواً تدليلاً وتظرفاً وهم فى الحقيقة متحضرون ومن سادة المتحضرين وأعيانهم وأدبائهم وساستهم وزعمائهم . وقد عرفت المرحوم حمد باشا فى سنة ١٩١٢ فى مجلس ضمنا والمرحوم مرسى محمود بك المحامى الأسكندرى . وكان أديباً وصحفياً وصديقاً لمعظم الأعيان ، وكان حمد بك فى شبابه أديباً لطيفاً حلو الحديث يروى الأشعار والأخبار بلهجة البدو ويذكر كتب الأدب ويخطو الخطوات فى تعلم اللغة الفرنسية ، وقد أعجبنى منه أنه لم يتخل عن زيه البدوى الجميل ، إلا عندما سافر الى أوروبا مع الوفد المصرى خشية أن تلفت ثيابه الفضفاضة أنظار العامة فى الشوارع فيخلطوا بينه وبين أهل تونس والجزائر وهم من أهل المستعمرات الفرنسية فلا يعطونه حقه من الاحترام والتقدير كما هى حالة المستعمر القوى والغالب الظالم حيال أبناء الأمم الشرقية المظلومة .

ولم تكن لحمد باشا صناعة ولا تجارة ولا فن غير إدارة أملاكه الواسعة والاشتراك مع غيره من الغيورين فى خدمة وطنه ، ولكنه فى حياة المرحوم مصطفى كامل لم يكن من النضج السياسى بحيث يدرك جلال الموقف والدعوة ، وكذلك لم يتصل فيما أعلم بحزب الأمة أو حزب الإصلاح . وكان الأول فى خدمة السياسة الإنجليزية والثانى فى خدمة الخديو عباس . ولذا بادر رحمه الله فى الانضمام الى سعد زغلول فرحب به وعينه وكيلا للوفد .

وحدثت أحداث كثيرة أدت للانشقاق والافتراق ثم المصالحة والانضمام • وقد تكبد المرحوم نفقات طائلة وضحى بالكثير من ماله وصحته فى سبيل فكرته وانتهى عهده بالزعامة الوفدية فى سنة ١٩٣٢ فكان من الثمانية الذين خرجوا من الهيأة الوفدية بسبب النزاع الذى أثاره مكرم عبيد وقضية القنابل •

ولم يتمكن رحمه الله من عمل غيرّ الذى استطاعه هؤلاء الفضلاء الثمانية الى سنة ١٩٣٦ وهو تاريخ تأليف الجبهة الوطنية وتوقيع معاهدة لندن الشهيرة بالمحالفة المصرية الإنجليزية « ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ »•

وكان المرحوم حمد باشا كريماً جواداً فصيحاً مخلصاً وقد دعا ملكة رومانيا « مارى والدة المستهتر كارول » الى قصر الباسل فى الفيوم وضافها وحاشيتها أياماً وأظهرها على حياة البدو وفنون الفروسية العربية وحاز رضاها وأعجبت به وحسّنت رأيها فى العرب مذ رأت أحد زعمائهم يعيش فى وطنه الخاص عيشة الملوك والأمراء التى انقرض نوعها من أوروبا•

وللمرحوم الباشا أخ هو عبد الستار بك يشاركه ولايزاحمه فى الأدب والنخوة والكرم وعلو الهمة ولايقل عنه شاواً إلا بصغر سنه • وكانت له مصاهرة فى أسرة ناصف فتزوج من المرحومة ملك ناصف « باحثة البادية » كريمة المرحوم حفنى ناصف القاضى الناثر الشاعر والمقرىء الشهير ، وقد توفيت المرحومة ملك بعد فترة قصيرة من حياتها الزوجية فكان لوفاتها فى شبابها رنة حزن وأسف فى أفئدة المعجبين بأدبها ومحبى والدها وأخوتها • •

وعبد الستار هو الآخر سياسى عميق التفكير حزبى التدبير يرسم الخطط فى الدفاع عن مصر ويبدى الآراء الصائبة ولكنه لم يتبع أخاه عندما انشق عن الوفد وبقى محتفظاً بمقعده فى مجلس الشيوخ ، وبالجملة فإن أسرة الباسل من الأسر التى يتباهى بها البدو والحضر وتخلد جلائل أعمالها بماء الذهب فى صفحات تاريخ مصر•

داود بركـــات

رئيس تحرير جريدة الأهرام لأكثر من ثلاثين عاماً على الأقل . ويصح أن يقال إن تلك الجرّيدة الكبيرة قد بنيت على كاهليه منذ كانت تصدر فى أربع صفحات الى أن بلغت ست عشر صفحة وصارت أشهر الصحف فى العالم العربى ومن أشهر جرائد العالم ، وهو لبنانى الأصل مارونى المذهب وقف قلمه على خدمة مصر والمصريين وجعل صحيفته معبرة عن آراء كل من يلجأ أليها للتعبير عن فكرته . وكان رجلا طيب القلب هادىء الطبع عديم الدعوى متواضعاً مخلصاً فى عمله مواظباً عليه لين الجانب تعود سهر الليل مذ كانت جريدته تظهر فى الصباح ، وكان ذا حشمة ووقار وسمت حسن ، ولايعرف عنه ميل إلى الأهواء ولكن لم يعرف عنه مناصرة فكرة معينة غير مساعدة فرنسا ومعونة لبنان فهذه كانت خطة ثابتة له بالنظر إلى نشأة الجريدة وانتماء مؤسسيها الى الجمهورية وضرورة مد يد المساعدة لأبناء وطنهم ، ولكنها لم تخطىء فى حق مصر ولم تساعد الاحتلال وفتحت صدرها من سنة ١٨٦٢ لأقلام الوطنيين وفى مقدمتهم المرحوم مصطفى كامل الذي كان يراسلها من باريس باسم «مصرى أمين» وكثيراً ما صرحت باسمه « الشاب الأديب مصطفى أفندى كامل » ولما عاد الى مصر كانت من أول معضديه ومعضدى حزبه الى أن أسس جرائده اليومية ومجلاته .

ولم تظهر الأهرام فى يوم من الأيام شيئاً من مرارة النقد أو قسوة النقاش التى أظهرها صديقه القديم المرحوم على يوسف ولم تعلن على مصر حرب العداء والبغضاء التى أعلنتها جريدة المقطم منذ تأسيسها ، ولهذا فنحن نشكر أسرة تقلا ونذكر بالخير داود بركات الذى كان بعد وفاة المؤسسين كالربان الماهر الذى قاد هذه السفينة

الصحفية الى بر النجاح ، وقد دخل رؤساء التحرير فيها حظيرة البرلمان وكذلك مالكها وبعض محرريها السالفين إلا داود فإنه لم يطمع فى هذا ولم يصبُ اليه ، ودخله فارس نمر وخليل ثابت واكتفى داود بك برتبته ، ومجالسة أصدقائه فى اسبلنديد بار وبار اللواء وصولت ومات بعد مرض قصير ولم يتزوج ولم يعقب وكان فى أول أمره قد قصد الى مصر بعد إتقان العربية والفرنسية ودخل فى وظيفة فى «مصلحة التاريع» وأظنها إحدى مصالح الرى ، ثم انتقل الى الصحافة كبقية مواطنيه وكان أسلوبه رشيقاً دقيقاً موجزاً . وأعجب مافى أمره أنه كان فاتحاً غرفته لكل زائر ويتحدث الى الكل فى كل شىء وهو ينجز عمله ولايشكو عطلاً ولايتعلل بازدحام أو انشغال بال .

ولذا كان يزوره الوزراء والأمراء والعلماء والأدباء والصحفيون فى أى وقت من أوقات الليل والنهار ، وكانت مجالسه التى غشيتها يأنس فيها بشوقى ومحجوب ثابت وأمثالهما من الأدباء والظرفاء ، ومن قبلهم رشيد رضا وشبلى شميل وكرد على ورفيق العظم ، فكان أدب وظرف وحوار طريف ومحبة متبادلة وقد تدرب على يديه معظم كتاب الصحف الذين انتهى بهم المطاف الى ساحل الأهرام وقد رأى بعينه تحوّل فن الطباعة من الجمع والتوضيب الى اللينوتيب ونمو الجريدة من ٤ صفحات الى ١٦ صفحة ، وصدر تحت إشرافه عدد خاص فيه ٧٢ صفحة ، فهو والد الأهرام وشيخ الصحفيين الذين لم ينالوا مصر بأذى كالذين أثروا وتمولوا واقتنوا الطين والأباعد والقصور وأعلى الرتب ومقاعد النيابة ولم يكفوا عن الغمز واللمز والأذى . ولا يعلم عن بركات أنه اقتنى عزبة أو ضيعة أو ابتنى بيتاً، وكان يسكن طول حياته فى شقة مأجورة حتى منزله الأخير بأول الفجالة الذى منه خرجت جنازته ، وفى ظنى أن هذا الرجل لو شاء لاقتنى كما اقتنى غيره من ذوى الوجوه الكالحة وبلغوا أرذل العمر والضمائر الميتة وعاشوا على الولوغ فى دماء الأمم . وما يزالون يروحون ويغدون ويكتنزون الفضة والذهب ويتبجّحون بخدمة مصر ، والأعجب أنهم يجلسون على مقاعد النيابة كأبنائها

وهم أعظم من قاوم البلاد فى معركة الحرية ، فلما جاء البرلمان وهو أحد ثمار الحرية كانوا أول من تبوأوا مقاعده ، أى أنهم أفادوا من ثمار الجهود التى حاربوها كمن كان يعطل بنيان بيت ويحرض العمال على ترك العمل ويقف فى سبيل مالكه الذى يشيده فلما أنجز البيت رغم أنفه كان أول منتفع به وأول من قبض أجراً على انتفاعه باسم مالك البيت وبانيه .

أرأيت شيئاً كهذا فى أنحاء الدنيا أو الآخرة بما فيها جهنم وسَقر ؟! أرأيت مثل هذا فى أعجز الأمم وأجهلها بمثل نيام نيام أو واق الواق ؟ ولكننا نحن رأيناه فى مصر ولايزال بعض هؤلاء متربعاً فى دست هذه المجالس من أمثال خليل ثابت وفارس نمر . وهم إذا عادوا الى أوطانهم لايجدون « زعْلوطاً » أو هلفوتا يحييهم أو يقدرهم أو ينيلهم مقعداً فى مقهى مالم يدفعوا ثمنه أضعافاً ، ولذا تراهم يحرصرون على أن لايذهبوا وان ذهبوا فلايبيتون إلا ليلة أو ليلتين ثم يكرون راجعين كأنهم ملدوغون بعقرب . وهذا هو الوطن الذى زعموا أنهم حاربوا عليه السلطان عبد الحميد وحكومة الدولة العثمانية بسبب فتنة ١٨٦٠ التى زعموا أن رؤوس آبائهم قد وقعت على حد سيوفها ، وكل هذا « علك وشعبذه وزعبرة وحكى » (بفتح الحاء وكسر الكاف وسكون الياء) وإن هى إلا أساطير سطروها وأقاويل تقولوها ليفرشوا أقدامهم على شاطىء النيل فى حمى هذا الشعب الساذج الكريم جداً لأمثالهم والضنين جداً على أنجب أبنائه . فلا حول ولا قوة الا بالله وأغدق الله على قبر داود بركات الذى لم يعرض نفسه لمثل هذه الأحكام العادلة وكان محبوبا من الكافة .

أما خليل ثابت الذى أنعمت عليه الحكومة المصرية برتبة بيك وعيَّنته عضواً فى مجلس الشيوخ وما يزال حتى كتابة هذه الأسطر شيخا محترماً متربعاً فى دست هذا المجلس ، فأصله معلم أطفال فى إحدى قرى لبنان ونفعه النسب والمصاهرة إذ تقرب الى عائلة المقطم بزواج إحدى بنات شاهين مكاريوس وكان أعجز الشركاء الثلاثة

وأجـهلهم وأقلهم حـيلة لأنه كـان عـامـلا بيـديه فى المطبـعـة . وقـد تبع حظ خليل ثابت حظوظ هـذه العـائلة الأخطبـوطية فنزعـوه من وظيـفـة التـعليم بلبنان وعـينوه فـى جـريدة السـودان التى كانت تصـدر فى الخـرطوم فعـاش فى عمله أمدا وهناك أسـس ثروته من الأرباح الكبيـرة التى كانت تدخل اليـه من حكومـة السودان ، وكانت جريدة السـودان فى الخـرطوم كـجـريدة المقطم فى القـاهـرة تقـوم بنفس العمل الكريه الذى قـامت به هذه الجريدة ولم يكن أحد يقبل القيام به إلا هذه الصحيفة المضمونة لأن خليل ثابت يتلقى الوحى والإلهام كما يتلقاه صروف ونمر ومكاريوس هذا الثالوث الأتعس .

ثم لما شـبع وانتـابتـه أمـراض البـلاد الحـارة نزح الى مـصـر واشـتـغل فى إدارة المقطم معينا ومساعدا للدب الأكبر فـارس نمر الذى شاخ وخرف . فـاتخذ طريقة كتابة المقالات الفـاترة الجـافة التى يصـاب قارئها بالصـداع لقلة حنكة الكاتب وبرود مـزاجه وثقل دمـه . وقد فرض على القراء فرضـا لمجرد مـصاهرته ، ومقـالاته سمـجـة فـاترة لا حمـاسـة فـيـها ولا فن وهو يتظـاهر بالترفع والسنوبزم ويدعى مـاليس عنده من الصـفات والمؤهلات ولكنه مـحـمى الدهر . وقيل إنه نصح لأصـحـاب الشـركـة أن يعـدلوا خطتـهم السياسية نحو مصر بعد ثورة سنة ١٩١٩ وأنه نصح هذا النصح لأنه كره هذه الخطة وظن أن أصـحـابها ناكرون لجميل البلاد التى آوتـهم وأكرمتهم وأغنتـهم وقـيل إن هؤلاء الأوغاد قبلوا النصيحة بعد أن استغنوا وبطروا وشبعوا حتى كادت بطونهم تتمزق من الغنى وحتى صار بعضـهم من أصـحاب الملايين وبدد بعض أبنائهم «نجيب ابن يعقوب» مبالغ طائله فى المقامرة والمضاربة . فلما اتبعوا هذه الخطة وتحدثوا بفضل مصر لم يكن تغيرهم إلا صـوريا لأنهم أضـمروا لهـا العداء وأرضعوه لأبنائهم فى دمـائهم ماعدا واحـد أو اثنين فـؤاد صـروف وسليم مكاريوس وهمـا أضـعف أغـصـان هـذه الشـجـرة المسمومة .

وادعى خليل ثابت أنه أتقن الكتابة فى وصف وقائع الحربين الكبريين ١٩١٤ و١٩٣٩ (وقد عمر) وهو يصف وقائع لم ينظرها وكل عمدته فيها على الأخبار البرقية والصحفية وليس لديه ثقافة عسكرية ولا تاريخية والمسألة مسألة اجتهاد ويوجه قلمه توجيهات تنفعه .

وقد « أنجب » - هذا اللفظ من قبيل التهكم - ولداً جاهلاً مغروراً جاسوسا متملقا متقلبا من أعلام النصب والنفاق فى هذا الجيل اسمه على غير مسمى ولقبه من النقائض وتسمية الأشخاص بأضدادها وهو كريم ثابت ، فكان جروا وثعباناً ناعم الملمس وأحيانا خشن الملمس ، وتعلم تعليماً قاصراً ثم دفعه أبوه للعمل فى الصحافة فجاء صفر اليدين من كل مال وعلم وأدب خاوى الوفاض بادى الأنقاض من اللغة والصناعة ، وسموه فى ظل دعاية واسعة وطبل وزمر وليتهم سموه ! ابن المقطم البكر . فتدخل فى السفارات والمفاوضات والقنصليات الأجنبية واشتغل جاسوسا لها وقبض من الأموال السرية كآبائه وأخواله وأعمامه من كل دولة ومن كل مصدر ومن كل حكومة ، وبدأ ينشر مقالات تافهة سخيفة ينقحها أبوه وكثيراً مايكتبها كلها لأن كتابة مثلها أسهل من تصحيحها ، وأخذ الولد يتقرب الى القصر بتأليف كتب عن محمد على فيقابل ويشكر ويكرم ويحظى بالنياشين الأجنبية من كل دولة جزاء له على خدمته الظاهرة والباطنة ، وظهر أحيانا بمعاونة بعض الأحزاب فى زمن رواجها ثم انقلب عليها وأخذ يقول لأصحابه « اللبيب من دار » فهو دار ودار وتعود الدوران وغيره من قديم ، ويعد نفسه من أسعد الناس لأنه لاضمير له ولا ذمة .

وقد تزوج من بنت أحد أعداء بيتهم القدماء المدعو سليم سركيس وفتح بيته على مصراعيه لإحياء ليالى الأفراح والسهرات الملاح فى ظل أبيه وظل الخمر والقمار، ويقال إنه يملك سبعين ألف جنيه بينما يموت المتعفف نوعا (فؤاد صروف) جوعا ، وصارت الحظوة لكريم ثابت بحماية أبيه وقد أقصى أبناء مكاريوس جميعا عن التحرير

والإدارة بأمل أن يحل كريم ثابت محل أبيه فى رياسة التحرير كما حل خليل ثابت محل الدب الأكبر واللص الأعظم والمنافق الأعلى رأس الدسائس وأبو الكبائر فارس نمر ، فارس المخزيات ونمر الغاب المباح . ولأجل الوصول الى هذه الغاية يسهل الوالد للولد أن يكتب فى الجريدة مقالات افتتاحية يومية على أربعة أعمدة بحروف كبيرة تحمل اسمه دائماً ليتكرر وروده على الألسنة فينطبع فى الأذهان بمرور الزمن فلا يدق فى صندوق أبيه آخر مسمار حتى يكون وارثه قد وصل الى قمة الشهرة . ولكن كتابة الولد سخيفة وتفهة وفاترة وكاذبة ومكررة ولاتحوى إلا ألفاظا مرصوصة وتنويها لسابق علمه وعمله وصحة كهانته فى أهم الأخبار . فهيهات أن يكون له شأن إلا كشأن الوغد الآخر خاله المدعو اسكندر مكاريوس الذى أسس وبنى وهدم مجلة اللطائف المصورة .

فالعلم والأدب والصحافة ليست « زعبرة » ولا عهارة ولا دعارة ولا تجسس ، ولكن يظن أن الجريدة لاتفلس لثروة أربابها وشح مديريها فى النفقة وتحريرها بأقل نفقة ممكنة ، وصدق أحد أبناء بلدهم « مغبغب » عندما قال بجريدة الكشاف « إنهم يقلون البيض بالفسا » وهو مثل سورى نتن الرائحة كالذى قاله والذى ضرب فى

زكـــى بـــدر

طبيب أسنان بالقاهرة درس الطب بجنيف وهو من أسرة طيبة بالزقازيق وله مصاهرة مع أفاضل الناس ، فأخته كانت حرم اللواء عثمان صدقى باشا جارنا بمنشية البكرى وهو رجل صاحب نجدة ونخوة ورأيت جانباً ليّناً رطباً من أخلاق هذا الطبيب عندما كان مضطراً لحاجة ، فإذا انقضت حاجته انقلب وتنمر ولم يدفعنى الى معونته فى الحالتين إلا تظاهره بالضعف والمذلة وبلوغه مبلغ القنوط أمام من يتذلل اليه ليقضى حاجته ٠

وهو أسمر عريض الوجه قليل الذكاء إلاّ فى الشر دميم فى مجموعه وله صوت ردىءّ ناعم ولثغته فى الراء مذمومة وليس فى طب الأسنان على شىء وإن كان يكثر من الكلام والمباهاة والتفاخر ولاسيما بكرسى العيادة وأدواتها وهى من أفخر طراز وأحدثه، ولكن ماقيمة الأداة اذا كان الذى يستعملها عاجزاً ٠ وقد ظهر لى بمظهر المظلوم فى الحالتين اللتين مددت له فيهما يد المعونة فاكتشفت أنه إن لم يكن ظالماً فيهما فعلى الأقل كان يعدل خصميه ظلماً وتعنتاً ، وكان فى عداوته مريراً قاسياً فاحش اللفظ قاسى القلب لايبقى على مودة ولايحسب لمستقبل المصالحة أملاً ثم إننى فى أوقات صفائه واستتباب حاله لم أر منه صداقة ولا وداً ولا رجوعاً الى شىء من العقل٠

استقبلت هذا الرجل فى بيتى أول مرة بدون معرفة سابقة بل استند فى التقدم الىّ على صداقتى لخصمه والتجأ الىّ فى مسعى خيرى فى ظاهره وكان ذلك فى سنة ١٩٣٣ ، وقد ظهر لى بعد ذلك أن هذا الالتجاء كان جزءاً من خطة مرسومة وهى

التشنيع على خصمه عند جميع أصدقائه وكان قبل وصوله اليّ قد لجأ الى الأمراء والوزراء وسفراء الدول وكبار العلماء والموظفين ناشراً ظلامته مهولاً مهلهلاً عرض خصمه وقد استفاد من ضؤولة جسمه ودموعه فأقنع كل الناس بأنه ضحية الأقدار وحسن النية وفريسة خصم عنيد قوى .

ومن العجب أن خصمه على شدة اختلاطه بالناس وصداقته لأهل البلد لم يتكلم ولم يذكره بسوء إلا فى عرض الدفاع عن نفسه عندما يقصد اليه الناس متوسطين فى المصالحة بينه وبين هذا الطبيب . وكان كلما كلمه وسيط فى الخير يزداد غيظه ولكنه يكظم ، وأنما يغيظه أن هذه الفضيحة قد وصلت الى هذا الصديق أيضاً وأصبحت سيرته مضغة فى الأسواق وأسراراه مباحة مبذولة لكل من يشاء هذا الطبيب أن يلجأ اليه ويحاول الخصم القوى أن يبرر أعماله ويزكى نفسه ويعيد كرامته فى نظر أصدقائه وهو بين الغم والألم ، ولايكاد الصديق الساعى فى الخير على زعم نفسه ينتهى من توسله حتى يزداد الرجل المتوسط لديه عناداً . وكان الطبيب يتوعد بالانتحار كاذباً حتى يستدر عطف الناس ، والأعجب من هذا ، أننى لم أكن الوحيد فى الوقوع فى فخه فقد وقع فيه رجال أذكياء أهل فطنة وحنكة أمثال الثعالبى وشهبندر وبعض سفراء الدول ، وقد تتولد عدوات حقيقية بين خصم الطبيب وبين هؤلاء الأصدقاء لتدخلهم فى شؤونه الخاصة مع أنه كان أعف الناس عن هذه الناحية ولاترى من حياته إلا الجانب العام كالمآدب والخطب والمناقشات العلمية والأدبية ، ولايذكر أحد أنه سمعه ينتقص أحداً فى غيبته .

هذا الرجل هو أحمد زكى باشا الذى أطلق على نفسه لقب شيخ العروبة وليس هنا مجال إطرائه أو نقده .

جاءنى الطبيب وشرح مظلمته وكان حاذقاً فى إخفاء صحيفة أعماله ، فقد فعل كل مافعل وقال كل ماقال وكتب كل ماكتب اختياراً وبتعقل ومعظمها أفعال فى مصلحته

ولكنه الآن انقلب باكياً شاكياً زاعماً أنه تورط ودخل عليه وخدع واستضعف لقلة اختباره وضخامة شخصية خصمة وشهرته فى الملأ وطنطنة شهرته بالعلم والتقوى والنفع العام ، والآن هو سقط من السماء بين يديك فاعمل على إنقاذه ومعونته وتخليصه مما وقع فيه وإلا فهو خارج من بيتك الى قبر يحتفر ، ولابد أن الاذكياء استبانوا جانب التبعة فى كلامه وأنه أخطأ فى حق نفسه ولكن عز عليهم أن يزيدوه هماً وغماً على همه الظاهر ، وفى الحق كان هذا الطبيب ممثلا حاذقاً ، وبهلواناً لايجارى فى الاحتيال والتحيل والمراوغة حتى يقنعك بالتشمير في مساعدته ، وعلى الأقل فى السعى لصالحه.

وقال لى إنه قابل فلاناً وعلاناً وترتاناً وزيداً وخالداً من العظماء وأنهم حدّدوا موعدا للقاء والذهاب وفداً إلى بيت الباشا فى الجيزة مفاجأة ليكبسوه ويبتزوا منه الصفح والسماح والمصالحة ، ويظهر أنهم شعروا بأن الطبيب قد كبسهم كلا على انفراد وابتز منهم قبول الوساطة ، فأوحى اليهم بحيلته وتدبيره هذه الخطة . مع أن واحداً منهم لم يكن يعرفه وليس لنا به علاقة ودّ ولا إخاء ولم يقع عليه بصرنا وإن كنا أصدقاء حميمين للطرف الآخر .

فلما اجتمعت بالآخرين ممن حشدهم هذا الطبيب وصدق من قال « لأمر ماجدع قصير أنفه » قلت لهم وكنا فى بيت الدكتور شهبندر وهو رجل حصيف واسع الحيلة لايظن أن أحداً يخدعه . قلت لهم ياسادتى وإخوانى ، ولم يكن الطبيب حاضراً ، لئن كنا سكرنا من شكواه وغضبنا فى حالة السكر على صديقنا الذى لم نسمع جوابه ورده على ماسمعنا وقد سكر كل منا وغضب على حدة لأن حضرة الطبيب لم يجمعنا لدى بث شكواه ولكنه حشدنا وقت العمل ، فأرجوكم أن نتريث فى الأمر ، لا لنرجع على أعقابنا حتى ولو كان الخطأ فى جانب المتوسل إلينا ولكن لنضع خطتنا وننظم طريقتنا ونقوم صفنا لدى المقابلة فنكون كرجل واحد ونفترض كل

الفروض أو معظمها التى قد يلقانا بها صديقنا وهو كما تعلمون رجل جليل القدر قوى الحجة حاضر البديهة حسن التصرف ، فضلا عن أنه طاعن فى السن وإن يبدو فتياً فهو متصاب ولابد أن يكون ضيق العطن أحياناً ، خصوصاً فى هذه المسألة التى إن صحت فيها تهمة الطبيب الشاكى ، ضاع شرف الرجل وكرامته ومروئته فالتدبر التدبر!! .

فقال الثعالبى « السيد عبد العزيز الزعيم التونسى » إن هذا رأى موفق ولو اقتضى الإطالة وانتهاب الوقت فى البحث ، فإنه أضمن للنتيجة وأحفظ لكرامة الجميع... إلا المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر فإنه قطع علينا خط رجعتنا وقال : أنا أريحكم من هذا العناء ، لأننى قديم عهد بهذا النزاع ، وقد اطلعت على كل الوثائق والأحكام وعلى تاريخ المسألة من أولها الى الآن وحققت ودققت وأن بعض الوثائق عندئ والباشا لاينكر معظم مايقوله هذا المسكين المظلوم ، غير أنه يتوهم أنه إن سلم ولو ببعض الشىء كان فى ذلك تقليلاً من قدره وخدشاً فى شرفه وإذلالاً لعزته. فالأمر لايخلو أن يكون عناداً . وهو رجل قوى ويمكنه أن يقهر هذا المسكين وينال منه ويطيل تعذيبه ، فهو كالفارس المسلح ينازل راجلا أعزل . فإن أردتم أن تثقوا بى فى مسألة ليست من السياسة ولا من القضايا العامة ، حتى تتهمونى فيها باستعمال الفصاحة لأتغلب على رأيكم وليس لى فيها جانب منفعة إلا خدمة لوجه الله تعالى بإنصاف هذا المسكين من صديقنا القوى فعلتم ، ولاتنسوا أن نصرة الأخ الظالم بمنعه عن ظلمه واجبة بنص الحديث أنصر أخاك ..... إلخ .

فنظر إلىّ الثعالبى نظرة ذات معنى وهو أن الشهبندر قد انتصر بطلاوة الكلام وقوة الحجة وأخذ على كاهله تبعة المفاوضة . فقلت للشهبندر ، عظيم لقد صدقناك ووثقنا بك كأننا شخصك وعلى هذا جعلنا رياسة الوفد فى يدك وتبعة الجدل على كاهلك ونتيجة المسعى موكولة إليك ولا مانع من أن كلاً منّا يقول كلمة خير كلما وجد

لها موضعاً . وعلى هذا الشرط نعتمد على الله وننهض بالمهمة .

فدعونا الدكتور الشاكى من خلوته وكان قد بلل بضعة مناديل بدموعه الزائفة وقال إنه كان سيقضى على حياته أثناء تداولنا .

ونزلنا عند الغروب على بيت زكى باشا نزولا محرجا .

ولم أر فى حياتى رجلاً غاضباً حانقاً على كل فرد منا ولا سيما على الطبيب مثله ، فلا بشاشة ولا حسن استقبال ولاترحيب ولا ضحكة عالية ، فقد وجم الرجل وجوماً شديداً واستعاذ بالله فى سره واحتضن الطبيب وأخذ يلكمه ويصدعه فى عنف يستره المزاح المصطنع ، وهو لو استطاع لقتله وألقى به فى غيابة جب - وقد استبنت بعد ذلك بسنوات أن الرجل كان على حق - ثم التفت إلينا وقال ياسلام ! يا فلان وفلان وفلان ... لقد ضحك عليكم هذا الولد واستدرجكم وأقلقكم في هذا الوقت وخدعكم ، والله كنت أظنكم أكثر تدبراً وأقدر على تمييز الأقوال ، ولابد أنكم صدَّقتم كل ماقاله لكم وساعدتموه على نهش عرضى واغتيابى وأكل لحمى . فدهشنا لهذه المقدمة وقلنا حاشا لله أنت تسىء الظن بنا الى هذه الدرجة ، فقال كل ما انضوى تحت لواء هذا الولد الكذاب (كذا) الناكر للجميل الماكر ... فقد صار خصمى لأنه أبغضنى ، لا أننى أعاديه ، بل أشعر أن قلبه قد تغير علىَّ وإن لم يتغير قلبى ، ثم التفت الى الباشاوات من أصهار الطبيب وقال لهم أين كنتم عندما فعلت له كذا وكذا ودفعت له كذا وكذا وجهزته للرحلة والتعليم بكذا وكذا أو أهديت اليه كذا أو كذا وأعنته فى كيت وكيت ، كان يستنجدكم فى أشد أوقات محنته وهو طالب غريب فى سويسرا فلم تمدوا له يداً والآن بجاهى وبسبب صداقتى لكم يستعينكم علىَّ ويستعديكم .

وقبل أن نتمكن من الإجابة - « وهذا أمر عجيب فإن أفصح الجماعة وكلهم فصحاء ولاسيما شهبندر الذى جاء عارضاً رمحه » - قد ارتج عليهم وتلجلجوا وكنت فى هذا اليوم صائماً ولسنا فى رمضان فنفعنى صيامى وحرسنى ، ولم ينطق أحدهم

بلفظ أو كلمة أو جملة إلا تمتمة وهمهمة ودمدمة ، بعضنا خوفاً من سوء العاقبة وبعضنا دهشة . وكان الطبيب فى حجر الباشا أو حضنه كالهر فى مخلب الأسد ، ثم قال الباشا ولأجل أن أدلكم على أن كلامى هذا الذى لقيتكم به ليس إلا عتاباً وإن يكن حامياً ولايدل على غضبى ولاتهوين قدومكم علىّ فقد قضيت لكم كل ماتطلبون وأعدكم برد زوجته اليه « وهى متبناة الباشا أو كريمته » ورد ولده عدنان الى أحضانه ، ولأجل أن أدلكم على صدق نظرى فيه ناشدتكم الله ألا ترون أنه قادم على زوجته وولده فى بيتى وعليه نفقتهما شرعاً وعرفاً وذوقاً وحباً ، فهل حمل إليهما هدية من حلوى أو لعب أو ثوب يفرحان به وقد تواطأ الفلاحون على أن المغضوب منه أو عليه يحمل صلحا لزوجته .

فنطق صهر الطبيب : إنه لم يعلم ياسعادة الباشا أن عفوك كان أقرب إليه من حبل الوريد وإلا لحمل اليهما ...

فقال له « اسكتْ أنت فأنا أعرفك وأعرف تطوعك بالكلام ولا تزدْ ، ولو عرفت أن فى هذا المسعى توريطاً لك بدانق أو تحميلك عبء درهم ما أتيت أسكتْ من فضلك » .

فخجل الرجل وهو محارب قديم وله نخوّة وليس من أهل الفصاحة والحجة فطيبنا خاطره .

ثم التفت الباشا الى الطبيب ولكمه لكمة تكاد تزهق روحه وقال له : أصعدْ الى السيدة الكبيرة وقبِّلْ يدها واسترضها واستعطفها واذهب الى حرمك .

ولم يقل لنا ابقوا أو اجلسوا ولم يحاول أن يعوض بالملاطفة جفاء اللقاء ، فنهضنا وخرجنا ونحن فى ذهول أن الرجل لم يفعل هذا إلا للخلاص من المناقشة فهذا صلح علي دغل ودم على قيح ودهان على وبر ، وقد أفشل مسعانا بواسع حيلته وضمن أننا لن نعود اليه وأظهر للطبيب أنه مهما بذل فلن ينال أكبر من هذا الوفد ولا أقوى منه ولم يَجْن شيئاً وضاعت جهوده أياما وأسابيع أدراج الرياح ، فإن الباشا القوى

المجروح لن يلبث طويلا حتى يصرفه ويقصيه ، ولو كان هذا الأمر العزيز ينال بهذه السهولة ، مابكت العين . وقد كان ماتكهن به هذا الرجل الخبير ، فقد روى لنا الطبيب بعد بضعة أيام أنه تذلل لهم وتعززوا عليه . ثم لفظوه لفظ النواة فى الليلة نفسها ولم يجد ماينقله الى القاهرة فسار على قدميه . فقلت لو كان صادقاً فيما ادعاه من رغبته الانتحار لفعل ، إذ كان طريقه محاذياً للنيل مسافة طويلة فضلا عن المسدس الضخم الذى كان يحمله للإجهاز على نفسه كما يزعم .

وبعد ذلك اطلعت على كل شىء وعرفت كل شىء وقرأت الوثائق وتناقشت وشهبندر وغيره إلى أن علمت اليقين وهو أن الطبيب مخطىء من أول الأمر الى آخره ، وأنه احتال وتمسكن وتذلل ونال المال والسفر وإتمام الدراسة سنوات عديدة فى سويسرا حتى حصل على الشهادة النهائية ثم عاد يشترط ويحتم كما لو كان صاحب الحق والنفقة .

وإنى مع هذا لم أكف بعد ذلك عن السعى فى الخير ، لا له ولكن لأجل الطفل عدنان ، فقد عز علىّ أن يحرم من عناية والده ، وأيضاً لأجل أن أصون سمعة زكى باشا وحسن شهرته من لسان مر المذاق محلول العقدة مبسوط للذع واللسع واللدغ كلسان الأفعى ، فقد كنت أتألم كلما سمعته يخرجه كالسلاح المسموم الذى يديره أعمى فى أفانين شتى من السباب والقذف اللاذعين ، فلقيت هذا الباشا بعد ذلك مصادفة فى بورسعيد « يوليو سنة ١٩٣٤ » وانتهزت فرصة ضعفه وصفائه « فإنه لم يكن يصفو إلا إذا ضعف » وأخذت منه الأمان فى سيارة تجرى بين الإسماعيلية والقاهرة وقلت له أحب أن تنهى معضلة زكى بدر على صورة ما فإن شئت الوفاق أو الفراق خير من تعليق الأمور على هذه الصورة المزرية .

فتأمل لحظةً ثم قال لى « أقسم لك أننى أعدك بأن أفض هذا النزاع عند عودتى الى بورسعيد غداً أو بعد غد وأن يكون حل المسألة على يديك فى مجلس عائلى » .

وأعتقد أنه كان صادقاً فى قوله عازماً بالتوكيد على فض هذا النزاع وكان أميل الى المسالمة . أما سبب سفره وماجرى أثناءه فنرجئه الى ترجمته .

وكان زكى باشا عائداً الى القاهرة تاركاً أهله فى بورسعيد بعد أن استأجر لهم منزلاً أنيقاً للإصطياف ليأدب مأدبة لنفر من أدباء السوريين وعلى رأسهم المدعو الدكتور شيشيكلى ولم يكن مضطراً لهذه السفرة وكان متعباً ولم يقض فى المصطاف بعد أن جهزه بكل لزومياته إلا ليلة واحدة وكان بعيداً عن أهله . ولو شاء القضاء لهداه الله الى دعوتهم الى بورسعيد فإنهم كانوا سيبحرون من هذا الميناء ولو شاء لاعتذر لهم وأبقى ضيافتهم الى فرصة أخرى ولكن هذه إرادة الله وحلول الأجل ودقة الساعة الأخيرة .

فإن الباشا أصيب فى ليلته بالتهاب الرئتين وقضى نحبه ولم يعد الى مصيفه بل دفن فى مسجده . وهذه إحدى حوادث القدر التى لم أر مثلها فى التاريخ إلا نادراً .

ولذا اعتقد أنه راح مغفور الذنب من ناحية زكى بدر وزوجته وولده لأنه كان صمم على حل معضلته ، كمن نوى الحج ومات قبله .

وفى نفس المأتم انفض المشكل وتسلم بدر الوثائق وهى سندات دين بمبالغ قبضها وامتنع عن سدادها وكان الباشا يطالبه به قبل المصالحة .

بيد أنني لم ألق بدراً هذا بعد ذلك مطلقاً . ومضت أعوام وهو لايذكرنى ولايذكر أحداً ممن توسل اليهم وسخرهم .

حتى دعانى الى حفلة شاى أقامها لشكيب أرسلان فى فندق مينا هاوس وقد كتب الىّ بطاقة من الزقازيق نصها « بالرغم من عدم تمتعى بمقابلتك إلا أنى كثيراً ما أتمتع بقراءة مايخطه يراءك البارع (كذا) وها أنا أكتب إليك بهذه المناسبة تهنئنى الصادقة بعيد الأضحى المبارك أدعاه الله (يريد أعاده ولكن كتب مادة ادعى لانشغال ذهنه بالدعاوى) علينا جميعا بخيره العظيم (حمانا الله من ادعائه علينا جميعاً ؛

وجل سبحانه وتعالى عن الادعاء ...) .

فلما ذهبت الى حفلة مينا هاوس وجدتها فاترة وقد جمعت خليطاً من الرجال ممن لاتربطهم رابطة وكنت فيها مستوحشا لعدم التجانس ونكبت نكبة كبيرة فى أننى رأيت شكيب أرسلان فأبغضته للنظرة الأولى واستثقلت ظله وكرهت أن أسمع له . وتحيرت أولاً فى سبب هذه الدعوة والنفقة إلى أن دلنى الفكر على علاقة الجوار والألفة التى كانت بينهما فى جنيف ، فقد اتخذها أرسلان مقراً له سنوات عديدة ولابد أن بدر استخدمه فى إلانة قلب زكى باشا وابتزازه . ثم لم يلبث أن قبلنى وكلمنى فى قضية لوجه الله رفعها عليه نجار فى دمياط، فقضيت وقتاً طويلاً وحضرت جلسات عدة وكنت فى كل مرة أسمع من بذاءة هذا الشخص فى حق خصمه وحق القضاء والمحاماة مايثير ضميرى ويزعجه . ورأيت من تلونه وميله عن الحق وتشدده فى مجادلة من يحب الإنصاف ما أرهقنى منه ، وكان بعض أصدقاء الباشا أخبرنى أنه بعد مأتم المرحوم استولى على كل شيء وأحرق الأخضر واليابس وضيّع المكتبة الزاخرة بالمخطوطات النفيسة النادرة والمطبوعات الثمينة الغالية وبدد مابدّد من القصاصات والجزازات التى قضى الرجل العالم عمره فى تصنيفها وتصفيفها لتكون مراجع نافعة له وللعلماء وقد رأيتها فى مكتبة أسسها بعد التي وهبها لدار الكتب المصرية .. وأنه مع ذلك يشكو الفقر والفاقة والاضطرار والإعسار وقد أغلق دار العروبة التى كانت مفتوحة لكل قادم، وضيق الخناق على أهلها وقطع مابينها وبين الناس واستأثر بكل شيء . وهذا قليل من كثير مما علمته وسمعته من ثقاة أمثال الدكتور أحمد عيسى ومختار عبد اللطيف ومحمود زكى المهندس الذى بنى المسجد وزينه وغيرهم وغيرهم ولست بمقام التشنيع على هذا الطبيب ولكن هذا هو التاريخ ولا أدرى مولده ولكنه من أهل الزقازيق ولعله من نسل يأجوج ومأجوج وسقط فى الشرقية بطريق الخطأ .

ستيفن هيلز باركر

رجل أمريكى الجنس إنجليزى اللغة فنّان مصور عرفته فى إحدى غمرات الحياة بمصر فى أوائل سنة ١٩٠٩ حيث كان يشتو وقد قدمه إلىّ صديقى المرحوم محمد عبدالوهاب الصوفى المحامى الذى توفى فى سنة ١٩٣٣ أو ١٩٣٤ ، وكان الرجل فى أول أمره منقبضاً ضيق العطن وكان شديد التعصب لجنسه ووطنه ويقول إذا لم أكن أمريكياً فماذا أكون ، وإذا لم أكن مسيحياً ولو بالاسم فماذا أكون . وقد روى لى أنه قضى معظم حياته فى باريس وايطاليا فى سبيل الفن . وسمع نقاشاً فى قضية دريفوس فغضب واحتد وقال هذه قضية قد فرغت منها وكونت اعتقادى فلا أطيق أن أسمع فيها رأياً ينقض رأيى أو ينقض الواقع وهو براءة دريفوس ، فقد كنت فى باريس أثناءها ورأيت ما أهرق من الدم والمداد فى سبيلها والحكم على إميل زولا بالسجن وفراره الى لندن . وكان باركر فى هذا على حق فقد درستُ قضية دريفوس بعد ذلك دراسة مستفيضة واقتنعت ببراءته كما اقتنع باركر ولم أطق أن أسمع فيها نقاشاً أو رأياً يخالف رأيى . وعلى كل حال استمر انقباض باركر عنى الى أن علم أننى سأرحل على ظهر الباخرة شلزويج فى يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٩ . ولما دنا موعد السفر قال لى عبد الوهاب إنه سيسافر للأسكندرية معى لتوديعى .. وتوديع باركر فإنه مسافر بنفس الباخرة .

وفى اليوم الثانى فى عرض البحر ظهر باركر ، ففرح بى وحيانى وكان بجانبه رجل طويل بشوش ذكى تبدو عليه الرغبة فى الظهور بالانفراد فى ثيابه وحديثه ، كان كهلاً مهيب الطلعة . فقدمه باركر إلىّ فإذا هو بير بوهم ترى Tree الممثل الانجليزى

الشـهـير وكـان جـاء مـصـر ليـعـدّ العـدة لتـمـثـيل رواية النبى الأبيض تأليف هول كين H.Caine ومنذ تلك اللحظة لم نفترق وكان ترى كنز أدب وفن ونوادر ونكات وأحاديث وأخبار وتاريخ . ولا أحب أن أجعل له ترجمة خاصة ، ولكن أذكر أنه كان شغوفاً بالأدب الشرقى كشعر الخيام ، وحكمة كونفوشيوس . وروى لنا أنه مثل رواية « عدو المجتمع » ودنا فى أحد المواقف من مقصورة الملك ادوارد السابع وفاه بعبارة من متن القصة وفيها عنف ونقد لنظام الملك فارتدّ الملك الى الوراء ، لأنه أخذ على غرة وأراد بعض رجال الحاشية أن يلفت نظر الممثل الكبير إلى شدته فأبى الملك ودعاه وصافحه وهنأه .

وروى قصصاً كثيرة عن حياة أوسكار وايلد وقصته ومؤلفاته ونجاحه فى تأليف المسرحيات وقضيته وقال إن أخاه ماكنى بيربوهم كان من أصدقاء وايلد الحميمين ومن أقدر مصورى مجلة بنش الهزلية . وانتقد نفاق الانجليز الذين أعرضوا عن وايلد وقلبوا له ظهر المجن حتى أرغموا زوجته وبنته على تغيير اسميهما والهجرة من وطنهما وقد ماتت زوجته بعد سنة أو سنتين مكسورة القلب ، وكان بيربوهم ترى كالنبع المتفجر فى الأدب والتاريخ والفن كانه أحد أساتذة الجامعة وأعطانى صورة الممثل المثقف الذى لايقل مكانة وعقلاً وتدبيراً عن المؤلفين أنفسهم ، فكنت أضحك فى كمى عندما أتذكر ممثلى بلادنا « ماعدا المرحوم الشيخ سلامه حجازى » وسألته يوما لم اسمه بيربوهم ترى واسم شقيقه ماكس بيربوهم فقال لى إن اسم بيربوهم وإنْ صلح للتصوير والكتابة فإن فيه غلظة ونغمة تيوتونيه لاتصلح للإعلان عن ممثل مثل لفظ ترى الذي هو أسهل وأملس وأنعم وأرق على سمع النظارة والذاهبين الى المسارح . وطالت إقامتنا على ظهر الباخرة بسبب هياج البحر وجنوح الباخرة التى سبقتنا بأسبوع « برنس لدويج » ، وطال استمتاعنا بعشرة هذا الأديب الذى فارقنا فى نابولى بعد بضعة أيام ، وقد واصلنا السفر مع باركر الى مارسيليا فافترقنا ، لأنه أقام فيها ليلة وواصلت

سفرى الى ليون .

وقد حرص باركر على أن يترك لى بطاقته بعنوانه المستمر وهو شركة فرنش ليمونز بفلورانس وعلى هذه البطاقة محل إقامته عندما كان فى فلورنس وهو عدد ٢ شارع ميلارانسيو . ولم أره بعد ذلك وقد استمر يكاتبنى وأكاتبه أكثر من عشر سنوات ، وقد شكا لى أنه أصيب قبل زيارته مصر بمرض فى عينيه منعه عن مزاولة فنه وهو التصوير وبعث إلىّ بديوان شعر من نظم صديق له توفى فى فلورنس فى شبابه اسمه هيوماك كيلوخ ويظهر من اسمه أنه اسكوتلندى وأنهما عاشا فترة طويلة من أواخر القرن التاسع عشر الى أوائل العشرين فى عاصمة توسكانيا الجميلة وهى فى نظرى من أجمل بقاع العالم إن لم تكن أجملها قاطبة وقد قضيت فيها فترة من أسعد فترات الحياة ، ولما وصلت إلىّ نسخة من ديوان هذا الشعر قرأت فيها أثر الحياة الفلورنتيه « نسبة إلى فلورنسا » فى ذهنه وعقله ويظهر أنه كان شديد الحساسية ولا أحب أن أحكم على هذا الشعر لأننى لست ناقداً لهذا النوع من الأدب خصوصاً اذا كان بلغة أجنبية عنى ، وأقول إن باركر كان وفياً لصاحبه ولأخته فقد صدّره بصورة الشاعر من ريشته فى جو قاتم حزين وأهداه الى شقيقة الصديق القديم وطبعه فى ادنبرج موطن الشاعر . غير أننى وجدت فى هذا الديوان مقطوعة عن قرطبة بالأندلس بعنوان المدينة وفيها شماته بالعرب الذين زال ملكهم حتى صارت قرطبه « وهى وطن ابن رشد » أفقر بلاد اسبانيا - انظر الى تعصب هؤلاء الناس حتى الشعراء منهم ، فقد قال هذا الرجل الذى لايستحق أسفاً ولا رحمة .

١ - المدينة :

لقد سقطت قرطبة الفخمة فإن مدن الاسلام تبنى على الرمل والدماء . والديدبان البريطانى يردد صوته فى القاهرة وماتكون بغداد أو سمرقند فإن الكفار الظافرين (كذا) يستبيحون حرمها وأصطامبول المتكبرة تهتز لتسقط عما قريب .

٢ - المسجد :

أعمدة فى كل ناحية . طمع فى الملك وامتداد النفوذ لا رغبة فى معرفة المكنون أو التحليق فى سماء الفكر والعبادة . ولارغبة فى الوصول أو الشوق الى العرش الإلهى عمد منتزعة من معابد العقائد القديمة . أما الآن فإن العمد الكثيرة قد تخللها عبق البخور وتردد بينها صوت الصلوات القوطية « المسيحية » التىّ تصعد الى عنان السماء ، فقد سلم العربى سلاحه وملكه لفن أجنبى ، وهذا سيفه ملقى فى المحراب محطماً يمر به الصليب محمولاً باحترام .

فلما قرأت هذه القصيدة الداعرة كتبت الى باركر ألومه على أنه أهدى إلىّ شعراً فيه مذمتى ومذمة قومى ودينى وشماته قبيحة أليمة من رجل سبّاب متعصب ، يعيش فى وسط الجمال الذى يزعم تقديسه ونفسه خبيثة ملوثة ببغض الأمم والأديان وقلبه ملآن بالأحقاد والأضغان وأفهمت پاركر أننا نمر بآثار أثينا ورومة فى خشوع وبآثار المصريين القدماء الوثنيين بكل احترام وتقدير ولم تمر بخاطرنا يوما فكرة شماته أو عداء ، وأن صاحبه المكلوب ماكيلوخ لم يذق شيئاً من الشر أو الضرر على يد أحد من المسلمين الشرقيين أو العرب أو الترك أو أهل بغداد وسمرقند ، لأنه من مواليد هذا القرن قرن الاستبداد الغربى لأمم الشرق ، فما الذى دعاه الى ذكر السيف المحطم والمحراب والصليب معا ، مع أن بقية شعره تدل على تعظيمه باخوس إله الخمر عند اليونان وهيراكليس الآله الخرافى . والله يعلم وعلماء أوروبا الراشدون يعلمون أن ابن ادنبرج كاذب وجاهل وسخيف ولايعرف شيئاً من حقائق التاريخ ولا مجال لتعليمه أو تقويمه بعد أن طواه الردى .

وهذا الرجل لو وقف على شيء من الحقيقة قبل تسويد صحيفته لعلم أن هذه المدن التى يزعم أنها بنيت على الرمال والدماء ولا سيما قرطبة التى ساء فأله باختيارها لشماتته قد أنجبت ابن رشد العظيم أول مفسر وشارح فلسفة أرسطو

وأفلاطون وأقروا أنه لولا شروحه الثلاثة الكبير والوسط والصغير ما وصلت هذه الفلسفة الى أوروبا ، وأن الأندلس كانت أستاذة أوروبا وممدنتها وقائدتها الى الحضارة الحديثة . أما كلامه عن المحراب والسيف المحطم والبخور فلا يدل إلا على انه من الشعراء أهل الشذوذ الخلقى الذين تلازمهم صفات الأنوثة .

أما زعمه أن عمد المسجد الكبير فى قرطبة الذى صار كنيسة لاترتفع نحو السماء ولا تدل على شوق الى العرش الإلاهى فقد كذب فيها أيضا ، لأن الشيخ الأكبر وزعيم الصوفية المسلمين محى الدين بن عربى أندلسى الأصل والمولد والنشأة وهو الذى أقر بفضله كبار المستشرقين من مئات السنين الى نكلسون الانجليزى الذى ترجم كتابه فصوص الحكمة وحلله . دع عنك الفتوحات المكية وديوان شعره العظيم. فليرنا مكلوب أو مكلوخ هذا زاهداً أو عابداً كأحد صوفية الأندلس الذين يعدون بالمئات أو فلاسفتهم كابن باجة وابن الصائغ بعد ابن رشد .

ولكن مانفع هذا الحوار مع رجل كان ميتاً فى حياته ومردداً أصداء أصوات التعصب والجشع ، ومن علامة ضعفنا أننا نذهب الى هياكل المظالم فى الغرب فلا نبغضهم ولانكرههم ولا نقلب صفحات تواريخهم السود ومطامعهم الأشعبية بل نعجب بهم وهم ألد الأعداء . وقد كتب إلىّ باركر يعتذر وقال لى إنه لم يقرأ الديوان وأن الذى أشرف على طبعه ومراجعته أخت ذاك القتيل الإيقوسى الذى قضت عليه الحمى فى بضعة أيام وأنه كان شاباً جاهلاً بالتاريخ ولا عقل له فى السياسة ولم أقم وزناً لهذا الاعتذار .

سليمان البستانى

لم تفتنى صحبته ولا رثاؤه وهو صاحب الإلياذه العربية وابن صاحب دائرة المعارف وخير من استحق وصف البستانى إذا كان معناه زرع أفضل النبات فى أزكى الأرض وهو العلم فى العقول وجنى أجمل الأزهار وأحلى الثمار ٠

وقد شاء طيشى ورعونتى فى سنة ١٩٠٣ فى السابعة عشرة من عمرى أن أكتب أليه خطاباً وأن أبعث اليه بأحد مؤلفاتى ! مؤلفات الفتوة – فى بيوت الناس – فبعث اليّ الرجل بخطاب كريم ونسخة من الإلياذه بالبريد من القاهرة الى طنطا ، تأمل أدبه وكرمه !! ، وكانت النسخة بجنيه مصرى وكتابى بقرشين فما أعظم مروءته وصدق نيته ورغبته فى تشجيع الأدب ٠ ولو كان غيره لتركنى أؤذن فى مالطه وأضحك من جرأتى٠

كان البستانى موضع عناية علماء مصر وأدبائها من أسبوع وأقاموا له حفلاً وتكريماً وتهنئة لظهور عمله العظيم ٠ فدل على أنه يستحق شكر العرب والأدب وكانت هذه سبب محبتى له واحترامى فأذعتها صغيراً وكبيراً وشدت بفضله فى كل مكان ، لأننى لما شببت عن الطوق قدرت مروءته وأنا ذلك الشاب المجهول لديه وليس لى وسيلة اليه وبى شغف شديد بالاطلاع على إلياذته ٠ وأدب مثل هذا الفرد الجليل يمحو سيئات عشرات من بنى جلدته بل وأهل جيله وعصره ويطمئنك على أن الإنسانية بخير٠

وقد حذوت حذوه ، فلم يطلب اليّ طالب كتاباً من كتبى إلا أهديته إليه فى مقره لأننى أردت أن أكون مثله ولو كان المستهدى مجهولاً لدىّ وإنى ما أزال أثنى على علمه

وأدبه وجهوده الجبارة التى بذلها فى نقل هذا الديوان النفيس الى لغة العرب وهو ماعجز عنه المترجمون والناقلون فى الدولة العباسية • وان مقدمته الكبيرة فى الأدب العربى ومحفوظه ومحصولهُ من الشعر والنثر فى كل اللغات لما يثير الإعجاب ويضمن له شهرة عالمية وقد انتخبه الترك عضواً فى مجلس المبعوثان وانتقوه وزيراً فى عهد الاتحاديين وتوفى فى مصر ونقل رفاته إلى لبنان لأنه مفخرة من مفاخره •

صلاح الدين بايللــى

إيطالى الجنسيـة واللغـة وموظـف بالمحكمـة المختلطة انتحل دين الاسلام وأظهـر إخلاصـه للمصـريين من سنة ١٩١٩ وأطلق فى خطبه بمصـر الجديدة على شم النسيم اسم عيد شم الحرية ، فصفقوا له ولم يوافقوه وكان الاسم جميلا والفرصة مواتية ليحل هذا الاسم الجـمـيل مـحل الاسم الوثنى . فـقـد جـاء شم النسـيم فى سنة ١٩١٩ فى مناسبات سـعيدة بعـد الثورة أو أثناءها وكان التـضامن بين المصريين ظاهراً . وهو يتكلم الإيطالية ويكتبـها بفصاحة ولقى عنتاً شديداً عندما أراد أن يتجنّس بالجنسية المصرية بعد إسلامه . وهو رجل شـهم من أشباه الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام فى حملة بونابرت وفـى عـهـد مـحـمـد على وأخلصـوا لمصـر والإسـلام ، وهو رجل يميل الى المرح والمساواة والعدل والحرية والإخاء والسلام ولايحب النزاع بين الجماعات والأفراد وقد تزوج قبل إسلامه بمصرية وأنجب منها أولاداً وبنات غاية فى الجمال والتهذيب . ومن أظرف مـا أرويه عنه أنه يعتقد أن اسمى على بك فـهو يناديني به فصححت له ذلك الخطأ مرات عديدة فيعتذر لى ويكتبه ثم ينساه ، كقصة التركى الذى قـال له الشيخ اسمى إبراهيم لا محمد فقال له عفارم شيخ محمد !! .

وقد ترتب على هذا الخطأ عـاقبة وخيمـة له فإنه احـتـاج إلى أمر مـهم مسـتـعجل فـأخـذ يسـأل عن على بك فـدلوه على عـشـرة أشـخـاص اسم كل منهم على بك ولـم يدله أحد علىّ ، وأخذ يصـفنى ويخصـصـنى بصـفتى ولايدله أحد وأخيراً قابلنى وقال لى لقد تعبت فـى البـحـث عنك ياعلى بك . فـقلت له طبـعـاً لم تجـدنى ولن تهـتـدى إلىَّ أبداً لأن اسمى محمد لطفى لا على بك . فضرب بكفه على جبهته العريضة وقال :

– يا اسم الله nom de dieue لقد كتبته مراث ولم أتذكره ودائماً أعتقد أن اسمك على بك .. ياعلى بك Aly Bay .

عبد الحليم وعبد الرحمن البيلى

شقيقان شهيران أولهما أكبرهما سناً وأقدمهما سابقة فى معرفتى ، عرفته سنة ١٩٠٨ فى مدرسة الحقوق الخديوية فلما اضطهدتنى السياسة والوزارة والنظارة سافرت الى ليون فلحق بى بعد بضعة أشهر وحل ضيفاً كريماً مع صاحبه المرحوم على فوزى المحامى وكان من مديرية المنوفية ودفن بمدينة منوف التى اشتغل بها محامياً سنة أو سنتين .

وكان عبد الحليم واسطة التعرف بينى وبين توفيق دياب وبين أخيه الأصغر عبدالرحمن .

ولما عاد الى مصر بعدى بعام أو عامين تجددت المودة واشتغل بالمحاماة فى المحكمتين المختلطة والأهلية . وهذه طائفة كانت مرتبطة بأسرة ناصف « جلال الدين وعصام » وخالد باشات .

وقد اتخذوا حلوانى صولت مقراً لهم قبل الحرب وأثناءها، وكان عبد الحليم وعلى فوزى وثلة أخرى من الأصدقاء « عبد الرحيم مصطفى وأحمد زكى وآخرين » يعيشون فى ضاحية شاربونيير التى اتخذتها فيما بعد مصطافا . وكنا نجتمع فيها ونقرأ الشعر والأدب ونتبادل الخواطر فى مستقبل وطننا ويزوروننى بجملتهم فى بيتى بليون ١٤ ميدان أمبير، فنجلس فى ساحة بلكور « ونتذاكر الدروس » ، ودعانا موسيو لامبيرالى حفلة انتخابية فى مدينة تارار كان مرشحا فيها للمجلس العام Conseil General وجاء دى برسانسيه عضو الشيوخ عن مقاطعة الرون للخطابة فى الحفلة وتقدم عبد الحليم بباقة زهر وكلمة بليغة بالفرنسية كانت أول نجاح له فى مجال

السياسة . وقد نُكب ظلما فى سنة ١٩٢٥ أو ١٩٢٦ بسبب فرية افتراها أحد مستشارى الاستئناف الذين حكموا فى قضية السردار ، وقد افتراها بعد لقاء عبد الحليم وهو فى قنصلية مصر فى اصطامبول فحملها المستشار معطرة مبخرة وبلّغها الى ذوى الشأن ، ولكن التهمة التى وجهت الى الشقيقين انتهت ببراءتهما .

ودخل الأخوان مجلس النواب مرات ، واشتغلا شغلاً جدياً بالسياسة وبلغا فيها شأواً بعيداً . وطلق عبد الحليم السياسة منذ بضع سنين وقبل وظيفة مستشار قضائى فى السكة الحديد . ثم أقيل منها فى سنة ١٩٤٢ . وكان طول حياته رجلاً شريفاً حر الفكر مخلصاً مضحياً ، ولكن الحياة فرقت بيننا فلم أره بعد عودتنا فى سنة ١٩١٣ إلا مرات معدودة ، وكنت أرى أخاه عبد الرحمن أكثر وأوفر لأنه ينبسط فى المجتمع ويخالط أهله ، أما عبد الحليم فكان ينقبض ويحب العزلة . ولكن كانت له ألفة وصداقة مع بعض أساطين القصر ولاسيما فى عهد المرحوم الملك فؤاد ، وكان أقرب أصدقائه حسن نشأت باشا وقد اشتهر فعلا بإخلاصه للقصر .

وحدثتْ بينه وبين المرحوم سعد زغلول مشادة عنيفة عرف منها القريب والبعيد أنه على وشك الانفصال عن حزبه ورئيس حزبه ، وهذا الذى حدث فعلا بعد بضعة أيام وهذا الذى سبب تعيينه فى السفارات عند ظهور حركة السلك السياسى التى بدأها الملك فؤاد وجعل الإنتقاء فيها موكولا أولا الى المرحوم فؤاد سليم باشا وثانياً لحسن نشأت باشا وأعوانه أمثال الدكتورين محمد عبد السلام الجندى ومحمد نافع ، وكان من حظ عبد الحليم أن الجندى كان قريبه وصديقه وظهرت علامات هذه القرابة فى ليون عندما كنا نؤلف جمعية الطلاب المصريين فى ليون ، فكان عبد الحليم يرشح الدكتور الجندى للرياسة وكانت الأغلبية على أن يكون الأمر شورى بيننا بدون رئيس معين عدا من ينتخب لإدارة الجلسة فى كل اجتماع وذلك تفادياً للمزاحمة والمناقشة والاستئثار .

ولكن عبد الحليم كان طوال مدة تعارفنا مثال الأدب والوفاء وحسن العشرة والمروءة ولين الجانب والمحافظة على ذكريات العشرة القديمة فى مصر وفرنسا . ولذا استبعدت بل أنكرت أن تكون له يد فى قضايا الاغتيال السياسى . نعم كان عبد الحليم صديقاً لشفيق منصور الذى حكم عليه بالإعدام فى قضية السردار « التى ترافعت فيها مايو ويونيو سنة ١٩٢٥ » ، ولكن صداقتهما كانت اجتماعية محضة . ولذا ذعرت لما عرفت أن ذاك المستشار الغافل « توفى » لما كان فى اصطامبول تحدث الى عبد الحليم البيلى « وهو قنصل مصر » ، وذكر عبارة عن أحد المتهمين فزعم أن عصا البيلى وقعت من يده فأخذ هذا دليلاً على اشتراكه فسارع الى التبليغ عنه قبل أن يبارح الأستانة ، وقبض على عبد الحليم وسجن وقدم الى المحاكمة فى قضية ماهر والنقراشى وقد حكم فيها بالبراءة . وقد سئل عن بلاغ المستشار فلم يزد على قوله إنه رجل سخيف . ولم يؤخذ ببلاغ هذا الرجل ولا شهادته وفضح نفسه على غير طائل ، كأنه لم يكتف بالحكم فى القضية الكبرى الأولى بل ذهب الى اصطامبول بحيلة الاصطياف والاستشفاء وهو ذاهب الى اصطياد متهمين ولو كانوا من طبقة القناصل ولو كانوا أبرياء ، كل هذا ليخدم أبناءه وأقاربه الذين كانوا فى خدمة الحكومة .

هذه حقائق تاريخيه ووقائع حدثت واشتهرت وبعض شهودها أحياء . فيم نفسر هذه النقائص الخلقية وكيف يدل سقوط العصا من يد شخص على إجرامه ، وكثيراً ماتقع الأشياء من أيدينا ولانكون مجرمين ولا متآمرين ، ولو فرضنا أنها سقطت من تأثير الانفعال فلعلّه حزن على صديق أو رفيق أو تأسف على حكم قاس أو على مصائب الوطن ، وقد قيل إن القاضى لايحكم بعلمه وهو مبدأ ثابت فكيف تقبل شهادته إذا كان قد ذهب لاستثارتها واختراعها واستدراج الناس للتكلم أو مراقبتهم بخبث وجبن حتى يخترع عليهم مايوصله لمآربه ؟ .

وأسرة هذا القاضى كان فيها رجال فضلاء ومخلصون وطنيون مضحون ، وكان فيها شخص أو شخصان اشتهروا بالتجسس فى اصطامبول والقاهرة وكان أحدهما فى حاشية الخديو عباس وكان رجلا كغراب البين أصفر أسود جاف الطبع قاسى القلب نذلاً مرذولاً سعى فى قطع أرزاق كثير من الناس بتهم كاذبة وأقوال باطلة ومازال عاملاً على الشر حتى طارت روحه لتجتمع بروح سلفه يهوذا الأسخريوطى ·

ولكن فى هذه الأسرة رجال فضلاء وطنيون مخلصون لم تشب حياتهم شائبة وكل شجرة فيها الطيب والردىء والأخضر واليابس والحلو والمر · وفى الناس جحود وإنكار وفيهم عرفان الجميل والإقرار بالخير والسعى فيه ومعرفة جوهره ·

ولما كانت حياة على فوزى صديق عبد الحليم قصيرة وجيزه فلا أرى مانعاً من ذكره هنا ، فقد راح فى مقتبل العمر طاهراً مطهراً لم يعرف مساوىء الحياة وشرورها ولا مقالب السياسة وملاعيبها الدنيئة ومهاويها العميقة المهلكة · فإنه بعد أن حاز الشهادة الثانوية من مدرسة المساعى المشكورة فى شبين الكوم « وكان فيها أستاذ اسمه محمود على سبق لى أن تعلّمت الترجمة على يديه فى مدرسة طنطا » دخل مدرسة الحُقوق وارتبطنا بصداقة وثيقة ولذا كان هو وصديقه عبد الحليم البيلى أول من تبعنى الى مدينة ليون بغير دافع ضرورى غير الظن الحسن منهما فى خطتى · وكان منذ بدايته ضعيفاً ضيق النفس بسبب برودة أصابته وأعقبتها حمى فأصيب قلبه بالتضخم وقد عانى فى ليون معاناة شديدة بسبب رطوبتها ولذا هاجرها ونزح الى شاربونيير ، ولما عاد اشتغل عاماً واحداً فى المحاماة وكان مثال الاخلاص والوفاء والاجتهاد ثم رقد مدة طويلة وتوفى بالمستشفى الفرنسى وفجع فيه والداه وأهله وأصدقاؤه وكل من عرفه أو عامله ، فقد كان مثال الوداعة والأدب والأمانة ورقة الحاشية وكمال الطبع رحمه الله رحمة واسعة وعوضه عن شبابه وملذات الدنيا الفانية، جنة خالدة ونعيماً مقيماً دائماً·

عبد العزيز اسماعيل

توفى فى سنة ١٩٤٢ وكان رفيقى فى الدرس فى المدرسة الخديوية وجارى فى النوم فى القسم الداخلى وزميلى على مائدة الطعام وكان يناصرنى فى جمعية شمس الهدى التى أنشأتها للخطابة فى المدرسة . ثم افترقت الطرق ولم أره منذ سنة ١٩١٤ الا فى سنة ١٩٢١ عندما ذهبت لاستشارته فى مرض أصابنى فوجدت منه وفاءً وصداقة وإخلاصاً وأذكرنى بعهد الدراسة وأيامها الحلوة وطلب منى كتبا مما أقرأ فأهديت اليه ماطلب ، وكان يعلم يقيناً أن عندى حصاة بالكلية ولكنه لم يشأ أن يزعجنى ووصف لى دواء يفتّتها أو يسهل انحدارها . ثم قال لى إذا احتجت الىّ فى أى وقت من الليل أو النهار فلا تتردد فى دعوتى إليك لأعودك فشكرته وصدقته .. وقد دعوته الى عيادة بعض معارفى وأجزلوا له الأجور . وسرنى ذلك .

ثم حدث أننى شكوت فى إحدى الليالى وكان الليل لم يذهب إلا أقله فقال أهل بيته إنه موجود وسيأتى ثم قالوا إنه نائم ثم قالوا إنه تيقظ ولكنه متعب وهكذا بقينا معهم فى مفاوضات تليفونية وأنا أتقلب على أحر من الجمر وأتجرع أمرّ من العلقم وكل من يقاسى آلام الكلى يعلم أن بعض المرضى يتمرغون على الأرض ويعضون الحديد ولاينقذهم إلا حقنة المورفين وقد وقانى الله سوءها وليس لها علاج إلا الإسعاف بوضع الأدوات الحارة على محل الألم كالردة الدافئة والخرق المبللة بالماء فى درجة الغليان ... إلخ . ولو أنه وصف لى هذا عن بعد لاكتفيت ، ولما يئستُ منه بعثت فى طلب الدكتور نجيب إسكندر فغادر دار الأوبرا وحضر لإسعافى بعد نصف الليل . ولم أنس فضل عبد العزيز الذي كان سبباً فى تعرفى بإسكندر وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

وحاول صديقى القديم ورفيق صباى بعد ذلك أن يتصل بى ليعتذر فلم أطق أن أسمع صوته ولم أره ولم أتحدث اليه الى أن توفى رحمه الله ..

وكان شديد الرغبة فى العمل والربح حتى أهمل نفسه ولم يسمع أحد عنه أنه تريض أو اصطاف أو استراح أو عيّد أو لبس ثوباً جديداً أو ذهب الى ملهى أو ملعب ، ظناً منه أن هذا الإكباب على العمل موضع فخار ومباهاة . ولابد أن يعلم أن أساتذته الإنجليز يلعبون التنيس والجولف ويركبون الخيل ويشهدون التمثيل ويعُطون للراحة والترفيه جانباً كالجانب الذى يعطون للعمل والدرس . وكانت النتيجة أنه ترك مئات الأفدنة وقناطير الذهب ومات فجأة بعد صلاة العصر فى أحد الأيام ، ولكن الآجال محدودة وفيما عدا ذلك كان مؤمناً عالماً فَقَدَ إحدى عينيه فى تجربة كيميائية فى أحد معامل انجلترا ومع ذلك لم يكف عن الدرس والمطالعة الى ساعات الصباح الأولى . وكان يعتقد أن القرآن موافق للعلم الحديث ، فوضع رسالة فى ذلك مطابقة القرآن للطب والعلم الطبيعى . وقيل إنه كان خيراً ويحب كتمان الحسنات وإخفائها . وكان ينفرد بكتابة تذاكر الدواء على الطريقة الانجليزية وهى التى تحوى عشرين أو ثلاثين صنفاً من العقاقير ولاشك عندى فى أنه كان طبيباً عالماً بالأمراض الباطنية ولاسيما أمراض القلب والصدر والمعدة والأمعاء ، ولكنه فى آخر الأمر كان لايملك الوقت لعيادة عشر مرضاه فكان يأمر كل عشرة منهم بخلع ثيابهم ثم يمر على كل واحد منهم ويقضى فى فحصه بضع دقائق .

ولما كان شديد الإهمال لثيابه دسوا له الخياط ليأخذ مقاسه ليصنع له بدلة جديدة فدخل عليه بصفته مريضاً ، ولو علم أنه خيّاط لطرده ، فلما جلس الترزى مدة دون أن يخلع ثيابه كعادة المرضى : قال له « أعد كدة يا افندى ليه ما ألعتش هدومك أنت مش شايف زملاءك ؟ » فقال له ياسعادة الباشا الدكتور أنا الترزى جاى آخذ قياسك فقال له : اتفضل اطلع بره أنت جاى تتفرج على العيانين ، فخرج الرجل ولم

يتمكن من صنع ثوب جديد للباشا .

وقد رأيت أطباء عظماء فى أوروبا ومصر فلم أر هذا النوع المستغرق فى الفحص وكتابة التذاكر حتى الموت . فهذا إخلاص للمهنة الى آخر لحظات الحياة وقد قال مرة : لقد درج المصريون على أن ينكبّوا على كل رجل مشهور . مع أن الأطباء الآخرين لايقلون عنى علماً وعملاً وفيهم نوابغ ولكننى لا أستطيع أن أطردهم أو أقطع رزقى ورزق أولادى .

كان المرحوم محمد طلعت باشا من أكبر النطس وأحذقهم وأدقهم فحصاً حتى أثنى عليه أطباء أوروبا وكان طول حياته لايقبل إلا عدداً معيناً من المرضى وهو خمسة مهما تكاكأوا ولايفحص أكثر منهم ولم يقل أحد إنه أيأس الآخرين أو قطع رزقه ، وكان إبراهيم عبد السيد باشا فى الاسكندرية لايرد مريضاً ولايرفع أجره عن الحد المعقول ولكنه اذا شعر بالتعب ولو كان ذلك أثناء فحص مريض نهض واعتذر ورجاه أن يعود اليه غداً ويكون أول زائر فلا يغضب المريض ولايقنط لأنه يدرك أن الرجل كلّ عن العمل ولايمكنه أن ينفعه وهو مكدود .

وقد مات الدكتور الباشا فى نصف العقد السادس وهو من مواليد القرن الرابع عشر فى مستهله .

عبد العزيز الاسلامبولى

شاب أديب من ريف مصر ظهر فجأة فى صحبة الثعالبى سنة ١٩٣٢ وأنشأ مجلة المعرفة بنزعة صوفية أدبية واستكتب فيها فطاحل الكتاب من المصريين والشرقيين وبعض مشاهير الغرب ونمت وازدهرت واشتهرت ثم خفت صوتها فجأة وبيعت أعدادها بوزنها ورقاً للبدالين والعطارين وآسفاه ! .

وقد سألته عن السبب عندما طلب وساطتى فى تسوية نزاع بينه وبين بعض أغنياء التجار على دين المطبعة فقال إنه أنفق كل ماكان يملك ولم يصادقه النجاح لسوء الإدارة وانطباع العمال والوكلاء على السرقة وتعود المشتركين على هضم الحقوق ورغبة كل قارىء أن يجمع الكتب والمجلات والصحف دون أن يدفع فى ثمنها شيئاً . فكان أول آكليه ، أول من ينتفعون بعمله ولا يبالون ، فالطابع يسرق وخازن الورق يسرق والبائع يسرق والقارىء يسرق والمشترك يسرق .

وهو يقيم فى خط الحسين ويجلس فى مقاهى الحى الأزهرى وتراه دائماً يحمل الكتب والأسفار ويقرأ ويستفيد وهو معتدل القامة نحيف العود أسمر اللون مستطيل الوجه فى خلقه ازورار وتزمت ويلازمه بعض الاعتداد بالنفس والترفع عن الناس . وله نزعة ريفية تجعله بعيداً عن الاندماج فى الأوساط الرفيعة فلو كان له خلق المرحوم التفتازانى أو لو شاركه فى المجلة لنجح نجاحاً عظيماً .

وقد دعانى يوما الى حفلة فى داره بجوار بيت القاضى ، فوجدت الثعالبى ومدام سان بوان ورجلا فرنسياً صامتاً يتكلم الغربية والمرأة والرجل متصوفان ومشتغلان بالعلوم الروحية وللرجل مؤلفات بالفرنسية وله شهرة وصيت فى بلاده ولكنه استشرق

وأقام فى مصر وانتهت حالته بالزواج من امرأة مصرية مسلمة ثم اتخذ الزى الشرقى وعاش فى عزلة حتى عن صديقه الاسلامبولى وأطلق على نفسه اسما عربياً الشيخ عيد .

وكان الحديث أثناء المأدبة يدور حول التصوف الإسلامى ومؤلفات محيى الدين ، وكان الرجل الفرنسى الأصل يتكلم بلهجة العارف المتبحر وهو يشبه عن بعد الأستاذ ماسنيون ولكنه لايبلغ شأوه وهو على كل حال مثقف ثقافة عالية ، وهو طويل القامة نحيل البدن حالم العينين عالى الجبهة شديد الحذر والمراقبة فى أقواله وأفعاله .

ولم أعرف أين تعلَّم الأسلامبولى ولعله تخرج فى المدارس المصرية بعد فترة قضاها فى الأزهر الشريف ، وهو يميل الى تحقيق اللغة وكثيراً مايكتب فى الصحف والمجلات ناقداً أساليب الكتابة الحديثة ويقول هذا يقوله العرب وذاك لايقولونه . وهو لايتردد فى نقد الكتاب ويجعل للمستشرقين شأناً وقد اتصل فيما أعلم بمرغليوث واستكتبه مقالاً أو مقالين فى أصل كلمة التصوف ، فغرَّر به ونقل عن الكندى نصاً منقوصاً وكان متعصباً ضد الإسلام ونبيه ولايدارى ولايمارى فى كتابه الخبيث فى السيرة المحمدية فى سلسلة ثقافية إنجليزية باسم « أبطال العالم » فلما رد عليه أحد الكتاب[1] وذكرّه بأغلاطه وتعصبه وتحامله وكذبه على الرسول هاج وماج وكتب الى الاسلامبولى يقول له « لن أكتب فى مطبوعة عربية بعد اليوم ، ولو علمت أنك تنشر رداً لفلان ماكتبت إليك ، فإن فلاناً رجل رجعى متعصب لدينه » ، ومرغليوث قضى نحبه ولم يدرك مقالا آخر ينشره بعد خطابه هذا .

والأعجب أنه يرى فى كل من يدافع عن عقيدته بالحق رجعية ويعجب بالملحدين والاباحيين ويعتبرهم أساتذة الزمان وعلماء الدهر . وكان بذىء اللسان خبيث القلب

---

(١) يقصد لطفى جمعه نفسه .

فى كل مايتعلق بالنبى فيما عدا قضية الإفك فقد وقف فيها موقف الرجل العادل والمؤرخ الشريف ، وكذلك كان شديد الإعجاب بذكاء النبى وخلقه وشجاعته وعلمه فى السياسة والحرب ، وفيما عدا ذلك فقد دس السم فى الدسم فى كل قطعة أخرى من قطع الكتاب .

وحدثنى عبد العزيز الاسلامبولى عن المتصوفين ثم أطنب فى ذكر رجل اسمه خليل أسعد « المدنى » ونسب اليه خوارق العادات وسعة العلم ، ولما كنت شغوفاً بمعرفة الرجال فقد صدقت صاحبى وقصدنا الى بيت كبير فى سوق السلاح مضاء بالكهرباء وفيه حديقة غناء فيها أشجار وأزهار وأمواه متدفقة وبداخله قاعة فسيحة لايدخلها أحد إلا بإذن ، فتركونا على مقاعد عارية بباب هذه الخلوة الفخمة ثم أخذنا نسمع عواء من تحت أرجلنا وصراخا من ناحية أخرى وأصوات مجاذيب وأنغام ذكر وتوقيع ألحان وسقونا القهوة مرة وثانية وثالثة حتى مللنا وهممنا بالخروج ، وعندئذ برز بطل هذه الرواية وأخذ يحلى القهوة المرة بغمس أصبعه ويستخرج نقوداً جديدة لامعة من تحت قدمه ... إلخ مما لم يرقنى ونهضنا ثم كانت له قصة طويلة وقضية كبيرة وزواج وطلاق وانتقال وتحول من دار الى دار بين خط الى خط ، وقابلنى الأصطامبولى وأفضى الىّ بما يناقض حديثه الأول ونشرت الصحف أخباراً غريبة عن خليل أسعد المدنى وظهر فى النهاية أنه كان مستولياً على أذهان بعض الوزراء وأنه كان يطلب اليهم أن يتموا له أعمالا فى الحكومة كالتوظيف والنقل وقضاء الحاجات وكانت له صولة فى وزارة الأوقاف بسبب صلته بالوزير (سنة ١٩٣٤) ، وظهر لى أن له أقارب فى خدمة بعض أشراف مكة وأنه كان فى أول أمره يتناول التطريز فى أسواق القاهرة ثم

عدل عنه واتخذ هذه الصناعة ، ولا أظن الأصطامبولى كان داعية له ولكنه كان جاهلاً أمره. وهذه الحادثة تدل علي حسن نيته وسلامة فطرته . فإنه كان ذا أصدقاء كثيرين غير خليل أسعد ، فمن أفاضل أصدقائه المرحوم التفتازانى وأسرة عبد الرازق والثعالبى وجمهرة المستشرقين المقيمين فى القاهرة وغيرها . وكانت عنده مكتبة حسنة جداً قال لى إنه أرغم على التصرف فيها كما تصرف فى المطبعة والإدارة وبقايا أجزاء المعرفة. وعلى كل حال فإنى أنظر إليه نظرة المحبة والتقدير وآسف على عدم نجاحه .

عبد العزيز الثعالبى(*)

فى أوائل هذا القرن ، وحوالى شتاء عام ١٩٠٢ على التقريب رأيت للمرة الأولى شابا طويل القامة ، بادناً ، أسمر اللون ، جميل الوجه جذاب الحديث يلبس قفطاناً من الحرير الأسمر المعروف « بالسكروته » ومعطفاً أسود اللون ويحمل وراء أذنه قلماً من الرصاص وفى يده ربطة من الصحف والأوراق وهو يتكلم بصوت عذب ولهجة تونسية لطيفة ، ويسبح فى عالم الشعر والجمال . فقدّمه إلى الأستاذ أحمد حافظ عوض ، الذى كان إذ ذاك يعمل فى جريدة المؤيد «القديم » إلى جانب الشيخ على يوسف ومحمد بك مسعود ، وقال فى تعريفى اليه ، « الأستاذ عبد العزيز الثعالبى ، الفيلسوف التونسى الشهير » ، وكنا فى تلك اللحظة نمر ببنك الكريدى ليونيه والوقت بعد الغروب بقليل ، فقال الأستاذ حافظ بك للسيد الثعالبى كأنه يتم حديثاً بدأ بينهما فى لقاء سابق ، وهذا أيضاً خيال ؟ ، مشيراً بيده إلى بناء المصرف الضخم ونوافذه الحديدية المضاءة ، قال ذلك مبتسماً بما يقرب من الظفر كما يفعل الرجل الذى يظن أنه غلب محدثه بدليل قاطع وبرهان حاسم ، وانتظر جواب السيد وانتظرت كذلك ، ولم تمض لحظة حتى أجاب السيد الثعالبى « نعم هو خيال ! » قال حافظ بك . خيال بكل مافيه من الجنيهات الإنجليزية المرسومة على أحد وجهها صورة الملكة وعلى الأخرى القديس جورج يطعن التنين برمحه ؟ قال السيد الثعالبى ، وهذا الذى تذكر أدعى لأن يكون المصرف بما فيه من مظاهر المادة والقوة ، أدخل فى باب الخيال وأكثر توغلا.

(*) مقال نشر بجريدة المساء فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « السيد عبد العزيز الثعالبى ، زعيم شرقى ومفكر مصلح » .

ثم أفاض فى كلام بليغ طويل ، الحجة فيه تتلو الحجة ، والبرهان آخذ بعنق البرهان الذى بعده ، فى أسلوب شيّق وطريقه آخذة باللب . وضحك حافظ عوض ضحكته الفلسفية التى تدل على ذكائه وعدم اكتراثه بالدنيا ، وفى ظنى أنه كان يعتبر مداعبته نوعاً من « الجمناستيك » العقلى . ثم افترقنا .

كان ذلك فى فجر هذا القرن ولم يسعدنى الزمان بلقاء الرجل بعد ذلك ، ولكننى كنت أقرأ بعض أخباره فى الصحف الفرنسية والعربية وأتتبع حوادثه فى وطنه وفى الشرق الإسلامى بشوق شديد ، وإننى وإن لم أقرأ كتاباً للثعالبى أو مقالة إلا فى مجلة أو جريدة إلا أننى كنت أعتقد أنه نوع من دوائر المعارف المتحركة . ونوع من الحركة الشبيهة بالدائمة ، فقد قرأت عنه فى تونس وطنه وعن جمعه كلمة الخواص من أهل بلده وتأسيس حزب وإنشاء جريدة . وكانت كلها الأحجار الأولى فى بناء الحركة الوطنية ، وقرأت عن أسفاره إلى عاصمة تركيا القديمة ، وإلى الجزائر ومراكش ، ومصر وسوريا والعراق والهند وسنغافورة وجزر المضيق وجاوه ، وقرأت أخباره فى باريس سنة ١٩٢٠ إذ كان يناضل فى سبيل تحرير بلاده وكيف لفقوا عليه تهمة باطلة بمعونة بعض الجواسيس والخونة من الشرقيين ، فمثّل الخائن دور الحاجة والفاقة والتبعية ليلتصق بالسيد ، حتى يأخذ رؤساؤه وسادته من ذلك دليلاً على اتهام الأستاذ، وإلقاء القبض عليه بتهمة المؤامرة ، وقد تم لهم ذلك واعتقلوه ، ولقى فى سجون باريس ومرسيليا مالقى من العنت والظلم والإساءة ، ولم تنفعه وساطة بعض الأحرار من أهل السياسة الفرنسيين أمثال ادوار هريو وموورودى جيافيرى وغيرهما ، وبقى فى سجنه فى تونس عهداً طويلا الى أن جاء الله بالفرج فخرج من وطنه منفياً ومغضوباً عليه من المستعمرين ومرضياً عنه من الله والناس ولاسيما وأنه من أشرف البيوت وأعظمها وله الكلمة العليا والصوت المسموع والأثر المحمود من أقصى تونس الى أقصاها بل شمال افريقيا كلها .

وفى سنة ١٩٢٥ و١٩٢٦ جاء الى مصر للمرة الثالثة فأقام بضعة أشهر ، وكان أثنائها موضع الاحترام والإجلال والتقدير الى أن دعى الى التدريس فى جامعة آل البيت فى بغداد . فكان فى العراق أستاذاً نافعاً وزعيماً محبوباً ، وقد دفعه الشوق الى الوقوف علي أحوال الشرق الاسلامى الى « المسير » فشدّ رحاله الى فارس والهند و«ستريت ستلمنت» ولم يبق أمير أو وزير أو رجل كبير من العلماء والمفكرين والزعماء إلا وعرفه وأحبه وقربه وقدره قدره .

كل هذه أخبار كانت تصل إلينا عن طريق الصحف أو بالسماع ، والرجل يزداد فى نفسى رفعة ، إلى أن كانت بداية هذا الشهر (أكتوبر سنة ١٩٣٠) حيث أتيحت لى فرصة لقائه .

والسيد الثعالبى الآن فى الحلقة الخامسة من عمره وهو ذو رأس ضخم ووجه وسيم حسن التقسيم ولم تذهب الكهولة الناضجة بشىء من بهاء طلعته وقد ازدادت عيناه بريقاً ولمعاناً وحدّة وهى دليل الذكاء والفطنة وحدة الذهن . وقد رأيته وقارنت بين صورته اليوم وصورته بالأمس فإذا هو كالنهر عند مصبه ، لايتغير عن نفسه وهو فى منبعه بل ازداد وضوحاً فى الذهن وجلاء فى البصيرة وقدرة على إدراك الأمور على حقيقتها، وهو يدهشك بسرعة خاطره وحضور بديهته ، وسعة علمه وقوة ذاكرته ويجذبك بخفة روحه ولطف حديثه ويفيدك باعتداله وسلامة منطقه وصدق نظره ورقة ذوقه .

ولايمكن أن يكون الزعيم أو المصلح إلا هكذا ، خفيف الروح جذاباً واسع الصدر حليماً كامل العقل والخلق .. واذا سمعت حديثه رأيته مزيجاً معقولا عصرياً من ابن خلدون وابن بطوطه وجمال الدين الأفغانى .

حقيقة أن لكل من هؤلاء الرجال الثلاثة نصيباً فى تكوين هذا الرجل وليس التكوين مصطنعاً أو مفتعلا ولكنه تكوين طبيعى جاء بالفطرة والطبيعة وقوة الحوادث ، فهو يمتّ الى ابن خلدون برابطة الوطن والدين واللغة والنفسية . لقد كان ابن خلدون

مفكراً اجتماعياً وهو واضع أساس العلم الاجتماعي في مقدمته ، وكذلك للسيد الثعالبي بجانب مبدئه السياسي وهو مقاومة الاستعمار وتحرير البلاد الشرقية من النير الأجنبي ، تراه ينظر الى تكوين الأمم نظرة عامة ، ويبدأ مباحثه من الأصول . ولا تخدعه الظواهر أو الشؤون الحاضرة بقدر مايكترث لماضي الشعوب التي يجوس خلالها ويدرس أحوالها . وكما كان ابن خلدون مقرباً من الأمراء والملوك في وطنه وفي الأندلس ، كذلك ترى السيد الثعالبي فلا نظن أن ملكاً أو أميراً من الذين نزل ببلادهم ضنَّ عليه بالاكرام والتكريم والثقة ، فالرجل مشير ناصح خالي الغرض .

وإخلاصه للحضارة العربية وللتقاليد الإسلامية السامية أمر لاشك فيه ولو أن الثعالبي انقطع للتأليف فلا ندري أي كتاب يخرج للعالم ، وإن جاءت مقدمته أقل من مقدمة ابن خلدون . لأنها لاصقة لها ولم تكتسب صقل الدهور والأجيال المتتالية فإن تاريخه لاشك يأتي أمتع وأنفع وأغنى وأغزر من تاريخ ابن خلدون نفسه .

وفيه من ابن بطوطة فهو منذ نضارة الشباب قد ركب غارب الزمان ، وأخذ يجوب الأقطار ، مفضلا العلم والاطلاع على الرقود والإقامة في مكان واحد ، فاستفاد بالأسفار مالا يستفيده قارىء الأسفار . ووقف على أكبر نصيب من شئون الأمم المعاصرة وعرف نفسه الى الزعماء ، فكان للمشاهدة أثرها الروحي والمادي .

وفيه من السيد الأفغاني نفسه الوثابة على الرغم من الكهولة الناضجة ، وفكرته الثاقبة ، ونظرته العامة البعيدة المرمى ، ولعل الوسائل التي يدعو إليها السيد الثعالبي في إصلاح الجماعة العربية أقرب الى التنفيذ والفائدة ، بالنظر الى الفرق بين عهده الحاضر وعهد الأفغاني الغابر ، لقد كان الأفغاني محاطاً بأرقى الطبقات ، وكان لفيف من العلماء والزعماء والأدباء يتلهفون على مجلسه ويتلقّفون من فمه لآليء الحكمة وكان الشرق العربي بكراً ، ولم تفعل به يد الاستعمار الحديدية المستورة بقفاز من المخمل مافعلته في . دى هذه السنين الستين (من ١٨٧٠ - ١٩٣٠) ، ولم تكن الأخلاق قد

انحطت فى الشرق الإسلامى ذلك الانحطاط الفظيع الذى هو ثمرة الاستعمار ونتيجة محتمة للحكم الأجنبى ، ولم تكن الشعائر الدينية قد اندثرت معالمها كما هى الحال الآن ، ولاريب فى أن الزعيم يستمد قوة من جمهور سامعيه وتابعيه ومريديه ، ومثله فى ذلك كمثل الخطيب والمطرب وكلاهما لا يبلغان أوج فنّهما إلا إذا وجدا التشجيع والتلبية وحسن التقدير مايجلو من صدأ مواهبهما العلوية . وماذا تكون قيمة الأفغانى بغير جماعة الفحول الذين تتلمذوا له واستفادوا بعلمه ونشروا آراءه وعملوا على تنفيذها . ومن كان ينقل إلينا أخباره وآراءه إن لم نجد محمد عبده واللقانى وأضرابهما ؟

ويجمع بين الأفغانى والثعالبى حب الخير للشرق والحضارة العربية . وذلك القلق المقدس الذى يدفع بصاحبه إلى الارتحال فى سبيل المثل الأعلى ، فنرى أحدهما لايستقر على حال فى بلد من بلاد الشرق أو الغرب ، فإن لم تخرجه منه الحوادث فإنه لاشك خارج وهو يردد كلمة الأفغانى الشهيرة « إن الأسد يجد قوته فى كل مكان » .

للسيد الثعالبى حديث حلو ، ومنهج نافع ، واذا ألقيت عليه سؤالا فهو مجيبك بما يشفى غلتك ولايجعل لك حاجة فى الاستزادة ، وهو حينئذ فيّاض كالنبع الذى يخيل إليك أنه لاينضب . كل ذلك فى تواضع وأدب وكمال وحياء ، وكأنه وهو يعلمك ويفيدك لفرط ظرفه وكياسته هو الذى يستفيد منك ، وبعده عن الادعاء أو الكبر أو الأبهة الكاذبة يجذب قلبك نحوه ويجعله محبباً لديك .

خذ لذلك مثلا كلامه على التعليم فى الأمم الإسلامية ، فإنه يرى أن وسائل التعليم الإبتدائى هى التى أدت الى انحطاط المستوى العقلى ، فيقول لك إن المدارس الإبتدائية بدأت فى تونس فى سنة واحدة فتأسست مدارس للمسلمين وأخر لليهود ، فكانت دروس التلاميذ المسلمين تدور حول تعليم التلاميذ مايملأ نفوسهم غروراً وكبرياء فيحفظون قول الشاعر : « نحن أباة الضيم من بيت ماجد » .

أو :

« سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى

وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا »

أما أبناء اليهود فكانوا يتعلمون كيف يكتبون مكتوباً تجارياً أو يراسلون عميلا، أو يستقدمون شريكا للحساب ، ثم هم يلقنونماينفعهم فى تقدير قيمة الوقت أو المال والعمل ، ولايكرهون أن يبدأوا بأبسط الأعمال وأصغرها ليترقّوا بعد ذلك فى سلم الحياة درجة بعد درجة. وقد يبدأ التلميذ بعد أن يتخرج من المدرسة عملا يتقاضى عليه أربعين فرنكاً فى الشهر لينتهى بعد ذلك ببضع سنين الى كونه شريكاً فى العمل فمديره ... أما التلميذ العربى فيخرج وقد كره العمل واحتقره وازدرى محراث الفلاح ومنشار النجار و« مسطرين » البناء ، وقد ينظر الى والده وأهله وهم أصل حياته ووجوده نظرة عدم الاكتراث فيضيع على نفسه وأهله وطنه .

والسيد الثعالبى بالجملة يدعو الى التعليم العملى الذى يحبب العمل الى الأولاد ويجعلهم يفهمون الطبيعة على حقيقتها . فيحبون البقرة والحمل والجمل على أنها أنعام نافعة للإنسان ، وينظرون الى الحقول والغيطان لا لجمال خضرتها ونضرة زرعها ولكن لما تشمله من الزرع المفيد للناس والحيوان . فيقبل التلميذ على الحياة العملية ولايترك مجالا لمزاحميه من الأجناس الأخرى الذين لايأنفون .

ويروى السيد الثعالبى خبر «المدايسى» وهو ولد صغير كان يخدمه فى تونس ويقضى له بعض لوزامه ويكافئه على ذلك بقروش معدودة ، ثم سافر السيد ونسى المدايسى كما ينسى أى إنسان خادماً صغيراً وإنه فى باريس بعد ذلك بعشر سنين وإذ يدخل عليه شاب بهى الطلعة متمتع بالصحة والعافية . وقال له إنه « المدايسى » خادمه الصغير ، وقد هجر الى فرنسا وعمل وأثرى ، وتزوج وأسس أسرة ورزق أولاداً نجباء وصار من أرباب الثروات التى تعد بمئات الألوف وقريباً يصير فى عداد أرباب

الملايين ، وفى الوقت عينه يشير السيد الى شبان من أهل العز والبيوت المجيدة وقد تعلموا تعليماً عالياً « الحقوق والطب والفلسفة والاقتصاد وعلوم الاجتماع والسياسة » وهم لايربحون سنتيماً واحداً من علومهم الواسعة ، لأنهم أهل مجد خيالى ، يمنعهم عن بلوغ المجد الحقيقى .

والسيد الثعالبى كثير الإعجاب بالمرحوم إسماعيل غصبر نسكى المصلح الاجتماعى القوقازى الذى نشأ في بغجه سراى عاصمة القريم وطاف فى أوائل هذا القرن أنحاء العالم الإسلامى وزار مصر فى سنة ١٩٠٦ ودعا إلى تأليف مؤتمر إسلامى للنظر فى حاضر الاسلام وسر تأخره ، وقد أسس فى ذلك الوقت جريدة اسمها النهضة وانتشرت فكرته فى سائر أنحاء العالم الإسلامى والشرق العربى ، ثم حبطت لأن قوى الاستعمار الخفية حاربتها وقاومتها وأنفقت المال الطائل فى ذلك السبيل حتى قضت عليها ، ومات المرحوم إسماعيل محسوراً على فكرته الإصلاحية الجليلة .

والسيد يتكلم الفرنسية جيداً ولو أنه كتب لكان أسلوبه أقرب الأساليب الى أسلوب الشيخ محمد عبده ، وهو هنا زائر لامقيم فلعل النجباء والأذكياء من أبناء هذه الأمة يستفيدون من زيارته كما استفاد أهل العراق بتنصيبه على « كرسى » الفلسفة الإسلامية فى جامعة آل البيت .

سافر الأستاذ عبد العزيز الثعالبى « الشيخ كما يلقبه بنو وطنه » من القطر المصرى الى تونس منذ ثلاثة أشهر « يوليه سنة ١٩٣٧ »(*) ولم نظفر من أخباره إلا بما جادت به علينا مجلة الرابطة العربية وصحيفة البلاغ ، وخطاب بعث به أديب مطلع الى صديق من أهل الفضل ، فكان من تلك المصادر المحدودة أن علمنا أن الشيخ الزعيم ، أبى أن يستقل طائرة من مرسيليا الى تونس ، لاخوفاً من اعتلاء كأهل الريح

(*) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقالاً للطفى جمعه نشر بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٧ بالعدد ٦٩ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان « جهود الأستاذ الثعالبى فى وطنه » .

أو التربع على بساط سليمان وهو الذى خاض أهوالاً لايعد الطيران بجانبها خطراً مذكوراً ، ولكن لأنه أبى أن يهبط أرض وطنه فى مطار ينأى بطبيعة موضعه عن أبواب الوطن . وقال فى خفة روحه المعهودة « أحب أن أدخل البيوت من أبوابها » ، فكان هذا القول الوجيز البليغ عنوان منهاجه السياسى . فالثعالبى لايلمس مداخل الأمور خلسة، ولايتعجل الأفعال ولايسارع الى العمل قبل الفحص والتمحيص .

ثم قرأنا خطابه الذى ألقاه على الشعب أو على الأقل ملخصاً وجيزاً منه فاستبّنا لبّ خطته وهو أنه عاد الى وطنه ليكون حكماً ومرجعاً ومصدراً للنور . لم يعد ليستردّ نفوذه ، فإن نفوذه زاد وعلا وأربى ، ولم يعد ليحل المحل اللائق به فإن هذا المحل محفوظ له فى قلوب الأمة وصدور بنيها ، لا نظراً إلى كهولته أو جزاء على سابق جهاده ومعاناته وصبره على الشدائد فى سبيل الوطن ، ولكن ليواصل خدمته لوطنه بذكائه الوافر ونظره الثاقب وخبرته الصادقة الطويلة ، فقد انتقل من الجهاد الأصغر فى الاغتراب الى الجهاد الأكبر فى الميدان ، فنال إعجاب سامعيه بجدارة ، والتفت حوله الأحزاب والشعب ، ولبّت نداءه العقول والقلوب فسر الأحباب وأكمد الخصوم «إن كان لهم وجود » دون أن يجدوا عليه مأخذاً أو يعثروا فى خطبته بموضع نقد . فإنه مازال ولن يزال إلا كالسيف المثقوف المستعد أبداً للخروج من غمده ليكسب المعركة دون أن يحدث جرحاً أو يهرق دماً .

ولم يكد يفرغ من حفلات الاستقبال والترحيب برجال الحاضر والمستقبل وربات الحجال من بنات الجيل اللواتى نشأن على محبته وتمجيده ، حتى هرع إلى « حلق الوادى » حيث مصيفه ، وحيث يجب أن يتنفس الصعداء فى كنف الراحة المؤقتة محاطاً بعناية « أم التونسيين » ورعاية نجله حميد الدين ، وحيده المحروس جعله الله قرّة لعينه ، ولكن هذه لم تكن راحة ولكنه تحفز للوثبة واستجمام لإعداد خطة الجهاد ، والخطوة الأولى من ذلك الجهاد جمع الكلمة ولم الشمل وتوحيد الصفوف . ولم يلبث

أن نجح فى عمله وقد امتدت الأعناق ، واتسعت الآذان وهدأت الأنفاس وتطلعت النفوس لرأيه ، فأهل السياسة فى تونس يحبون أن يتلقوا عنه كما تلقى قدماء الأغريق الوحى المقدس من « دلف » ، ولم يكن الثعالبى ليخيب رجاء أحد ممن وثقوا فيه وأولوه يقينهم بأمانته ووطنيته وهو الذى قضى فتوته وشبابه وطوى رجولته وكهولته فى خدمتهم ، سائحاً ومستقراً ، سارياً ومبحراً ، مقبلاً ومدبراً ، يعمل لشمال افريقية ويخدم العرب ، ويعلى كلمة الانسانية ، ويرفع راية الإخلاص ، غير هَيّاب ولا وجل ٠

لقد ظن كثيرون من النوكى والحمقى أن الثعالبى فقد نفوذه فى وطنه لبعده خمسة عشر عاماً ، وأنه بذلك يجهل الخلق التونسى ويغمط جميل العرب ٠ وأهل تونس يعلمون قبل غيرهم أن الثعالبى لم يسجن ولم يغترب ولم يرض بالنفى إلا لأجلهم ، ولوشاء أن يبقى بين ظهرانيهم معظماً مكرماً سعيداً ناعماً ، بالتفريط فى القليل من مبادئه ، لأحله الآخرون المحل الأكرم ، ولكنه يفضل العذاب مع الوفاء والإخلاص على الهناء فى ظل التفريط ، وأن الرجل الماهر لم يقطع صلته بوطنه فى لحظه واحدة ٠ فقد كان سيل الرسائل لاينقطع وسيال الكهرباء لاينى ولايقف٠ فكأنه يحكم عواطف وطنه ويوجهُ سير الوطنيين بقوة لاسلكية ٠ وكان أثره فى غيبته أقوى من أثر عشرة من الزعماء مجتمعين ، لأن الصوت المقبل من بعيد أوقع فى النفس ، خصوصاً اذا كان معبراً عن الحق بالحكمة والإخلاص ، ويخطئ كل سياسى تونسى أو أفريقى إذا ظن أن الثعالبى لم يكن مطلعاً أولاً باول على الحركات والسكنات والأقوال والأفعال ، ولو أنهم صوروا له القلوب التى فى الصدور والأعمال التى صدرت من الرجال على شاشة الصور المتحركة ورآها رأى العين ، لم يكن علمه بها ليزيد عما علم وفهم على البعد ! فقد أوتى ذاكرة قوية لاتتغلب عليها طوارئ الحدثان ، وخيالاً خصباً يجعل له الغائب حاضراً ، وبصيرة نافذة فى الأخلاق حتى ليفترض القول يقال والعمل يتم من فلان أو علان أوترتان ، فلا يخطئ ظنه ولا يتعثر حدسه ، ولا يطيش سهمه ولا تضل رميته ! ٠

ورد ذكره فى مجلس من الآدباء المثقفين فشبهه أحدهم بعولس بطل الالياذة كما شبه نجله بتليماخوس وحرمه المصون بتلك البطلة الجليلة بنيلوبيا ، ولقد كان هو كعولس حقاً ، فإنه لايغلب شجاعته إلا سعة حيلته ، ولايدانى صفاء ذهنه إلا فصاحة لسانه، ولا يقرب من إدراكه إلا صبره الطويل وثبات عزمه وحزمه ، وكما أبلى عولس فى أول أمره فى حروب طرواده « راجع إلياذه هوميروس » على مدى تسع سنين ، كذلك حارب الثعالبى فى سبيل وطنه عشرات ، وكما قضى عولس عشر سنوات فى العود الى مسقط رأسه ، قضى الثعالبى مثله وازداد خمساً، كما أن عولس تخلص من « كيركيه» ذات الجمال والدلال والقصر المسحور الزاخر بالكنوز والأموال ، وتمكن من قهرها وفكاك أسر رجاله الذين سحرتهم و« سخطتهم » وسخرتهم لحراستها ، وكذلك تغلب الثعالبى على غوايه طرأت له ونفذ من كل حيلة حيكت له ، فدخل الأقطار العربية وليس له فيها سوى أصدقاء معدودين وخرج منها وكلهم أحبابه ومريدوه ٠ فمن شمال أفريقية إلى تركيا ومن تركيا إلى مصر ومن مصر إلى بلاد العرب ومن بلاد العرب إلى الهند والسند ومناطق الأسود والنمور والأفيال إلى جاوه وصاندا وكراكاتو وبتاوفيا ثم هونج كونج ، وقبلها العراق والحجاز وفلسطين ، وقبلها باريس عرين المستعمرين ، فكان له فى كل موطن خطة مثلى تجمع بين مبدأه وفائدة وطنه ، فهو المحدث الذى لا يمل والجليس الذى لايزهد فيه والمرشد الأمين والصديق الوفى ، والزعيم فى أمور الدنيا والدين والمدرك لدقائق الأمور بغير حاجة إلى طول فهم ، فالإشارة كافية ، والتلميح يغنى عن التصريح ، والكلمة تؤدى واجب الجملة الطويلة لدى ذلك الدماغ المنظم بالفطرة والصدر المتحرق للمعرفة ، حتى يكاد يعلم ما يقال أمامه بلغة لا يعرفها ٠

لقد تمكن الثعالبى من القيام بدعاية لوطنه أثناء نفيه فى خمس عشرة سنه ، بما لم يكن يملكه لو أقام فيه خمسين سنه ، وقد تمتع خلالها بحرية لاحد لها ، فهو يقول ويخطب ويراقب الأشياء بدون أن يخضع لحساب القوى الذى يملك إسكاته أو

الحـد من حـريتـه . والغـريب فى أمـره أنه لاهو ولا أهل وطنه ولا أهل بيـتـه ولا أصدقاؤه يرون أنه جاهد حتى كسب المعركه وأنشأ جيلاً من الساسة والكتاب والخطباء يحلون محله ويتمون عمله ويتوجون جهاده . وليس هذا ظلماً منهم عليه ، أو نقصاً فى الشفقة ، ولكنه شعور بالحاجة إلى عقله وتدبيره ، فهو فى نظرهم كنز فطنة ونبع ذكاء ونهر دهاء (بأجمل معانيه) لا يفرغ ولا ينضب ولايقف ، وتونس بل والشرق أحوج ما يكون اليـه بالذات والي أمـثـاله ، وهكذا على كل عـبـقـرى من مـعـدنه أن لايتـرك راية الجهاد ما دام فيـه نفس يتردد ، فإنه لم يولد لنفسه ، ولم يخلق لذويه ولم يحرز علمه وأدبه واختباره ليمتع به أصدقاؤه ولكنه مخلوق للجميع سواء أقبل أم لم يقبل شب أو شاب ، اكتهل أو شاخ فهم يعتقدون أن عقله لايشيب وقلبه لايذبل وروجه لايفقد خضرته الدائمة ، فوجب عليه أن يعمل أولاً وأخيراً وإلى آخر الحياة ، كالجياد الكريمه التى تخوض المعارك ويشتد عودها وتصلب مرابعها وتشم أنوفها ويحتد بصرها كلما جرت وحاربت وسابقت فسبقت .

هذا ثمن النبوغ أيها الزعيم الشيخ ودين المجتمع بل دين الانسانية فى عنقك ، وهاأنت تستعد لترحل من جديد إلى فرنسا لتقوم بالمفاوضة التى لم تكن تخطر ببال أحد إلا بالك ، وها هو عملك أوشك أن يثمر ويتوج ، فإلى مرحلة النجاح الأخيرة ، وكفاك فرحاً وراحة أنك حظيت بلقاء حميد رجلاً وقد تركته طفلاً ووضعت حداً لوحدته السابقة التى جرت بها الأقدار ، والسلام عليك حتى اللقاء على ضفاف النيل أو حلق الوادى أو أرض هاديز !!

* * * *

نقلت الأنباء الفرنسية إلى الشرق العربى نبأ هلعت له القلوب وانخلعت له الأفئدة مذ نعت إلينا المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبى فى أوائل العقد الثامن من عمره(*) ،

(*) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقالاً للطفى جمعه نشر فى جريدة الدستور غداة وفاة الثعالبى فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤ تحت عنوان « خلود زعيم عربى ، وفاة المغفور له السيد العظيم والعالم الجليل الأستاذ الشيخ عبد العزيز الثعالبى التونسى » .

بعد مرض أليم طويل فى العزلة والوحدة ، فسكن ذلك القلب الكبير الذى ماعرف السكون طول حياة صاحبه ، وانقطع نبض الحياة فى تلك النفس الكبيرة الجياشة ، وسكت ذلك اللسان الذرب الفصيح وانطفأت شعلة الذكاء والفطنة فى تلك الرأس الخضمة المنيرة التى كانت أشبه بسراج وهّاج تستضىء به روح وثابة وتستحث بقوة نوره همة عالية وإرادة قوية وغريزة وثابة إلى المعالى وصدر رحب لاتشغله منفعه مادية ولا مصلحة ذاتية ، بل يستثيره النفع العام والاصلاح الشامل للشرق والعروبة وسائر الأوطان المغلوبة على أمرها .

وكل من عرف الشيخ الجليل أثناء حياته فى وطنه وفى منفاه عرف يده الطائلة فى الخيرات وهمته فى اصطناع المكرمات وثباته على مبدأه مع شرف المقاصد وحرية الضمير والمروءة بالفعل والشجاعة فى الأقوال والأعمال وتحمّل المكاره فى وطنه وغير وطنه وبذل المال والعمر حتى التضحية بالمال الموروث والمكتسب بالحلال والولد والأهل وراحة البدن وملذات الروح والبدن المباحة فى سبيل المثل العليا والأمال السامية التى لاينال صاحبها فى الشرق العربى خاصة سوى الآلام والتعذيب والحرمان والاضطهاد والحسد والنميمة والإهمال .

وكل هذا وهذه وهو يتجلد للشامتين ويحتال على خصوم أوطانه ويبدو عظيم الجانب عريض الجاه ، رفيع العماد طويل النجاد ، لايبالى بكل مايلقاه فى سبيل غرضه الأسمى ، ويسير فى الحياة كمن أدركه السكر الإلهى والجذبة الوجدانية مشغولاً عن كل شىء مما يشغل سواه من معاصريه ، وربما لم يأن أوان الإفصاح عن كل مانعرف من فضائل الشيخ الراحل وأسراره وخططه الشريفة وآرائه النبيلة ، وحلقات جهاده ، وخفايا كفاحه فى سبيل الإسلام والحرية ولعل اليوم الذى نبسط فيه القول والتبيين والتعريف يكون قريباً إن شاء الله .

ولن يكون مرجعنا فى ما نكتب عن فقيدنا العظيم سوى ماعلمنا بالعشرة والخبرة والحديث المباشر والمصادر المكتوبة بقلمه وما رأيناه رأى العيان وسمعناه بالأذن ووعيناه بالذاكرة وما سجلناه ودوناه أثناء صحبته التى دامت أكثر من ثلاثين سنة .

كان أول اجتماعنا بالشيخ عام ١٩٠٣ بمدينة القاهرة وكان إذ ذاك شاباً فى الثلاثين من عمره يلبس الثياب التونسية وله لحية سوداء صغيرة وكان من ذلك الحين بادناً جميل التقاسيم بادى الأناقة ورقة الحاشية مشتعل الذكاء ، كثير الهم ، قليل المرح يتطلع الى الأفق بعين حالمة وأخرى ساهمة كأنه يلتمس اختراق حجب المستقبل البعيد .

وكان فى تلك الفترة يعرف بفيلسوف تونس وحكيمها وكان الفرق بيننا فى السن حوالى عشرين عاماً ، وكان أصدقاؤه فى هذا الوقت لفيفاً من أدباء العصر وهم المرحوم المويلحى والبابلى وحافظ إبراهيم والشيخ على يوسف والمغفور له عبدالرحمن الكواكبى، وكان مقصده من زيارة مصر الاستمتاع بلقاء المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فاتصل بحاشية المفتى وفى مقدمتهم الشيخ رشيد رضا وشهد إنشاء المنار وعاشر الكواكبى أثناء تأليف طبائع الاستبداد وكان الثعالبى مركز دائرة الأدباء والناثرين من رجال العروبة الحديثة فى بضع عواصم عربية - القاهرة ودمشق ومكة وصنعاء باليمن وكان وقد طاف هذه الأقطار بصحبة شقيقه عبدالرحمن الثعالبى وطوراً بمفرده بعد وفاة أخيه فى مقتبل العمر ، لأنه لم يتحمل أعباء التنقل والمتاعب التى كابدها عبد العزيز . وقد علمت منه فى تلك الفترة « وكنت طالباً بالثانوية الخديوية وتلميذاً للمرحوم طنطاوى جوهرى » أن جده الأعلى عبد الرحمن الثعالبى مدفون بالجزائر وأن له ضريحاً يزار ، وأنه بعد زيارة أستانبول وخروجه من وطنه احتجاجاً على الاحتلال الفرنسى « ولم يكن انقضى عليه أكثر من عشرين سنة »

قصد الى عاصمة الإسلام « الأستانة العلية » وقوبل فيها بالتكريم والمنحة السلطانية والقرب الهمايونى ، لم يرقه نظام المابين ولا سياسة الدسائس التى كانت سائدة فى البلاط العثمانى ، ولم يسره أن يرى فى عاصمة الشرق رجالا مثل أبى الهدى الصيادى وعزت العابد والشيخ ظافر وأغوات القصر ، ورأى بفطنته أن هذا ملك يؤول أمره الى الزوال ، وقال لى مرة أن بلداً يموت فيه جمال الدين الأفغانى على الصورة التى عرفتها لايستحق أن يعاش فيه ، وليس هذا مقام ذكر ذلك بالتفصيل .

وقد لفتنى فى الشيخ فطنته الخارقة وذكائه النادرة وحضور بديهته وسرعة إدراكه كلمح البرق وشدة شوقه للمعرفة وسعه اطلاعه على حداثة سنه ، فإن ثلاثين سنة فى الشرق لم تكن فى عصرنا شيئا مذكورا ، وكان نفوذ الشيخ محمد عبده فى تلك البرهة من الزمن فى قمته وذروته ، وكان حافظ إبراهيم شاعر البلاط ، بلاط المفتى، وكنت بعين شمس يوماً وحضر المويلحى الصغير وحافظ والثعالبى والشيخ رشيد وجلسنا فى انتظار الشيخ وكنت أصغرهم وأقلهم علماً ومعرفة فسألت حافظ إبراهيم أن يزيدنى تعريفاً بالثعالبى فقال لى لم تهمس فى أذنى ؟ تشجعْ وسل ماشئت فقلت له أسألك عن هذا العالم الغريب الذى وصفه لى فلان الأديب الصحفى بأنه فيلسوف تونس ، فقال حافظ « يابنى هو الذى هجر وطنه وهاجر فى سبيل الملة والحرية وهو الذى يفر من مدينة الى مدينة ومن بلد الى بلد ومن بر الى بحر ومن بحر الى برّ حتى ينال بغيته ، أو يسلم من محنته وأنى بالسلامة مع هذه النيران التى طافت بالشرق والغرب وأتت على الحرث والنسل فأعيت كل فصيح وأخرست كل ناطق وحيّرت كل لبيب وأشرقت كل شارب » ، فدهشت من فصاحة حافظ وشدهت وعجبت لبلاغته وقوة ذاكرته وسعة معرفته بالمعانى والألفاظ .

ونظرت الى الثعالبى وقد تغيّرت فى ذهنى الصورة التى رسمها واصفه الأول بأنه فيلسوف تونس ، فلما أطلت النظر إليه بدت شدة تأثره من كلمة حافظ ولا أدرى إن

كانت العبرات من صدق العبارات أو حزناً على مافات وخوفاً مما هو آت ، ولكن على أى حال دمعت عينه ورقّ فؤاده وتأثر جميع الحاضرين ، ثم إن الشيخ « الذى كان شاباً فى تلك الأيام » اعتدل فى مقعده بعد لحظة والتفت إلى حافظ وقال له باسماً «قطعت سفرة طويلة ومسافة بعيدة ياحافظ منذ اجتمعنا فى القلعة وكنت صامتاً صمتاً عميقاً ساكناً كالسيف فى جرابه قد علاه الصدأ وها أنت تمارس فصاحتك على حساب صديق صباك ورفيق شبابك » .

ولم يفصح لى الشيخ الثعالبى عن حقيقة ما أشار إليه فى صمت حافظ إلا بعد ذلك بثلاثين عاماً وهو خبر من أغرب الأخبار ، ولما حضر الشيخ محمد عبده قاموا الى مائدة الغداء وساد عقل الإمام المفتى وعلمه على كل جالس . وفى هذا اليوم تكلم المرحوم الثعالبى عن تونس وجمالها وعظمتها وتاريخها على صورة من البلاغة والقوة حتى اشتاق المفتى الى زيارة وطن الثعالبى ووعد بالسفر إليها فى صيف تلك السنة .

ولأجل التحقيق وخوفاً من خيانة الذاكرة أقرر أننى لا أوكد ولا أضمن إلا شيئاً واحداً وهو حديث الثعالبى عن تونس حديث العاشق الولهان والمؤرخ الثبت والداعية المفتون بما يدعو اليه ، ولست متأكداً إن كان الشيخ المفتى وعد بزيارة تونس أو أنه تكلم عنها كمن زارها منذ عام ، وهل كانت زيارة الثعالبى الأولى أو أنه عرفه فى وطنه فى ظلال قرطاجنة وجاء الثعالبى ليجدّد هذه المعرفة على ضفاف النيل فى ظلال النخيل بعين شمس .

ثم دار الحديث بعد الغداء على المتصوفة وذلك أن الشيخ المفتى سأل الثعالبى عن مسكنه ، ليرد له الزيارة أو يتفقده فأجاب ، أنه يسكن فى جوار الحسين ، فقال الشيخ أليس الحسين بعيداً جداً عن شارع محمد على ، فقال حافظ وكان نديم المفتى ، حلو الحديث عذب الفكاهة « مصر والصعيد ياسيدنا الشيخ .. يامولانا ماتبعدشى على حبيب » ولم أفطن إذ ذاك إلى مرمى هذه النكتة وعلمت بعدها بأيام أن هذه إشارة

الى مقر الكواكبى وكان يسكن بجوار دار المؤيد وكان المفتى يرمى الى الجمع بينهما وبين الشيخ رشيد « شارع درب الجماميز » ليجعل مركزاً قوياً لأكبر أنصاره وأنصار الحرية وطلائع الأفكار الجديدة ومقاومة المظالم فى مصر وسواها ، وكان الكواكبى منهمكاً فى تأليف « أم القرى » وهو ينشر فصولاً متتابعة فى مجلة المنار ثم طبائع الاستبدادَ ويقرأ كل مايكتب للثعالبى ولايتردد زعيم تونس فى نقده وتقريظه وحثّه على حذف نبذة أو الاستغناء عن جملة أو جمل مكررة وتوضيحها أو اقتراح صيغة وتفضيلها على غيرها .

وما كان الكواكبى يأبى أن يسمع رأيه ويعمل به ، ولكن الكواكبى صاحب الفكرة فى الكتابين ومنشئهما ومخرجهما .

وبقدر زهد الثعالبى فى المادة والمال وإعراضه عن السعى فى الكسب كان الكواكبى يمدح السعى ويحث على تكوين رأس المال واستثماره ويقدم ابنه الوحيد وكان فى صحبته - للمشروع بعد المشروع ليغنى عن طريق العمل ، حتى أنه أسس مقهى حلبياً « أى على مثال مقاهى حلب وطن الكواكبى » فكانت هذه فضيحة كبرى فى نظر الثعالبى ، وكان بطبعه يأبى أن يختلط العمّل القومى العظيم بالسعى فى طريق الكسب ، وقال لى يوماً « أنا لا أستطيع فهم الكواكبى ، فإنه رجل سرىّ وذو مال وكان صاحب منصب كبير فى حلب وقد رأيته فى بلده موظفاً عثمانياً عزيز الجانب ولو أراد الاستزادة من المال ماعجز ، ولو علم العثمانيون أنه يطلب المال ، ماضنّوا عليه بشىء، ولكنه هجر بلده وتخلى عن منصبه وحرم ابنه من التربية فى بيئته ، وها هو ينفر فى كل مكان وينقب عن عمل أو تجارة يدرّ عليه المال وهو لم يهاجر إلا فى سبيل الوطن والحرية فكيف يجتمع الغرضان فى قلب واحد ؟ » .

« ولكن يمكننى بالجهد الشديد أن أوفق بين الفكرتين فى نفس السيد عبد الرحمن ، فهو يرى الأجانب يستغلون الشرق وينهبون ثروته بمشروعات تفهة كالمقاهى

والمطاعم والمتاجر الصغيرة ، وما دام هو وابنه قادرين على العمل فلا يقضيان كل وقتهما فى المطالعة والتأليف ، وهذه دار غربة ودار إسلام فلا بأس عليهما فى العمل المربح » ٠

« أما عن أهل تونس « يقصد الى الشرفاء والنبلاء وإن لم يكن صرح بها » فلا٠ لا ٠ لا ٠ لقد اخترنا الطريق وعنه لانحيد ولو لقينا فى سبيله مانلقى » ٠

إذن كان الثعالبى طوال حياته اريستوقراطياً مفطوراً على النبل والتعاظم والشموخ ، ولذا كان أثره أعظم من آثار سواه ٠ وكان لايأنف أن يجلس الى بعض المتصوفين فى الحى الحسينى ويقول « أحب رقائق العباد وكلامهم اللطيف الحلو ، لأن مراميهم شريفة وسرائرهم خالصة ومواعظهم رادعة ، الدين غالب عليهم والصدق مقرون بمنطقهم والحق موصول بقصدهم » ٠

وكان الشيخ فقيهاً لا متصوفاً وعالماً شرعياً وأديباً وكاتباً وخطيباً ، ولكنه لايأبى عشرتهم والتودد إليهم وراثة لأجداده ، وأصالة لاتقليداً - وفى تلك الفترة توفى المرحوم الكواكبى بذبحة صدرية ونعاه ابنه الثعالبى ٠

ثم سارع الشيخ إلى السفر وبادر بالهجرة من جديد ، وفى هذه المرة قصد إلى جزيرة العرب وكانت أواصر المودة قد وطدت بينه وبينى ٠

عبد الله بكــرى

من أظرف شـبـان بورسـعـيـد له أسـرة كـبـيـرة نزح بعض أفـرادها من دمـيـاط واشتغلوا بالتجارة ووظائف الحكومة ، عرفته فى سنة ١٩٣١ وكان فى العقد الثالث ، أبيض اللون مشرب بحمرة أزرق العينين جميل التقاسيم حلو الشمائل رقيق الصوت والعشرة يبدو عليه المجد والترف مع ذكاء شديد وقريحة وقادة ، ينظم الشعر ويحسن النثر ويتقن التورية والجناس وهو حاضر البديهة فى مجالس الأدب ، عف اللسان ، لايغضب من أحد ولايغضب أحداً ، وهو حسن القيافة شديد العناية بثيابه ومظهره وعطره . خطب فتاة صغيرة جميلة فى سنة ١٩٣٠ وأوشك أن يعقد عليها لولا أن عاجلتها المنية فى القاهرة بعد مرض قصير وكانت مواساتى إياه سبب معرفتى « أنظر مقال فتحية تموت ، بلاغ يوليو سنة ١٩٣١ » وهي كريمة صديق لهيطه أحد أفراد هذه العائلة المعروفة ببورسعيد .

وقد منح الله عبده البكرى طلاقة لسان وفطنة فطرية وقدرة على النقد الدقيق . ولكنه لايجرح إنساناً ولايعتدي على كرامة أحد إلا ممازحاً . اشتغل بوظائف فى التلغراف ثم التليفون وأخيراً فى مراقبة أجهزة اللاسلكى ويقيم فى مصر الجديدة مع صهره الأستاذ إسماعيل القبانى ناظر مدرسة فاروق الثانوية وأحد تلاميذ الأستاذ الدكتور ادوار كلاباريد . وكان عبد الله يأبى الزواج بعد وفاة خطيبته ومراعاة لخاطر والدته الى أن عدل عن العزوبة فى سنة ١٩٣٥ فلم يرزق بعد الزواج إلا بنات يحملهن على كتفه مدللاً فرحاً بهن . وهو فى حضور البديهة وسلامة الفطرة وإرسال النكتة الرائعة يقرب من محمد خالد باشات ولايعلوه[١] . وكان يفحم أشهرهم فى بورسعيد أمثال سليمان يونس المغربى ويعد الآخرون بجانبه صفراً .

---

(١) انظر ترجمة محمد خالد باشات ، صفحة ٢٨٦ من هذا الكتاب .

وهو لايدخن ولايشرب الخمر ولايعرف الخنا وقد هداه الصراط المستقيم منذ نعومة أظفاره وقد بَعُد عن الخصومات الحزبية وله صحبة مع الجميع وله اطلاع واسع فى الدين والأدب والعلوم الاجتماعية ويعرف لغتين أوربيتين ، وكان فى بورسعيد خلال السنوات التى اصطفت فيها فى هذا الثغر يدعو الله أن ينقل الى القاهرة ليكون قريباً منى ويكثر اجتماعنا وهو صديق صادق ، فلما استجاب الله دعوته وسكن فى مصر الجديدة على قيد أمتار من بيتى صرت لا أراه إلا مصادفةً وفى كل سنة مرة على الأكثر ، فقلت له كان خيراً لى أن تكون فى بورسعيد فأراك كل شهر أو شهرين مرة ونبقى معاً على شاطىء البحر أطول الزمن .

وكنا نجلس فى مقهى وسط فى حى العرب اسمه قهوة الاتحاد ولنا سهرات تمتد الى الفجر أحيانا نجوس خلالها الطرق ونحكى أقاويل لاتنتهى وكان يدخر لى أطرف النوادر ليرويها لى ويحتفظ لى بذكريات حسنة وهو لايغتاب أحداً ولاينتقص ولايذكر سوءاً عن عدو فضلا عن الصديق ، ويأكل فى أناقة ممتازة ويخلص ويفى لأصدقائه وكان منهم على الألفى وأحمد زكى أبو شادى والشيخ عبد العظيم حجاب والدكتور محمد سليمان ، وكنا نجلس أحياناً على كثبان الرمل أو فى الكازينو وقت الغروب نرقب الشمس ونتقارض الشعر والنكات الرائعة ولنا صورة فوتوغرافية فى أحد هذه المجالس ، وسهرات جميلة فى لنش الصوّاف وصفتها فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٢ و ١٩٣٣ .

وفى إحدى الليالى نام فى السفينة وحسبناه مستغرقاً فحرصنا أن نهمس حتى لانقلقه فإذا غنى أحد السمّار نغماً أو أطلق نكتة أو أنشد بيتاً من الشعر أجاب البكرى بما يقابل كلاً من هذه الثلاث بحضور بديهة وخفة روح مدهشين ، فإذا تعمد أحدهم أن يقول عنه نكتة أو نادرة لستفزه فلا يرد ولايجيب ، ونهض أحدهم يلتمس ماء أو مخرجاً وسار على حافة اللنش وأخذ يتمايل كالثمل لضخامته وطراوة عوده فرقبه

عبدالله ثم قام فقلده فى حركاته وسكناته وصرخاته تقليداً مدهشاً ، وبالجملة كانت معاشرته وصداقته ومودته والإيناس به لاتقدر ولاتنتهى .

وإنه بعد الزواج والنسل لم يركبه الهم ولم يتذمر ولم يشك شيئاً . وقد عاش فى بورسعيد رافعاً ذيله لئلا يتدنس من أوحال المدينة ، فلم يجرؤ عليه أحد بكلمة ولا اشارة، لأنه يعرف أحوال البلد وأهلها معرفة المؤرخ الخبير فلا يستطيع أحد أن ينال منه أو يشق له غباراً . وكانت مطلقة المرحوم محمد سليمان الطبيب إذا رآته نظرت اليه وانفعلت وهمست اسمه فى أذن زوجها كأن أحد أمراء هنزولرن يزورهما وكان يبهرها لونه الوردى وزرقة عينيه وتجعيد شعره والذكاء الذى يشع من نظره وجبهته ، فكانت تتحدث اليه مغضية خافضة الطرف تكاد ترتجف وكان هو لايبالى بمسلكها ولايخاطبها إلا بالعربية الدارجة ولايقضى فى مجلسها أكثر من ربع ساعة كانت أثناءها تكدس أمامه الحلوى والفاكهة والتحف وترجوه بإلحاح أن يتذوق منها .

وسبب ألفته بعلى الألفى أنه كان عضواً فى نادى الموسيقى الوترية وهو يجيد الغناء والعزف على بعض آلات الموسيقى وله قدم راسخة ، وموضعه الانسانى العام بين أدباء القرن التاسع عشر الإنجليز أدباء عهد الديكادانس ، ففيه من فطرتهم وحريتهم ونعومة أفكارهم ونكتتهم ولو أنه نشأ فيهم كان سيدهم . وهو يتهكم ، ولايمكنه إلا أن يتهكم ، ولكنه تهكم خفيف الظل مأمون العاقبة ، تهكم لاذع ولكنه مقبول ، تهكم الحكيم الناقد ، لاتهكم العدو ولا المستهتر . وكم فى حياة مصر مما يستحق التهكم ولا يأخذ نصيبه . وهو جاد فى عمله مخلص فى أداء واجبه مسارع الى نجدة صاحبه ولو مضحياً ، ولايمكن أن يلحقك الكدر مادمت فى عشرته أو كنت منه على موعد .

وقد حاولت الجمع بينه وبين الأستاذ محمد خالد باشات وهو قرنه وكفؤ له ومن مشربه فلم أوفق الى هذا الجمع . من الغريب أن كليهما طالت عزوبته ولما تزوج فتح

الله عليه نبع البنات فتقبلاهن راضيين ناعمين ، وإن صورة هذين الصديقين لتجمل فى نظرى كلما عرضتها على ذهنى كما تحلو ذكراهما فى قلبى ، فأبتسم تارة وأتأسف على بعدهما طوراً ، كما أشعر أحياناً بالغضب والألم كلما وقع تحت قلمى حادث مكدر، نقص فى الأخلاق منسوب إلى أحد ممن أكتب عنه غيرهما ، لأننى أحببت أن تكون هذه الأخبار الصادقة دالة على معالى الأمور مرشدة لكريم الأخلاق زاجرة عن الدناءة ناهية عن القبح باحثة على صواب التدبير وحسن التقدير ، ولذا أدونها بصراحة وحسن نية ، حتى إذا تناولها القارىء أخذ نفسه بأحسنها وخلصها من مساوىء الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها ، وروّضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم ، وإنما مثل هذه المذكرات مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، فإذا مر بالقارىء حديث فيه إفصاح بذكر عيب أو نقيصه أو وصف سيئة فلا يحملنّه على السخط والنقد فيعرض بوجهه ، فإن ذكر المساوىء لايؤثم وإنما المأثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب . وقد حاولت أن أجرى فى بعضها على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ولى فى ذلك أسوة لبعض الكتاب الأماثل كالتنوخى فى نشوار المحاضرة وأحمد بن يوسف فى كتاب المكافأة وغيرهما ، فإن بمثل هذين يحصل التهذيب وتتم الغاية المقصودة من التأليف .

عبد المجيد ابراهيم

أحد وزراء مصر فى أواخر العقد الرابع من القرن العشرين . شريف صعيدى من ساحل سليم بمديرية أسيوط يمت بالقرابة الى أسرة محمد محمود وأسرة محفوظ. عرفته فى سنة ١٩٠٦ مذ كان يسكن وقريبه عبد الرحيم مصطفى بجوارى بشارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة ملاصقين لحديقة المدرسة الخديوية ودخلا معى امتحان الشهادة الثانوية فى عام واحد ١٩٠٧ وقضينا بعض الوقت فى المذاكرة معا وفى تلقى دروس فى اللغة الفرنسوية على أستاذ مغربى كان مترجما بالمحكمة المختلطة وقد قرأنا عليه كتاب ماشويل وكان أستاذاً غريب الأطوار يميل الى الشراب قبل الدرس ويغط غطيطاً كبيراً أثناءه ، فانتهز عبد المجيد فرصة غطيطه وأطفأ النور ولبس زعبوطاً وحمل نبوتاً وأيقظ الأستاذ المستغرق بصوت غريب ثم تهدده وزعم أنه من الجن واستتابه فكان أن انقطع الرجل عن الدرس بتاتاً وهو لايفضى إلينا بالسبب حتى شرحنا له فعل عبدالمجيد فاطمأن وعاد الى التعليم .

وكان عبد المجيد طوال حياته مرحاً ذكياً نبيلاً محباً لإخوانه عارفاً بأقدار الرجال وهو مثال الجنتلمان الصعيدى النزيه الشريف الخالى قلبه من الأحقاد والخالى ذهنه من الدنايا وكان يتردد عليهم فى بيتهم الشيخ محمد أبو المجد وهو من بلدهم وكان شاباً وقوراً هادىء الطبع مجتهداً وصار رئيس محكمة مصر الشرعية ، أما عبد المجيد فقد واتاه الحظ وأعانه المال الموروث وجاه العصبيات حتى انتخب نائباً عن بلده ثم صار عضواً فى الوفود البرلمانية التى تجتمع فى بلدان أوروبا فشرف مصر بخطبه التى كان يلقيها بالفرنسية . ثم صار وزيراً فى إحدى وزارات قريبه النبيل محمد

محمود وكان مشهوراً بالعدل والاستقامة والفطنة واستقال بانتهاء عهد قريبه . وهو حسن الثقافة متواضع صاحب نجدة ومن أطهر زملائه يداً وأحسنهم ذمة وكان يصلح للعمل السياسى العالى لو لم يكن خاضعا لخطط الأحزاب . وفيه شبه من أسرة بوربون على سمرته ولكنه عالى الجبين مستطيل الوجه أشمه حسن الهيأة مبالغ فى أناقته يلبس القفاز وغطاء الحذاء (جتر) ولم أره يدخن ولايشرب الخمر ولايلعب الورق وهو يحافظ على دينه وتقاليد بلده ويحب وطنه حبّاً جما وفى غير مصر يكون له مستقبل باهر ، ولو اشتغل بالقضاء كان يكون من أكمل القضاة وأعدلهم وأعلمهم ولكن دخوله مضمار السياسة قفل عنه أبواب العمل الجدى فى القضاء والادارة . وبعينيه حول خفيف وفى لسانه لهجة صعيدية تزيد نطقه حسنا . وهو أبداً باسم الثغر ولم تظهر عليه كبرياء ولا غرور ولم يبد منه طمع فيما يملكه الآخرون ولم يتخذ منصبه وسيلة لتحقيق أغراضه ، ولما حدثت مسألة قريبه رشوان محفوظ غضب غضباً شديداً وأوشك أن يستقيل متمسكاً بالحق لامتضامناً مع قريبه ، وبعد خروجه من الحكم لم يسمع عنه شيء يسوء أصدقاءه، ولم يدخل إحدى الشركات الأجنبية التى تستهوى الوزراء بالمال لتتمكن من استغلال المصريين كافة ، وهو مولود سنة ١٨٨٨ وعمره الآن حوالى خمسين عاماً .

عـزيـز كحيـل

مستشار فى محكمة الاستئناف العليا ورئيس محكمة الجنايات لعدة سنين ١٩١٦ - ١٩١٩ ورئيس مجلس التأديب ٠

كان رجلا طويلاً أحمر الوجه أشيب سورى الأصل توطن فى مصر ومعه أسرة كبيرة من إخوة وأخوات وأهل وبنين وبنات ٠ وكان ذكياً حاضر البديهة كبير الثقافة كريم الأخلاق مما يدل على طيب أرومته ، وقد امتازت جماعة من مهاجرى سوريا فى أول العهد بهذه الخلال الطيبة ، وكان وجود أمثال هذه الأسرة الفاضلة يخفف وطأة الفريق الآخر من المعادين لمصر والعاملين على حربها ومناوئتها فى تحقيق آمالها ، يبطنون لها الاحتقار والبغضاء من التعصب ويظهرون المجاملة الكاذبة ويعيشون على دمائها ويكسبون الأموال الطائلة ويتهمونها صباح مساء بالعجز والقصور، ويروحون ويغدون آمنين مطمئنين ويتمتعون بمالا يستطيعون عشره فى أوطانهم ٠ وهم بعد ذلك حكماء وفلاسفة وأدباء وتجار وأمناء « كما يزعمون » وذوو ضمائر ودين ويلجون أحياناً المجالس النيابية باسم هذه الأمة المصرية ليدافعوا عن حقوقها ويغشون دواوين الحكومة كما لو كانت دور آبائهم ٠

أما أمثال كحيل باشا فكانوا على أوفر جانب من الأدب والوفاء وحسن الخلق وتقدير النعمة فلم تكن مصر تحمل لهم إلا الإكرام والتقدير ٠

كان كحيل باشا رجل قانون وعدل وفهم ٠ وقد رأيته فى شيخوخته ، ولما آن أوان إحالته على المعاش لبلوغه سن الستين ضنت به وزارة العدل فعينته مستشاراً فى المحكمة المختلطة لتمتد مدة خدمته خمس سنين يفيد القضاء ويستفيد لأنه مايزال

قادراً على العمل وكان له ملكة قانونية تكونت بفضل فطنته واطلاعه وطول ممارسته فتغنيه الإشارة عن الإفاضة . وكان يعاصره فى خدمة الحكومة المصرية ممن وصلوا الى درجات عليا ستة أو سبعة أشخاص أحدهم يوسف سابا باشا ، وصل منصب الوزارة وكان مديراً حاذقاً لمصلحة البريد وتبدو عليه هيأة أكابر الترك وهو الوحيد من طبقة الملتحين ، ورجال آخرون فى الأعمال المريبة بوزارة الداخلية كرياسة الشرطة السرية ومراقبة المطبوعات والتجسس وكانوا أعوان الحاكم وعيونه وآذانه وقد أضروا ولم ينفعوا ولاسيما أمثال جورج فيلبيديس ويوسف خلاط وغيرهم .

بيد أن أمثال سابا باشا وكحيل باشا وأنطون الجميل كانوا برداً وسلاماً . ومعظم الذين ذكرتهم آنفا عملوا على مبدأ « يبعث الله لمصر أقصر الناس أعماراً فخذوا رزقها ولاتتخذوها داراً » ولكنهم أخذوا مالها ونهشوا عرضها وطالت أعمارهم وهذا من علامة سوء طالع هذه البلاد .

وليست الأشياء وحدها التى تتميز بضدها بل الرجال أيضا . ولو كانت مصر دولة حرة مالكة زمام أمورها واستخدمت هؤلاء الأكفاء لخدموها بالإخلاص الناشىء من الخوف والرهبة ، لأن كفايتهم لاشك فيها وإنما حولوها نحو خدمة الغير ولم يبالوا بمصالح البلد شيئا لأنهم أعزة الجانب يذود عنهم حماة أقوياء دخلوا أرض مصر حبواً أو زحفاً على بطونهم وانتهوا بالسيارات الفخمة والقصور الضخمة وألوف الأفدنة وملايين الجنيهات « أى نعم الملايين لا الآلاف ولا عشراتها ولا مئاتها » . وهؤلاء كانوا يسميهم الأثينيون « ميتيك »[1] ، وطالما شربت مصر من هؤلاء الميتيك كؤوس السم والعلقم . ومصر ملومة ومسئولة وهذا باب يطول الشرح فيه .

---

(١) من معانى هذه الكلمة هجين،خلاسى . مولّد .

نرجع الى الرجل الطيب عزيز كحيل باشا فى مجلس قضائه ، فقد كان يزينه ويزيده مهابة ورفعة بوقاره وأدبه وجدّه وفطنته .

ندبتنى المحكمة للدفاع عن فلاح متهم بقتل شقيقه والتمثيل به وقرأت فى أوراق الدعوى وصف القتيل فإذا هو شاب ضخم وقوى صحيح البدن متزوج نافع لأبيه الشيخ الفانى وحامل أعباء البيت والغيط . فقلت اذا كان شقيقه القاتل على هيأته قوياً صحيحاً معافى فلابد أن يكون للجريمة سبب خفى لم يظهره التحقيق كمسألة عرض أو ظلم وقع على القاتل من والده ، فأعانه الجهل على فعلته ، فقصدت الى زيارته فى السجن . ولشد مادهشت عندما رأيت أمامى قزماً مجعد الوجه على صغر سنه ، معطل النمو البدنى والعقلى فاقد الشعور تقريباً لأنه بعد قتل أخيه ومحاولة إحراق جثته ذهب ورقد فى « المذود » وهو مطعم الماشية ونام نوماً عميقاً الى أن أيقظوه بالقوة بعد اكتشاف الجريمة . فهذا ليس فعل عاقل حذر ولانصف عاقل ، فلما سألته كانت إجابته دليل بلاهته فذكر أسباباً تفهة كقوله إن شقيقه تزوج وهو أعزب وأن أباه اشترى للقتيل صدرية قطنى وقفطاناً ولم يشتر له مثلها . هى إذن الغيرة الكامنة فى صدور العجزة والضعفاء وأن أباه ينهاه عن طلب الزواج لأنه شبه عاطل لاينتج ماينتجه القتيل ..... إلخ .

فعدت أدراجى وأطلت البحث فى مسألة لأنه لايستحق الموت لاختلال عقله . ولكن الطبيب الشرعى فحصه قبل ذلك وقرر أنه عاقل مسئول عن أعماله فلم يبق لى إلا أن ألتمس لنجاته من المشنقة باب المسئولية المخففة responsabilité attenuée وكان هذا البحث حديث العهد فى أوروبا وقام بدرسه الأستاذ ادوارد كلاباريد فى جنيف وعضده كثير من العلماء وأوجبوا على محاكم أوروبا أن تلطف الأحكام فى حالة المذنبين الذين يسمونهم أنصاف المجانين demi fous ووضعوا لذلك شعاراً وجيزاً وهو « أنصاف المجانين أنصاف مسئولين » فاستنفدت قراءة هذا البحث فى كتب

ومجلات وسجلات قضايا كثيرة ، وفى يوم القضية حُملتْ هذه المراجع كلها الى المحكمة لأستشهد بها وصفَّتْ على منصة الدفاع . وقد نويت أن أوفى البحث حقه فلما جلس القضاة وكبيرهم كحيل باشا ونودى على الدعوى شرحت له النظرية الجديدة وأيدت الرأى بما جاء فى كتب العلماء فأصغى وناقشنى مناقشة العارف بالبحث الجديد وأشار الى أحكام صدرت فى فرنسا وبلجيكا تؤيد الدفاع واعترض أحد المستشارين المصريين قائلاً « ولكن هذا فى أوروبا لا فى مصر إننا لوفتحنا هذا الباب فلن نحكم على أحد بعد سماع دفاعه » . وأجاب الرئيس : فرنسا ومصر واحد فى تطبيق القانون والأخذ برأى العلماء . وليس كل المصريين أنصاف مجانين.

فقلت فى ختام كلامى : أحب أن المحكمة اذا أخذت بهذا الرأى أن تتفضل وتشير فى أسباب حكمها اليه لأنه يبدى للمرة الأولى فى محاكمنا .

وقال الرئيس : سنرى ولايمكننا أن نتقيد من الآن ولابد من تمحيصه فى المداولة.

وأخذت المحكمة بالرأى وحكمت على المتهم ببضع سنين ونصت فى حكمها على ماطلبت وهذا الحكم صدر فى سنة ١٩١٦ من محكمة جنايات مصر .

وفى الأيام الأخيرة قرأت قصة قضائية من تأليف ترونسيه Troncet بعنوان «أنصاف مجانين» كتب مؤلفها مقدمة علمية وأهداها الى الدكتور لاكاسانى أستاذ الطب الشرعى بكلية الحقوق بجامعة ليون وقد أدركته سنة ١٩٠٨ وتلقيت عليه فى كتابه الشهير فى الطب الشرعى وهو الذى خلفه أدمون لوكار وحل محله فى درسه ومعمله ومتحفه ، ولكنه فاقه وفاق زملاءه حتى صارت شهرته عالمية وأنشأ مجلة وأتى بالعجب فى التحقيق الجنائى العلمى . وهو من القائلين كسلفه وأستاذه لاكاسانى بالتبعة المخففة .

علـى علـى العزبـى (*)

من حـوادث الدهر مـايلجم اللسـان ويحـيـر الذهن ويوهن القـوى ويملك على الانسان مشاعره وينسيه ولو الى برهة أثر الأقدار فى الحياة وهو بها جد مؤمن . وقد كان لوفـاة المرحوم الأستاذ الشاعر الناثر الخطيب القدير على العزبى هـذا الوقع فى نفسى ، بل إن هـذا وذاك بعض مـاوقع لى عند سمـاع نعيـه وأظن الجزع عليـه والفزع لموته والحزن لأنى لم أودعـه ، ولم ألقـه قبل رحيله بعـام ستلازمنى الى آخـر حيـاتى . وأولاده وخـاصـة أصـدقـائه يعلمـون مـا أقـول حق العلم . لأنه كان مثـال الخـيـر والحق والوفاء والصدق والتضحية والمروءة والفتوة والنخوة والكرامة .

عـرفت المرحـوم منذ ثلاثين عـامـا وعـاشـرته عـشـرة طويلة فى دمـيـاط ورأس البر والقـاهـرة ، فلم أجد رجـلا أثبت خلقـا ولا أنقى ضـمـيـراً وأسلس طبـعـاً وأصـدق إيماناً وأوفر أدبا فى الدين والدنيا منك يا على .

كـان يؤثر على نفـسـه ويحـتـمل الضـيم ويبدى الجلد لكيـد الدهر والنـاس ويؤمن بحسن العـاقـبـة ، صـبـوراً على تقلب الدهر وطبـائع النـاس ، فـسـيح الصـدر لعـوادى الزمان، باسم الثـغر فى أحلك الأوقـات ، باذل النصح لمن يحب ومن لايحب ، دؤوباً على المكارم لايعوقه عنها مايعوق كبار الأغنياء ، ذا سماحة وأريحية وهمة ، وقد ورث أولاده مناقبه وغرس فضـائله فى منابت نفوسهم وتعهد زرعـه حتى أثمر وأينع ونما وترعرع . فلو أنهم عـملوا ، وسـيـوفـقـهم الله بإذنه وحسن توفـيـقـه ، بعـشر مـاتعلمـوا منه كـانوا من خيرة رجـال المستقبل . وكذلك أصدقاؤه وتلاميـذه وجـدوا فى محـاسن أخلاقه دروسـاً

(*) نثبت هنا مقالاً كتبه لطفى جمعه ونشر فى جريدة منبر الشرق فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٢ تحت عنوان « على على العزبى بين الفناء والخلود » .

تكفيهم وتكفل لهم السعادة فى الحياة ، فلم يروا فيه اعوجاجاً ، ولم يسمعوا منه غيبة ولانميمة ولم يطلعوا منه إلا على مسالك الأبرار ومناهج الفضلاء . وإن أهل بلده ليلهجون بهذا وأكثر منه كما لهج المعاصرون للحكام وقادة الرأى ومصابيح الهدى فى الأزمنة السالفة .

كانت عفة لسانه وثبات جنانه واتزان خلقه وسلامة فطرته فى الدرجة العاليه . ولو أن على العزبى ولد فى بيت الإمارة وترعرع فى خلوة الزهاد ودرج بين فحول الأساتذة واطلع على علوم الأوائل والأواخر ليكون كمن تعهدته العقول والكفايات لتخرجه رجلا تام الرجولة ماوصلت تلك الجهود به الى كل ما أوصله الله بمحض فضله. فهو بلا ريب من عبيد الله المحبوبين المختصين بالكمالات واللطائف . فإن قلت أدب الملوك وحكمة الحكماء وتجارب المحنكين ورقة الملائكة وعدل الأئمة وطراز السادة الأماثل وعفة الواصلين وتواضع العارفين فما زدت على صفاته شيئاً ومازدت أصدقاءه به علماً . وإن كل وطن ومجتمع لخليق بأن يفخر به ويتيه بذكره لأن وجوده بين الناس نعمة ورحمة ونور . ليس يصف قولى بالمبالغة إلا من جهله ولم يسعده الله بلقائه وليس يحمل تفججى عليه على محمل الحب المغرى بالإغراق فى الثناء إلا من لم يتصل به صلة الثقة أو من لم يقف على طرف من سيرته العطرة ، ومن لم يره يوماً أو بعض يوم .

كان المرحوم ذا قوام معتدل فارع ووجه جميل باشّ ، وفم باسم ولسان فصيح ونطق صحيح وصوت عذب وبديهة حاضرة وخاطر سريع وقلب واع وذاكرة قوية وخيال فسيح ومنطق سليم وإدراك واسع واطلاع غير محدود الآفاق فى الدين والأدب والتاريخ والسياسة وسائر العلوم ، ولم يتعلم لغة أجنبية مكتفياً بكنوز العربية اكتفاء القنوع بما هو مخطوط ومطبوع مماشياً لحركة العلوم الحديثة ملّماً بتطورات الاجتماع .

كان يحب الحق أكثر مايحب ، فإذا سمع ماينافيه أو أرغمته الأباطيل المتفق عليها على مجاملة مباحة بدت على فمه ابتسامة السخرية الصامتة فلايخدع عارفه بحقيقة فكره .

وأحب شيء اليه لقاء صديق بعد فرقة طالت أو قصرت فينسى العزبى نفسه فى لقاء حبيبه ويفرح به فرح علاء الدين بالكنز الثمين ، فيقبل عليه مرحباً ومحدثا ومؤنساً وملاطفاً حتى ينسى الضيف أهله وبلده . ومايزال العزبى الكريم يتقرب اليه ويناجيه ليستل منه آثار الوحشة حتى يندمجا ويمتزجا روحاً وعقلاً وقلباً فيتولد فى قلب الضيف خوف فراقه ويدب فى نفسه الوَلَهُ عليه قبل أن يضرب الدهر بينهما ، واذا ما أقبل عليهما أصدقاء العزبى أو بعض أبنائه وجدهم مطبوعين بطابع هذا الخل الوفى والوالد الكريم . وإنك لاتلمح فى حديثهم أو ترحيبهم أثر الصناعة أو التكلف لأن الحب فيهم طبيعة شاملة وفطرة سابقة وخلة صادقة ، ولو كان العزبى شيخ طريقة أو رئيس مذهب أو مؤسس مدرسة فكرية لرأيت الناس بالألوف منجذبة اليه متكاثرة عليه، فإن خفة روحه ودماثة خلقه ولين عريكته ووداعة نفسه ورجاحة عقله وسمو مبادئه واطمئنانه الى الله وثقته بالحق وتعلقه بالمثل العلّيا كفيلة بأن تجمع حوله وتحشد لديه أكثر ممن اجتمعوا حول واحد ممن ذكرناه من أرباب المواهب والمذاهب والمآرب ، وناهيك به زعيماً خالى الغرض نزيه الغاية شريف المقصد يفيض حباً وعطفاً ويوزع الإخلاص يميناً وشمالا حتى يملأ الجو صفاء ونوراً هيهات أن يجتمعا لغيره .

لست أعلم ما الذى ربطه بدمياط طوال حياته غير حبه لبلده وتشبثه بالاقامة فيه وتفضيله إياه على كل بلد سواه ولو بذل له المال الكثير والخير الغزير والنعم الجزيلة . فلم يكن يؤمنْ بالاغتراب ولايطمئن للعيش فى غير أكناف وطنه . حتى كأنه روح البلد الحى وقلبها الخافق ، يخشى على بدنه إن هو ابتعد عنها . شعور غامض فى نفسه ولكنه موجود ، وإحساس دفين ولكنه مؤكد ، وعاطفة كامنة وإن كانت ناطقة ، ولقد كان

لهذا بعض ما أثمرته شاعريته : هل يتخيل الأدباء الراسخون المعرة بغير أبى العلاء ، أو حافظ إبراهيم فى غير القاهرة ، أو دانتى بعيداً عن فيرنزه ، أو هيجو مقصياً عن باريس ؟ هكذا كان على العزبى وحبه لدمياط . لقد تعلق قلبه بأرضها ومائها ومساجدها وبيوتها وعلمائها وفقرائها ولهجتها وطبيعتها وطرقها ومسالكها وآثارها وتاريخها . لو أن الدنيا تطورت والأحداث تتابعت والعقول تيقظت فأدركت ما أغفلت وأنقذت ما أهملت وأشرقت شمس حقيقة جديدة على الظلمات التى تراكمت وضرب الأحفاد شارة وشعاراً لدمياط على معدن كريم واختاروا صورة رمزية من دمياط على أحد الوجهين لتلك الشارة ، إذن لما وجدوا غير صورة العزبى على الوجه الآخر كالطغراء الهمايونية التى كانت تميز النقود العثمانية .

سألته يوماً عن سبب إقامته فى دمياط وعزوفه فى شبابه وعصر نضجه عن الرحلة والهجرة فى سبيل المنصب أو الربح ضارباً له أمثالا بعشرات الرجال الذين نزحوا عن بلادهم فانتشرت أسماؤهم واتسع نطاق شهرتهم فقال لى : « لقد عرضوا علىّ الأسفار والأرباح وزينوا لى الهجرة فى سبيل المنصب والمال والشهرة عن طريق الأدب ولكننى أبيت واعتذرت » ولم يقل حباً ببلدى ولكنه سكت . وكان سكوته أبلغ من نطقة ، لأن المحب الصادق المخلص لايتكلم ولايبوح ولايباهى . وقد كان مثل جان جاك روسو ينظم ويكتب ويخطب ولايجعل من أدبه وعلمه مصدراً لرزقه ، صيانة لمواهبه عن أن تقدر بمال أو يدفع له فيها أجر وهو يراها أغلى وأسمى وأثمن من أن يباع نتاجها ويشرى . ومن هنا جاء ابتعاده عن النشر والإذاعة وطبع آثاره فى ديوان أو كتاب .

لم يتجر العزبى يوما فى فنه الذى خلق له وعكف عليه حتى أجاده وأتقنه ، ولم يبذل نفسه العالى فى الشعر والنثر كتابة وخطابة فى سبيل المال ، ولم يكسب مما وهبه الله إلا حسن الجزاء وثناء العارفين بقدره ، لأن تواضعه كان أكبر من تقديره

نفسه ، حتى لكأن هذا التواضع فى نظر المتبجحين والمتجرين و « الفريسين » أهل المادة وعباد المال ، مرض انتابه وعاقه عن التقدم فى ميادينهم .

كان على العزبى آخر أهل دمياط ظهوراً وأولهم فضلا وأصدقهم عزماً فى الملمات وأطولهم يداً فى المكارم وأبعدهم نظراً فى مواطن الفكر وأكثرهم فضلا فى تمثيل بلده ، حتىّ إن الذين حملتهم أمواج المد والجزر الى شواطىء بحر الشهرة ليطأطئون رؤوسهم أمامه ويعترفون بفضله وتحمر وجوههم خجلا من تقدمهم فى مجال هو فارسه المجلى وبطله المناجز .

كان يعتقد طول حياته أن الرجل يبقى حيث يؤخذ بيده ويبرّ ويدعى الى العمل النافع ، وكان هذا منه فرط حسن ظن بالدنيا والناس ولم يكن يصوّر له ذهنه أن من قواعد النضال فى العصر الحديث أن يقتحم الدهماء والجهال مسالك العظمة بقوة المال والجاه وحدهما ، وكان يعتقد أنه يدعى ليقلد زمام أمر من الأمور لا أن يسعى هو اليه. ويكفى لطالب المجد أن يعمل له بجهوده ، لا أن يزحف على بطنه ليجذبه اليه أو يتمرغ فى التراب ليصل الى طرف بساطه أو إطار سجادته أو فضلة ذيل كسائه ، لأنه لو ذل الرجل حتى هذا فماذا يبقى له بعده وكيف يحتفظ بكرامته وهو ذليل ، وكيف يرفع رأسه وهو وضيع أو كيف ينظر بعينه فى الوجوه وهو خسيس ؟

كان يقال فيما مضى عن المصلح الذى يتخذ مقياساً لعظمة الرجولية ومكارم الأخلاق إنه كان عظيماً لأنه احتقر المال الذى تنحنى لديه رؤوس الناس وتضعف أمامه النفوس ويخضع لسلطانه صغار الطامعين لأن ذلك المصلح أكبر من المال وأرفع من المنصب وأعلى من الأثرة وحب الذات وفوق المنافع البخسة عاش فقيراً يكفيه من المال الكفاف وما تلجئه الضرورة الى كسبه بأشرف الطرق وأنقاها ، وبعيدا عن المناصب وماتبعثه فى بعض النفوس من غرور الجاه ، لأنه كان يحب الخير لبلاده وللعالم والانسانية ويحب الخير للكافة دون أن يحبه لنفسه .

كان هذا مقياس العظمة منذ ثلاثين عاماً ، يعتبر العظيم بما ذكرنا من المناقب ويعطاء كل أمر حقه من الجهد والعناية وبخدمة وطنه ومحاولة إصلاحه ورفع مستواه العلمى أو الاجتماعى أو السياسى أو الخلقى ٠

فكانت أخلاق الرجل وعلمه أو فنه وجهوده فى سبيل الخير العام كفيلة بحفر اسمه على صفحات الخلود فيظل اسمه حيا يذكر ويرزق نصيبه من المجد الباقى مهما تزاحمت الأفراد وتطاحنت الجماعات على متاع الدنيا ٠ أما الآن بعد جيل واحد من الزمان فقد تغيرت الأوضاع واختلت المقاييس والموازين وصار الرجال يعرفون ويقدرون بما يحوزون ويحرزون من المال والعقار ويديرون من أعمال صناعية أو زراعية يقوم بها ألوف العمال ، وأصبح مقياس العظمة النجاح المادى الذى يتضاءل حياله كل نجاح ، وكلما ذكر النجاح لايقصد به الى العظمة فى العلم أو الفن أو الخلق أو العقل ولكن المال والمال فقط حتى ألف المؤلفون وصنف المصنفون كتباً فى وسائل النجاح ووصف طرائق كسبه والحصول على المال واستثماره ، واتجه قطار الحياة بكل عرباته ومركباته الى هذه الطريق دون سواها وأصبحت الصحف والمجلات فى أقطار العالم تعنى بتراجم رجال المال والأعمال وأرباب الملايين وسرد تواريخهم وكيف نشأوا وأثروا إما بالاحتكار أو الادخار أو سعة الحيلة أو مضاربات الأسواق وانتهاز الفرص واختلاس سوانح الأرباح فى غفلة من مزاحميهم أو القضاء عليهم ولو كان فى القضاء عليهم مخالفة للقوانين والشرائع ٠ فاكتساح الأضداد والخصوم والتحايل لاجتثاثهم للحلول محلهم واقتراف المساوىء لتحقيق هذه الآمال هى الغاية المنشودة والأمل المرجو، لا يقام وزن لغير ذلك ولا عبرة عند أحد بشىء سواه ٠

على فوزى(*)

لا يعيش فى مصر رجل مثقف لايعرف الأستاذ على فوزى آخر سلالة المماليك ، فإما أنه كان صديقه أو رفيقه فى الدراسة أو تلميذه أو مرؤوسه فى إحدى المدارس الأميريه التى مارس فيها صناعة التعليم أو فى المناصب العليا التى تقلدها على مدى سنين طويلة .

ولكن عندما توفى هذا العالم الفاضل بعد مرض طويل لم يكن عدد الذين اشتركوا فى تشييع جنازته كافيا ليذكر أن المشيعين والمشاهدين أنهم يصاحبون جثمان رجل فذ فى علمه وأخلاقه ووطنيته يندر أن يجود الزمان بمثله .

وقد أذكرنى كتاب السر رونلد ستورس بعظائم الأمور وجلائل الأعمال التى عملها المرحوم على فوزى بك للانسانية والعلم فى صمت وتواضع وتضحية وصبر طويل.

عاد المرحوم على فوزى الى القطر المصرى من جامعات انجلترا فى أوائل سنة ١٩٠٢ وكان نابغاً فى اللغتين العربية والإنجليزية فعهدت إليه وزارة المعارف « لعهد المغفور له حسين فخرى باشا والدكتور دوجلاس دنلوب » بتدريس الترجمة فى المدرستين الثانويتين المشهورتين لذلك العهد وهما الخديوية التجهيزية بدرب الجماميز والتوفيقيه بشبرا وذلك عقيب نهاية عهد الأستاذ ادورد فانديك أطال الله بقاءه بتعليم الترجمة فى هاتين المدرستين الكبيرتين .

(*) مقال نشر بجريدة المقطم فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ تحت عنوان « على فوزى بك آخر سلالة المماليك ، حياته وعلمه وأخلاقه » ، والجدير بالذكر أن على فوزى كان أستاذ لطفى جمعه فى مادة الترجمة بالمدرسة الخديوية .

وكان لحضور الأستاذ على فوزى فى فصول المدرسة الخديوية ضجة ، فقد كان قصير القامة نحيل البدن أصفر اللون لايمكن أن يقدر له الرأى سنا تزيد كثيراً أو قليلا على سن تلاميذه فضحك البعض ودهش البعض الآخر وتأدب العدد الأقل منا فى حضرة هذا الأستاذ النابغ الذى وصل الى منصة التعليم وهو لم يتجاوز نهاية العقد الثانى من عمره ، وكان التلاميذ « أشقياء » وشياطين على طريقتهم فى فجر هذا القرن العشرين ولكنهم لم يكونوا على شىء مما عليه أخلاقهم فى هذا الزمان ، ولكن بعد أن شارفت الساعة الأولى من تدريسه « وكانوا يسمونها حصة » حتى اكتسب احترام الجميع ومحبتهم بمتانة خلقه وعظم أدبه وسعة علمه وشدة حزمه ، وقد انتهى الأمر بالذين كانوا يطمعون فى التهريج والتهزىء أنهم أصبحوا يرتجفون بمجرد وقوع بصرهم عليه أو بصره عليهم . أما الذين أحبوه واحترموه وفرحوا به فى الوهلة الأولى فقد ارتفع التكليف بينه وبينهم وصاروا أصدقاءه وأحب التلاميذ اليه .

كان على فوزى رحمه الله أول من رفع مستوى تدريس الترجمة فى المدارس الثانوية بعد ما ذاق الطلاب طعم الفهم فى اللغتين ، وكان أول من شجع تلاميذه على ترجمة بعض الآيات القرآنية وبعض جوامع الكلم ونبذ من أمهات الكتب العربية فى التاريخ والأدب .

وفجأة غاب على فوزى وانقطع عن التدريس وخلا منه مقعده . فدهشنا واضطربنا وتساءلنا فقيل أولا إنه تأخر ثم إنه مريض ، وفى نهاية الأمر علمنا أنه استقال احتجاجا على معاملة الوزارة له .. وكانت دهشة وضجة .. لأننا لم نتعود من أستاذ مصرى متعلم فى بلاد الإنكليز على حساب وزارة المعارف أن يلقى القفاز فى وجه حكومة ذلك الزمان ويستقيل محتجاً على سوء المعاملة ، ولايدهش أحد من إدراكنا لهذه الحقيقة ، فقد نشأنا وتربينا على التسليم بسلطة الحكومة المطلقة وخصوصا فى وزارة « وكانت تسمى نظارة » وخصوصا فى عهد دوجلاس دنلوب وكان

حاكما يأمره فى درب الجماميز « مقر النظارة والمدرسة الخديوية » ، فكان هذا الرجل الآمر الناهى والسيد المطاع النافذ الكلمة على كل من تظله سلطة تلك النظارة بادئاً بالوزير المطواع ومنتهياً بآخر فراش أو بواب في مدرسة أسوان . كان دنلوب أكثر من « بعبع » وأقل من إله !! فيتصور القارىء كيف كان وقع الخبر على مسامعنا ونحن فى ميعة الصبا وليونة الشباب ولم نتخط سن المراهقة . وقد علمنا بعد ذلك بتفصيل ماجرى فكانت له فى نفوسنا روعة أى روعة !!

فإن على فوزى طلب من المستر شارمن « ناظر الخديوية » إذناً بمقابلة المستشار دنلوب فأبى عليه ذلك وقال له إن كانت لك شكاية أو ظلامة فارفعها إلىّ وأنا أنظر فيها فإن رأيتها جديرة بالوصول الى مسامع المستشار رفعتها وإلا فصلت فيها أنا . فابتسم فوزى وخرج من غرفة « حضرة الناظر » صامتاً ولكنه خرج الى الديوان العمومى وكان على مسافة قصيرة من المدرسة ، فلما بعث ببطاقته دهش سكرتير المستشار وكان المرحوم المغربى بك « المغربى باشا بعد ذلك » ولكنه حيال تصميم الأستاذ الشاب وعناده دخل وهو يرتجف وأخبر المستشار على سبيل الاستنكار والاستغراب ، وعجب دنلوب لجرأة الشاب ولكنه دعاه فلما رآه ضحك وقال له أنت على فوزى أفندى خوجة الترجمة الذى يريد أن يقابل المستشار « أى نفسه » وقد تخطيت رئيسك المباشر .

قال المرحوم على فوزى : نعم أنا ذلك الصغير القصير .

قال دنلوب : وماذا تريد ؟

قال : جئت لأقدم لك استقالتى من التدريس فى الخديوية والتوفيقية .

دنلوب : لماذا تستقيل ألا تعلم أنك باستقالتك تفقد مرتبك البالغ ثمانية جنيهات وأنك تجعلنا فى حل من أن نقاضيك لترد لنا كل ما أنفقناه على تعليمك فى جامعاتنا ولن يكون لك مجال للعمل فى غير المدارس الأهلية ونحن نعلم أن أساتذتها ليسوا على

مـايرام فى مـعـايشـهم فكر أولاً وفكر طويلا ثم اكـتب لى برأيك . جـود مـورننج فـوزى افندى .

ووضع المرحوم مـغربى بك « باشا بعد ذلك » يده على كتف الأستاذ فوزى ليقوده الى خارج غرفة المستشار المطلق الإرادة .

ولكن فوزى تخلص من يد المستشار وقال :

إننى مـسـتـقـيل بالضـبط لأجل الأسـبـاب التى ذكرتها جنابك فـإننى أنتـقل بين المدرستين فى فـترة الفسحة وهى عشر دقائق من شبرا الى درب الجمـاميز والثمانية الجنيـهـات التى أقـبـضـهـا لا تسـمح لى أن أقـتنى « عـربة مـلاكى » ولايمكننى بعد هذا الإرهاق أن أقوم بعملى كما يجب . أما أننى لا أجد عملا إلا فى المدارس الأهلية فهذا وهم ، لأن فى مـصـر مـجـالا للعمل لمثلى . فـهناك الصـحافة العربيـة وهى تحـتـاج الى مـحررين ومـترجـمين . وهناك الشركات الحرة . وأما استرداد ما أنفقته الوزارة علي تعليمى فـإننى أنتظر أن تطرح حالتى على المحاكم فلم نكن أنا وزميلى عوض إبراهيم واحـمد فـريد فى جـامـعـة بل كنا فى كليـة « برورود » ونفـقـاتها مـعلومـة للجمـيع . وأمـا رئيسى المباشر فإننى لم أتخطه بل عرضت عليه طلب المقابلة فرفض . وليس الأمر فى حـاجة إلى التفكير فإننى جئت مـصـمـمـاً وسـأنصرف مصـمـمـاً . جـود مـورنج يا جناب المستشار .

وفى هذه المرة وضع مـغـربى بك يده على كتف الخـوجـة الصـغـيـر ليـسـتـبـقـيـه لا ليستعجل انصرافه كما فعل فى المرة الأولى لأنه لمح تلك الرغبة فى نظرة المستشار ، وكان المرحوم المغربى باشا أتبع له من ظله وأطوع له من بنانه ووقف المستشار وصافح على فوزى وقال له :

لقـد قـبلت نظارة المعـارف اسـتـقـالتك وأتمنّى لك مـسـتـقـبـلا سـعـيـداً فى خـارج النظارة .

ولم يكن هذا الوداع آخر العهد بينهما ، فإن جريدة الاجيبشن غازت « لا المؤيد ولا اللواء ولا الأهرام» طلعت على الناس فى اليوم التالى بمقال من نار تحت عنوان ضخم بأكبر حروفها « استقالة أقدر مدرس للترجمة فى نظارة المعارف » وفى هذا المقال وصفت على فوزى بأنه أحد الرجال الذين نفاخر بهم بين الملأ وبنصها الانكليزى One of our showmen وأن فى إرغامه على الاستقالة لقلة مرتبه وإرهاقه بالتدريس فى مدرستين متباعدتين فى فترتين متقاربتين لدليلا على شح النظارة وبخلها الشديد وسوء التدبير فى تقسيم العمل ، فاضطرت نظارة المعارف وحسبت لهذه المقالة الجريئة حسابها لصدورها من جريدة انكليزية مدفوعة أو موعز بها الى الجريدة التى تشد أزر المستشار ، فأزغى دنلوب وأزبد وأراد أن يقف على كيفية وصول هذه المعلومات بالغازيت ولكن تعبه ذهب أدراج الرياح .

واتصلت به دار الوكالة « كما كانت تسمى سفارة أنكلترا لعهد اللورد كرومر » وطلبت تحقيقاً لهذه المسألة . فبذل دنلوب جهده فى استرضاء فوزى بك ، فاتصل بأصدقائه الحميمين وهم جعفر ولى بك وعوض إبراهيم بك والشيخ شاويش فما زالوا به حتى أرجعوه بعد أن زيد مرتبه الى ضعفين واقتصر عمله على المدرسة الخديوية ونقل بعد عام واحد ناظراً لمدرسة باب الشعرية . فأتى بأحسن النتائج فى الامتحانات العامة وكان أول حائز للشهادة من مدرسته طول مدة نظارته.

أما كونه آخر سلالة للمماليك . فاسمع كيف يرويها صاحب السعادة جعفر ولى باشا .

فإنه عندما خلت الأريكة الخديوية فى سنة ١٩١٤ وقبل صعود المرحوم السلطان حسين كامل اليها حدثت فترة سكوت لتردّد أمراء الأسرة الخديوية « العائلة المالكة الآن » ، وأخذ السر رونالد ستورس يتحرى عن رجل تكون له علاقة قريبة أو بعيدة

بالمملوك الشارد أو بأى مملوك آخر من أمراء مصر حتى علم أن على فوزى هو ابن حفيد المرحوم فوزى بك ، وكان هناك تفكير جدى فى جعله فى مقام رفيع حتى يتم الاتفاق على شيء معين . وذهب ستورس وجعفر باشا فعلا للبحث عن على فوزى بك وكان إذ ذاك سكرتيراً عاماً لوزارة الزراعة . وهنا لايعلم المؤرخ بالدقة مادار من الحديث بين الثلاثة غير أنه نُسب الى ستورس أنه قال لجعفر باشا إنه آخر أسرة ستورس وضحك ثم أضاف The last of the Moohieans يبحث عن آخر سلالة المماليك . وجعفر باشا والى لايزال بحمد الله على قيد الحياة ويمكن أن يفضى بحقيقة الواقع فى هذه المسألة .

وقد أثبتت الأيام أن على فوزى كان أميراً بكل مافى هذا الوصف من المعانى ، فإنه بعد أن وصل الى منصب الكسرتيرية العامة فى وزارة الأشغال بعد وزارة الزراعة شعر بالملل والظمأ للحرية فاستقال فى سنة ١٩٢٣ وربط معاشه على خمسة وعشرين جنيها وكان لايزال فى مقتبل العمر وكان مرتبه الشهرى ثمانين جنيهاً فرضى بربعه وسافر الى إيطاليا والمانيا وتركيا وأقام فى الخارج من سنة ١٩٢٢ الى ١٩٣٥ فأتقن اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية والتركية والفارسية وكان من قبل علامة فى العربية والإنجليزية .

وقد عرض عليه منصب مدير دار الكتب الملكية فاعتذر بلطف مع أنه كان أقدر من يقلده ، وقد قضى أكثر من خمس عشرة سنة فى مجلس إدارة الدار .

ولما عاد الى مصر فى سنة ١٩٣٥ كان معتزلا ومنقطعا للعبادة فى بيت قريبه محمد رحمى لايخرج إلا قليلا ويزار ولايزور أحداً ، ويتسلّى بمطالعة كتب تلاميذه ومن بينهم فطاحل النهضة المصرية الحديثة أمثال الأستاذ أحمد أمين وغيره ، وفجأه مرض بداء عضال فى المثانة ولم يكن له قريب ولا حبيب « حتى ولا ممن بذل ماله وحياتهم فى إسعادهم » فقد ساقوه سوقاً الى المستشفى بعد أن عملوا له عملية جراحية قيل لى

إنها خاطئه . ثم نقلوه الى الإسكندرية حيث قضى بضعة أشهر كالسجين فى غرفة لايمكن أن يفتح نافذتها « لأنها بارتفاع أربعة أمتار وعرض ثلاثة أمتار » ولم يصعدوه يوماً واحداً الى سطح البناء لتغمره الشمس الحنون بأشعتها المنقذة ولم يصحبه أحد فى نزهة الى شاطىء البحر ولم يكن له سمير ولا أنيس سوى أحد تلاميذه القدماء ، وكانت إحدى الممرضات الجاهلات تستأذن عليه كل سبع ساعات لتقيس حرارته بسخافة وعدم اكتراث ولم تفكر هذه الممرضة فى أن تحمل اليه زجاجة بالماء القراح ولابد له أن يدق الجرس ليشرب إذا ظمىء . وأخيراً فقد الرجل شهية الطعام وامتنعت معدته عن تناوله ولزم فراشه شهراً إلى أن قضى نحبه ومات ميتة الصابرين الصالحين. وكان قد أوصى أن يدفن فى الإسكندرية ولكن صديقاً باراً به نقل جثمانه ببعض ماله المتراكم من وفر معاشه ودفن فى أحد القبور المحترمة فى قرافة الإمام « ولا أدرى بالضبط أى الأئمة أهو الشافعى أم الليث » .

وهكذا طويت صفحة حياته الروحية والعلمية بل سجل تلك الحياة لم يطو ولن يطوى . لأنه بحق أحد أساتذة الجيل ومعلميه البررة . فلم يكن نموذجاً وقدوة فى العلم وحده بل كان كذلك فى الخلق الكريم والأدب الجم وسماحة النفس والشمم والعفة، فإنه لم يرض أن يتزوج خشية أن يرزق نسلا يتعذب فى أرض مصر الكريمة .

علــى محمد الألفــى

أديب بورسعيدى ، دمياطى النشأة والمولد نزح وأهله الى بورسعيد منذ أربعين عـامـاً واشـتـغل بـالأدب والكتـابة والحسـاب وكـان تلمـيذاً لعلى العزبى ثم عكف على الاشتـغال بالأعـمال التجارية والحسابية فنبغ فيـها واشـتغل بالشـعر تقليداً لا نبـعاً وبالموسـيقى وضبط الأنغام والكتـابة فى الصـحف ، واشـتـغل بالسـيـاسـة على طريقـة اشتغال أهل الريف بها واتخذها وسيلة لقضاء حاجاته وحاجات من يقصدون اليه من الطلاب، وله أخـوة عـدة وجـهـهم توجـيـهـات مـخـتلفـة وجـعل الرابطة بينهم الاتصال بالأحزاب السـياسـيـة التى تملك السلطة والنفوذ عند توليتـهـا ، فنال قسطاً من المال والشهرة فى بلده ولاسيما فى أوقات الانتـخـابات ، وقد مـهر فى صنـع الأزجال وكتابة المنشـورات المقـذعـة فى النيل من خـصـومـه ، وقـد اتصل بآل سـرحـان تجـار الدواجن وعاش فى كنفـهم أمدا طويلا ثم دب الخـلاف بينه وبين الابن « محمد سرحان » لأسباب سياسية فقلب لهم ظهر المجنّ ونظم فى حقهم ذماً شديداً منه قوله لأحد أنصارهم :

« القمل فى ثوبك سرحان »

أى يسـرح ويمرح والجناس ظاهر . وشكا منه سرحان الابن أنه حرض صبيان الحى من أتباعه أن يرشقوا متجرهم بالحجارة ..... إلخ ، واتخذ علىّ مخزناً لتجارة الدواجن فلم يعمر طويلا ثم اشتغل بالخبرة الحسابية واتخذ لذلك مكتباً ، ثم أسعفته الحراسة على أموال الأعداء وانتخب أخوه عضواً فى مجلس النواب فكان هذا العصر الذهبى لأفراد العـائلة التى أخـذت تبـاهى بنفـسـهـا الأسـر الشـهـيرة فى البلد كـعـيلة عطاالله واللهايطه .... إلخ .

وللألفى أصـدقـاء يفى لهم ويخلص لهم وهو ذو ود وكرم وأدب جم وكـان الأحق بالانتخابات والتمثيل من سواه ، وله أسرة كبيرة يقوم بخدمتها وهو لايقصد فى عمل إلا ويذل مجهوداً فى نفاذه وهو على دين حسن وخلق كريم وهو من مواليد القرن الرابع عشر .

ولاشك فى أن على الألفى متمتع بالحاسة السياسية وعنده أهلية للانتفاع بها وقد صارت السياسة فى الزمن الأخير من عهد سنة ١٩١٨ الى الآن مصدراً لمنافع الأذكياء الذين يتخذونها وسيلة لنيل مآربهم كلما تناحرت الأحزاب وحل حزب منها محل السلطة على الطريقة البدائية التى ينتفع بها أحمد الكاشف الشاعر .

ولكن للألفى عزوة وأقارب وقد رأى بفطنته أن حزباً معيناً سيصل الى السلطة وأن فى مناصرته وسيلة لمطالبته بالمنفعة بعد استقرار الأمور ، وهذا يقتضى طبعاً التظاهر والمجازفة والتعرض للأذى على أيدى الحكم القائم كالاعتقال والاضطهاد ولو الى حين. فهذا نوع من المقامرة والمجازفة وكل مقامرة مخاطرة ومن لم يكن لديه شىء لن يسوء مركزه بل يجعل لنفسه صيتاً وصوتاً مسموعاً . وكل هذا وراء ستار الوطنية.

وهذا هو السبب الظاهر ، أما السبب الباطن فهو جر المنافع . ولن تجد من يجادلك فى مذهبك السياسى لأنه شبه عقيدة وعليه مظهر الحق وأنه من الزينة المعنوية أن تكون مضطهدا فى العهود الأخرى وفوق هذا فإنك تبقى لك كرامة المظلوم والمضطهد وقد يخشى جانبك فتقضى حاجتك إسكاتاً لك وطمعاً فى أكتساب رضاك أو تحويلك عن مذهبك أو خشية انتقامك عندما يتسلط حزبك ، هذه كلها عملية ذهنية تجول فى خاطر المتحزب ، ثم لابد له من فطنة فى جمع الأعوان وانتقائهم وتمنيتهم وخلق الآمال والوعود لهم ومواساتهم عند الشدائد . فإذا طمع الفقير أو المظلوم فى أن ينال خيرا فى العهد المقبل بذل مجهوده وخاطر بحياته ليصل الى غايته ، ثم

تختلط بهذه الأعراض الظاهرة لمسة من الروحيات وهى فكرة التضحية والبذل والدفاع عن فكرة وهذه الحالة تكون أظهر عند العامة منها عند الخاصة . والوطنية تكون فى الغالب حارة فى الثغور الحديثة العهد بالنشوء ، وكلما كان الرجل مجهول الوطن كلما تعلق قلبه بالمكان الجديد الذى سيكون وطنه كما هى حال السكان الأوائل فى الولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلاندا ، فهم إما مهاجرون أو نازحون بعد اضطهاد أو احتياج وهذا الوطن ينبت العز والطمأنينة .

والوقوف على هذا السر النفسانى يحتاج الى حساب وفطنة لم يكن منها على الألفى خاليا . ثم إنه فكر فى طريقة استعمالها .

والعارف بأخلاق أهل بورسعيد وسرعة تصديقهم ورعونتهم وأطماعهم وشدة حرصهم وحاجتهم الدائمة للمعونة ممن هو أقوى أو يظهر بذلك ، يعلم كيف تنجح هذه الخطة معهم وكيف ينقادون بسهولة ، ومما التجأ إليه من الطرق غير اتصاله بالعمال والطبقات الفقيرة وقضاء حوائجهم فى المحافظة والحكمدارية وأقسام البوليس والمستشفى والميناء ، أنه كان يختلف الى المقاهى البلدى ويجالس الحوذية والبنبوطية « أصحاب القوارب الصغيرة » وأصحاب المتاجر الصغيرة ويشاربهم القهوة ويدخن الشيشة أو النارجيلة وهى أداة تستنفدُ الوقت ويطول معها الحديث فيمازحهم ويلاطفهم ويتعرف عليهم بأسمائهم فيشعرون بالكرامة ويظنون مسلك هذا الأفندى « آلقيافه » تنزلا منه ورحمة وعطفا خليقة باعترافهم بجميله والركون اليه عند الحاجة فيحلّ لهم مشاكلهم وهى بسيطة وتسمه بميسم حب الخير والسعى فى صنع الجميل وهى صفات محبوبة وتستدر عطف الكبير المقصود وتستدعى احترام صاحبها حتى صار صاحبنا معروفاً عند الحكام والمحكومين بأنه محب للخير وأن له أنصاراً ولاسيما اذا أضاف الى ذلك بعض الألفاظ الفرنسية والتظاهر بالتمسك بالقانون أو الحق أو قواعد العدل.

ولايجد الطبيب خيراً من تلبية الموصى إياه بالعناية بمريض فقير لأنه يعلم أن تحت

رداء الموصى مائة مريض بعضهم أغنياء وحسن العناية وحسن الاستقبال يجلب حسن السمعة .

وعلى الألفى رجل طويل القامة أسمر اللون يضرب الى الصفرة جهورى الصوت حسن التقاطيع شديد العناية بلباسه وطعامه وشرابه يزين عنقه وصدره وأصابعه بحلى من الذهب والماس ويتبختر فى مشيته كمن يهز صدره تباهيا « عياقة » وتدللا ويضع طربوشه فى نصف جبينه وينطلق ضاحكا بتكلف ثم يقفل فمه كمن ضحك رغم أنفه ، وهو كتوم يبدى فى كثير من الأحوال أقل مما يضمر ويتخذ صورة صاحب النجدة الذى يلبى أول دعوة المستنجد ثم اذا لم يكن له نفع مباشر يتراخى ويستهين حتى تبرد حرارة النجدة وتخمد نار الفتوة التى أثارها فى صدر قاصده هذا إذا لم يكن يجد نفعاً مؤكداً .

فقد قصد إليه أحد أصحابه فى الصيف ليجد له مسكناً يصطاف فيه فأظهر نخوة وتناول التليفون وتكلم الى « العدَّة » مرات عدة ثم أسرع فى إنجاز أعماله التى تحت يده واستعجل معاونيه فى إنجاز أشغالهم كمن يشعر بنيّة التفرغ لخدمة صاحبة زمناً طويلاً . ثم نهض وخرجا وصاحبه يعتقد أن الدار الجديدة أصبحت قاب قوسين أو أدنى فلما استقبل الألفى الريح وفرد على عادته شراعه وطوّح بذراعيه قال « نمر بالمستشفى لحظة » فوافقه صاحبه ، فلما دخلا أخذ الألفى يسأل عن « زعيط ومعيط ونطاط الحيط ' والدكاتره لبيب ونجيب وعجيب والدكتورات منيرة وسميرة وأميرة ولكل منهم وصية وتحية وكلمة مرضية » ، ثم خرجا فذهبا الى الريس لمعى فجلسا وطلب الألفى شيشة وقهوة واستطال الحديث فى القديم والحديث ومر بهما المقاول قلاووظ فكان خطاب وعتاب وسؤال عن فتح الباب وصاحبه يستحثه ، وأخيراً قاما فقال الألفى للضيف نذهب الآن الى معرض الأخلاق وتحفة البلاد ولون جديد من الحياة لم تعرفه وتقدمه الى مقهى بلدى . فجلس فيه الألفى مجلس القاضى صورة وأخذ يستعر ـ

القضايا المضحكة ويوقع العقوبات ويوزع الجوائز وهذه وتلك عبارة « عن مشروبات » ، تفرض وأخرى « تهدى لأجل » نكتة أو نادرة أو مخالفة لنظام الجلسة « وهذه إحدى طرقه فى استجلاب رضى العامة بأحد أماكن حشد جنود المظاهرات » . ثم نهضا فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وقال لصاحبه « تتغدى فين ؟ » ففهم أنه اتخذه وسيلة للإفلات من محل العمل ليطوف طوافه المعتاد فلم يسأله عن البيت وخجل أن يجبه وهو فى حالة لا شعورية . وتركه باسما ليقوم بالبحث والتنقيب بنفسه خيراً من أن يخجله أو يفقد صداقته .

عرفته فى سنة ١٩٣٠ بمناسبة الجوار فكان جاراً كريماً وخلاً وفياً ومضيفاً ذا سعة وأخاً ذا مرحمة ، ولكنه إذا إستشعر منك مخالفة فى مذهبه السياسى تحاشى أن يعرف الناس عنه أنه يخالطك أو يتودد إليك خوفاً على عيشه ، لأن رئيس عمله كان مفتوناً بمذهبه ، ولكنه إذا خلا بك بذل لك حبه وإخلاصه وتمادى فى التودد اليك ، حتى اذا مر بك واحد أو أكثر من أوشاب البلاد تنكر وتنمر أو تعمد أن يظهر مخالفتك، وهو يعتبر السياسة والاشتهار بمشايعة زيد أو عبيد مصدر رزق ونبع قوت وسلما للكرامة وإمارة البلد والسيادة على عقول النوكى المتحمسين وعلاقاتهم به كعلاقة الدراويش بشيخ الطريقة . وإن يكن يقيم ويعمل فى حى الأفرنج فإن أعظم نفوذه فى حى العرب وحى المناخ حيث يوجد العمال والزامات وصغار الباعة والبلطجية والحمالين والحوذية والبنبوطية وهم جنوده وحملة بنوده وذخيرة مجده وبنيان سعده وأذرعته اليمنى وأعينه التى بها يرى وأيديه التى بها يبطش ، وكلما أمعن أحدهم فى الجهل كان أقرب الى طاعته وأدنى الى التسليم إليه وطاعته فى قيادته والحملة على خصومه ، و «زقل الطوب» و «الضرب بالخشب» ، و «زقل الطوب» هذا هو الرشق بالحجارة تتخذ له عدة وتكدس الحجارة فى أمكنة شتى قبل الهجوم المعلوم له يوم وساعة ثم يبدأ به ويعين المتظاهرين فيه أولاد الشوارع وغلمان الأزقة وهم يجيدون المراوغة والمزاوغة

والافلات ويفقدون عقول من يتتبعهم أو يقص آثارهم .

ويقود هذه المظاهرات بعض أخواته أو أقاربه أو أصهاره ويكونون عيوناً على بقية الجماعة ولكنه هو لايرى إلا راكبا سيارة مع رجال الحكم بحجة تشتيت المظاهرة وإطفاء نار الفتنة ، ولكن الحقيقة أنه يلاحق المتظاهرين بلحن سابق وهو أنهم كلما رأوه مع الحكام « مضطراً أن يسايرهم » ، كلما أمعنوا فى التخريب والتدمير والهدم والرجم ويحذرهم أن يكلوا أو يملوا أو يخدعوا بمنظره ويعتبر هذا من أسرار القيادة الشعبية وزيادة المهارة فيها ، وهو يضحك فى كمه إذ يرى الحكام يصحبونه للتهدئة وهو فى الواقع أداة للإحتراق وقد يأخذ أحد عتاة المخربين والمهيجين تحت إبطه فى السراء والضراء ويبحث له عن عمل ويتعهده ، فإذا أظهر العصيان تنحى عنه وقلب له ظهر المجن .

ومن نوادره إيقاعه بصديقه الدكتور محمد سليمان الذى تعمد أذاه لخصومه مكتمة لم يقف أحد على سرها ، فسعى أولاً فى إخراجه من لجنة الحزب التنفيذية التى كان رئيسها الشيخ أ . ع . فإنه كان يسيرها وهو يقبل يد الشيخ ويلقبه بصاحب الفضيلة والرجل تاجر ومقاول ولا علاقه له بالعلم وإن يكن قد زين حانوته فى الشارع التجارى ببعض الكتب . ثم استدار فنشر ضد الطبيب صديقه بالأمس دعاية واسعة النطاق لم يبقِ وراءها ولم يذر ، ثم حرض دائناً قوياً فرفع دعوى يطالب بها الطبيب بمائتى جنيه فى وقت من أشد أوقات محنته ، وهّون على سيده أن ينكر أجور علاجه من داء طويل وكان هذا الطبيب يقضى قبل هذا العداء معظم وقته فى عيادة على الألفى وأولاده وأهله وأقاربه وأصهاره ولايتقاضى عليه أجراً ومايزال به حتى أخرجه من البلد الذى كان فيه صاحب كرامة وشهرة ذائعه فارتد ملوماً محسوراً . وكان للألفى فى هذه الحملة المنكرة أعوان وجواسيس وأعين وآذان وألسنة من الزعانف وحثالة الناس حتى كنسه كنساً وقطع دابره .

والذى نفعنى أننى لم أسلم لحيتى له ولم أثق به من النظرة الأولى ولم أصدق تقربه وهالنى تقبيل اليد وإيعازه لأخوته وأتباعه أن يقبلوها ، وأحسست أن وراء هذه الحفاوة حفائر وبعد هذا الإكبار المصطنع كبائر ، ولم أظهر له من الود إلا القدر الكافى الذى لايزيد فيه قدره عن أصحاب المجالس ومعارف المصادفات .

وقد رأيته يوما يقبل على رجل بلسانه وبدنه ويتفرغ له وقد جاء يواسيه بعد «شحْطه» أى خروجه من عمله واتخاذه دكانا بقدر الناقوس ليزاحم صاحب المخازن العامرة . فلما أقبل شخصان لافى النفير ولا فى النقير ولكنهما من أتباع الحزب الذى يسايره على وكان المواسى على غيره أو ليس متحمساً ، تغير على وتنمر ، يريد أن يرى اللذين حضرا أنه لم يخالف مبدأه فتراً ولم يشذّ عن كراهية الخصوم السياسيين قيد أنملة ، وبدأ يتوقح على المواسى بنظرات وكلمات لايعرفها إلا شديدات الكيد من النساء فحنق المواسى ولكنه ملك غضبه وقال له :

– مرحى يا ألفى ؟ أتقول كذا وكذا أمام الضيفين لتظهر غرضك وكنت منذ حين تقبل علىّ وترحب بى وتثنى علىّ وتشكرنى وهل تستحلّ أن تظهر بوجهين وتنطق بلسانين وتعامل الناس بقلبين وضميرين فى أقل من ساعة زمانية . أيرهبك أن تكون صديقاً لأحد الناس وهل بعت عواطفك ورهنت إخلاصك وتنحيت عن شخصيتك وطلقت الكرامة الى هذا الحد ، والله إن هذين الفاضلين ليَمْقُتَانِ هذا المسلك ويأبيان أن يخاصما صديقا ولو كان مخالفا لهما فى الدين أو الملة . وأنا لا أخالفك إلا فى الرأى السياسى ولا أقل عنك وطنيــة ومن تكون ومــاذا يُرجىَ منك إذا كـان هذا خلقك إنكم اتخذتم من السياسة تجارة ومن الضمائر سلعا تباع وتشترى . وقد قلت هذا هادئاً كما ترى ولم أغضب ولكننى أؤرخ حادثاً وأقرر واقعة فإن قلت غير الحقيقة فجابهنى بها لساعتك وكذبنى فيما قلته عنك ولاتتركه حتى يبيت ويفتر .

فصمت الألفى « يلقب شاعر بورسعيد » وضحك الضيفان واعتذرا عنه ومايزال صاحب الحادثة جالسا يشاركهما الضحك وقد خجل زعيم السوقة وأصابه البلل كمن صب عليه « فنطاس » ماء بارد .

وقد روى لى هذه الحادثة أحد الضيفين وقال لى : إننا والله خجلنا وكدنا نقبل يد الرجل ورأسه عندما قال أنه حضر لمواساة صاحبه وأن طبعه أبى إلا أن يكدره جزاء له على مروءته ونحن نعلم إنه لم يجىء نص بتحريم الصداقة بين المختلفين فى المذاهب ولم يصدر منشور بمنع المودة بين الأحباب واختصما فى السياسة فكلنا نرمى الى غاية واحدة ، ونحن نعرف أن « سى على » يقول ويفعل هذا تظاهراً ولكنا لانملك معارضته ولا مناصرة خصمه إلا بالضحك والضحك نصف الموافقة وكفاه خجلاً صمته الذى صمته كأنه نزلت على رأسه كارثة .. ثم ابتسم وقال « أكل العيش يحب .... » .

وفى بعض السنين قامت فتنة فى البلد على انتخابات المجلس البلدى فسحب على الألفى قلمه وأخذ يحرر المنشورات وهى نوع طريف من الأدب السياسى قد جعلت منها مجموعة يتراشق فيها أهل البلد الواحد بالقذف والشتائم القاذعة ، وزاد الألفى عليه أنه ينظم ذلك شعرا ويتأنق فى تدبيجه نثرا فلا يترك لخصمه عيباً خفيا أو ظاهرا إلا ضخمه وكبّره ، ولا سرا إلا أفشاه ولا خليقة خافية إلا أعلنها وأعلم الناس بها مما يخالف الشرع والأدب ، فهفا فى اندفاعه فى حق أحد أنصار مزاحم لحزبه ووصفه بصفات يتعثر القلم فى كتابتها وتجاوز فى تهجمه كل حدود الأدب وقلة الأدب . حتى ضج من شدّته أنصاره أنفسهم وقالوا نحن فى غنى عن الانتخاب إن كانت هذه وسيلته ، ورفع المشتوم أمره الى القضاء ، ولما رأى الألفى أنه قد وقع فى المحظور ودنت أيام المحاكمة قبل الاعتذار عن خطأه وإعلان الاعتذار كتابة وإظهار الأسف والندم وصرح بنقيض ماكتب ودفع فوق هذا مبلغا من المال وخرج من المحكمة يجر

أذيال الندم . ولكن بعد أن ولّد عداوات مرة بين الأفراد والأسر .

ولكن هذا الشديد فى الخصومة فى الشوارع يدخل دور الحكومة فى العهود المختلفة خاضعا ويتقهقر مرات قبل أن يقدم ويفرغ التماسه فى قوالب سكرية ويقف ذليلا بين أيدى أصغر كاتب فى النيابة أو رقيب المحاسبة أو معاون الجبانات .

وقد قدم يوماً بلاغاً فى رجل اسمه الجمال قذف فى حقه فى مجلة سياسية وكان وكيل النيابة يضاغنه لأنه باع له ديكاً مصاباً بطاعون الدواجن فمات رغم أنفه قبل أن يذبح للضيوف ، واحتج وكيل النيابة ولكن الألفى لم ينصفه وزعم أن الديك ما أصابه لأن وكيل النيابة تركه على سطح الدار فى ليلة باردة وصمّم عليه أن يدفع الديك الدندى كاملا ولم يخجل أن يرفع اليه شكواه من الذى سبّه وقذف فى وكان وكيل النيابة رجلا حاد المزاج فلما رآه ظنه قادماً ليطالب بثمن الدجاج فى وجهه وقال له « لقد أرسلت رمة الديك للطبيب البيطرى ليشرحها ويثبت سبب الوفاة» فقال الألفى ماجئت لهذا ولكن لأرفع إليك بلاغا فى كذا وكذا .

فقال له : ليست النيابة العامة موقوفة على شكاويك ودعاويك اتفضل اخرج بره وارفع جنحة مباشرة إن شئت ...

ثم جاء اليوم الأكبر فإن إخوته مثله تدرجوا منذ هاجروا من دمياط فى درجات السلم الاجتماعى من أولى خطواته ولم يأنفوا أن يتناولوا عملاً مهما صغر وهذه همة عالية لاتعيبهم ولاتقلل من كرامتهم فإن العمل شرف مالم يكن به مساس بالعرض أو تلويث الكرامة . وأخيراً رشح أحد إخوته نفسه وهو صاحب المطبعة التى كانت تطبع فيها المنشورات المتناقضة . وبذلت جهود فى جمع الأصوات ولم شمل الأنصار ونشرت العائلة وأقاربها وأصهارها وسكان المخابىء ورواد الحارات أشرعتها رفاز «الأخ » على المحامين والدكاتره والأعيان بفضل تلك الأداة المجهزة المعدة لمثل هذا اليوم الذى لم يخطر على بال أحد، وكان أهل البلد يستكثرون على الرجل

مطبعة أو يتصل بعمل فيه حروف الهجاء فما بالهم اليوم لو بعثوا ورأوه نائبهم وصوتهم ولسان حالهم الأحياء منهم والأموات والأحباب . لاشك أنهم يدهشون كما دهش أهل الكهف عندما طافوا بالبلد الذى غابوا عنه ثلثمائة سنة وازدادوا تسعاً .

ولكننى فرحت لهذا الانتخاب وصفقت له فرحى بحل مسألة حساب عويصة . فإن هذا النائب المحترم ، رأى أن العلم والخبرة والأدب والسياسة والخلق العالى والمال والمجد كلها لاتجدى إن لم تكن مصحوبة بخطة معلومة حيال الزعماء كالتزلف والتذلل وتقبيل العتبات . ثم رأى أن هذه الخلال الأخيرة وحدها كافية لنيل الرضى وإن فقد صاحبها الخلال الأولى بل ولو كان من أصحاب أضدادها كالجهل وعدم الخبرة والسفاهة وسوء السمعة وسوء الخلق والفقر والخمول . أدرك بعقله هذه الحقيقة وليست العبرة بالإدراك الصحيح وحده بل العبرة بالتطبيق والعمل على النجاح حسبما تواطأ عليه أهل البلد وأهل العصر وهذه هى العظمة الحقيقية ... فإنه لايعيش بمكة ولا بالمدينة ولا بالكوفة فى صدر الاسلام ولكنه يعيش فى مصر التى فقدت فيها القيم وانقلبت فيها الأوضاع فَلِمَ يضيّع عمره فى العلم والفضيلة وحسن السيرة والاستقامة وهذه لاتجلب على صاحبها إلا التعب والشقاء ؟! إن أقرب الطرق هو أسلم الطرق وأصدقها وأليقها واحقها بالاتباع وأدعاها الى الوصول . فسلكها وكان رشيداً موفقاً. وقد جلس وتربع وإن لم يسمع له صوت ولن يسمع ولكنه نائب بورسعيد المحترم وأنفها راغم .

وقد شمر أحد إخوته عن ساعد الجد وتبرع له بمبلغ اشترى به بعض أصوات لفئة متلكئة تنتهز دنو غروب الشمس وتتشدد فى الثمن . ثم شمر عن ساعد الجد بعد الفوز وتبرع بمائة جنيه للخيرات ونشرت صورته فى كبريات الصحف فرحا بانتخاب أخيه ومقدمة لما سوف تجنيه الأسرة من الفوائد المؤكدة .

وإنى أعد هذا الفوز فوزاً لعلى وحده لأنه هو الذى يضع الخطط ويرسم قواعد المعركة وفوز أخيه فوز له وفوز لجماعته ٠ وهو سوف يتكلم لا باسمه وحده بل باسم نائب بورسعيد ثم يجره فى الملمات ليحل العقد ويفض المشكلات ٠ وبارك الله فى من نفع وانتفع ٠

ولما جاء الطعن فى الانتخاب لم ينل أذناً صاغية ، لأن كثيراً من الأعضاء فى النواب والشيوخ كانت لهم سوابق مضى عليها ربع قرن واستردوا اعتبارهم وعفا الله عما مضى ، وإنى لا أرى المؤاخذة فى الكهولة على هفوات الشباب وهذه العيوب « إن سميت عيوباً » لم يخل منها بعض الوزراء فى أوروبا بل إن من الوزراء من يقترفون الجرائم فى مصر أثناء توليتهم ثم تسدل الستار وصدق من قال إن سيئات العظماء حسنات ورذائلهم فضائل ٠ وكان الله بالسر عليماً ٠

الشيخ على يوسف(*)

أرسل كاتب إلى جريدة البلاغ فى الشهر الماضى مقالا، يحتفل فيه بانقضاء ثمانية عشر عاما على وفاة المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ومؤسسه الذى توفى فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٣ ، وظهر أن الكاتب للمقال التذكارى كان عاملا فى مطبعة المؤيد، فكان من وفائه لرئيسه المتوفى أن صار أديبا أو شبه أديب .

وهذه صفة محمودة نذكرها لذلك العامل الوفى بالشكر، وعرفان الجميل، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وقد سرد الكاتب بإيجاز حياة المرحوم الشيخ على يوسف فى الشطر الذى لم يدركه، فروى كيف أنه هاجر من قريته بلصفورة فى أواخر حكم إسماعيل باشا وجاور بالأزهر الشريف، وتطلعت نفسه إلى المجد عن طريق الصحافة والطباعة والنشر. وكيف بدأ جريدة المؤيد مستعيناً بشريكه الشيخ ماضى. وصار المؤيد بعد بضع سنين أكبر جريدة فى العالم العربى. وصار مدرسة عليا للكتاب والقراء، وانتشر فى أنحاء الكرة الأرضية فكان مقروءا فى طنجة وفاس كما كان يتلى فى شنغهاى وهونولوولو وبطاوى والفيليبين وحيث وجد ناطق بالضاد، كان المؤيد من أدوات الحياة العقلية التى لا يستغنى عنها.

وقد دامت دولة المؤيد من ١٨٨٩ – ١٩١٣ وهى السنة التي مات فيها مؤسسه. نعم عاش المؤيد بعد ذلك أعواما معدودة تقلبت رياسته بين أيد كثيرة ، فكان المرحوم الدكتور سيد كامل رئيسه لحين من الزمن ثم الأستاذ حافظ عوض ثم المرحوم

(*) مقال نشر بجريدة البلاغ فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان « صورة من سجل المتعاصرين والأنداد ، الشيخ على يوسف نابغ يحقق خطة رسمها لحياته » .

أبو شادى بك ثم المرحوم الشيخ حامد إبراهيم، وهو أول من قال «بضرورة تقديم الفاتورة للانجليز بعد الحرب »، يقصد بذلك أن مصر سوف تتقاضى حريتها من الحلفاء ثمناً لصبرها وخنوعها طول مدة الحرب الكبرى.. ونظن أن مصباح المؤيد انطفأ على يدى هذا الشيخ وحصلت قضايا ومرافعات وحجوز وتنفيذات إلى أن اندثرت الجريدة تمام الاندثار. ولا يزال اسمها ومطبعتها موضوع نزاع ٠

كان الشيخ على يوسف قصير القامة أسمر اللون ، غريب التقاطيع ، لم نشهد إلى يومنا هذا من يشبهه من قريب أو من بعيد سوى ألفريد دى موسيه الشاعر الرومانتيك الفرنسى الشهير، فقد كان وجه الشيخ أشبه الوجوه به، فى غضون جبينه، وكبر أذنيه وتقوس أنفه مع ضيق قليل فى أسفل فتحتى الشم . وكان الجبين ضيقا ولكنه كالصفحة التى نفشت فيها سطور كثيرة بالخط الدقيق، أما العينان فكانتا كاللوزتين وكانتا بطيئتى الحركة لدى النظر أو الإغضاء، كما كان نطقه بطيئاً وصوته خافتاً تسمعه كأنه قادم من آخر قبو سحيق، صوت طويل أغن غريب، يلبس الألفاظ ثوباً من الهدوء والخفاء ٠

وكان نحيفا ضئيل البدن، هادئا فى كل شىء حتى تظن جهازه العصبى يسير مقيداً بحكم الإرادة والعقل. فكنت تراه وتجالسه وتسمع له، ويبتسم لك، وأنت تعتقد أن أعظم همه أن يخفى عواطفه بكل الوسائل التى وهبه الله، فلا يبدو على وجهه سرور ولا فرح ولا غيظ ولاخوف ولا أمل ولا يأس، ولاحزن ولا ارتباك. فى حين أن كل هذه العواطف المتضاربة وتلك الإنفعالات المختلفة تختلج فى نفسه، وتفعل بها ماتفعله بسائر النفوس البشرية. ولكن هذا الرجل لا يبدو على وجهه (وهو مرآة النفس) شىء منها . فكأنك منه حيال تمثال فنى دقيق صينى الصنع من «التيراكوتا» الحمراء الغامقة. تحاول أحياناً أن تستنطقه، لتعرف ما بداخله، ويدركك الغيظ أحياناً فتريد تحطيم التمثال لأنه لا يبوح لك بسره، ثم تقف باهتاً حيال اندفاع نفسك وحيال غرابة

التمثال وعميق صمته. وإنى واثق بأن هذا الإحساس قد مر بنفوس كثيرين ممن عاشروا الأستاذ المرحوم وحاولوا الوقوف على كنه نفسه .

ولكن الذى كان يجالس الرجل ويحنق لحاله، كان لا يتمالك نفسه من فرط الإعجاب به. فهاك رجلا مصرياً يعيش فى وادى النيل، ولا تراه يتكلم بغزارة ولا يحرك يديه ويشير ببنانه ويصخب أحياناً ، ويغضب إذا ما استغضب ، ويعبس ساعة ويبسم أخرى كيفية أهل وطنه . فكان الشيخ على يوسف مع جميع الناس يكاد يبقى على وتيرة واحدة ولكن الرجل الذى أوتى ذرة من علم النفس ، لم تكن تخفى عليه حقيقته ، فإن وراء هذه السحنة الساكنه ، وفى تجويف تلك الجمجمة الصغيرة أفكاراً وآمالاً بعيدة الغور والمدى ، لايعلم سرها إلا الله وصاحبها الجالس أمامك وراء تلك المنضدة فى تلك الغرفة الصغيرة التى كانت على يمين الداخل الى دار المؤيد . فكان وجه الشيخ أول ماتلقاه إذا قصدت هذه الدار إلى أن شيدت العمارة الكبرى فاتخذ غرفة داخلية أفسح من الأولى وأرحب .

وعدا قدرة الغموض والإخفاء التى كانت تنجلى فى وجه الشيخ ونظرته وصوته وسكونه التام ، كان كذلك يشعر محدثه بقوة إرادة مدهشة هى التى تعمل فى هدوء كأنها آلة الديزل الموضوعة فى نفق تحت الأرض ، وتدور وتعمل وتحرك وهى مدفونة لايراها أحد .

أما ذكاء الرجل فكان لاشك فيه ، فقد كان بلا ريب شديد الفطنة الفطرية وقد ظهر هذا الذكاء الخارق فى قدرته على رسم خطة لنفسه، والعمل بعد ذلك على تنفيذها بكل الوسائل . فليس الذكاء مقصوراً على الإدراك أو سرعة الفهم أو حضور البديهة أو جلاء البصيرة ، فكل هذه المواهب ذكائية لا ريب ولكن ربما كان المظهر الأعظم للذكاء هو رسم خطة للحياة والدأب والسعى لتنفيذها ونيل مآرب صاحبها كاملة . وتزداد قيمة ذلك الذكاء فى نظرنا إذا علمنا أن الرجل كان تعليمه محدودا وأنه لم يكن

يعرف لغة أجنبية ولم يسبق له الاشتغال بالصحافة التى كانت عملا حديثا فى القطر المصرى ، وأنه وهو المتخرج من الأزهر بربع تعليم أو ثلث تعليم أمكنه أن يستعمل كل رأسماله العقلى فى صناعته بحيث صار كل من يراه يقنع بكفاءته وقدرته ونبوغه ٠ وقد تمكن مع كل هذه الموانع من الاختلاط بالعظماء والأمراء ومعاشرتهم ، فكان تقربه من رياض باشا الوزير الشهير فاتحة نجاحه ، ومازال يحوم حول الوزراء والحكام حتى جاء وقت فى سنة ١٩١٢ كانت له الكلمة العليا فى أعلى الجهات وكانت الوزارة لاتشكل إلا برأيه ، وقد روى لى أحد عشرائه أن المرة الوحيدة التى ظهرت عليه فيها علامات الغبطة كانت عندما عاد حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر إلى مكتبه فى دار المؤيد وقال لهذا العشير : « الآن فرغنا من تأليف الوزارة وكان حشمت باشا وكيل حزبنا من أعضائها » وهو يشير إلى حزب الإصلاح ، وفى ذلك اليوم كتب فى جريدته مايدل على أنه كانت له يد فى تأليف تلك الوزارة ، وربما كان اليوم الثانى لفرحه يوم زفافه الأخير ٠

لقد لبس الشيخ على يوسف لكل زمن لبوسه ، وأخذ حيال كل ذى سلطة الوسائل والحالات التى تؤدى لنجاح خطته على يديه بحكمة وحصافة ٠ ولم تكن المبادىء التى وضعها أرسطو أو أفلاطون فيما أطلقوا عليه كلمة « إثيكا » لتعوقه عن الوصول لغايته ٠ لم يكن مبدأه « الغاية تبرر الواسطة » تماما ، ولكن أعماله كانت تبدو للغريب عنه كأنها مستوحاة من تلك القاعدة الذهبية ٠ خصوصا اذا كان صاحب الشأن مقتنعاً بأن غايته شريفة لا تشوبها شائبة من غدر أو خيانة ٠ فبدأ الرجل شاعراً ، وله ديوان مطبوع على الحجر ، ومعظم قصائده مدح فى مناقب بعض العظماء، وأنت ترى أن الشبه بينه وبين ألفرد دى موسيه شاعر فرنسا الشهير لم يكن عبثاً ٠ فقد كان كلاهما شاعراً ؛ وقد اشتهر ألفرد دى موسيه فى زمنه بفرط عشقه لربات الجمال وتفانيه فى الحصول على رضائهن وكان له مع مدام جورج صاند

الكاتبة الأدبية حديث طويل لذيذ أليم وبسببها كتب « لياليه » و« اعتراف فتى العصر» وغيرها من آيات الإبداع وقد ختم الدهر لدى موسيه ختاماً حسنا فصار عضواً فى الاكاديمية . ومات فى العقد الخامس من عمره .

كان من تفوق المرحوم الشيخ على تفوقاً عقلياً أنه كان يجمع بين المجد العام والمجد الخاص ، فقد أراد أن يكون صاحب أكبر جريدة عربية فى العالم فكان ، ثم أراد أن يتقرب إلى الأمراء والوزرا فتقرب ونال الحظوة لديهم ، وأراد أن يكون ذا شأن فى الأستانة ، لأن «المودة » فى ذلك الزمن كانت تقتضى أن يقبل الرجل فى المابين وأن يكون مسموع الكلمة عند أبى الهدى وتحسين أفندى وعزت العابد باشا ، وأن يساعده الحظ فيلج ذلك الباب المهيب الرائع الذى وراءه ستار عظيم يحجب عرش الخليفة عن أعين الناظرين ، فيتسلم بيد الشكر والثناء براءة الرتبة الثانية صنف أول، أو يكلرى بك أو الرتبة القلمية بيوغلى ، وأن يتشرّف بتقبيل يد الباش أغا الذى كان له الحول والطول ..

وهذا كان المثل الأعلى فى مصر عند فريق كبير من المشتغلين بالأمور العامة والأعيان ، فيقال سافر فلان إلى الأستانة لتقديم فروض العبودية إلى المتبوع الأعظم ، فى ركاب التابع المعظم وهكذا ، وكان هذا يوصف بأنه اشتغال بالسياسة العليا ، لأن كعبة المصريين كانت موزعة فى ذلك العهد ، ولم تكن إبرة البوصلة قد استقرت فى اتجاه معين .

وقد نال المرحوم الشيخ على يوسف كل هذه النعم ، حتى تطلعت نفسه فى العقد الرابع الى مصاهرة بيت من أشرف البيوت ، فكان له ذلك بعد جهاد وكفاح و«دوشن» عظيم ، شغل الأفكار حتى عدت مسألة زواجه ، مسألة سياسية .. ولكن الشيخ رحمه الله نال فى النهاية كل ماكان يتمناه شخصياً ، وورث المرحوم صهره السيد عبد الخالق السادات فى السجادة الوفائية ، بعد أن وفاه حقه من الرثاء الذى يستحقه فى

جريدة المؤيد . وقد شهد المعاصرون بأعينهم الشيخ علياً جالساً فى « قاعة الكنية » ، وهى التى يجلس فيها السادة الوفائية فى حال تشبه الأخذ والجذب ، والاتصال بعالم أعلى ثم يهبون الألقاب لزائريهم ودراويشهم والمتبركين بهم ، فأبو المكارم وأبو المحامد وأبو الخير وأبو الفضل وأبو الوفاء وأبو العز وأبو المجد . كل هذه كنيات يمنحها شيخ السجادة الوفائية فى إحدى ليالى شهر رمضان المعظم ، ومن غريب أمرها أن الشخص الذى يمنح إحدى هذه الكنى ، إذا عاد بعد بضع سنين وطلب التكنى من جديد ، فإن شيخ السادات الوفائية يمنحه الكنية نفسها بغير تبديل ولا تغيير ، وهذا يعد كرامة عظيمة لآل هذا البيت .

وقد قيل فى ذلك الحين ، إن الأمير الذى منح الشيخ على وظيفة السجادة قال له « كنت من زمن طويل أيها السيد أترقب اليوم الذى أقلدك فيه شرف هذه السجادة ، والآن قد جاء اليوم الذى تحققت فيه أمنيتى فأنا أهنئك بها وأحمد الله على ذلك » ، وروى لنا هذه العبارة بنصها أحد الذين سمعوها بأذنهم ، وكان وصول الشيخ على إلى مكانة السادة الوفائية بمثابة التقديس عند الكرادلة ، أو منح لقب اللوردية والكونتية عند الإنجليز والفرنسيين ، ولم يكن وراء هذا الشرف فى مصر شرف يتطلع اليه المرحوم ليناله .

وكذلك كان عضواً فى الجمعية العمومية ، ولو اتجهت إرادته نحو مشيخة الأزهر أو الوزارة لنالها بكل سهولة ، ولكنه كان يعتقد بحق أن مركزه فى جريدته أعظم وأثبت من أى مركز آخر .

كانت جريدة المؤيد وطنية فى بداية أمرها ، ولكنها سلكت طرقاً مختلفة ، لا تبعاً لارادة صاحبها المحضة ، بل تبعاً لارادة المقام السامى الذى كانت تخدمه ، وكانت مصالح ذلك المقام فى مواطن كثيرة تتناقض مع الخطة التى سلكها المؤيد عند ظهوره ولبضع سنين بعد ذلك . فإذا كان ذلك المقام قد رأى فى وقت من الأوقات مجاملة لندن

أو غضّ النظر عن أمر من الأمور ، أو التصرف فى إحدى المسائل على طريقة معينة ، فلم يكن الشيخ على رحمه الله يملك مخالفته أو عصيانه . وقد يصيغ المسألة بصيغته وقد يتمحل الأعذار وقد يتقلب بين مواطن الذكاء والسياسة ، ليتخذ الحيلة البالغة التى تجمع بين ناحيتى النظر المختلفتين .

ولكنه كان فى نهاية الأمر يخضع للأمر لأن مصدر هذا الأمر هو مصدر الوحى الذى كان يتلقاه وعلى نوره يعيش وبفضله يحيى حياته العامة ، وفى الحق أن تلك «الجهة العليا» لم تتخل عنه قط فى وقت من الأوقات ، حتى فى أحرج المواقف وهو موقف قضية الزوجية ، فقد كانت سنة ١٩٠٣ أو ١٩٠٤ أسود عام رآه الشيخ على يوسف إذ تألبت عليه جميع العناصر ، وحشد الأعادى جنودهم وأخذوا أسلحتهم ليقضوا عليه بلا رحمة ولا شفقة ، فصمد الرجل لهم وثبت ثبات الأطواد وواجه العاصفة مواجهة البارجة القوية للأمواج والأنواء ، ونشر فى جريدته نفسها حكم عدم الكفاءة وأسبابه وإن هذا لعمرك أمر غريب لايقدر عليه إلا من كان عنده ذكاء الشيخ على وبعد نظره فى العواقب وقوة إرادته ومعرفته لحقيقة الرأى العام فى مصر كما هو. وكان من جوامع كلمه ، ان المصريين قصار الذاكرة ، ولكنه على العكس منهم كان طويل الذاكرة قويّها ، فلم ينس لأحد مكرمة ولا إساءة وكان مثله فى الصبر على الضيم كأهل الشرق الأقصى يصبرون طويلا ، ولكنهم فى النهاية يبطشون . كان المرحوم يبطش عند سنوح الفرصة . ويبرر بطشه بفكرة الثأر عند العرب .

ومن الحوادث التى تجلت فيها تلك الموهبة حادثة استقالة الشيخ محمد عبده . فقد كان وقر فى نفس المرحوم الشيخ على يوسف أن الشيخ محمد عبده يكيد له وينتقم منه ، لأن المؤيد ينتمى الى الجهة التى كانت تضطهد الشيخ محمد عبده وتقصيه وتوّد له الأذى ، وكان الشيخ أحمد أبو خطوة رحمه الله هو القاضى الذى حكم فى قضية الزوجية حكماً نهائياً ، ولم يعرف رحمه الله كيف يدارى الأمور والناس ، فأسرع بعد

صدور الحكم بيوم أو يومين إلى رأس البر ونزل ضيفاً على الشيخ محمد عبده فى ذهبية كانت راسية على ضفة النيل ، فأدرك الناس من هذه الحركة ومن تعليق المؤيد عليها أن الشيخ محمد عبده هو موحى هذا الحكم أو كانت له مشاركة فيه على الأقل ، وفى الحق كان هذا الأمر مستحيلا بالنظر لذمة كل من الرجلين محمد عبده وأبى خطوة فلم يكونا ممن يتلاعب بالقضاء أو يحكم بعلمه ، أو يجعل الضغن الشخصى سبباً لحكم شرعى فى مسألة حيوية ، وربما صادف الحكم هوى فى نفس المرحوم الإمام بعد صدوره وهذا أمر لا يلام عليه ٠ ولا يمكن الغضب لأجله لأن الحكم صادف هوى فى نفوس كثيرين من المصريين وقد يكونون مخطئين كما قد يكونون مصيبين ، وقد تعادى المرحوم الشيخ على مع بعض العظماء بسبب هذه الدعوى ومنهم المرحوم مصطفى كامل باشا والمرحوم محمد المويلحى الذى أنشأ مقطوعات شعرية بعنوان « عام الكفء» وهكذا ٠ ولكن أعظم من عاداهم الشيخ على كان المرحوم الشيخ محمد عبده٠ وكانت فى مصر إذ ذاك حركة كبرى لإصلاح الأزهر وعلى رأسها الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان ٠ وشيخ الأزهر فى تلك الأيام المرحوم الشيخ على الببلاوى وقد قالوا إن صلاحه أكثر من علمه وتقواه أكبر من توفيقه فى إدارة الأزهر ، واتهموه أيضاً بممالأته للشيخ عبده والشيخ سلمان وموافقته لهما فى السير بالأزهر فى خطة الإصلاح المرجوّ ٠

وعندما استحكمت حلقات الخلاف بين الإمام وبين سمو الخديو عباس حلمى الثانى ، فكر الشيخ على فى طريقة تبلغ الأمير أمنيته وهى إقصاء المفتى عن الأزهر ، وعن منصب الإفتاء(*) فأسفر تفكيره وتفكير المرحوم السيد توفيق البكرى عن إقامة

(*) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقال لطفى جمعه الذى نشر فى ١٩٣٧/١٢/٢٥ بالعدد ٨٠ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان « بين المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والشيخ على يوسف » ٠

حفلة فى قصر عابدين يسمع فيها المفتى بأذنيه عبارة البغض الذى يكنه أمير البلاد فى نفسه وقد نفذوا هذه الخطة المدبرة بحذافيرها على الوجه الآتى :

تحدد يوم ١٧ محرم سنة ١٣٢٣ للاحتفال باستقبال فضيلة الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الجامع الأزهر الجديد رسمياً فى سراى عابدين وإلباسه بين يدى الجناب العالى الخديو الخلعة السنية التى من عادة سموه خلعها على كل من يتولىّ منصب المشيخة الجليل وكانت حفلة عظيمة ، فلما جاءت الساعة العاشرة صباحاً توافد على السراى حضرات العلماء الأعلام وكلهم من أصحاب كساوى التشريفة يتقدمهم قاضى مصر والشيخ حسونه النواوى ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد عبده والسيد السادات والسيد البكرى نقيب الأشراف وجلس القاضى على يمينه ، وشيخ الأزهر الجديد على يساره والمفتى أمامه كالعادة ، ثم جىء بالقهوة فشربوها ثم ألقى الخديوى النطق الآتى مخاطباً الجمع بما مغزاه :

« إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر علوم الدين الحنيف فى مصر وجميع الأقطار الاسلامية ، فيأتيه المسلمون من كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ولينفعوا قومهم ويرشدوهم للدين الصحيح حتى اذا رجعوا اليهم أفادوهم ، وكنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ، ولكن من الأسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب « كذا » بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ويكثرون لذلك من أسباب القلاقل[1] .

وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شىء . لقد قبلت استقالة

(١) هذه هى الفاظ الخديوى بنصها .

السيد علي البيلاوى الشيخ السابق ، وقد جريت منذ ١٢ سنة على هذه القاعدة ، وهى أن أقبل استقالة كل من يستقيلنى من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلنى من وظيفته سواه « ونظر الى جهة المفتى » فأنا مستعد أن أقبل منه الاستقالة جرياً على العادة التى اتبعتها فى ذلك ٠٠ ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال أو بواسطة الجرائد والأخذ والرد فيها ، فليكن بعيداً عن الأزهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء « يرمى الى صاحب مجلة اسلامية شهيرة ينتمى الى القطر السورى الشقيق[1] » ٠ فأولى له أن يرجع الى بلده ، ويبث فيها مايريد من الأقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الأزهر والأزهريين » انتهت خطبة الخديو ٠

وانفض المجلس وكان لهذه الخطبة أثر سيء فى الأوساط العلمية والعقلية ، وأخذها المؤيد بنصها وعلق عليها مديره الشيخ على يوسف الذي كان محور هذه الحركة فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٥ بمقال طويل جاء فيه أن هذه الخطبة السنية « كذا » قد تضمنت معانى جمة ومرامى كبيرة وانتقاداً شديداً ، وتعريضاً طويلا عريضاً وحكماً على بعض الأشخاص والأعمال تطأطيء له الهامات !! وقد كتب بعض الصحف يقول إن الجناب العالى لم يقصد بقوله « ومن يستقيلنى من وظيفته سواه - أى سوى البيلاوى - فأنا مستعد أن أقبل منه جرياً على العادة التى اتبعتها » - سوى دعوة فضيلة مفتى الديار المصرية الى الاستقالة ، واتفق أن فضيلته كان قد رفع استقالته من عضوية مجلس إدارة الأزهر الشريف قبل الظهر بساعتين من الزمان « الحفلة عقدت الساعة ١٠ صباحا » وفضيلة الشيخ عبد الكريم سلمان الذى كان على منهج

---

(١) هو الشيخ محمد رشيد رضا صاحب « المنار » ٠

فضيلة المفتى فى إدارة الأزهر قد استقال أيضاً من عضوية مجلس الادارة ، وحصلت فتنة كبيرة » انتهى تعليق المؤيد .

وانسحب الأستاذ المصلح لأنه فكر فى الإصلاح ، وخطب ولى الأمر ماخطب به لأن أهل الشر أوقعوا بينهما وسعوا بالفتنة .. وخرج المصلح الكبير من القصر محموماً ومحمولاً فرقد فى بيته فى ضاحية عين شمس وما لبث أن هاجمه المرض الخطير الذى قضى عليه فى يوم الأربعاء ١٢ يوليو سنة ١٩٠٥ ، وحينئذ انبرى الصحفى الأزهرى الذى كان محور هذه الحركة من أولها لتحبيذ خطة الخديو ونقد الذين اعتبرهم خصومه أمثال من ذكرنا والسيد رشيد رضا صاحب المنار لأنه كان تلميذ الإمام ومريده ولسان حاله فى مجلته فكان سبباً فى معظم ما أصابهما من البلاء. وجرد يراعته التى كانت تنفث ماتنفث من الغيظ طوال مدة مرض الإمام ورقاده فى رمل الأسكندرية الى أن مات رحمه الله فكتب هذه الجملة العجيبة فى جريدته قال :

« قضى الله أن يفدح الحادث وينزل الكارث وتقع المصيبة العظمى والفاجعة الكبرى ، المؤلمة للنفوس المبكية للعيون المقرحة للأكباد والجفون بعد ماخانت الراقى رقيته والحكيم حكمته ! قضى المفتى صاحب الأيادى البيضاء على الكثيرين ، والفوائد الجلى على المسلمين ، فكم دافع عن الدين « فى مسألة هانوتو وأضرابها » بمالم تستطع الجماعة الكثيرة من العلماء ، وكم سعى لفائدة الفقراء بما لم يأته الجمع من الأغنياء ، وكم كانت له من أمان يضرب بخطواتها فى الآفاق ، غير خاش من إخفاق، كان عظيم الهمة كبير النفس يحاول أن يغالب الدهر إن عارضه ، ويستهين بكل صعب اعترضه ومما يؤثر عنه فى مثل هذا قوله « إننى لا أخشى سوى الموت لأنه يقطع علىّ خط السير » .

وقد قيل فى ذلك الوقت « أمن الصحفيين من يقتل القتيل ثم يسير فى جنازته . فأى أمل للشرق فى الإصلاح » ولكن فى هذا القول بعض المبالغة لأن الذين قالوة

اشتهروا بمخاصمة المرحوم الشيخ على يوسف رحمهم الله جميعا .

هذه صورة من الحياة العامة فى مستهل القرن العشرين تدل على كثير من تاريخنا وأخلاق رجالنا .

لم أكتب فى جريدة المؤيد إلا مرة أو مرتين(*) فى تعزية الشيخ طنطاوى جوهرى لأنه كان أول من فكر فى محاربة عادات المآتم عند وفاة زوجته ثم فى الرد على رجل اسمه يوسف المويلحى فى مسألة وطنية خاصة بمؤتمر جنيف ولكنى عرفت المرحوم الشيخ على معرفة جيدة ووثيقة على مدى عشر سنوات على الأقل .

وكان المرحوم محمد مسعود صديقى وكنت من المعجبين بمقالاته وتقويمه وتقويم المؤيد الذى أنشأه فى ظل الجريدة الشهيرة وكان من محرريه المرحوم سيد بك كامل عم الدكتور محمود عزمى بك وجميل المدور نجل صاحب كتاب حضارة الاسلام فى دار السلام وسليم سركيس صاحب المجلة المعروفة باسمه والسيد عبد الحميد الزهراوى وكان يوقع مقالاته بحرف (ز) وكان منشئاً فحلا ومفكراً إسلاميا عميق التفكير ورجلا شريف المقاصد مخلص القلب وأخيراً محمد كرد على وزير المعارف بسوريا سابقا والشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع اللغوى أو العلمى العربى بدمشق .

وكانت تربطنى بهم جميعا أواصر الصداقة والمحبة فعرفت الشيخ عن هذه السبيل .

كان المرحوم الشيخ على يوسف رجلا قصير القامة غير بادن أسمر اللون تقاطيع وجهه جميلة مجتمعة أعم الجبين أسمر الشعر ضيق العينين رومانى الأنف ضيق المنخرين صغير الأذنين دقيق الأنامل ناعم الاكف هادىء الصوت خافته شديد الأناة فى حركاته يغلب عليه الصمت والسكون ، وقد لايتكلم إلا مجيباً ولا يجيب

(*) ابتداء من هذه الجملة نثبت هنا الكلمة التى ألقاها لطفى جمعه فى احتفال نقابة الصحافيين بذكرى مرور ثلاثين عاماً على وفاة الشيخ على يوسف ونشرت بجريدة الدستور فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

إلا بعد تأمل طويل وتفرس فى وجه مخاطبه . وكان يبدو لكل من رآه كأنه يكتم أسراراً وآمالا غامضة ولايبوح بكل ما انطوى عليه صدره . وكان شديد الحذر يقظ الضمير شديد الظنون كثير الحسبان للأمور والأشياء صادق التقدير للواقعات والرجال يحسن معاملة أعوانه وموظفيه ويصنع الخير كلما استطاع اليه سبيلا ، وكان ملتحياً طول حياته معمّماً يتقن لبس الثياب القومية ويتفنّن فى لف العمامة وفى اختيار أزهى الألوان وأغلى الثياب وتمتاز جبّته بنفاسه صوفها وسعة أكمامها وقد اتخذ فى أواخر أيامه غلالة من الصوف للجبة على نسق علماء الأتراك وتقليداً لما كان عليه فضيلة المرحوم الشيخ محمد عبده وكان مظهر الشيخ يدعو الى المهابة والاحترام ، فإذا تكلم ازداد فى نظر محدثه تأملا وتفكيراً .

هذه صورة قريبة جداً من الحقيقة كما رأيتها فى أوائل هذا القرن ومايزال كثير من الأحياء يذكرونها . ولما بلغ سدانة الأشراف وحل محل مشايخ السادات رأيته جالساً مجلسهم فى بهو بيت السادات بدرب الجماميز وقد تحلى بثياب تاريخية وعمامة ضخمة وقبض على مسبحة ثمينة وأغمض عينيه ، وقد ضاع فى الغرفة بخور العود والندّ وبعض العطور المحترقة فى مباخر فضية ". فكان المريد يجلس بين يديه فيسأله الشيخ عن اسمه ثم يخلع عليه كنية كأبى الخير وأبى الفضل وقد لوحظ أنه لو سبق أن كنى شخصاً فيخلع عليه الكنية القديمة ولايخطىء .

والشيخ على يوسف مصرى صعيدى من قرية بلصفوره وقصد الى الأزهر الشريف لتلقى العلم ثم تحول الى الجامع الأحمدى وهناك اتصل بأسرة تيمور وكان المرحوم توفيق بك تيمور قاضياً بطنطا وعميد العائلة أثناء حياة المرحومة السيدة عائشة التيمورية فلازم الشيخ هذا البيت الكريم . وهناك تفتحت مواهبه الشعرية فقال كثيراً من الشعر وله ديوان مطبوع على الحجر ، ولذا ظل طوال حياته يكرم الشعراء ويقدر نظمهم وقد فتح صدر صحيفته لقصائدهم الرنانة .

ومعظم شعر الشيخ فى أول أمره فخر وآمال وطموح الى المعالى بعض الغزل وكان طموحه مظهر الأمل الغامض الذى لازمه طول حياته وهو رغبته فى مساواة أكبر الرجال وقد وافته الأقدار برغباته كلها ، ففى عالم الصحافة صار الصحفى الأول وصاحب أكبر جريدة عربية إسلامية قبل ظهور اللواء لصاحبه المرحوم مصطفى كامل باشا وصار من أكبر الأغنياء وشاد لأسرته قصراً فخماً فى حى المنيرة وبنى لصحيفته ومطبعتها عمارة كبيرة وكانت المنيرة وشارع محمد على أشهر الأحياء فى زمنه ، وجّهز قصره بأجمل الأثاث وأغناه وأغلاه وأفخمه ، وكان يقيم فيه الولائم لمدعويه وأصدقائه، وقد بلغت احياناً درجة الولائم التى نقرأ عنها فى كتاب الأغانى واتخذ من الخدم والحشم أندالا ووصيفات من كل جنس ولون ، وصار فى عالم السياسة لسان حال حاكم البلاد وعضواً فى الجمعية التشريعية ومنادياً بالدستور ومعضداً لمشروعات الدولة العثمانية سواء فى حروب البلقان وطرابلس الغرب أو فى الدعوة لإتمام سكة حديد الحجاز .

وفى النسب اتصل بالمصاهرة ببيت السادات وورث مجلس حميه وصهره المرحوم الشيخ عبد الخالق السادات وكان ذا شخصية تاريخيه مثيرة للعواطف .

وفى السياسة الخارجية سافر إلى الأستانة ومنح أرقى الألقاب القلمية التى تعدل الباشوية وهى التى نالها من قبل أحمد شوقى بك .

وسافر الى انجلترا وتعرف الى وزرائها وكبار زعمائها ، وفى الفن الصحفى كان لايحرم قراء جريدته من قلمه ولاسيما فى الأزمات السياسية وفى وصف الرجال أثناء رثائهم ، فكتب « قصر الدبارة بعد يوم الأربعاء » تناول فيه حادثة دنشواى بحرارة ونقد السياسة الداخلية ، فاجتمع الرأى على تقديم هدية شعبية اليه وهى دواة أقلام من الذهب لحسن ما أبلى فى تدبيج هذه المقالات .

وكانت له بطانة من خيرة رجال مصر ودهاتها أمثال المرحومين حشمت باشا ومحمد مسعود وحمادة بك وحافظ عوض بك والمويلحيين ، وكانت جريدته تقرأ فى الهند والصين والمغرب الأقصى وسورية وقد نشر نسخة فرنسوية لم تعمّر طويلا .

ومن أهم المقالات التى نشرت فى جريدته مقالات المرحوم الأستاذ المفتى فى الدفاع عن الاسلام فى حادثتين :

الأولى مقالة هانوتو عن قبر النبى عليه الصلاة والسلام .

والثانية الدفاع عن الإسلام وكونه أوسع صدراً للفلسفة بقلم الشيخ محمد عبده رداً على مقالات المرحوم فرح أنطون فى مجلة الجامعة .

وفى سنة ١٩٠٧ عقد تحت إشرافه مؤتمر إسلامى دعا اليه المرحوم السيد اسماعيل غصبار نسكى من زعماء مدينة بغجة سراى بجزيرة القريم وللمؤتمر أعمال مدونة ، وكان أول من نشر خلاصة للمؤيد فيها أشهر المقالات والبحوث الباقية ، ونشر للمرحوم السيد عبد المحسن الكاظمى الشاعر العراقى قصائد رنانة فلما قدم مصر أكرم وفادته وعرفه بالأدباء .

وكان أول عامل على تحسين أسلوب الكتابة العربية فى الصحافة المصرية وجعل من جريدته مدرسة لتقويم الأقلام ، ومن مشاهير من كتبوا فيها المرحوم عبد الحميد الزهراوى - محمد كرد على - شكيب أرسلان - إبراهيم الهلباوى « الى أى طريق نحن مسوقون » - الشيخ محمد عبده - محمد مسعود - مصطفى كامل « فى العهد الأول قبل نشر اللواء » .

وقد صارت المعركة بين هذين الصديقين الوطنيين بسبب مزاحمة خفية اتخذت شكلها الحاد فى قضية الزوجية سنة ١٩٠٣ ، وكان أهم أسبابها بجانب التطاحن على الحرفة ، الصلة بالأريكة الخديوية . وكان الشيخ على يرى أن من أبواب العظمة

والمجد الاتصال المباشر الدائم بالجناب العالى كما كانوا يسمون سمو الخديو ، وكان مصطفى كامل يرى المجد والعظمة فى التحدث باسم الشعب والمطالبة بتحقيق آمال الشعب وكانت ثقافة الرجلين مختلفة ، وكان الشيخ على يكتب المقال الشديد وهو يذكر الصداقة القديمة .

فلما انتقل مصطفى إلى رحمة الله سنة ١٩٠٨ أظهر الشيخ على من النبل والوفاء والاخلاص والمحبة للفقيد الراحل ماذهب بأحقاد الخصوم الذين أبغضوا الشيخ على بسبب حملته على صاحب اللواء ، فاستمر على الكتابة فى رثائه أربعين يوماً .

ولأجل أن نعرف مكانة الشيخ على فى نظر مصطفى كامل نقول إن صورته بجانب صورة مصطفى واضحة فى الصورة الزيتية التاريخية التى قدمها مصطفى كامل للبرلمان الفرنسى وفيها مصر تتضرع وتطلب المعونة وقد حمل علمها كل من مصطفى وعلى يوسف .

ولم يعلم عن الشيخ على من سوء فى مسلكه أو التقليل من كرامته ولم يتدنَّ قط إلى طريق معوج لجلب المال وإن يكن تحمل الشدائد فى كثير من أطوار حياته وعند اشتداد المرض عليه .

ربح قضية رفعها على وزارة الأوقاف وتقاضى مبلغاً كبيراً صرفه على الأستشفاء فى أوروبا وقد قابلته سنة ١٩١٣ فى محطة جنيف وكان ضعيفاً ومريضا بالقلب . وقد شاهدت له حادثاً عجيباً فى جنيف وهو تكليف خاطره وأسرته فى زيارة أسرة الأستاذ على الغاياتى وأسرته فى الدور السابع بإحدى العمارات . مع مرضه بالقلب . وغرابة هذا الأمر ليس فى أنه تكلف وخاطر بحياته بل لأنه قام بهذا العمل ليمحو هفوة بسيطة وقعت منه منذ ثلاث سنوات أو سنتين .

وكلنا نذكر ديوان وطنيتى الذى وضعه الغاياتى فى سنة ١٩١٠ وضمنه قصائد وطنية شديدة على الطريقة القديمة كالاشادة ببعض الحوادث التى يؤسف لها وهجاء بعض الزعماء من رجال الحكومات السابقة ..... إلخ ، وقد كتب له مقدمة كل من المرحومين فريد بك والشيخ جاويش ، والكتاب كله يقع تحت طائلة العقاب ولكن الغاياتى بسلامة نية وتهاون تام فى مصلحته ومصلحة زعيميه لأنه كان من كتاب الحزب الوطنى، طبع الكتاب ونشره وحمل النسخة الأولى « حامية من الفرن » إلى مكتب الشيخ على بدار المؤيد . فتقبله منه تقبلا حسناً وأكرم وفادته وودعه الى الباب كل هذا حسن .

ولكن لم يكد على الغاياتى يدير كتفيه حتى شرع الشيخ المرحوم فى تصفح الكتاب فرأى ماهاله وزعزعه فى مقعده وأطار لبه فتناول قلمه وكان مغموساً فى محبرة من النار ونقد الكتاب نقداً شديداً ونقل بعض قصائده ولفت نظر الحكومة والعدل والنائب العام .

ومن هنا بدأت القضية فصودر الكتاب وبحثت الشرطة السرية عن الغاياتى وكان الشيخ قد بدل ثيابه ولبس ثياب الطلاب الترك ووضع على عينيه نظارة سوداء واتخذ مظلة « شمسية » وسافر الى الإسكندرية وركب باخرة مبحرة الى دار السعادة «اصطمبول» . وهناك تلقاه رجال الحزب الوطنى بالترحيب والمعونة فلم تطب له الإقامة طويلا فشد رحاله الى جنيف حيث استقر وارتزق ونجح وأسس عائلة كريمة . فلما علم الشيخ على بحاله وشعر أنه كان السبب فى تشتيت شمله عن وطنه عمد الى زيارته والتخفيف عنه وكسب رضاه ونيل عفوه وصفحه مع أنه قام بواجب عام فى نقد الكتاب الذى أصبح الآن مباحاً منشوراً ويباع ببضعة قروش . وكان هذا قبل موت الشيخ على ببضعة شهور .

لم تقم الأمة المصرية بواجبها نحو الشيخ على فى أثناء مرضه ولا عند وفاته ٠ وقد بخل أصدقاؤه وأعوانه واستقلَّ أهم محررى صحيفته بجريدة المنبر وانفض من حوله طلاب الحاجات والذين كانوا يرجون رفده ومعونته ظنا منهم أن الخديوى غض عنه الطرف وأنه لامجال للتوفيق بين السلطات الثلاث « الخديوى والحكومة والاحتلال » لوجود اللورد كتشنر فى مركز الوكالة البريطانية ، ولم يعد فى مجلسه باشاوات ولا أعيان ولا أعضاء مجالس تشريعية وتهافت أصحاب الحقوق كعادتهم فى الأزمات ، ولم يكن الشيخ يستحق إلا التكريم والاعتزاز فطالما استعمل قلمه وبلاغته فى الذود عن حقوق البلاد ورفع عقيرته في الجمعية التشريعية بطلب الدستور للبلاد وأسس حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية قبل أن يؤسس حزب الأمة والحزب الوطنى ٠

غير أن الحزب الوطنى كان موجوداً بالفعل برئيسه وأعضائه وصحفه ولاينقصه إلا الإعلان الرسمى بتأليفه وفى غداة تأليف حزب الإصلاح اليوسفى عين أحمد حشمت باشا أحد وكيليه ناظرا للمعارف فكان فاتحة خير لأمثال الباشا فالتفوا حول الحزب التفافا أفلاطونياً ريثما يغمزون شيص الوظيفة ٠ ومن حسنات تعيين حشمت باشا أنه تفقد صديقه القديم المرحوم حافظ إبراهيم فقلده منصباً فى دار الكتب الخديوية ، فأنعم عليه الخديوى برتبة وأقام له المرحوم أحمد شوقى بك حفلة تكريم فى يونيو سنة ١٩١٢ بفندق كونتننتال خطب فيها مشاهير الخطباء وأنشد فيها معظم الشعراء قصائدهم الطنانة ٠ وبعض الخير خير من لاشىء ٠

كان للمرحوم الشيخ على يوسف ثلاث مسائل قضائية مهمة خدمه فيها الحظ ، الأولى شرعية والثانية سياسية والثالثة مدنية ، وقد تركت كل منها أثراً فى البيئة الوطنية ، الأولى قضية الزوجية الشهيرة وتاريخها سنة ١٩٠٤ وورد فيها ذكر أشخاص الشيخ محمد عبده ثم الشيخ أبو خطوة ثم المرحومان السيد توفيق البكرى والسيد عبد الخالق السادات والسيدة المصونة كريمته كانوا كالكواكب السيارة

وحولها نجوم صغيرة كالمرحوم الشيخ عثمان الفندى المحامى الشرعى الذى ترافع عن الشيخ على وكان محامياً بسيطا فاشتهر وأثرى ولعلها كانت أكبر قضاياه فى حياته وسبب علاقته بالشيخ أنه من بلده وكان صاحب المؤيد يثق به ثقة شديدة .

وقد عرفت هؤلاء الأشخاص جميعا وعاصرت القضية وقرأت وسمعت كل تفصيلاتها وعلى حداثة سنى شغفت بقراءة كل ماكتب عنها ، وكان الشيخ على أول من نشر الحكم فى جريدته يوم صدوره بغير تعليق غير احترامه ليتقى شماتة خصومه الذين يبادرون إلى نشره .

ولا نطيل فى ذكر القضية إلا من ناحية أنها من نوع Romantique قربت إلى أذهاننا أفكار القرون الوسطى وحرمان رجل عصامى كبير المقام والعقل من الاتصال بطريق المصاهرة بأسرة دينية شريفة وهو فى ميدان الحياة لايقل عنها شرفاً ، فهذا نزاع بين الطبقات انحاز فيه القضاء إلى جانب الأروستقراطية ولكن العبرة بتنفيذ الأحكام لابصدورها .

وقد حل الشيخ بعد بضع سنين محل الذى كان يقاومه ويكافحه وجرت الدعوى وراءها حادثين مهمين :

الأول - المقاطعة بين صاحب اللواء وخديوى مصر بخطاب مشهور .

والثانى - زوال الموانع القومية بين الطبقات على الرغم من الحكم وحوادث صغيرة أخرى كاشتداد الخصومة بين مصطفى كامل وعلى يوسف ، وانشغال الشعراء والأدباء فنظم حافظ إبراهيم قصيدته التى مطلعها :

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب . وتلاه عام الكفء وعام الكف .... إلخ .

والقضية الثانية قضية تلغرافات السودان وملخصها أن عاملا بالتلغراف كانت تربطه بالشيخ صداقة وثيقة اسمه توفيق افندى ساعد الشيخ على نشر تلغرافات

خاصة واردة باسم الحكومة .

وكان من أكبر مساعدى الشيخ المرحوم محمد فريد بك وهو رئيس نيابة الاستئناف فأدى ذلك الى استقالته واشتغاله بالمحاماة ولعل الشيخ حفظ هذا الجميل للمرحوم فريد بك طول حياته .

والقضية الثالثة - أدت الى صدور حكم مختلط شهير يعتبر الصحفى فناناً لا تاجراً ولذا لايجوز الحكم بإفلاسه ، فخدم هذا الحكم جميع أهل هذه الصناعة الشريفة.

وكان المرحوم الشيخ على محاطاً بالمحامين الأهليين والشرعيين يستفتيهم ويستشيرهم فى كل صغيرة وكبيرة وقد كلف المرحوم محمد مسعود وكان من أكثر الصحفيين اشتباكاً مع القضاء بحصر الأحكام النهائية المهمة ونشرها فى تقويم المؤيد .

وقضية أخرى كان المرحوم مجنياً عليه فيها من رجل مشهور بإقراض المال بالفوائد فأخذ منه الشيخ ٥٠٠ جنيه فى أحد شؤونه فاستكتبه سنداً . ثم طلب منه ضامناً مع أن الرجل كان ممن لايحتاجون الى ضامن لشهرته وغناه وعقاره المملوك فى المنيرة وشارع محمد على « دار المؤيد » فخجل وطلب إلى الدائن أن يعفيه ، فأطرق الدائن قليلا ثم قال له : والله فكرة ! خطرت ببالى الآن تمنع التعرض للغير وطلب الضمان وهى أن نحرر عليك سنداً آخر بمبلغ ٥٠٠ جنيه وهكذا سعادتك تضمن سعادتك. فحرر المرحوم سنداً وطالبه الدائن بالسندين معاً .

وكان الشيخ على أزهرياً متديناً متنوراً وقد طبع فى داره كتباً كثيرة منها «رسائل إخوان الصفا » وكان وطنياً ذا نخوة وهمة ، وكان حار العاطفة فى الصداقة ، مر العداوة جداً ، وكان واسع الحيلة صبوراً على الدهر وكان يعجب بأمثاله الذين لايتركون الأمور على غواربها وقد سمعته مرة يستشهد بشعر ثابت بن جابر :

إذا المرء لم يحتل وقد جدّ جــده
أضاع وقاســى أمــره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا
به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ماعاش حــوّل
إذا سدّ منه منخر جاش منخر

وكان أديباً كبيراً ويتذوق كل ماينقل عن اللغات الأجنبية ويوصى محرريه بنقل أهم المقالات والفصول السياسية والأدبية فى المجلات الأوربية الكبرى ، وكان من أوائل من عنوا بنشر القصص المترجمة عن الإنجليزية بقلم الأستاذ حافظ عوض بك وعن الفرنسية بقلم محمد مسعود كروايتى هى أو عائشة .

ولأجل التدليل على عظمة على يوسف نذكر موت جريدته بموته وقد اتخذت كل وسائل الإسعاف والمعونة لإنعاش الصحيفة فلم تفلح ولم تعش بعده فجىء لها بسيد كامل بك وبحافظ عوض بك وبالشيخ حامد إبراهيم فأسلمت الروح على يديه ، فدل ذلك على أن الصحافة تعيش فى مصر بأشخاص أصحابها وأقلامهم مالم يكن خلفاؤهم من الحزم والمكانة والغنى والاقتدار الفنى بحيث يعوضون السلف الصالح .

ولم يعقب الشيخ ولداً وقد رزق بصبى أسماه إبراهيم قضى نحبه فى حياة أبيه فرثاه بالحديث الشريف الذى فاه به النبى عليه الصلاة والسلام لدى وفاة وحيده من السيدة مارية المصرية .

فـرح أنطـون(*)

إننى أحـاول الكلام منذ برهة ولا أسـتطيع . ولا غـرابة اذا ارتج علىّ وتبلبل لسانى لدى هذا الموقف الرهيب . فإننى الآن فريسة لانفعالات نفسية لا أستطيع مقاومتها ولا أقدر أن أسبر غورها . فإن نفسى لم تكن تحدثنى فى أشد أوقاتها انقباضاً وألماً أننى سأقف هذا الموقف الأليم راثياً ومؤبناً هذا الأخ الصديق والرفيق القديم . إنكم الآن لاترون إلا جثة هامدة وجسداً بالياً ولكننى أنا أعرف قدر النفس العالية والقلب الكبير والعقل الراجح التى كان هذا الجسد الفانى وعاءً وغلافاً لها .

إننى لا أستطيع أن أتخيله ميتاً حتى حيال هذه الحقيقة الواقعة لأن حياته كانت فى فكرى قوية وخالدة ، بل إن هذا الفكر جاء لعقلى من اعتقاد راسخ وهو أن ذلك الراقد أمامكم من الموتى الذين لايموتون ولو ماتوا !! إنه يموت موت الجسد ولكنه يحيا حياة الروح والعقل . ولا أكون مبالغاً اذا قلت إن حياته الحقيقية قد تبتدىء بعد الموت .

يا أخى وعزيزى وصديقى فرح ! بأى لسان أرثيك ومن أية جهة أبدا الكلام فيك؟ أفى تاريخ حياتك وهو صحيفة ناصعة البياض كتبت فيها أسطراً لامعة بجد السنين وجهاد الليالى والأيام ؟ أم أتكلم فى خلقك وخلالك الطيبة وقلبك الكريم ؟ أم فى ثمرات فكرك التى غرست بذورها وتعهدتها فى زرعها ونشرتها مع الرياح ليستفيد منها الشرق والعالم العربى أجمع ؟.

(*) نثبت هنا خطبة لطفى جمعه التى ألقاها على ضريح فرح أنطون فى رثائه وتأبينه ونشرت بملحق مجلة السيدات والرجال فى يوليه سنة ١٩٢٢ تحت عنوان « كلمة الوداع الأخير دمعة على قبر » .

لقد عرفتك منذ عشرين عاماً وما أنسى لا أنس تلك الساعة الباقية فى ذمتى التى قضيتها فى محادثتك لأول مرة فى بيتك فى رمل الاسكندرية . لقد سافرت من القاهرة لأجل زيارتك ولم يكن لى فى الأسكندرية غرض آخر ، نعم إنها مسقط رأسى وبها أهلى وعشيرتى ولكننى قصدتك قبل أن أقصدهم وزرتك قبل أن أزورهم وفرحت بلقائك قبل أن أفرح بلقائهم وشعرت وأنا إذّ ذاك فى عنفوان الفتوة أنك أنت أقرب إلىّ منهم ، لأن العقل والقلب هما القوتان المحركتان فى العالم ، والعلاقة التى تربط الرجال بعقولهم وقلوبهم أقوى ألف مرة من علاقة الدم والقرابة . إن علاقة الدم والقرابة قد تأتى مصادفة وعرضاً ، ولكن علاقة الصداقة تكون دائماً مقصودة ومنوية تأتى دائماً بعد البحث والتنقيب فهى لاتنفصم عروتها ولا تؤثر فيها العوامل الخارجية ، إن علاقة القرابة والدم قد تصحبها أغراض ومطالب مادية وتقويها أسباب تحوم حول المنفعة ، ولكن علاقة العقل والقلب تكون دائماً خالية الغرض لاتشوبها غاية مادية ولا غرض نفعى ، من هذا النوع كانت صداقتنا ولأجل هذا السبب عاشت ودامت وأينعت وأزهرت وأثمرت . بل هى دائمة الآن ولاتنقطع . فإن صورتك وآثار عقلك وحكمة فكرك لن تبرح نفسى ماحييت ! .

لا أنسى ذلك اللقاء الأول إذ لقيتك فى بيتك الجميل الصغير على شاطىء البحر فى الابراهيمية وأنت فى وسط أوراقك وكتبك يبدو عليك النشاط المصحوب بالرزانة والسكون وهو صفة الرجال الذين يشعرون بقوتهم ويرون طريقهم فلا يبدّدون القوة ولا يضلون الطريق ، وكنت تعيش عيشة بيتية راضية مرضية محوطاً بوالدتك الجليلة الحزينة وأخواتك . فتحادثنا فى كل شىء وتبادلنا الأفكار فى العالم والنفس والوجود وواجب الوجود والعقل والعلم والوطن ، وتذكرنا عظماء الرجال وتكلمنا فى الشعر والأدب ثم افترقنا ولكن بعد أن أمضينا عقد صداقة ووفاء دائمين . وكنت إذ أراك وأحادثك للمرة الأولى كأننى عرفتك منذ أجيال لا عدد لها أو كأننا التقينا فى عالم

سابق لهذا العالم . قد يكون هذا الإحساس خيالياً أو خادعاً ولكنه على كل حال دليل قوى قاطع على ماشعرت به نحوك من شدة الحب والتفاهم ، ثم صافحتك وخرجت الى الطريق أتنسّم رائحة البحر والأشجار وأنظر فى وجوه الناس وأتمعن فى الأشياء بنظر وإحساس جديدين لأننى وجدت فيك ذلك الصديق الحبيب والرفيق العزيز الذى تدوم صداقته مادامت الحياة .

إننى الآن أستعرض تاريخ حياتك كما رويته لى أنت مراراً عديدة ، إذ قدمت الى هذه البلاد وأنت فى زهرة الشباب وجئت فى أواسط العقد الثالث من عمرك ولكنك جئت بكاهل مثقل بالهموم ، فقد فقدت أخاك الأصغر الذى كنت تنوى أن تركن اليه اذا اشتد عوده فخانتك الأقدار فيه كما خانتك بعد ذلك فى أمور كثيرة . قضى ذلك الأخ العزيز الصغير الذى لم تنسه طول حياتك والذى أهديت الى روحه أجل كتبك والذى كنت تقسم به القسم الأعلى إذا أقسمت يوماً فى شأن من الشؤون .

من أول يوم اشتغلت بالتحرير والتحبير والدرس والتأليف والتعريب والنشر فحررت جريدة صدى الأهرام فى الاسكندرية حتى كاد الصدى يتغلب على الصوت فى القاهرة فانتزعه منك من يملك الاثنين معاً . وكان ذلك لحسن حظ الأدب والعلم فى الشرق العربى ، فأنشأت مجلة الجامعة العثمانية وكنت تجعل من هذا العنوان برنامجاً عقلياً وسياسياً معاً . ولم تحد يوماً فى مجلتك عن تلك الخطة ، فقد كانت رغبتك متجهة نحو توثيق عرى الاتحاد بين جميع الشعوب التى تحكمها الدولة العثمانية وهذه فكرة عملت لها بقلمك وفكرك طول حياتك .

بدأت المجلة بمباحث أدبية وتاريخية ولكن لا كتلك المباحث التى تُملأ بها صفحات المجلات التجارية بل بمباحث جديدة طلية شيقة جعلت لك فى كل قارىء صديقاً . وفى صفحات تلك المجلة اكتشفتك لأول مرة وإننى أعلم بيقين أن كثيرين من أرباب المجلات العتيقة التى تثبت أقدامها فى الشرق العربى اهتزوا لمجلتك وحسبوا لها ألف حساب . وسمعت من رجل لايعرفك أن عدد النسخ الذى كان يرسل بالبريد

من مجلتك بعد السنة الأولى كان يعدل أو يربو على عدد النسخ التى تصدرها المجلات التى قضت عشرات السنين قبلك فى اكتساب ثقة الجمهور بالانتظام فى الظهور والكتابة فى الأمور التى ترضى العامة ٠

كنت بجانب تلك المجلة الجامعة العامرة تؤلف وتترجم وتنشر كتباً مفيدة لذيدة قائمة بذاتها وهى طريقة مبتكرة فى الشرق ونفعها عميم لايقدّر ، فنقلت الى قراء العربية كتب بول وفرجينى والكوخ الهندى وتاريخ الثورة الفرنسوية باسم نهضة الأسد ووثبة الأسد وفريسته ، وتقصد بالأسد الشعب الرابض الصابر المنتظر الذى إذا غضب نهض ووثب ثم افترس ، ثم بدأت للجامعة فترة ذهبية وعهداً جديداً سعيداً إذ أخذت تمهد الطريق للمباحث الفلسفية الجديدة والقديمة ، فنقلت أولا حياة المسيح وأعمال الرسل تأليف إرنست رينان لقراء العربية وأدخلت فى عقولهم مبادىء الإدراك الدينى المصحوب بالتسامح ٠ فأزعجت المتعصبين ولكنك لم تغضبهم٠ ثم تناولت بعض فلاسفة العرب فترجمت ابن رشد وشرحت مبادءه، وقد أثار بحثك سروراً وغضباً فى قلوب الكثيرين ولم يعرف قدرك من رجال هذا العصر « أوائل القرن العشرين فى مصر » إلا رجل فذ قوى العقل والفكر كريم القلب واسع الرأى متعمق فى العلم والدين بل يصح أن يسمى لوثير الاسلام أو رينان ذاك الزمان وهو المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ٠ فبدأ يناقشك ويجادلك فى رفق ولين واحترام ويكتب لك الكتب الخاصة معبراً فيها عن احترامك وإجلالك وإعزازك ، فكفاك يا أخى فخراً أنك عرفت القراء فى ذلك الوقت بابن رشد وفلسفة ابن رشد وآراء ابن رشد وأن الذى انبرى لمباحثتك ومناظرتك فى الأعراض لا فى الجواهر أكبر رجل معاصر فى الاسلام ٠ وكأنك أردت أن تنفخ فى بوق الاصلاح من جهتين ، فترجمت رينان ومؤلفاته وشأنه فى الإصلاح المسيحى شأنه، ثم ترجمت ابن رشد وقدره فى الحرية الفكرية الاسلامية قدره ٠

كانت مجلة الجامعة لاتصدر بانتظام • هذا حق لأنك أنت وحدك كنت تؤلف وتترجم وتباشر الطبع والنشر والتوزيع ، وهى أعمال تحتاج في غير بلاد الشرق الى جملة أيد متعددة متعاونة ، ولو قلنا اليوم لمدير إحدى المجلات الفرنسوية أو الألمانية «عليك أن تقوم بما كان يقوم به فرح أنطون منذ عشرين عاماً بمفرده » لحطم الأقلام ومزق الأوراق وسعى بطلب الرزق والمجد من سبيل آخر • ولكن الشرق الحزين ، الشرق الجاهل ، الشرق الذى يطلب كل شىء ولايبذل شيئاً يطلب الجمع بين المتناقضين ، والأعجب أن أهل الشرق يدهشون إذا ظهرت نتيجة التناقض ! كانت نتيجة التناقض فى حياتك الأولى أنك سئمت مصر والأدب وشددت وحالك الى اميركا فى طلب المثل الأعلى لا فى طلب الغنى والمال كما صنع غيرك ، وليتك فعلت أو على الأقل ليتك حاولت الجمع بين الاثنين كما يصنع كل حريص فى هذه الدنيا ، إنك لم تفعل لإنك كنت شديد الحرص على شىء آخر ، شديد الحرص على تلك النار المقدسة التى تشعل فى صدرك ، كنت شديد الغيرة عليها لعلمك بقيمتها ، وهى لعمرك التى أحرقتك بلهيبها وجذبتك فى نهاية الأمر اليها ، هى تلك النار التى يسميها البوذيون «نارفانا» وترجمتها أنت فى حديث لك بنار الفناء •

ولكنك لم تركب البحر ولم تعزم على الرحيل إلا بعد أن ألفت مالو تركه جملة رجال لخلد ذكرهم مدى الدهور ، ألفت تلك القصص الخالدة أورشليم الجديدة والوحش والعلم والمال ، ونقلت الى قراء العربية مبادىء فردريك نيتشه الفيلسوف الألمانى فنشرت اسمه فى سنة ١٩٠٤ ولم يكن أحد من أصحاب المجلات والجرائد قد ذكره قبلك فى سائر الأقطار العربية •

ركبت البحر ولايعلم أحد إلا أهلك وأقرب المقربين إليك فى أى ظروف محزنة ركبته كأن الأقدار تغالبك فى كل خطوة تخطوها ، ولكنك تغلبت وتقويت وتشجعت وأبحرت ، فقصدت فرنسا أولاً ، وإن طبيعتك يا أخى لاتخونك فأنت المهاجر فى سبيل

الأدب والفن والمثل الأعلى ، قصدت تواً مدينة شامبيرى حيث يوجد ذلك البيت الصغير Les charmettes الذى كان يسكنه جان جاك روسو وصديقته مدام دى وارنز . وهناك بعد أن أجلت بصرك فى غرفه واستعدت بفكرك ذكرى الفيلسوف الشقى الحظ الذى كان سعيداً بين جدرانه ، كتبت فى دفتر الزائرين فى ذلك السجل الذى يجمع أفكار القاصدين من عشاق روسو أو غواة الغرائب ، كتبت بقلمك كلمتين صغيرتين Un allant en Amérique ولا فائدة فى ترجمة هذه الجملة فإن قواميس العالم لاتؤدى معناها ، وقد اكتشفتها بنفسى بعد كتابتها بثلاث سنين إذ كنت أقلب صفحات هذا الكتاب الذى ترك فيه كل زائر جملة تدل على فكره ، ماكان أعظم سرورك ودهشك إذ أخبرتك بما قرأت حين التقينا فى باريس فى صيف سنة ١٩٠٩ وما كان أعظم حزنك إذ أخبرتنى منذ بضع سنين أن هذا البيت بما فيه قد التهمته النار واختفت باختفائه آثار جان جاك وزائريه .

لا أعرف الشىء الكثير عن إقامتك فى أمريكا لأن حياة الجدّ والعمل والجهاد المتواصل شغلتك عن الشرق وبنيه فلم تخاطبنى إلا مرة واحدة دعوتنى فيها الى ركوب كاهل المحيط لنعمل معاً فى حياة الفكر الشرقى . ولكن يداً غادرة خائنه عبثت بهذا الخطاب ومنعته عنى إذ كنت فى باريس ولايعوقنى عن الوصول اليك إلا عبر البحر . ولشدة ما كانت نفسى تحدثنى بالذهاب إليك قبل أن أقرأ هذا الكتاب ودون أن أعلم بوجوده وهذا دليل على مقدار تبادل شعورنا وعواطفنا .

التقينا فى باريس فى صيف ١٩٠٩ على حافة « كافيه دى لابيه » فى ظل الاوبرا فحييتنى بكلمات إنكليزية هى بلا ريب أظهر أثر لإقامتك فى أرض كولومبوس ، ثم تحادثنا فوجدتك لم تتغير ولم تتحول . ولم تؤثر فى نفسك السامية حياة المادة الجافة التى يعيشها الأمريكان فى بلادهم . وجدتك كما فارقتك تفضل حياة العقل والعلم على كل شىء وتبذل فى سبيلها كل شىء فذكرت كل فضلك فى أنك لم تقطع عنى المجلة

والجريدة يوماً واحداً وكان هذا أجمل عذر فى قطع حبل المراسلة .

فى أمريكا كتبت تلك المقالة الخالدة « فى ظل شلال نياجرا » وإننى أعتبرها من أقوى وأجل وأنفع ماكتب فى العالم بأية لغة من اللغات ٠ وأسف على أنها لم تنشر وتعم بين الناطقين باللغة العربية[١] .

فى أميركا سعيت لأبناء وطنك لتوجد لهم أباعد « مزارع » ومساكن خلوية ومزارع يعيشون من ثمارها فى أمريكا، ربحت صداقات قوية واكتسبت عداوات أيضاً ٠ وأى الناس بل أى المفكرين يا أخى لايصادق ويعادى فى هذه الحياة ، إن الصفات التى تفيدنا الأصدقاء والأحباب هى ذاتها التى تفيدنا الأعداء والمخاصمين ، وأى رجل فى الدنيا ليس له إلا أصدقاء ، إن البله والمعتوهين والحمقى هم الذين لهم أصدقاء فقط إذ ما الفائدة من معاداتهم بل لأى سبب يعاديهم الناس ؟ وكذلك المتهوسون هم الذين لهم أعداء فقط ٠ أما بقية الرجال الذين يفهمون الحياة ويعرفون أقدار أنفسهم ويحافظون على كرامتهم ويدافعون عن حقوقهم يوجدون حتماً لأنفسهم أصدقاء وأعداء معاً وكنت أنت من هؤلاء الرجال .

فى باريس كانت شقيقتك مريضة وراقدة فى مخالب الحمى وكانت قوتك مشتتة وأفكارك مبعثرة ، أثر أميركا فى كفك وطعم الشرق فى فمك والآمال مبهمة والأفق يكاد يكون مظلماً ٠ ولكن هذا كله لم يمنعك من قضاء ليالٍ بطولها تقرأ كتب الفلسفة حتى مطلع الفجر فقد ظهر إذ ذاك كتاب Ecco issmo آخر مؤلفات نيتشه فلم يغمض جفنك حتى انتهيت من قراءته ٠ وكم أخبرتنى أن والدتك الحزينة كانت تدخل عليك فى غرفة العمل فى الساعات الأولى من الفجر لتنهاك عن الاستمرار فى قتل نفسك بمواصلة

---

(١) نشرناها فى صدر العدد العاشر من السنة الثالثة « إدارة تحرير مجلة الرجال والسيدات » .

البحث والدرس ، ولكن هذا النصح لم يكن منتجاً فإنها إذ نهتك فسوف تخالف نهيها أياماً وليالى طوالاً حتى تقطع سياحة هذه الدنيا فى أقصر زمن !

فى باريس جمعتُ بينك وبين المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى فلما عدت الى مصر قمت بتحرير البلاغ المصرى أولاً لمؤسسه المرحوم الأستاذ إسماعيل بك شيمى • ثم انتقلت الى اللواء ثم الى مصر الفتاة • وفى كل جريدة من تلك الجرائد كنت تدافع عن الحق وعن الوطن أى عن مصر التى عددتها لنفسك ولأهلك وطناً ثانياً ، ولم يتحول مذهبك يوماً ولم يتغير رأيك ساعة ، كنت تكتب باعتقاد وإخلاص وتنصر الحق أنى كان • فانتصرت لنا ولمبادئنا الوطنية فى أحرج مواقفنا وانتصرت للعمال فى إضرابهم وانتصرت للشعب على السلطة وللحق على القوة وللمحكومين على الحاكم المستبد • فى الوقت الذى كان فيه كثيرون من النزلاء الشرقيين يستبيحون كل منكر ضد مصر والمصريين ، كنت أنت ونفراً قليلاً من الرجال المباركين تعرفون لمصر جميلها وتأخذون بيدها فى شدتها ، وهذا جميل نذكره لك ولا ننساه •

ثم تطور فكرك ورأيت أن التمثيل أعظم قوة لنشر المبادىء • وأنت تعلم أنه المرحلة الأخيرة فى حياة المؤلف ، فقصدت بابه وألفت فيه روايات كانت فاتحة الطريق لغيرها من نوعها مثل صلاح الدين ومملكة أورشليم ومصر الجديدة ونقلت الى العربية جملة صالحة من روايات الافرنج من قديم وحديث • فمن أوديب الملك حيث يتجلى جلال التراجيديا القديمة الى الساحرة حيث تظهر فضل العرب فى أسبانيا وظلم محكمة التفتيش ، ثم اتجه نظرك الى إدخال نوع جديد من التمثيل فاقتبست كرمن وكرمنينا وتاييس وروزينا وأدنا وغيرها • ورأيت بين يديك وأنت مشرف على الموت رواية مصرية جديدة اسمها « أبو الهول يتحرك » تعبر بها عن حركة مصر ونهضتها •

ولقد رحلت أيضاً فى سبيل الفن الجميل . فمنذ ثلاث سنين سافرت الى سوريا تصحبك فرقة تمثيلية وطفت المدن والعواصم ووجدت فى كل قرية بل فى كل بيت صديقاً لك عرفك عن طريق كتبك . ولما عدت أخبرتنى أنك زرت البيت الذى ولدت فيه وقلت : رأيت بعين الرجولة بيتاً صغيراً كنت أراه بعين الصبى كبيراً جداً . وكنت تتكلم بحزن كأنك تشعر أن هذه الزيارة كانت زيارة الوداع الأخير .

ولما عدت من سوريا شهدت الحركة الوطنية المصرية فبهرك جمالها وحركت نخوتك قوتها وجلالها وتمنيت لمصر كل شىء على يد رجالها العاملين . وإذ كانت الحركة فى عنفوانها قضت الظروف عليك بالارتحال من جديد ، فسافرت الى طرابلس الغرب وتونس فى سبيل الفن الجميل فتقدم إليك الأدباء والعلماء فى كل مكان وألحوا عليك بالبقاء بين ظهرانيهم وقالوا لك إن كل مكان يعّد لك وطناً ولست غريباً فى أى بلاد من بلاد العالم . ولكن مصر التى كنت تحبها ، مصر التى فيها أهلك وأحبابك ، مصر ذات السحر الذى يجذب النفوس والقلوب جذبتك اليها ، ولكن وآسفاه لتموت وتدفن فى ثراها .

قبل موتك بعام واحد تقريباً اشتركت فى العمل لأجل مصر وكتبت فى جريدة الأهالى ، وهى إذ ذاك لسان حال رجل مصر الوحيد فى هذا العصر ، مقالات جديرة بأن تكتب بماء الذهب ، وكنت تتواضع فتمهرها بإمضاء مستعار موفق « فران » من كل اسم من اسمك حرفان . ولكن هذا « الفران » كان يصنع خبزاً للعقول والنفوس فنعم الفران ونعم الخبز . وكم زرتك فى تلك الجريدة فوجدتك منكباً على مكتبك والعرق يتصبب من جبينك وصفرة المرض تعلو وجهك وآلام القلب تعاودك من لحظة لأخرى . ولكنك لاتبالى وتمر على تلك العلائم ، علائم الموت الداهم مرور البطل الشجاع الذ: لايجعل لنفسه شأناً فى سبيل مذهبه . وعندما كان كثيرون من أبناء مصر منصرفين عنها وبعضهم وآسفاه يعمل على أذاها كنت أنت أيها الغريب عنها بمولدك تدافع عنه

دفاعاً أشد من دفاع أبنائها ، عند ماكان الآخرون يلعبون بذهب المعز كنت أنت لاترهب سيفه ! فما أعظم هذا الفضل لك علينا وما أجمل هذه الذكرى .

والآن يا أخي أنت راقد هنا وقد خلا جسمك من نفسك ولكن العالم لم يخل ولن يخلو من روحك وآثارها المنتشرة فى جميع أرجائه !

لقد عشت عيشة الفيلسوف ومت موتة الفيلسوف . وهانحن فئة قليلة من الأقارب والأحباب حول قبرك لأنك لم تكن من هؤلاء الذين تتحرك فى ركاب نعشهم المركبات الضخمة والسيارات الفخمة ويسير فى جنازتهم ذوو النفاق والخديعة . ولكن هؤلاء سرعان ماينسى ذكرهم وتطوى سيرتهم . ولكنك وأمثالك لاتنسون ولايطوى سجلكم مادامت فى الدنيا جماعة تنطق بالعربية .

لقد قالوا لك فى الصلاة اذهب الى الجنة ونم فى أحضان السيد المسيح . وأنا أقول لك كلمتى أيضاً لأننى أقرب إليك وأحب وأعرف بقلبك من هؤلاء الذين قالوا ، أقول لك اذهب الى حيث ذهب قبلك أرسطو وأفلاطون وروسو ونيتشه ومحمد عبده ، اذهب الى المكان الذى يلتقى فيه الحكماء ، والمفكرون إن كانوا يلتقون بعد هذه الحياة، فإن كانت الجنة فاذهب اليها . وإن كان هناك مكان آخر فهو أحب إليك وإلىَّ من نعيم لاتجد فيه نفوس أحبابنا الذين عرفناهم وعشقناهم عشق المفكر الحر والعقل المشتعل .

وداعاً أيها الأخ الحبيب والصديق المرشد والأديب الكامل . وإننى أختم رثائى بقبلة أضعها جاثياً أمامك على جبينك !!

* * * *

ورد فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة [١] مصر فى سنة ١٩٠١ فى باخرة

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا ماكتبه لطفى جمعه عن فرح أنطون فى كتابه « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » .

واحدة مع اثنين من مواطنيه وأهل بلده طرابلس الشام وفى سنه تقريباً وهما المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ونصير المذهب السلفى الوهابى فى مصر، وأسعد باسيلى تاجر الخشب الذى صار باشا بعد أن دفع ٤٠٠٠ جنيه لتنفق فى سبيل الخير وهو ثمن الرتبة فى العصر الأخير وكانت منذ خمس وثلاثين سنة تباع بخمسمائة جنيه . وقد كان الاثنان سبباً فى تعب صاحبهم وتشتيته وإرغامه على الإقرار بالهزيمة والهجرة من مصر الى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٠٥ . وكان كاتباً لبقاً ومؤلفاً قديراً وضع كتاب ابن رشد الذى كان سبب نكبته ، وقصصاً كثيرة عن الثورة الفرنسية والإصلاح فى سوريا والنزاع بين العلم والدين وأول من كتب بالعربية عن نيتشه وأول من أشهر اسم ابن رشد .

ولما عاد من هجرته غيّر خططه ولهجته واشتغل بالصحافة اليومية وتأليف الروايات التمثيلية ونال منها حظاً حسناً ، ولم ينفق من ربحه فى منافعه بقدر ما أنفق على أهله وذويه ، فكان بهم باراً طول حياته وعضّد الحركة الوطنية فى عهد سعد باشا وكتب فى المنبر والأهالى بإمضاء فران وهى الأحرف الأولى من اسمه ولقبه .

وتوفى فجأة فى سنة ١٩٢٢ فى الثانية والخمسين من عمره وقد ترجمت له فى تأبينه بالجامعة الأمريكية وفى كتاب مخطوط ولم يكن له آفة إلا أخته ومحبوبة فرنسية تبعته الى أمريكا ثم أقامت ولم تعد معه فخلص منها .

وكان فيلسوفاً محباً للحق والعدل موهوباً فى العلوم والفنون ولكنه لم يحظ من الدنيا بما يستحق وصبر فى فترة من عمره على عشرة أشخاص كيوسف المويلحى ومحمد توحيد وكان ذا جلد وقيل إنه ضيّع مالاً كثيراً فى اللعب ولم أره يمس الورق أمامى .

وكان من أعز أصدقائى لولا أنه كان سريع الغضب ، من ذلك أنه غضب لما كتبت كلمة مدح فى رواية أوديب الملك ونقدت بعض أساليبها ومناظرها فقاطعنى . وغضب لما فنّدت رأيه وهو أن مصر لاتستحق إلا الحكم الذاتى وقاطعنى وتصالحنا ،

وغضب عندما ذكرت له أن رواية صلاح الدين ومملكة أورشليم منقولة عن ليسنج المؤلف الألمانى ثم اصطلحنا ، وألفّ لجنة لنقد رواية « قلب المرأة » قوامها محمد توحيد وفهيم قنديل وعباس حافظ تحت إشرافه وكانوا إذا ذاك يستعملون كلمة « الهدم » تعبيراً عن النقد الشديد الذى يهدم الرجال فكتبوا خمس مقالات أو ستاً ثم هبطت درجة حرارتهم ولم يهدموا شيئاً ٠

ولكن خصومتنا لم تكن تطول ، وقيل لى إنه تأثر لما علم أن بعض المؤلفين المصريين تقاضوا مئة جنيه ثمناً لرواية تمثيلية ، ورآهم موضع الاحترام ، وحاول جمع كلمتهم تحت سلطته فقبلوا تأليف نقابة ثم كان أول من خالف العقد بتقديم بضع روايات لأبيض مثل « المتصرف فى العباد » و« بنات الشوارع والقصور » و «الهوانم» .... إلخ ، وكلها بنت ليلة أو ليلتين وليس فيها مجهود جدى ٠

وكان كثير التنقل فسكن البلد ثم شبرا ثم مصر الجديدة ثم عاد الى بيت أخته فى شبرا وهو البيت الذى لقى فيه منيته فى ٤ يوليو سنة ١٩٢٢ ، والتقى نعشه بنعش المرحوم عبد الحليم حلمى المصرى الشاعر الشاب فرثيته على القبر ثم فى حفلة كبيرة كان يرأسها الشيخ رشيد رضا وحضرها مئات من العلماء والأدباء ورجال السياسة والصحافة ، وبعث سعد زغلول اليها مندوباً يمثله ويعزى أسرته ٠ وحاولت بعد وفاته بخمسة عشر عاما أن أحرك قلب صديقه باسيلى ليجدد قبره أو يحيى ذكره بإعادة طبع كتبه فلم أجد منه أذناً صاغية ٠

* * * *

فى يوليو الدابر انقضى على وفاة المرحوم فرح أنطون خمس عشرة سنة كاملة[١] ، وقد ولد فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى اسكلة طرابلس من

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقالا للطفى جمعه خاصاً بفرح أنطون نشر بجريدة المقطم فى ١٩٢٧/٩/٧ تحت عنوان « ثلاثة رجال عالميون نشئوا فى لبنان وعاشوا فى أميركا ومصر - فرح أنطون - جبران خليل جبران - أمين الريحانى » ٠

والدين فاضلين ولاتزال أمه « السيدة كريمة » على قيد الحياة . أما أبوه فقد قضى فى سنة ١٩٠٤ عندما كانت الأسرة كلها تتأهب للهجرة الى اميركا . وقد صحبت وفاته ظروف أليمة لايزال بعض أصدقاء أسرته يذكرونها بأسى فكانت من العوامل التى أثرت فى همة فرح وإرادته .

كان فرح أنطون فى طفولته وفتوته شديد الذكاء وقد تلقى العلم فى المدارس الفرنسوية وكان من زملائه فيها رجال وصلوا الى قمة الثروة المادية والغنى الاقتصادى وفى مقدمتهم أسعد باسيلى باشا الطرابلسى مثل أديبنا الراحل ، وكانت تربطهما أواصر الصداقة حتى أن فرح بعد رفقة المدرسة بعشرة أعوام أدخل شخصية صاحبه ضمن أبطال قصة اجتماعية أطلق عليها اسم « الوحش ! الوحش ! الوحش » .

ويلوح لنا أن والد فرح كان يعمل فى تجارة الخشب وأن فرحاً نفر من العمل فى التجارة من أول عهده ، ولو أنه تغلب على ميوله الأدبية الفلسفية وضحى بقليل من شممه العلمى ودخل فى معمان التجارة لكان نجاحه مؤكداً لما أوتيه من الذكاء ولين الجانب وحلاوة الطبع والحذق فى المفاوضة ، ولكن هذا الجانب الخلقى والاجتماعى من فطرته ضاع عبثاً لانه اشتغل بالأدب حيث لاينفع شىء مما ذكرنا من لين العريكة ومكارم الأخلاق .

وكان لفرح شقيق آية فى الذكاء وقوة الذاكرة وسرعة الفهم وصحة النظر ودقة التفكير حتى بذّ أساتذته فضلا عن زملائه ولكنه للأسف كان مصاباً ببعض التشويه الخلقى مما يجعل النظر الى وجهه أمراً من أشق الأمور على عاطفة الناظر ، وقد قضى هذا النابغ المنكوب فى السابعة عشرة من عمره بحمى خبيثة فحزن عليه فرح حزناً شديداً وأهدى كتابه « الوحش » الى روحه بعبارة موثرة ، وكان المأمول أن يقوم الفتى المتوفى بنصيب عن أبناء الأسرة فترك الحمل كله لفرح .

ولما هاجرت أسرة فرح للمرة الأولى الى مصر فى طريقها الى الهجرة الكبيرة (أميركا) كان ذلك فى السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر وكان فرح فى مقتبل العمر ، وقد جاء فى سفينة واحدة مع المرحوم الشيخ محمد رشيد لأنهما ينتميان الى بلد واحد (طرابلس) فاشتهر كل منهما فى ناحية من التفكير ، فجاء فرح إلى الاسكندرية وهو يطمع فى أن ينشر أفكاره الاجتماعية والفلسفية فى عاصمة الشرق العربى ، وكان الزمان يبسم لكل من كان فى سنه واستعداده وأدبه فاشتغل فى جريدة الأهرام فى الاسكندرية . ثم فى « صدى الأهرام » بعد انتقالها الى القاهرة ثم أسس مجلة الجامعة التى وصفها فى أول الأمر بأنها « عثمانية » ثم اقتصر على اسم «الجامعة » ، ومن المؤكد أن فرح أنطون اشتغل بكل همة على مدى عشر سنوات فى مجلة الجامعة فلم يصل الى غايته من النجاح المادى وإن كان قد نال فوق مايرجو من النجاح العقلى والمعنوى ، وقد وصل فى مناقشاته الفلسفية الى مقام البحث فى اتساع صدر الحضارة العربية للفلسفة أو ضيق عطنها دون ذلك ، ورد عليه المرحوم أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده رداً لطيفاً وديعاً لم يعرض فيه لشخصه[1] ، وكانت تلك المناقشة سبباً في ارتباطهما بالمودة والألفة على الرغم مما سعى به بعض الوشاة والحاسدون ، وفى الحق أنه لم يكن بين هذه المناقشة وبين رحلة فرح الى أميركا علاقة، فقد زعم بعضهم أن مجلة الجامعة سقطت فى نظر القراء فأعرضوا عنها وقاطعوها بسبب رأى المفتى ورده عليها .

وهذا الرأى غير صحيح لأن معظم قراء الجامعة ومشتركيها كانوا لايتأثرون بموضوع المناقشة التى دارت بينهما ، ولكن فرحا ألزم أهله بالهجرة لأسباب أخرى أهمها أنه كان يريد التخلص من عاطفة قوية سطت على قلبه وفكره فى غفلة من دهره ، وقد حاول التخلص منها مع البقاء على ضفاف النيل فلم يتمكن .

---

(١) وقد تبادلا بعض المراسلات ومنها ماهو منشور فى ترجمة الأستاذ الإمام ج ٣ .

وكان فرح شديد الحياء كثير الخجل ميالاً للعرفان بالجميل محباً لأهله مؤثراً لسعادتهم على راحته ، يضحى بنفسه وضرورياته فى سبيل مايكمل هناءهم ، وهناك عناصر أخرى تضافرت كلها على هذا الرجل الفذ فى التضحية وقوة الإرادة حتى تمكنت من زعزعة أقدامه فى وادى النيل ، وكانت هجرته فى الشتاء وقد تبعه فى تلك الرحلة أو الهجرة صهره الفاضل العالم الكيماوى الذى جمع بين حقائق المادة وخيال الشعر والقصص ، وأقام فرح فى المهجر حوالى سبع سنين ثم عاد الى مصر مرة أخرى وقد تأثر قليلا فى أول الأمر بالصبغة الأميركية فأخذ يدخن السيجار ويأكل المتبلات القوية ويتناول «فواتح الشهية» ويلوك بعض الألفاظ بالانكليزية ثم عاد بالتدريج الى عادات قومه ووطنه[1] واشتغل بالصحافة فنشر الجامعة فلم تلق رواجا لأن روابط التفكير بينه وبين القراء من سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩١٢ كانت قد تبددت ، وقد طرأت على الشرق الأقصى والأدنى والأوسط حوادث جمة منها النهضة الوطنية المصرية ، وسقوط الاستبداد التركى وحلول الحكم الدستورى محل الحكم المطلق وحرب البلقان وحرب طرابلس وانتصار اليابان فى الشرق ومعاهدة «الوفاق الودّى» بين فرنسا وانكلترا وانتشار الاغتيال السياسى فى كثير من الممالك التى لاتعرفه وظهور الدستور فى بلاد الفرس ونهضة الأفغان والهند .... إلخ .

وبالجملة وجد فرح أن العالم الشرقى قد تمخض عن حركات عنيفة هى بداية ماحدث خلال الثلاثين عاما الغابرة ، ورأى أن الصحافة اليومية هى أكثر أثراً فى أذهان القراء فلجأ إليها ونبغ فيها وظهر على الأقران فحرر فى اللواء ، وفى العلم والمحروسة و«الأهالى» وفى جريدة البلاغ « عربية فرنسوية أسسها المرحوم إسماعيل شيمى لتنطق بلسان الحزب الوطنى » ثم اتجه نحو التأليف المسرحى بسبب ميوله القديمة للقصص فأبدع فى ذلك وأوجد نوعا بل أنواعاً من هذا الفن الجميل .

---

(١) كان يلبس القبعة ويأكل سريعاً واقفاً ويحب النعنع ويؤثر السعوط أحياناً .

وقضى رحمه الله مأسوفاً عليه مبكيا من جميع محبيه وقرائه فى يوليو سنة ١٩٢٢ وفى نفس اليوم توفى المرحوم عبد الحليم المصرى الشاعر الضابط وقد التقى المشهدان فى الساعة الثانية بعد الظهر فى شارع شبرا أمام المدرسة التوفيقية كأنهما كانا فى الموت على موعد مع أنهما لم يلتقيا فى الحياة إلا مرة واحدة .

والثابت لنا من دراسة حياة المرحوم أنه كان متعلقاً بالمثل الأعلى فى كل شىء ، فقد كان يقول فى فتوته وعنفوان شبابه بالمبادىء الاشتراكية والمساواة بين البشر ويمقت أسباب التفاوت فى الهناء المادى وينقم على المظالم العامة والخاصة ، وقد تأثر بمؤلفات فولتير وروسو وبرناردان سان بيير . وكان خاضعاً لفلاسفة القرن الثامن عشر . وكان لعهد المظالم الذى رآه فى تركيا أكبر أثر فى تكوين فكره ورسم خططه فى الحياة ، وكذلك كان « للسلطة الاكليروسية » أثر فى فكره فكان احتجاجه عليها صامتاً إلى أن تمكن من ترجمة مؤلفات إرنست رينان « حياة المسيح وأعمال الرسل».

وكان فرح يواظب على قراءة الطان والهيومانيتيه متتبعاً حركة السياسة الأشتراكية لينقل بعض الأفكار الاجتماعية ألى مجلته ويفرغها فى قالب قصصى باللغة العربية ، وبالجملة كان فرح ثائراً على بعض العقائد والتقاليد والأحكام والأخلاق ، ولكنه كان فى الوقت نفسه شديد الحذر لا يريد أن يظهر بحقيقته العارية خشية المقاومة وتهييج الرأى العام ضده وإن يكن قد تمكن فى مصر أن يبوح بما لم يستطعه فى طرابلس وقد وجد نفسه لايزال مقيداً ، فلما بلغ الولايات المتحدة اكتشف أن الحرية التى كان ينشدها ليست إلا خيالاً وأن الحرية المطلقة لاتوجد إلا فى أذهان عشاقها وأن المهاجرين فى أميركا قد جعلوا حياتهم أثقل أعباء وأعقد قيوداً من ذويهم وإخوانهم فى الشرق ، فكانت عودة فرح إلى مصر فى المرة الأخيرة عودة القنوط والضجر والتسليم ، ولذا كان رحمه الله فى العشرة أعوام الأخيرة من عمره كثير

التحنان الى الماضى والندم على انخداعه بظواهر الأشياء ، ولكنه لم يكن يندم على ماضيع من مال بقدر أسفه على مافقد من عاطفة عند من لا يقدرها قدرها ممن أفادوا من علمه وأدبه وجهوده ، ولما كان لم يتزوج ولم يرزق أولاداً فإنه صرف كل عواطفه ووفائه ومحبته نحو البقية الباقية من أهله ولاسيما أولاد شقيقته السيدة وردة أنطون حداد فكان أسعد أيام حياته حينما يعود الى بيتها محملا بالهدايا والتحف والطرائف لهؤلاء الذين تبناهم مع أن والديهم على قيد الحياة أطال الله أعمارهم ، فهل يقدر هؤلاء الأولاد والنجباء لخالهم الخالد الأثر هذه المحامد والمآثر أم أنهم كانوا من نعومة الأظفار وبلهنية العيش بحيث لايميزون ولايتذكرون .

كان فرح أنطون أول من بعث البحث فى مسائل الفلسفة العربية وأول من تكلم على ابن رشيد وأساتذته وتلاميذه فى بلد اعتراه الجمود الفكرى والعقلى من كل ناحية، وعلى الرغم من وجود الإمام المفتي والكواكبى والأفغانى ورضا وحسن الطويل وعشرات غيرهم من العلماء والحكماء ، وعلى الرغم من وجود المقتطف والهلال والضياء ومحاولتهم إحياء فضل العرب فى مقالات رنانة فإنه الى فرح أنطون يرجع الفضل الأول فى « إحداث ضجة » حول الفلسفة العربية واتساع صدر الحضارة لها أو مقاومتها ، وسواء أكان مصيباً أم مخطئاً فى آرائه أو متعصباً متسامحاً مجاريا لرينان أو ناقدا له وناقماً عليه ، فإنه صاحب الفضل الأول غير مدافع ولايسعنا إلا الإقرار بذلك مقرونا بالإعجاب والشكر له .

وفى الحق أن فرح أنطون قتل نفسه فى سبيل مبادئه ولم يتمتع بشىء من ملذات هذه الحياة ، فلم يتزوج ولم يرزق أولاداً ولم يعش فى بيت لنفسه ولم يقتن مالاً بل عاش مسكيناً ومات مسكيناً وسيستمر فى زمرة المساكين ، ولانقصد بالمساكين الفقراء ولا الجائعين ولا المفلوكين ولا الصعاليك لاسمح الله ! ولكن نقصد بالمساكين الى المتواضعين والمخلصين وأصحاب الإباء الذين يفضلون الحرية ويأبون الظلم ويثورون

على الباطل .

وكان فرح دائما مع المتطرفين فى السياسة ، فكان يحبذ أفكار الأحزاب الوطنية فى كل وطن وينقل خطب جوريس ويحضر محافل مارسيل سيمبا ، كان يسير فى المقدمة ويحب التقدم وينظر الى مستقبل الإنسانية بعين التفاؤل ، ولأجل هذا صعق حزناً عندما أعلنت الحرب العظمى وكان يرى بعين خياله نتائج تلك الحرب المشؤومة .

ولم يكن يظن أن مصر تنال شيئا أكثر من الحكم الذاتى ولاسيما بعد أن رأى المقابلة التى ادخرها ويلسون للوفد المصرى ، وقد تلقى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بحذر وقلق وقال وهو يبتسم لفريق من أصدقائه « الكلمة الآن لمصر » وهى نفس العبارة التى ختم بها اللنبى إعلانه لذلك التصريح ، قد حاول أن يجعل نفسه نافعاً للبلاد التى قضى فيها زهرة حياته وأعطاها أفضل جهوده وقد وفق فى ذلك . وكان فرح يريد رفعة الشرق وتحرير الأفكار وإدخال نوع من الاشتراكية المخففة فى الحياة الشرقية وهو أول من عرف الشرقيين بفلسفة فردريك نيتشه فى سنة ١٩٠٣ وذلك عقب تمثيل رواية «ابن الشعب » على مسرح الشيخ سلامة حجازى فقال له أحد أصدقائه فى نزهة ليلية خلوية :

— ما هذا يا أستاذ « وكانت هذه الكلمة فى براعة استهلال ذيوعها » كيف توفق بين تعريب « ابن الشعب » (وهى ريتشارد دار لنجتون لاسكندر ديماس الكبير) وبين فلسفة فردريك نيتشه «وهكذا تكلم زاراتوشتر» فقال فرح وكانت له لثغة ثائيه جميلة : فلثفة نيتثه للفلاثفة الذين يحبون نهوض الشرق وبعثه وابن الشعب للدهماء والمعجبين بتهويل ديماث وهل نسيت أن أول مانشر فى مصر عن الثورة الفرنسوية كان من تأليف ديماس الكبير أنسيت نهضة الأسد ووثبة الأسد وفريسة الأسد[1] ؟؟ .

---

(١) ثلاثة كتب من تعريبه فى تاريخ الثورة الفرنسية .

كان فرح انطون أوسع رفاقه اطلاعاً ودائرة تفكير وأقدرهم على التعبير عن فكره بأسلوب رائق سهل ممتنع وكان « غيرياً » يؤثر الغير على نفسه ولو أنه عاش عمراً طويلا لوصل الى أبعد الغاية من التفكير والتأليف وتنفيذ الآراء النافعة ، وقد تأثر بالعقل والعلم والفلسفة والحرية ولم يتأثر بالمال والظلم والمنافع المادية ، وكانت طبيعة عمل فرح ولاسيما فى العشرة الأعوام الأخيرة مما يستدعى قصر العمر وانقضاء الأجل قبل أوانه لأنها كانت سلسلة جهود متواصلة وخيبة آمال دائمة ومواجهة مستمرة لسخرية الأقدار وتهكم الأقضية .

ولكن فرحاً كان يعرف كيف يحافظ على كرامته وكيف يصون عفته وشرفه وكيف يلامس الأفعى ولاتنال منه أنيابها وكيف يلابس القمامات ولا يتلوث بها . ولأجل هذا كانت دهشة الأستاذ دومانى بك عظيمة عندما تقدم إلى رثاء مواطنه فى المجلة المصرية « أغسطس ١٩٢٢ » فقال إنه يدهش من هذا المنحنى العقلى الذى طافت به نفسية فرح فإنه بدأ بفلسفة رينان وانتهى بتأليف روايات فودفيل .... إلخ ، كالتى تمثل فى مسارح البوليفارات بباريس !

وقد رد أحد أصدقاء فرح على الأستاذ دومانى بما فيه الكفاية « سبتمبر سنة ١٩٢٢ » فليرجع اليه من يشاء . ولكن يظهر لنا أن الأستاذ دومانى لم يدرك عمق نفسية فرح ولم يلمّ بكل إنتاجه فى مختلف ناحياته .

والآن يرقد فرح أنطون فى قبر مجهول فى أحد مدافن اللاتين أو اليونان الأرثوذكس فى القاهرة والله يعلم أنه لاينتمى الى أحد منهم وإنما ينتمى إلى تلك العشيرة العظمى التى لاتقيدها فكرة ضيقة ولاتدعى امتلاكها طائفة دون طائفة لأنه كان يعتقد أن الدين لله كله وأنه مواطن عالمى .

كـــامـــا (*)

من البارسيين[1] أفذاذ مجاهدون خدموا الوطن الهندى فى الهند وأوروبا وأمريكا وانجلترا من أوائل القرن العشرين ، ومن خير من أنجبت طائفة البارسى السيدة البارة الوطنية المخلصة والمجاهدة الكريمة المغفور لها مدام كاما الشهيرة التى جاهدت فى سبيل بلادها ضد الاستعمار وامتد نفوذ جهادها من آسيا الى أوروبا وأمريكا وأيرلاندا وأسست بضع جرائد أشهرها جريدة « باندى ماترام[2] » وأنفقت ثروتها فى قضية الحرية الشرقية وعاشت عيشة الزهد والتقشف فى نيويورك وشيكاغو ولندن وباريس وجنيف وشتوتجارت ولوزان وتوفيت منذ بضع سنين فى السبعين من عمرها فى سويسرا وأحرقت رفاتها على غير مذهبها .

وأول أمر هذه السيدة أنها تعلمت فى وطنها وكانت ذات جمال ومال وأخلاق عالية ، فلما ترعرعت وتزوجت وقد رزقت أولاداً ، لم تطق صبراً على الاستعمار فعملت فى وطنها بقدر ما استطاعت ، ثم نزحت حوالى ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ الى امريكا فأنشأت جرائد باللغتين الهندية والانجليزية وأخذت تنشر الدعوة للحرية ، فالتف حولها فريق

(*) نثبت هنا مقالاً للطفى جمعه نشر فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٧ بالعدد ٧٠ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان « البارسى فى الهند ومن تكون مدام كاما ؟ » .

(١) تطلق كلمة پارسى على الفرس المهاجرين من بلاد إيران الى الهند ومعناها فارسى ، وقد بدأ نفوذ البارسيان يقوى على من عداهم من مجاوريهم منذ سنة ٥٥٠ ق.م وتمكن ملكهم قورش الأكبر من اجتياح بلاد الميدين فخلع سلطانهم وأسس سلطنته .

(٢) كلمة باندى ماترام كلمة هندية معناها « نحييك أيتها الام الرؤوم » أو الوطن .

من خيرة شباب الهند ، ومكنوا لها من عقد الاجتماعات وإلقاء المحاضرات بالانجليزية التى كانت تجيدهـا فخطبت فيها واكتسبت جانباً كبيـراً من الـرأى العام فنشرت الصحف الأمريكية صورها وأحاديثها ومحاضراتها، وفى سنة ١٩٠٧[١] نشرت «نيويورك صن» مقالا جاء فيه « أن أميرة هندية تبذل عشرات ألوف الدولارات بسخاء فى سبيل نصرة وطنها وقد حادثناها بعد أن سمعنا محاضرتها التى ألقتها فى «ليبرال كلوب » فعلمنا منها أنها تنفق جزءاً من ثروتها الواسعة فى تثقيف عشر فتيات بارسيات فى جامعات انجلترا لتعذهن للكفاح الوطنى فى المستقبل وأنها تساعد كثيراً من الشبان على إحراز شهاداتهم النهائية فى علوم التاريخ والاقتصاد والاجتماع والرياضيات ، وأن بعض الممالك ذات المستعمرات الشرقية الضخمة تنظر الى أعمال هذه الأميرة (رستم كاما) بعين الحذر » ، وكانت مدام كاما سمراء اللون جميلة التقاسيم حلوة الصوت عذبة الحديث قوية القلب حتى لقد نسبوا إليها أعمالا يعجز عنها كثير من الرجال كما كانت واسعة الحيلة .

وقد روى لنا بعض من رأوها رأى العين وعاشروها وحادثوها[٢] أنها كانت ذات هيبة خاصة وفصاحة نادرة ولها سلطان أدبى على كل من يقرب منها . وبعد أن أقامت فى نيويورك وشيكاغو نزحت الى انجلترا فى ١٩٠٧ وخضع لها كريشنا فارما وهو عالم هندى ورئيس وزراء نظام حيدر آباد سابقاً ، تعلم فى انجلترا وهو هندوكى ورحل من الهند وكان تلميذ هربرت سبنسر الأخص وهوأعظم فلاسفة انجلترا، فلما مات سبنسر سنة ١٩٠٣ لم يخطب على قبره خطيب غيره لا من الانجليز ولا من أى جنس آخر ، فهو وحده الذى رثاه وأبنه وتبرع كريشنا فارما من ماله بما يمكن

---

(١) مايو سنة ١٩٠٧ وقد ترجمت بنصها فى جريدة اللواء للمرحوم مصطفى كامل .

(٢) يرمز لطفى جمعه « بالبعض » هنا الى نفسه حيث أنه قابل مدام كاما وتعرف عليها بمناسبة انعقاد مؤتمر الحزب الوطنى الذى انعقد فى بروكسل سنة ١٩١٠ (أنظر كتاب رابح لطفى جمعه المعنون « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام » ، سنة ١٩٩١ ، ص ٣١ ومابعدها) .

إدارة جامعة اكسفورد من تعيين أستاذ لكرسي سبنسر ، ولايزال هذا الكرسي مستمراً من سنة ١٩٠٤ الى الآن فيما عدا بضع سنوات قطع أثناءها التدريس ، لأن كريشنا فارما اتهم في سنة ١٩٠٩ خطأ بتدبير مؤامرة دنجرا الشهيرة التي قتل فيها السير كيرزون وايلي وطبيب هندوكي في حفلة هندية فنزح من لندن والتجأ إلى باريس واكتفت الحكومة بهذا النفي الاختياري ولم تعرض له بسوء ماعدا وقف التدريس من أعلى الكرسي الذي تبرع بنفقته . ولما نسيت مؤامرة دنجرا وسحب الزمان عليها ذيول الإهمال عاد الكرسي الى العمل ! .

وقد اتفق كريشنا فارما ومدام كاما على التعاون في انجلترا فأسسا جريدة «إنديان سوسيولوجيست» وقد وصفوها بأنها جريدة (هندية ثورية) وكان الكاتب بليغ العبارة ، حاضر الذهن خبيراً بتاريخ العالم والاستعمار ولاسيما في وطنه ، وله أحيانا أسلوب كأنه قطع من نار ، فنال من بعض الظالمين نيلاً وانتصر لمهاتما تيلاك الذي قام في الهند قبل مهاتما غاندي وأسس جريدة « كيساري » أي الأسد وقضى في السجن بضع سنوات قبل موته .

ثم حدث خلاف بين كريشنا فارما وبين مدام كاما للفرق بين الاثنين في طريقة الجهاد ، فإن الأول لم يكن مهيجاً بالمعنى المعروف بل كان زعيماً فكريا وثائراً علمياً أي أنه يجادل بالعلم والاقتصاد والفلسفة ويقنع العقل ولايكترث للعواطف ، ولذا كانت تلتف حوله الطبقات الموزونة أو العناصر الرشيدة من الناقمين والساخطين ، أما مدام كاما فكانت بيئتها مشتعلة بالشباب والإقدام والتضحية وقد قيل إن من أشبالها هارديال وسافار كار وشاتوبادايا ، وهم من أشهر رجال النهضة الهندية الحديثة ولأولهما وثالثهما كتب ودواوين شعر وخطب ومواقف لاتنسى وقد خدما القضية قبل أن يتناولها غاندي نفسه .

أما سافاركار فله عملان خلدا ذكره ، الأول أنه وضع كتاب تاريخ الاستقلال الهندى ١٩١٠ فى ٥٠٠ صفحة ويعد من أمهات الكتب . وأمره الثانى أنه اتهم سنة ١٩٠٩ فى قضية اغتيال السير كيرزون وايلى ، بتحريض دنجرا على قتله ، ففر من لندن الى باريس بعد أن هاجم الشرطة بيت الهند الشهير India House الذى كان ينفق عليه كريشنا فارما ومدام كاما من مالهما ليكون مأوى « نظيفاً » للشبان الهنود ، فاستقبله أصدقاؤه الهنود فى باريس وعلى رأسهم مدام كاما ونزل ضيفاً مكرماً فى بيتها عدد ٢٥ شارع بونتيو Rue Pounthieu قريباً من شارع شانزليزيه فى أفخم حىّ من أحياء باريس ، ولكنه قلق وصمم على العودة الى لندن وهو يعلم أن الشرطة تتعقبه حتى فى باريس فلما وصل فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٠ الى محطة تشرينج كروس بلندن قبض عليه البوليس وقاده الى السجن وطلبت حكومة الهند من حكومة انجلترا تسليمه اليها بحسب معاهدة تسليم الجناة Xtradition ولم تطل الإجراءات لأن الطلب كان صورياً وكلتا الحكومتين تريد « تمليص آذانه » فسافر على باخرة إنجليزية تحت الحراسة . ولكن تمكن بدهائه عندما رست الباخرة على ميناء مرسيليا أن يغافل الحارس ويهرب من نافذة الحمام وهى دائرة صغيرة ولاتكاد تكفى لخروج غزال .. وسبح من الباخرة الى رصيف الميناء حيث كان ينتظره أصدقاؤه الهنود بسيارتين لمساعدته على النجاة مادام فى أرض فرنسية ، فسبح خلفه الحارس وكان سافا كار ينادى «لاجىء سياسى!» والحارس يقول « لص ! » وقبض عليه وبينه وبين سيارة النجاة بضعة أشبار !! فلم تقبل الحكومة الفرنسية بتسليمه لانجلترا لأن بعض النواب الاشتراكيين تدخلوا لمصلحته وهم جوريس ولونجيه وروانيه .

وحدث إشكال دولى بين انجلترا وفرنسا فاتفقتا على تأليف محكمة دولية انعقدت فى محكمة العدل الدولى بلاهاى عاصمة هولاندا بعد ستة أشهر من اعتقال سافا كار فى أحد سجون فرنسا وحكمت المحكمة بتسليم سافا كار ، فحكمت عليه محاكم الهند

الجنائية بالنفى عشرين عاما فى جزيرة « لاكاديف ملاديف » وحرمت على أهله « الملح والنار » ، أى منعت الأهالى من الاختلاط بهم أو معونتهم حتى فى الأكل والتدفئة ليموتوا موتاً بطيئاً من الفقر والذل وهى عقوبة تبعية لكل أسرة يخرج منها مذنب سياسى نابغ وبعد سنة من نفيه نقص وزن سافا كار عشرين كيلو جراما ثم أخذ فى الهزال حتى كاد يقضى نحبه . فتوسط له بعض الساسة المعتدلين فعفى عنه بعد سبع سنوات وعاد الى الحياة فى مدينة لاهور. وهو كاتب مجيد وخطيب مصقع متخرج فى القانون والآداب .

وحضرت مدام كاما جميع المؤتمرات السياسية والاجتماعية التى عقدت فى أوربا من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٤ فى رومه وشتوتجارت وباريس وجنيف وبروكسيل ولوزان ولندن « مؤتمرات الشعوب المغلوبة التى كانت تديرها السيدة دراى هيرست ويخطب فيها برناردشو وديلون وكيرهاردى وجريسون وسنودن وغيرهم » ومن بين المؤتمرات التى حضرتها واشتركت فيها بعملها وقولها مؤتمرات الوطنيين المصريين فى لوزان وجنيف وبروكسيل ١٩٠٨ و ١٩٠٩ و ١٩١٠ ولها خطب ثابتة فى محاضر أعمالها وفى الصحف المعاصرة .

وقد روى لنا خبير بهذه الشؤون[1] أن مدام كاما اجتمعت بسمو الخديو عباس حلمى الثانى فى صيف ١٩١٢ بباريس « شهر يوليو » فى بافيليون بلو فى قلب بستان شانزليزيه بالقرب من قوس نصر (الايتوال) فى سبتمبر من تلك السنة وكان الاجتماع بناء على طلب سموه ، وأقام لها حفلة شاى حضرها بعض خاصة حاشيته ، فلما أقبلت قبل يدها ، ونظر اليها بعين الاحترام والتبجيل وكان شوقى بك ويوسف صديق باشا من الذين حضروا هذا الاجتماع ماعدا اثنين من الأحياء فقالت له : أيها

---

(١) يرمز لطفى جمعه بذلك الى نفسه ، انظر هامش ٣ من هذه الحلقة .

الخديو ! ساعد وطنك ! واخدم بلدك ! امنح الدستور باللين ، قبل أن يؤخذ بالشدة ! أيها الخديو ! كن مخلصاً لشعبك وانصف المظلومين من قومك» وكان الخديو يطأطىء رأسه احتراماً لها ، ونهضت وسارت الى الباب فتبعها وودعها بتقبيل يدها وقد أعجب بها وعمل فعلا على الأخذ بنصيحتها لولا أن دهمه كتشنر فى ١٩١٢ بقسوته والحرب العظمى بكوارثها .

أما ما وقع لكريشنا فارما بعد أن حل باريس سنة ١٩٠٩ بعد فراره من لندن، فإنه انتهز فرصة فيضان نهر السين وإغراقه بعض ضواحى العاصمة الفرنسية ، وتقدم الى رئيس الجمهورية وكان مسيو فاليير بهبة قدرها ٢٥ ألف فرنك « ألف جتيه انجليزى » فتقبلها الرئيس شاكراً لمعونة المصابين بالطوفان النهرى فلما طالبت حكومة انجلترا باضطهاده ومطاردته ، أغمضت حكومة فرنسا العين واعتذرت قائلة «إنه رجل محب للخير ، ورئيس وزارة سابق ، وتلميذ سبنسر الأوحد وصحفى وعالم اجتماعى ولاجىء سياسى وليس عليه وزر جريمة معينة فلا يمكننى أن أطارده أو أطرده » جريدة الطان .

وعاش كريشنا فارما فى حى باسى فى باريس وهو من أشهر الأحياء فى بيت أنيق ومعه زوجته « ولم يعلم لهما نسل » وهى سيدة هندية عريقة النسب ، وكان يزين غرفة جلوسه وقاعة طعامه بتصاوير عظماء الهنود ، ولاسيما « مهاتما تيلاك » ، واستمرت جريدته تنشر الى أن أعلنت الحرب العالمية وتحالفت انجلترا وفرنسا فعلا على الحرب ، فانتقل الى سويسرا ، وتبعته مدام كاما ، لأن الحكومة الانجليزية سمعت فى حقها وشاية « أحمد خان بهادور » أحد مشاهير جواسيس الهند من أنها كانت ذات يد طولى فى الاعتداءات السياسية التى وقعت فى الهند على بعض حكامه ، ولاسيما شظايا القنابل التى أصابت لورد هاردنج سنة ١٩١٠ و ١٩١١ ، وادعو أيضا أنها كانت على اتصال ببعض ثوار روسيا القيصرية وخصوصا بورتزيف

الصحفى الثورى الذى رفع القناع عن وجه آزيف الشهير الذى كان أول « اجنت بروفا كاتور » عالمى .

ولكن هذه التهم لم تثبت عليها وإن كانت أحرجت موقفها مع الحكومة الفرنسية فنزحت هى الأخرى الى سويسرا سنة ١٩١٤ واستمرت فى جهادها الى سنة ١٩٢٢ فقضت نحبها فى نفس السنة التى توفى بها المرحوم محمد فريد بك زئيس الحزب الوطنى وكانت بينهما صداقة وكذلك بينها وبين المرحومين الدكتور منصور رفعت وإسماعيل لبيب بك وبعض زعماء المصريين فى الحركة الوطنية الأولى .

وقد أحرق جثمانها الغالى على غير مذهبها ، لأن مذهبها يقضى بأن يوضع جسد المتوفى عارياً بأعلى بناء رفيع يسمى « برج الصمت » ويبقى معرضاً حتى تأكله الطير ، وهذه الطريقة معمول بها الى الآن فى مدينة بومباى نفسها وقد وصفها كل السائحين.

كامل أبو الذهب

من رجال الأقباط النابهين النابغين توظف فى النيابة وترقى الى القضاء وتردد حينا فى ترك خدمة الحكومة ليشتغل بالمحاماة فى وقت كان فيه وجه المحاماة مشرقاً وفمها باسماً والدنيا مقبلة على ذويها . ولكنه عدل بعد سنة من تفكيره وقد أنصف وأحسن . وقال لى « إنى أضيق ذرعاً كلما نقلت من القاهرة الى البلاد فلا أجد أنيساً ولا مجتمعاً ولاأقدر أن أنقل بيتى و أولادى الذين فى المدارس يتلقون العلم وإن اتخاذى بيتين أقل نفقه من النقل و« الشحططه » .

وهو من الأفراد القلائل فى الطائفه الذين يحسنون التكلم والكتابة بالعربية الفصحى ، وفوق هذا فإنه يتحرى البحث فى المعاجم عن أصول الكلمات . وغيره ممن يفصحون لا يتحرون والذين عرفتهم من المحسنين فى اللغة الأساتذة وهيب دوس ومرقص فهمى وتوفيق دوس ومكرم عبيد شيخ خطبائهم فى غيبة مرقص وهو يحفظ جانباً من القرآن الكريم والحديث الشريف تقليداً لا اعتقاداً وأداة لا تصديقاً وصنعة لا بركة ، وهؤلاء الأربعة خطباء بجانب أنهم كتاب ومقدمهم على التحقيق مرقص فهمى وكل من عداهم لا يحسنون النطق ولا يزنون اللسان .

أما كامل أبو الدهب فكان فصيحاً ولبقاً ومحققاً . وعلمه بالقانون جيد ولاسيما الجنائى ، وتحقيقه دقيق وأحكامه عادلة فى الأغلب ، وقد نقل الآن الى المحكمة المختلطة لان له إلماماً باللغة الفرنسية ، وقد التقينا فى محكمة الجنايات مرات هو فى كرسى الاتهام والكاتب فى موقف الدفاع ، فكان يقرع الحجج ويقيم الأدلة ويسرد البراهين بالمنطق الصحيح والنطق الصحيح فنشأت بيننا ألفه وصداقة وقد أيدهما الجوار فى السكن بمصر الجديدة .

ومن أهم القضايا التى ترافعنا فيها على طرفى نقيض ، قضية قتيل باب الشعرية وكان يحسن الخطابة والمستشارون لا يدركون شأوه فى الفهم ولا التعبير .

وحدث فى إحدى القضايا أن مستشاراً إنجليزياً وهو كلابكوت تشاغل عن سماع مرافعته ثم غفا وأغمض عينيه فأيقظه الرئيس فقال الرجل بصوت مسموع بالفرنسية O ! Pacha il ne s'git pas d'un Demosthene .

أى بربك أيها الرئيس ليس المتكلم ديموستين « وهو أشهر خطباء اليونان » ، وسمعها كامل بك كما سمعناها وابتسم كما ابتسمنا وهى عبارة جارحه تقتضى مؤاخذة المستشار الإنجليزى ولكن الذى يحتج على مثل هذه الإساءة كمن يؤذن فى مالطة .. وربما تكون شكواه سبباً فى مؤاخذته . وهذا قليل من كثير مما يرى ويسمع فى ساحة القضاء فى عهد الإنجليز وبعد عهدهم ، فإن بعض الرؤساء المصريين لايقلون كبرياء ولا عنطزة عن أسلافهم السكسون .. وكان من أرذل المنتمين الى السكسون رجل مالطى اسمه « دربو لغلو » يتحكم « ويشخت وينتر » وهو معتز بمنصبه ومعتز بصلته باللورد كرومر إذ كان يحسن إحياء السهرات بالعزف على الكمان وكان ممتلئاً « بالحقد على المصريين وكراهيتم » كابن وطنه السفيه الآخر «جريك منفوسود » وقد كان من له لقبه نصيب ، فقد كان يجاهر ببغضه وينشر المقالات المطولة فى ذم المصريين وهو قاض ثم محام فى محاكمهم .

وكامل بك أبو الدهب رقيق شديد التأثر وتراه لرقته ترتجف أنامله كالآلة الحساسة وهوشديد الانفعال ولكنه قادر على كتمان عواطفه فلا يبدو لمحدثه شئ مما يغلى به صدره .

وهو الى جانب سعة اطلاعه فى اللغة العربية ، محب للمطالعة فهو يقرأ الكتب والمجلات الأوروبية الحديثة ، ويستشهد بها ويجارى الزمن ويغشى مجالس الأدباء والمثقفين ويعرف لهم أقدارهم ، ويستعمل اللغة الفرنسية في الحديث بينه وبين أفراد أسرته . وقد نبغ أحد أولاده فى النثر والنظم بتلك اللغة لأنه تخرج في مدارس الفرير وقال لى أبوه إنه يختار الحقوق ويفضله على سواه فحذره من شدة العناية بالفرنسية وإهمال العربية .

كامل وصفى أبو الذهب

كامل وصفى الأستاذ النائب المترافع وقد حضرنا له قضية مهمة كانت الأولى من نوعها « ديسمبر سنة ١٩١٣ » ، ولم نشهد لها مثيلاً أثناء ثلاثين عاماً من اشتغالنا بالمحاماة ، وهى أن النيابة اتهمت طبيبا سوريا كهلا « عمره ٥٦ سنة » بأنه فى منتصف تلك السنة اعتدى على عرض فتاة قبطة بغير رضاها بأن نومها مغنطيسيا وهى فى خدمته وهو سيدها صاحب السلطة عليها ، فكان الاعتداء منطبقا على المادة ٢٣٠ من قانون العقوبات « كل من ..... أنثى بغير رضاها ... إلخ » .

قال كامل بك فى مرافعته : « قضية اليوم غريبة فى موضوعها وأشخاصها لأنها وقعت بوسيلة غير عادية وهى التنويم المغناطيسى من شيخ يناهز الستين من عمره يمارس مهنة شريفة على فتاة فى الرابعة عشر من عمرها مسكينة لا حول لها ولا قوة ولا ذنب إلا أن طبيعتها تصلح للتنويم ، ضحى بها والدها طمعاً فى المال وكم للبؤس من ضحايا دخلت فى خدمة الشيخ الطبيب المتهم بكراً طاهرة نقية فغادرت بيته وقد فقدت أثمن حلية وأغلى تاج تتحلى بهما عذراء فى حياتها وهما العفة والبكارة . ولم تكن تدرى أن القدر الظالم يتيح لها طبيباً شيخاً فاسقاً يعبث بكنزها ويدنس طهرها ويذبل زهرتها وهو الأمين عليها فيقضى بجريمته على حياتها ومستقبلها قضاء مبرماً فكان يفترسها وهى فى عالم الأرواح ولم يؤنبه ضميره مرة واحدة ولم يخش خالقاً ولا مخلوقاً ، وكان مصاباً بمرض سزى مزمن فانتقلت عدواه إليها فجنى عليها جنايات متعددة . إنه طبيب مجرم غليظ القلب قاس ضربة على الآداب بلغ من العمر أرذله دخلت الفتاة المسكينة بيته بكراً صحيحة وخرجت ثيباً عليلة مصابة بداء عضال .

زنوا الفعل وأعطوه حقه من العقاب وأنتم خير من يزن الأفعال » .

ولم تجد مرافعة محاميه المرحوم أبى شادى به إلا فى التخفيف ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات وكان رئيس المحكمة توفيق رفعت باشا وأحد أعضائها مستر برسيفال .

محمد أبو الذهب

كان رحمه الله كتبياً بطنطا بجوار المسجد الأحمدى وكان يعرف والدي وقد أدّى لى خدماً جميلة فى إرشادي الى بعض كتب الأدب وأنا فى السابعة عشرة من عمرى كديوان المتنبى واللزوميات والعقد الفريد لابن عبد ربه وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه . وأصله من القاهرة فنزح بعد حين عن طنطا واتخذ له مكتبة فى حى الأزهر بالقاهرة وترددت عليه ولم أقطع علاقتى به ومازال يلتقط لى أحسن الكتب بأسعار مهاودة حفظاً لسابق المودة والمعاملة ، وعكف على تربية ولد له نابغ فى الرياضيات حتى أتم علومه وسافر فى بعثة الى اوروبا ونال فيها أفضل الإجازات ثم عاد واحترف التعليم فى مدارس الحكومة حتى صار المعلم الأول فى مدرسة القبة الثانوية وكان لى فيها ولد فأوصيته به خيراً وذكرته بصداقتى بأبيه وكان الوالد والولد يزورانى فى مكتبى الى أن توفى الكبير الى رحمة الله وعاش الابن بعده بضع سنين بعمل جيد وسيرة حسنة ، ثم نقل الى مدرسة مصر الجديدة وكان لى فيها ولد أصغر وهو رابح لطفى ولكن أبا الذهب الابن اشتد عليه المرض وتوفى الى رحمة الله فى وقت واحد وناظر المدرسة المرحوم مرسى على صالح « أبّنته فى جريدة منبر الشرق فى شهر مايو سنة ١٩٤٢ » كأن الناظر والمدرس الأول كانا على ميعاد ، وصدق رسول الله حيث قال « إن الله يعجّل بخياركم » .

وكانت بنية الوالد بنية الرجل النحيف العصبى المزاج مع هدوء فى الطبع وقناعة بالكفاف ، ولكن الولد كان فى بنيته ميل للسمن فأصيب بأمراض التغذية « ارترتيزم » كالمفاصل والرطوبة والسكر وكان قليل الحركة نائياً عن الرياضة البدنية فانتقل رحمه الله وهو فى سن صغيرة وله كتب فى تعليم الرياضة لا بأس بها .

محمد أبو شادى

كان من أشد المحامين ذكاء وأكثرهم فصاحة وأحضرهم بداهة وأقدرهم على الدفاع المرتجل ولو لم يكن ملماً بأطراف القضية . وكانت له شهرة مستفيضة فى أنحاء القطر المصرى ولاسيما فى صعيد مصر حيث كان الرجل يهدد خصمه ويقول «أطخك رصاصتين وأشد ولد أبو شادى » ضامناً صدور الحكم ببراءته على يديه .

وكان المرحوم ذا بنية قوية.لو أنهّ راقب الله فيها لعاش مائة سنة ولو أنه تعلم لغة أجنبية وانقطع لدرس قضاياه لكان من أشهر محامّى العالم ، ولو أنه ادخر ربع ماربح لكان من أكبر الأغنياء ولكنه كان ذا فطرة سليمة وروح مرحة فأضاع الصحة والمال . وكان فى آخر أيامه يخطب ويترافع ساعات عدة فلا يتعلثم ولايتردد ولايرتج عليه وهو يفيض بنوابغ الكلم وآيات القرآن والأحاديث والشعر القديم والجديد والنكت الظريفة المقبولة والنوادر الطريفة حتى يستلب الألباب ويؤدى هذا كله ولايمسه تعب ولا لغوب لأنه موهوب حقا .

وكان أقدر من الهلباوى وأخف منه دماً وروحاً وأوسع حيلة وأشد ذكاء ولكن الهلباوى علّم نفسه ولم يكتف بذكائه وحضور بديهته . ولم يبعثر حياته ولم ينفق ماله فى غير ماجعل له . وكان أبو شادى صحفيا وكاتبا وصديقا لسعد زغلول فدخل مجلس النواب وانتخب نقيبا للمحامين وعادى الشيخ محمد عبده إكراما للخديوى عباس ولم يكن على حق فى معاداته فعاد واعتذر للأستاذ المفتى واسترضاه وكان يعرف توجيه الحملات الصحفية ضد السياسة الإنجليزية « فى دنشوادى وبور سودان» ولذا عاداه القاضى بوند وكيل محكمة الاستئناف وكان يعرض عنه فى مرافعته ليحقره ويؤذيه ويجاهر بقوله معرضا « نم يا بوند » ولايخجل ، وهذا يضاف

الى ما كتبته فى ترجمة الأستاذ كامل أبو الذهب ، وكان يحيله الى مجلس التأديب ويتوعده بالمحاكمة ، فحدث مرة فى سنة ١٩٠٥ أن تحددت له جلسة وكان المنتظر أن يكون عدوه وقاضيه بوند . فأحيا أبو شادى بضع ليال بالأذكار والختمات وقراءة السور ليرد الله كيد خصمه فى نحره وواظب على تلاوة حزب النصر ، وفى يوم المحاكمة لبس ردنجوته وقصد الى المحكمة وهو يهمهم ويتلو . وما كان أعظم سروره عندما علم أن بوند اعتذر لمرضه وانتهت المحاكمة التأديبية ببراءته .

وقد فسرها بعض الناس بأن بوند راجع نفسه وخشى أن تكون كراهيته تفسير حكمه فتتحى ، وسواء أكان هذا السبب أم سر القرآن والأحزاب فقد نجا الرجل .

ولم يكن المرحوم منظما فى شىء ولكنه كان عبقرياً وكان متصوفاً مخلصاً يقيم الصلاة ولايترك المسبحة ولايغفل عن الصلاة على النبى ، وكان فى مرضه يضرب عرض الحائط بنصائح الأطباء ويقول « الرب واحد والرزق واحد والعمر واحد » .

وكانت آفته فى زوجته الثانية التى استنزفت ماله . وكان بارعاً فى تفهم القضايا بسماع الشهود أو مرافعته وكان يسخر ممازحا بشراح فرنسا ويقول « أنا لا أعرف دالوز ولا على لوز » .

وقد ترجمت له فى حفله تأبينه التى كانت تحت إشراف سعد زغلول وطبعت جميع الخطب التى ألقيت فى هذا الاحتفال وبينها كلمتى[1] وكنت اقترحت إقامة هذه الحفلة ولكن الأحقاد جعلتنى الثامن فى الترتيب وأخذ رئيسها يرسل إلىّ الرسل ليهمسوا فى أذنى بالاختصار وكان آخرهم الأستاذ الجديلى فقال لى كُلِّفت أن أرجوك الاختصار وأرى أنك خطيب الحفلة « عفا الله عنه » فاستمرْ فإنى أرى دولة الباشا (سعد) مسروراً جداً ، وكان أكبر عتاب وجه إلىّ بعد ذلك على أننى قلت أحب الارتجال لا القراءة من الورق .

---

(١) انظر كتاب « محمد أبو شادى ، دراسة أدبية تاريخية » ، جمع السيد عبد الحميد الكيلانى وعبدالحفيظ الروبى ، الطبعة الأولى ، مطبعة حجازى ، سنة ١٩٢٣ ، وقد أثبتنا فيما بعد خطبة لطفى جمعة فى حفل تابين أبى شادى المنشورة فى هذا الكتاب ص ٥٨ - ٦٥ .

سيداتى . حضرة صاحب الدولة . حضرات أصحاب المعالى . سادتى الأفاضل(*) .

إن الصنعة التى شرفنى الله بها تحكم علينا كثيراً من الأحيان بالارتجال. حقيقة اننا نعد قضايانا ، ولكن القضايا كالحياة مملوءة بالمفاجآت ، فيضطر المحامى إلى أن يسد ثغرة المواقف الحرجة ويرد على نقط تعرض له ، فيتعلم حضور البديهة ، فكنت دائماً أفكر فى أن أحضر خطاباً لرثاء فقيدنا الكبير أضمنه مآثره وصفاته النبيلة ، ولكننى لم أفعل ولم أندم ، لأن شخصية المرحوم هى ثروة عظيمة يمكن لكل أنسان أن يغترف منها ويتكلم فيها ولو بدون استعداد . وهذا الاجتماع نفسه فيه معان جميلة تجعل الخطيب يغترف منها أشياء كثيرة .

فهاكم رجال عظماء قد اجتمعوا لتأبين رجل عظيم رحل ، وهذا دليل على أن الأعمال الطيبة دائماً تبعث على تذكر صاحبها ، فيعمل كل إنسان وهو واثق أن عمله لن يزول ولو بكلمة تذكر عنه فى مستقبل الأيام ، وما الانسان سوى الذكرى .

لقد كانت شخصية فقيدنا العظيم وعبقريته النادرة كثيرة النواحى ، وقد كانت مواهبه متعددة . كان محامياً ، وكان مفكراً وكاتباً سياسياً ، وكان رجل عمل . وكان رجل مبدأ فقد تفانى فى خدمة « الوفد » . وكان صحافياً ماهراً ، وكان شاعراً ، وكان رجل علم وفقه وتصوف ، وكان كريماً يعمل لصنع الخير ، وما الناس إلا بالخير .

لهذا سأجعل كلامى مقصوراً على ماعلمته عن أبى شادى بك بنفسى فى جملة مواقف تدل على صفاته الطيبة .

(*) ابتداءً من هذه الفقرة نثبت هنا خطبة لطفى جمعه فى حفلة تأبين محمد أبو شادى المنشورة فى كتاب «محمد أبو شادى دراسة أدبية تاريخية » تحت عنوان « عبقرية أبى شادى وتقدير النبوغ فى مصر » ، ص ٥٨ - ٦٥ .

فى سنة ١٩٠٤ حضر الى مصر رجل بلجيكى اسمه « دى جورفيل » وأخذ فى مخاطبة العظماء وخاطب الشيخ محمد عبده وأفضى اليه المرحوم بمعلومات مهمة كان لها شأن فى حينها ، وهذا الحديث عند نشره بعد وفاة المرحوم الشيخ محمد عبده أزال ظنون كثيرين عن المرحوم ، وجعل الناس تظن أنه كان يعرف كل شيء ويتألم ولكنه كان كاظماً غيظه وعند الفرصة المناسبة تكلم . وهذا الرجل - جورفيل - تكلم مع احدى الأميرات فقالت له عبارة عن الشبيبة المصرية كانت جارحة مؤلمة فلم يحرك فى ذلك الوقت أحد ساكناً إلا المرحوم أبو شادى بك فى جريدة (الظاهر) ودافع عن شباب مصر ، واضطرت تلك الأميرة العظيمة أن تعتذر وسلكت بعد ذلك فى الوطنية مسلكاً مشرفاً وكانت لها آثار ظاهرة .

وعندما فُتحت (بورسودان) كان الفقيد الجليل هو الصحافى الوحيد الذى كلل جريدته بالسواد حزناً على هذا الحادث التاريخى الذى اعتبره بمثابة فصل السودان عن مصر .

وعندما حدثت كارثة (دنشواى) العظيمة كان أول المهتمين بها والمشايعين للأمة المصرية وتطوع تطوعه المأثور للدفاع فيها .

وكان لايسكت عن ابداء رأيه الناضج وإعلان نظره البعيد فى شؤون وطنه فى كل موقف هام بل فى شتى الشؤون ، فكان قوة إرشاد عظيمة ومستمد الوحى والتشجيع فى مشاكل وأزمات . وإنه لمن العجيب جمعه بين الصحافة والمحاماة . قد يكون تحت ثوب كل محام صحافى كامل ، ولكن أبو شادى بك كان محامياً ظاهراً وصحافياً ظاهراً .

وفى فترة السكون النسبى الذى ساد مصر من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٨ كان أبو شادى بك لايسكت ولا يخلد الى السكون .. فكان يكتب فى الجرائد مقالات ١٠ بدة فى السياسة والاجتماع وكان يتلقفها الجمهور بشغف عظيم ، لأن الجمهور

عرف فضله وإخلاصه ومقدرته ، فأحبه وبقى على هذا الولاء له الى النهاية وسيبقى مجلاً لذكراه .

وفى سنة ١٩١٩ ومابعدها كان كأنه أعجوبة ، فقد كان يشبه «الحركة الدائمة»، كان دائما يستشار وكان دائماً يعطى فكره بشجاعته وصراحته المعروفة ، وكان يحل بعض المعضلات ، وكان يساعد بوقته وماله وعقله فى المسائل التى كانت شاغلة للأفكار ، وقد مات من جراء سعيه المرهق لنفسه وتفانيه فى الخدمة الوطنية .

كان لايعرف لغة من اللغات الأجنبية ، ولم يطلع على لطائف الفرنسوى ، ولم يضفْ الى علمه شيئاً مما جاء فى الكتب والجرائد الأفرنجية ، ولم يقصد مسرحاً إفرنجياً ، ومع ذلك فقد كان عنده معين لاينضب من الفصاحة الخلابة والأدب الغض والعبارات المؤثرة اللطيفة والمعلومات الواسعة المقتبسة من شتى المعربات وكانت مرافعاته تسر القاضى والخصم والموكل والجمهور ، وإن بعض موكليه كان يسر لو خسر قضيته على يديه من أن يكسبها على يد سواه !

ماكان يتراخى عن الحضور فى جلساته ، وكان يرضى الجميع ، مع إعطاء زكاة كثيرة عن علمه بالعمل فى القضايا . كان اذا بدأ يتكلم يبتسم كل الناس سروراً للابتكار واللطف والشخصية الجذابة التى لاتكتسب بالتعليم ولا بالدروس ، ولكنها موهبة طبيعية ، وكان كثير الملح والنكات الأدبية فيزيل الانقباض من وجه العدالة العابس .

لم يكن فيه كبرياء ولا عنجهية ، وكان يخالط الشبان ويحبونه ، لأن روحه كانت فتيه ثائرة ، وقلبه شاباً أخضر ، وكأن مثله لايشيب ولايزول شبابه !

لقد دل على أنه مات على حق ، وهو خدمة المبدأ الذى أقرته البلاد ولم يمل مع الهوى ، فقضى ضحية الواجب ومثال الوفاء الأكمل ، وعاش ومات مضرب الأمثال فى النفس واستقلال الرأى وبعد النظر والشجاعة الأدبية الفائقة ، لا يثنيه وعد مهما عظم،

ولا يرهبه وعيد مهما جلّ .

وكان الفقيد العظيم متخرجاً من الأزهر - تلك الجامعة الكبرى التى أخرجت كثيرين من عظمائنا ، والتى هى كنز لفحول الرجال ، ولم يظهر رجل عظيم فى مصر إلا وكان له بالأزهر اتصال قريب أو بعيد ، وفى اعتقادى أن مواهب الأزهريين لو نظمت تنظيماً صادقاًلكانت فتحاً مبيناً .

كان باراً بولده ، ورباه أحسن تربية ، وغرس فيه حب الأدب ، فجعله شاعراً وكاتباً ، كما جعله طبيباً وصحفياً نابهاً .

إنه لم ينشر لنا كتاباً من تآليفه ، وقد ضاعت مذكراته الخاصة ، وكثيرون من الناس يشتهرون بالكتب ، ولكننى أرى أن الشخصية البارزة المكونة والعبقرية الممتازة والاخلاق السامية والمبادىء الرشيدة هى قدوة حسنة ، فإن سقراط لم يؤلف كتاباً ، وإن السيد جمال الدين الافغانى « وقد كان الفقيد من مريديه » لم يؤلف كتاباً ، ولكن هذا لم يقلل من قدر أحدهما ، بل كان أدعى لحفظ آثارهما ، وتناقل أخبارهما ، ومع ذلك فالمحامى يؤلف أثناء حياته كتاباً كثير المجلدات من مذكراته ودفاعه الشفوى ، والصحافى له مقالاته ، والشاعر له ديوانه ، وكان أبو شادى بك يكتب فى صحيفة الدهر .

كان الفقيد عظيم الاعتداد بمصريته وعربيته الصميمة وهذه محققة ، وقد كانت سيرته مثال الشهامة العربية ، ومثال الوفاء الخالد لمصره العزيزة ، وكان يحدثنى أن أصله البعيد منذ أجيال ينتهى الى عرب الأندلس الذين استوطنوا مديرية الغربية بعد ارتدادهم وبعد زوال الدولة الأندلسية . وكانت له طريقة لطيفة فى هذا الحديث معى . فإنه ذات يوم أخبرنى« أنه تم الاحتفال بتتويج الملك بتاعنا » . فلما أظهرت استغرابى قال إنه يقصد الفونس الثالث عشر الذى هو ملك اسبانيا وملك الأندلس ، وقال لى إن اسمه العربى هو الفونش ! وحقاً كانت فى صفات المرحوم دلائل على

عربيته وعربيته الأندلسية ، فضلا عن مصريته ، فقد كان بقدر شهامته وعلو همته رقيقاً طروباً ، فخوراً فى اعتدال ، مقداماً . ولو عاش فى زمن العز الأندلسى الصحيح لكان وزيراً من الوزراء الشعراء أهل الحنكة والرقة والظرف الذين يجمعون بين جد العمل الدولى وبين رشاقة الحياة اللينة الرغدة - أولئك الذين يحفل بهم كتاب « غصن الطيب فى تاريخ الأندلس الرطيب » .

سيداتى وسادتى :

قلت لكم إن أبا شادى كا صحفياً بمعنى الكلمة أى ليس هاوياً ، وأدلنى على ذلك ، غير مشاهداتى الشخصية الطويلة وعرفانى لمجهوداته وآثاره القيمة :

١ - أنه اهتم قبل سواه بمسألة « بورت سودان » .

٢ - أنه تعرض دون سواه للرد على سيدة عظيمة مصرية وصفت الشبان المصريين بمالا يليق حتى ألزمها الحجة .

٣ - أنه أول من نبه الأمة الى الخطر من ارتفاع أثمان الأراضى بمناسبة حصول شركة مصر الجديدة على أراضى واسعة بأثمان زهيدة وبيعها بالغالى .

٤ - أنه اهتم بحادثة دنشواى المنكودة الطالع اهتماما عظيماً .

٥ - أنه رسم خطة عملية لامتلاك السودان فعلا باستثماره ورفع صوته عالياً فى الوقت المناسب لسراتنا وأغنيائنا ، وإن كان لم ينجح فى تحريكهم ، ولكنه كان صادق الرأى ، بعيد النظر ، عظيم الوطنية ، كما دلت الحوادث والأزمات التالية .

٦ - أنه ابتدع بذهنه الصحفى المطبوع سلسلة مقالات إصلاحية بعنوان « آه لو كنت أميراً » ، ومن المدهش أنه فى ذلك الوقت كانت تمثل رواية فى انجلترا عنوانها « لو كنت ملكاً » وقد قلده كثيرون من الكتاب فى هذا الأسلوب النقدى البديع . وقد كانت له آيات أخرى كثيرة فى التفنن الصحفى تشهد بحسن ذوقه وعظيم مواهبه الأدبية .

إن هذا الرجل كان مخلصاً وفياً لسعد زغلول ، ولم يكن هذا الإخلاص والوفاء لشخص زغلول وإن كان رفيق صباه - وإنما كان لأن زغلول هو مظهر الوطن المصرى فى وقته . فالنظر اليه أو السامع لحديثه إنما يرى (مصر) الجميلة المجيدة بنيلها وخصبها واعتدال جوها وعراقة تاريخها ، ولأجل هذا أطلقوا على (سعد زغلول) «رمز الأمانى القومية» ولكنه فى الحقيقة مظهر الجلال الوطنى ورمز الأمانى . ليس (زغلول) علماً يلتف الأبطال حوله بل هو قلب (مصر) الخافق وعقلها المدرك ، وبصيرتها التى تحن الى أجمل أيام الماضى ، وتعمل للحاضر ، وتشرف على المستقبل. ولما كان المرحوم أبو شادى بك شاعراً والشاعر يهوى الجمال والجلال ويتعشق الحقائق وينتعش بالآمال فقد أحب سعداً وأخلص لسعد ، وكان وفاؤه لهذا الزعيم العظيم دليل وفائه الصادق لوطنه ، وحبه إياه علامة الحب لمصر .

إن وصف الرجل بأنه عصامى وصف بسيط ، وقد أصبح مألوفاً تلوكه الألسن ، وذلك للوهم السائد ، لأن الكلمة وإن كانت عربية ومنسوبة الى « نفس عصام »[(١)] الا أن الفكرة أوربية حديثة . وهناك فى الغرب كل الطرق ممهدة لكبار الرجال الذين يكونون أنفسهم ، فقد فرشوا لهم فى الطريق ومهدوا لهم فى الطريق ومهدوا لهم كل شىء ، وأما هنا فى مصر فالأمر من أصعب الأمور ، وذلك العصامى الناهض يجاهد ضد قوى مظلمة فى كل شىء . فإن كان للأوربى العصامى فضل ، فلهذا المصرى العصامى أفضال مضاعفة ، لأن كل شىء هنا - للأسف - مصنوع للمعاكسة بالذكاء والخلق ، وقبل أن يظهر العصامى المصرى لابد له من التغلب على أهوال وأهوال وعلى عقبات التحاسد الذميم والوسط المحافظ الجامد .

---

(١) إشارة إلى قول الشاعر :

نفس عصام سوّدت عصاما   وعلّمته الكرّ والإقداما

لقد لون أبو شادى نفسه بالدراسة على الطريقة الأزهرية التى هى طريقة تربى الذكاء وتدرب المواهب العقلية على الإدراك ، فالأزهرى النبيه كالضابط الألمانى يصلح لكل شىء فى الشرق والغرب ٠

كان أبو شادى بك ممتازاً بصفة قلَّ من يلاحظها أو يقدرها قدرها - هذه الصفة هى صفة التحمس للأفكار الشريفة والمقاصد السامية أى الاندفاع نحو الأشياء العظيمة ٠ وهذه العاطفة هى التى تدفع برجال البر والخير والمبادىء الشريفة ليعملوا جلائل الأعمال ٠

كان كثيرون يظنون أن المرحوم أبا شادى بك لايعنى باعداد قضاياه ، وذلك لندرة ماكانوا يرونه يقلب الدوسيهات ، ولكن هؤلاء كانوا على خطأ ٠ كان أبو شادى بك على موهبتين نادرتين فى فن المحاماة ٠ الأولى - أنه سريع الإدرك أشبه بآلة (كوداك) التى تلتقط الصور المتحركة ٠ فكان يخزنها فى مخزن عقله بألوانها فلا تتركه أبداً ٠ الثانية - أنه يمشى دائماً على النقط الحساسة المهمة التى يدور عليها مجال البحث ، ثم إن فطرته لاتخونه ٠ ولا يحتاج المحامى الكفء الخطيب بفطرته الى أكثر من هذا ٠

إن المحامى الفرنسوى أو الانجليزى يتعزز أحياناً على القضاة ويتأبى ويعتذر عن الدفاع ويتمحل الأسباب وينتحل العلل ٠ وقضاته فى كثير من الأحيان يقبلون عذره ويفسحون له حاشية أو هامشاً من التسامح فى صحيفة العمل لعلمهم بأنه مثلهم إنسان عالم وفنان يعروه ضعف ووهن أو ميل الى الكلام أو انصراف عنه ، أما المحامى المصرى فينبغى له دائماً أن يكون مستعداً أو شاكى السلاح كالديدبان اليقظ، فإنه منذ يلبس ذلك الطيلسان القاتم اللون فقد تجلبب بثوب الواجب الدائم الأداء ، فلا يعرف هوادة ولا هدنة لا من موكليه ولا من رفاقه ولا من قضاته ، وهكذا كان المرحوم أبو شادى بك مثالا للحارس الذى لايغفل ، فيحضر فى صباح واحد فى

جملة قضايا ويترافع فيها جميعا إذا وجد موافقة من القضاة . وقد سمعته يترافع فى يوم واحد فى جملة قضايا مختلفة النوع ، فكنت أدهش من أنه يعطى لكل قضية قدرها وقيمتها ، ويعطى لكل عبارة نغمتها المناسبة الموافقة لنسق الموضوع ! وكأن فى ذهن هذا الرجل ميزاناً دقيقاً كميزان الجوهرى فلا يزيد مثقال ذرة ولاينقص مقدار شعرة ... وكان فى نفسه مقياس لهبوب الريح مثل الذى يسترشد به القبطان فى البحر ، فكان يشعر بادنى هبات «النسيم» ... !

سمعته مرة يترافع عن رجال أشداء اتهموا بقتل عمهم فى رابعة النهار بأن شدّوا خناقه على جدار حتى فاضت روحه ... فاقشعرت أبداننا من وصف التهمة وتساءلنا : كيف يكون موقف هذا المحامى من هؤلاء المتهمين الذين سدوا بفعلتهم مسالك الدفاع ؟! فلما بدأ الرجل يتكلم جمله الأولى كان الكل واجمين المحامون المحبون له مشفقين عليه مثل شفقتهم على القتيل ... ! ولكن لم تمض دقائق معدودة حتى بدأنا جميعاً نغير رأينا فى الشيخ الذى مات ، ونشك فى صحة التهمة ، ونشعر بأن المتهمين إن لم يكونوا أبرياء فهم على الأقل جديرون بمنتهى الرحمة !

هل هذا من التجارب والاختبار أو من حذق الصناعة ؟ كلا ! إنه موهبة وعبقرية لايعرف سرها إلا الذى أعطاها والذى تلقاها ..

إن فى أوروبا وفى فرنسا على الخصوص جملة طرق لتمجيد العظماء غير النياشين والأوسمة والرتب للأحياء والأموات . ففى فرنسا توجد (الأكاديمية) للأحياء وينتخب لها كل نبيه ومدره نابغة وفصيح ، وفيها العالم والسياسى والشاعر والمحامى ويسمونهم بالأربعين الخالدين . ويوجد عندهم أيضاً هيكل (البانثيون) فى قلب باريس يحج اليه أهل البلد والغرباء ، وفيه يدفنون العظماء . ونحن هنا فى الشرق العربى وفى مصر بالذات لم تؤسس لنا ندوة (كالأكاديمية) الفرنسوية تجمع مظاهر النبوغ فى الأدب والعلم ، وكذلك ليس لعظمائنا من أمثال الفقيد مدفن جامع معروف يحجُّ اليه

الناس ويبقى مدى الدهر مصدراً للموعظة الكبرى ، ومشجعاً على إتيان أعظم الأعمال، وإن فى مصر بلا شك أربعين يستحقون إنشاء (الاكاديمية) المصرية تبجيلا لهم وانتفاعاً بمجموع مواهبهم ، كما أن فى ثراها بلا شك من يستحقون بناء ذلك المدفن الأهلى العظيم ليضم رفاتهم ويعظمها .

كانت فصاحة أبى شادى بك متعددة الألوان مثل شعاع النور الذى هو فى الحقيقة مؤلف من سبعة أشعة اذا اجتمعت تكون منها نور أبيض ... كان فصيحا فى مرافعته الفصاحة القضائيه التى هى نوع خاص وقائم بذاته . وكان فصيحاً فى خطبه السياسية فيخطب فى جميع الأوساط بما يناسب الوسط ، فيطرب له الخواص ويسر كما يستهوى العامة والدهماء . وإن ننسى لاننس اليوم الذى عاد فيه سعد باشا من جبل طارق فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ وسرنا اليه وفداً من المحامين ، وكان المرحوم أبو شادى بك مريضاً بالغاً غاية الضعف ، فوقف يخطب ساعة فى تحية دولة الباشا الرئيس مرتجلا من آيات بيانه نثراً ونظماً ، فما ونى ولا وهن ، ولاتردد ولا أخطأ ولا تلعثم ، وكان يستشهد بالآية الكريمة والحديث الشريف والحكمة البالغة والشعر الرصين .

وإذا استثنينا كلمات الله والأحاديث النبوية الشريفة ، فقد امتزج كلام الخطيب الكبير بكلام الأقدمين النابغين وشعرهم بديباجة واحدة ، فلم يكن للسامع أن يستطيع التمييز بين أقوال مشاهير القدماء وقوله !.

ولم تكن تفوته فى أثناء تلك الخطبة الجدية المداعبة الظريفة والنكتة الحاضرة والملحة المستحبة - ذلك لأن الفقيد كان عالماً بالنفس ولايخفى عليه ما لابد أن يعتورها من الملل اذا استمرت أبداً تحت أحكام الجد العابس . وكان فى أحاديثه الخاصة ممتعاً كثير الفكاهة متنوع البحث قديراً فى تفننه ، يكاد يخوض فى بحثه أى موضوع ، نظراً لذخيرة معلوماته العامة ، مما اكتسبه بالمطالعة الكثيرة والتجارب

الوافية ، وحفظته له ذاكرته النادرة التى بقيت قوتها حتى آخر حياته مضرب المثل فى الإعجاز ، وقد دعى لذلك بحق « التاريخ الحى لعصره » ! ٠

مات أبو شادى ففقدت المحاماة بموته شعلة من الذكاء النادر ، والحصافة العظيمة ، والفصاحة الخلابة ، وفقد الأبرياء والضعفاء نصيراً كبيراً لهم ماكان يغفل واجبه ، وفقد المجلس النيابى كما فقدت منابر الخطابة شخصية عظيمة وخطيباً مفوها جريئاً كان أستاذاً لما أبدعه من أسلوب خطابى جامع لم يبلغ شأوه مقلدوه وربما لن يبلغ أحد ، وفقدت الصحافة أحد أركانها الأول وعلماً ضحى كثيراً فى سبيلها وكان ملاذاً ونبراساً للكثيرين من محرريها وكتابها ، وفقد الأدب العصرى شيخاً عاش طول عمره فتياً وكان يغذيه دائماً بآيات بيانه الساحرة وآرائه السليمة ومبتكرات تعبيره وتصويره الشائقة ، وفقدت الوطنية والسياسة زعيماً جليلا ، عظيم الشجاعة الأدبية ، راجح الفكر ، لايستهويه غرور ولا نفع شخصى ، ولا يقوده إلا المبدأ ، وفقدت الأمم العربية بلا استثناء محامياً عن قضيتها المشتركة ونصيراً من أكبر أنصار الجامعة الإسلامية ، وفقد رجال الفقه الإسلامى وشيوخ التصوف إماماً من أئمتهم كان يرجع الى آرائه الناضجة سراً وجهراً فى كثير من المشكلات والمواقف المعضلة ، وفقدت المروءة صديقها الأول ، والاحسان خليله الوفى ، والشهامة رفيقها الأبر ، وفقدت «مصر» جملة واحدة مجموعة عظيمة من أمثلة النبوغ والعبقرية المصرية العربية الأصيلة ، ولكن هيهات أن يفوت الخلود هذه العبقرية الفذة ٠٠ ففى ذمة المولى يا أبا شادى !

* * * *

فوجئت مصر الأسيفة بنعى المغفور له الأستاذ محمد بك أبو شادى نقيب المحامين وعضو مجلس النواب عن دائرة الخليفة سابقا(*) فكان لنعيه رنة حزن فى أفئدة جميع من عرفوه ٠ وكل القطر المصرى يعرفه محامياً فصيحاً وخطيباً مقتدراً

(*) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا الكلمة التى كتبها لطفى جمعه ونشرت بجريدة الأهرام فى أول يوليو سنة ١٩٢٥ تحت عنوان « كلمة حق عن فقيد عظيم » ٠

قد تخرج فى الأزهر الشريف واشتغل بالمحاماة والصحافة والسياسة والأدب ، وكان شاعراً بليغاً يقول الشعر ارتجالا فى أعظم الأحيان ، وقد ذاعت شهرته أولا فى الوجه القبلى وانفرد بالنبوغ فى الدفاع فى القضايا الجنائية ، وانتقل الى القاهرة فى أوائل هذا القرن فسبقته شهرته وزادها فى زمن قليل بما أوتى من ذكاء فطرى وقدرة على العمل . وكان فى مرافعاته حاضر البديهة قوى الذهن لاتفوته صغيرة ولا كبيرة ولا يمل سامعه مهما طال موقفه .

وقد أسس فى سنة ١٩٠٣ جريدة « الظاهر » على المبادىء الوطنية الحرة وجعل لها فى زمن قصير شهرة ذائعة بفضل المقالات التى كان يدبجها فى السياسة المحلية والمسائل الدينية والأدبية . وقد أبلى بلاء حسناً فى حادثتى دنشواى وافتتاح بورت سودان ، وكان له جانب مع الله لم يضيعه فكان متصوفاً وشيخ سجادة السادة الأحمدية . ولما نضهت مصر نهضتها الأخيرة كان فى مقدمة المشتغلين بالقضية المصرية ، وقد أصابه المرض الأخير بسبب تحمله مشاق السفر بالسيارة من أقصى البلاد إلى أقصاها فى سبيل مناصرة إخوانه ورجال حزبه فى الانتخابات . وكان على الرغم من عدم علمه باللغات الأجنبية لايقل إدراكا وذوقاً عن متقنها ، وكثيرا ماصاغ فى مرافعاته مبادىء قانونية ثابتة فى كتب القانون الأجنبية لم يطلع عليها ولكن هداه اليها ذكاؤه المفرط وطول اختباره وتجاربه . وكان والداً باراً فقد بذل أعظم مجهود فى تربية ولده الوحيد حتى بلغ أرقى درجات العلم فى أوربا . وكان سلوكه مع القضاء مزيجاً من الاحترام وحفظ الكرامة . أما أخلاقه مع زملائه وأبناء مهنته فكانت دائماً على وتيرة واحدة وهى الإخلاص والصداقة ودوام المودة . ولم يقصر يوماً فى انتصاف لمظلوم والأخذ بناصر الضعيف والفقير . ومن غرائب الصدف أن وفاته جاءت فى ختام السنة القضائية فكأن نفسه المشربة بحب الواجب وحب صنعته أبت أن تفارق العالم الثانى إلا فى الوقت الذى يؤذن فيه للمحامين بالراحة ! ولكن راحته

أبدية ، ويحسن بهيئة مجلس النقابة الموقرة أن تقيم له حفلة تأبين إقراراً بفضله وتخليداً لذكره ، فقد كان من صفاته أن يحبه كل من عاشره، وأكبر دليل على ذلك وفاء حضرة وكيله محمد أفندى العروسى الذى أخلص له فى صحته ومرضه ووفاته ، وضرب بإخلاصه ووفائه مثلا يقتدى به ، فرحمة الله على هذا الفقيد الجليل وعزاء لولده وأصدقائه وجميع من خدمهم بعلمه وأدبه .

محمد ابو طايله

شاب مصرى يقول حينا إنه إسكندرى وحيناً إنه فلاح عريق · سافر فى طلب العلم إلى ألمانيا أيام هبوط المارك ثم عاد بشهادة فى الاقتصاد وهى إجازة الدكتوراة فاشتغل بالصحافة أولاً ثم دخل وظيفة حكومية بوزارة التجارة مذ كانت مصلحة وكان مقرها بدار عرابى باشا أو مقر وزارة الحربية بشارع قصر النيل ، وكان يعمل مع لفيف مع الصحفيين أمثال محمد مسعود وراشد رستم فى تحرير مجلة كانت تصدرها تلك المصلحة · ثم انتقل الى صحف أخرى وقيل إنه كان يجمع أكثر من عملين كأن يترجم لدار الهلال ·

وقد عرفته فى أول الأمر محرراً فى مجلة البلاغ الأسبوعى (١٩٢٩) وكان يبدو لى ككرة من اللحم والشحم وكأنه لشدة خموله البدنى نائم مستغرق · فكنت أقابله لأسلّم اليه مقالاتى ويتودد إلىّ · فلما غاب عبد القادر حمزة فى لندن أثناء مفاوضات الوفد (١٩٣٠) ابتدع نظاماً للاستغلال فكان يطلب منى هدايا وكتباً وأخيراً أخذ يوزع علىّ تذاكر لحفلات راقصة وأخرى خيرية باسم السفارات الأجنبية ، وهو يريد بذلك أن يستعمل سلطته كنائب عن رئيس التحرير ، وإلا فإنه يضطهدنى ، فكلمته أول الأمر بلطف ثم أفهمته أن مسلكه شائن وأن عادة « البرطيل » والرشوة لاتنفع معى وأنه متخرج فى ألمانيا ولا يليق به أن يفعل فعل الغفراء وصغار المحصلين ، ولم يلبث أن شاع فى إدارة الجريدة أنه دّس مقالا على أحمد سعيد أفندى المشرف على جريدة البلاغ فيه طعن مر على صاحب الجريدة نفسه وأخذ يذمه ويتهمه بأنه مستغل للشباب المتعلم وخصوصاً المتخرجين فى الجامعات الأوروبية وأنه يعطيهم مرتبات لاتؤدى

الكفاف وأنه ينتهز فرصة حاجتهم اليه ليذلهم ويحقرهم ويقطع من مرتباتهم باسم عقوبات على مخالفات موهومة ، كأن يغيب أحدهم ساعة بعذر شرعى أو ضرورة قاهرة كعيادة طبيب ، وأن غايته أن يغتنى بمجهود سواه وأن يسود على أكتاف المحررين المظلومين وأنه يستغل جميع أوقاتهم صباحاً ومساء ولايترك لهم فرصة يستريحون فيها أو يستردون عافيتهم .... إلخ .

وكان هذا المقال مع قليل من التغمية منصباً على حالته مع رئيسه عبد القادر حمزة أثناء غيابه ، فلما دسها على أحمد سعيد وهو رجل بسيط مخلص يحرص على عمله لأنه مصدر رزقه الوحيد قرأها فى ذهول ثم أشرقت عليه الحقيقة بفضل الله وهو يسميه « بركة العيش » أى حب الله أن لايقطع رزقه بسبب نشر هذا المقال المدسوس. ثم أخذ المقال ووضعه فى حرز حريز وهو خزانة حديدية محتفظاً به الى أن يعود صاحب الجريدة . فلما سأله عنه صاحبه ولم لم ينشر تعلل له بأسباب واهية ، ولكن الدكتور فهم « وكتم الدم على القيح » - وهذا أيضاً تعبير أحمد سعيد - فلما عاد صاحب الجريدة أطلعه أحمد سعيد على المسألة فدعا إليه المترجم المذنب وناقشه فبرأ الى الله من هذه التهمة وقال إنه سوء ظن أحمد سعيد وفرط حرص ومبالغة فى الظهور بمظهر الوفاء والأمانة .... إلخ ، فطرده الصحفى الكبير بعد أن صرف له مكافأته ورد له المبالغ التى اقتطعها من مرتبه .

فتسلق الرجل على أكتاف بعض الصحف والمجلات حيناً من الدهر ، ثم توصل بالرجاء والواسطة الى التوظف بقسم التعاون بوزارة الزراعة واستعمله مدير هذا القسم لحمل أعباء الترجمة التى يعجز عنها المدير وحينا يكتب ويترجم ويضع إمضاء المدير كما كان يفعل محمد مصطفى حمام لاشتهار المدير بالعجز التام فى اللغة العربية .

وكان أبو طائلة يستعمل معه الدهاء أو النعومة ويتفانى فى التقرب إليه ليحصل على علاوات ودرجات وهى حياته . ومع ذلك لم يكف عن العمل للصحف والمجلات فى أوقات فراغه وربما فى بعض أوقات العمل فى الديوان .

وحدث حادث غريب نشأ عن تحككه بالأعمال الحرة ، فقد سعى فى الحصول على وظيفة محرر فى مجلة إحدى الغرف التجارية وكان عمله أن يكتب للمشاهير مقالات بأسمائهم وإن كتبوا شيئا ينقحه . فوقعت فى يده مقالة لأحد الرؤساء وطلب منه أن ينقحها وزاد عليها طعناً مريراً فى أحد الأحزاب السياسية بقصد الانتقام ، ولم يفطن الرئيس الى الزيادة الى أن تناولها أحد أعضاء هذا الحزب المطعون فيه بالنقد الشديد فى صحيفة يومية ، فوقع الرئيس التجارى فى حيص بيص وأحضر الدكتور أبو طائله وناقشه فى الزيادة ونهره وقال له أنا لم أكتب هذا الذى كان موضع العتاب والمؤاخذة وأنت دسيسة وأنت خائن للعمل وسأبلغ رئيسك فى التعاون أنك تعمل عندنا سراً فأشفقنا عليك فأردت الإيقاع بنا ، وتذلل أبو طائلة وانحنى وخضع واستغفر وبكى وتشفع بأولاده وأقسم الإيمان المحرجة على أنه فعل مافعل فى ساعة ذهول واستيفاء للموضوع وقد أدركته علة الصحافة وتحرير المقالات الشديدة وأنه تاب وأناب ... فقبلوا عذره وتوبته بعد أن عزروه وأنذروه وجعلوا عليه رقيباً يراجع مقالاته قبل نشرها .

الى هنا كان الأمر سراً بينهم ، ولكنه هو الذى فضح نفسه . فإنه قابل عضو الحزب الذى نقد المقال وعاتبه عتاباً شديداً وقال له « خربت بيتى أو كدت وأذيتنى فى عيشى ... إلخ ». فدهش الرجل واستفسره وسأله عن جلية الخبر ، فروى له كل ماوقع. فضحك عضو الحزب وقال له : أأنت متعلم فى المانيا ؟ وأنت دكتور فى الاقتصاد وأنت صحفى قديم . بل هل إنسان يعقل مايقول ؟ .... أنت دسست على رئيسك فى العمل الحر جزءاً من مقال وأدخلت الزيادة بغير إذنه ولم تأخذ رأيه ولم

تمهد للتعديل الذى اتخذته بقول أو إشارة . فرأيت المقال ورأيت فيه مآخذ وأنا لا أعرفك ولا أعرف رئيسك فى الغرفة التجارية ولا أعرف المقال ولا طريقة كتابته ، ورأيت من واجبى أن أرد على الطعن الذى انطوت عليه المقالة . فهاج صاحبك وماج على ماحكيت لى وتبت أنت واعتذرت ، صحيح أننى لو لم أكتب لم يعلم صاحبك ولكن قيامى بواجبى أفشى سرك وأحرج موقفك ولكن أى دخل لى فى ذلك ومن أين لى أن أعلم هذه الدسيسة الطويلة العريضة ومن أين لى أنك تزيد على المقالات وأنت تنقحها أو أنك تكتب المقالات بأسرها وتمهرها بإمضاء الجهلاء دون أن تعرضها عليهم أو تفهمهم مراميها . حقا إن رأيك عجيب وسلوكك أعجب .

فصمت أبو طائلة لحظة ثم قال له : ولكن لو لم تكتب هذه المقالة مافطن الرئيس الى تلك الزيادة .

فضحك مخاطبه وقال : حقاً ليس لى معك حيلة وتركه .

ولو عرف حادثته فى البلاغ لقال له ومن الذى أوعز إليك بالمقال الذى دسسته على أحمد سعيد فى غيبة صاحب الجريدة وجعلته شكاة شخصية فى قالب نقد مباح وبما أنك تفعل مع مديرك فى الوظيفة مثل الذى تفعله مع هؤلاء الناس فإن هذا طبع فى البدن لايفارقه حتى يلامسه الكفن ، وربما بعد الكفن تجد حيلة للدس على الأرواح والملائكة .

هذا وإنك تدهش لو علمت نعومة هذا الدكتور ولين ملمسه ولطف حديثه وحسن استقباله وإقباله عليك كأنك شقيق روحه وقسيم نفسه وأنه لم يأنس بك منذ عشرة أعوام وهو يخفى وراء هذا لا كراهية ولا بغضاً ولكن سخافة وقلة حيلة ورغبة فى الانتقام عاجزة عن الصراحة وفقيرة فى الشجاعة ، وهذه أيضاً خلال موروثة عن أجداد مظلومين ، وعن اختلاط الدم بدماء أجنبية اختلاطا غير موفق . ففى ظنى أن هذا الرجل لاينطوى على شر بالمعنى المفهوم ولكنه يحب أن ينتقم لنفسه فى صغائر

الأمـور بصـغـائر الوسـائل ٠ وليس عنده إلا طريقـة واحـدة وهو بطبعـه نؤوم الضـحى والظهـر والعـصـر ، خـامل الهـيـأة يطلب العيش والاسـتزادة من الربح فـيظهـر بمظهـر المالأة والمجاملة ويلجأ فى الكسب الى طرق ضئيلة لأنه يجبن عن الطرق القوية ٠ وهو فى مـجـموعه كـاتب أديب ومـترجم حـاذق ولكن مـدة تعليمه التى قضـاها فى ألمانيـا لم تبرئه من هذه العادات المصرية وربما تزود منها وزاد عليها ٠ وهو يناهز الخمسين ومن أبناء القرن الرابع عشر الهجرى ٠

محمد إحسان

محام كهل يخالف شكله حقيقته فهو إنسان رقيق فى صورة رجل غليظ وله تصاوير كاريكاتورية غاية فى الغرابة ولاسيما التى صنعها له صاروخان أثناء مرافعة الأستاذ إحسان فى قضية القنابل . فقد تمكن هذا المصور الماهر من التقاط نظرة إحسان من وراء نظارته الزجاجية وقد انقلبت جفونه وظهر بياض العين واختفى السواد وراء الجفون وقد نشرت هذه الصورة فى جريدة الأهرام فى أغسطس سنة ١٩٣٢ .

أما إحسان نفسه فمحام قدير وشاعر لابأس بشعره « نشرت له الأهرام مقطوعات عديدة يتناول فيها شؤوننا اجتماعية وخلقية ونفسية ويحلق أحياناً الى عالم الأرواح ». وكان صديقه الأستاذ محمد خالد باشات « من أقدر المازحين فى مصر ومن أساتذة النكتة العامية البارعة واللعب بالألفاظ ، يدعوه ممازحاً «شاعر الحسانية» وهو الحى الشهير بالقصابين والفتوات وأولاد البلد ، وذلك لأن فى لهجة إحسان مايشعر بنشأته فى الأحياء الوطنية ، فهو قاهرى عريق حلو اللسان وفىّ لأصدقائه ، كريم الطبع محبوب من الجميع . وهو أسمر اللون كبير الجسم غليظ التقاطيع أقرب الناس الى المرحوم حفنى ناصف القاضى الشاعر المقرىء الشهير وكان هو الآخر رحمة الله ذا باطن يخالف ظاهره وهكذا كان المرحوم محمد حافظ إبراهيم ، ويندر فيمن عرفنا من يتفق ظاهره وباطنه ومن أخصهم المرحومين أحمد شوقى والكاظمى والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وقاسم أمين . ويحق لإحسان أن يؤرخ له بين الشعراء وهو فى مجلسه قليل الكلام غير موفق تغلب عليه النزعة البلدية ويكتم آلامه

وهمومه وشديد الصبر على حوادث الدهر ٠

ومما أذكره له بخير ولا أنساه أنه أثناء قضية القنابل «أغسطس سنة ١٩٣٢» كان قد اتفق مع هيأة المحكمة وهيأة الدفاع ، على المرافعة عن موكله المنتدب عنه يوم الأحد ١٤ أغسطس ولم يكن لى علم بهذا الاتفاق ٠ وفى يوم ١٢ و١٣ أغسطس كنت وصلت الى حال من التعب والضنى والقلق يرثى لها وكان علىّ أن أدافع عن العزب وولديه « وهم من عمال العنابر وقد صُنعت بعض القنابل فى بيتهم» وعن الدكتور نجيب إسكندر ، فشعرت أننى لن أطيق صبراً وأنه لابد لى من المرافعة يوم الأحد لأخلص من هذه التبعة التى كانت فى عنقى من ديسمبر سنة ٣١ وقد امتدت جلسات هذه القضية ستة أشهر ٠

فلما جاء يوم ١٣ أغسطس قضيْت ليلة فظيعة وصممت على المرافعة فى صباح الأحد أو التنحى عن القضية ، وكان لهذا التعب والقلق أسباب كثيرة ٠ وفى صباح الأحد خرجت مبكراً أحمل ملف الدعوى وقصدت الى المحكمة وكانت الساعة الثامنة وقد أخذ إحسان عدته وطبع مرافعته ووزّعها على رجال الصحافة لينشروها له برمتها لا أخذاً عن فمه ولكن نقلا عن نصها الرسمى الذى أبدع تنسيقه وأتقن طبعه ٠ وعندما دخلت المحكمة كان صديقى بين يدى القضاة يتحفز للمرافعة ، فلما شرحت المسألة للقضاة تنحى الأستاذ إحسان عن المنصة فى كرامة وشهامة وأفسح لى المجال غير غاضب ولا حانق ، وبعد أن ترافعت ساعتين ورفعت الجلسة للاستراحة أقبل علىّ معانقاً مهنئاً وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فدلنى بذلك على سلامة قلبه وإخلاصه ورفعة خلقه وتولّدت الصداقة بيننا ومازال وطيدة ٠ وكان بالمصادفة جاراً للأستاذ الثعالبى فى شارع خورشيد البحرى بشبرا فقدمته إليه وحضر مرافعته وأثنى عليه ٠ وهو متأهل وله أولاد وعيلة ورزق حسن ٠

محمد أسعد

كان شخصاً بهلوانياً عجيب الأطوار حظى بوظيفة إدارية فى محكمة مصر واقتنى ثروة عقارية طائلة عن طريق وصية أو ميراث من زوج الأرملة التى تزوج منها . ومن ممتلكاته بيت بناه فى شارع شبرا الكبير على يسار المقبل على دوران روض الفرج أبدع فى بنائه وتفنن فى تزيينه وتنسيقه وقد جعله على النسق العربى القديم «أرابسك » كالمساجد والمدارس و« دندشه » بالحلى من مقرنصات ومربعات ودوائر ورسوم بارزة وأخرى غير بارزة ودهنها بألوان حسنة ثابتة ، وجعل له المشربيات والرواشن حتى أنه كان يبدو فى حياته تحفة تحمل فى الجيوب أو توضع على المناضد زينة لها وتجميلاً ، وجعل بعض النقوش بماء الذهب ومنها لوحة فاخرة باسمه « محمد أسعد » فى إحدى الزوايا الظاهرة وقد أفرد لنفسه شقة افتنَّ فى تزيينها ما استطاع وزينها بالأشجار الصناعية وجعل فى سقفها قبة وأضاءها بالألوان الكهربائية ذات الألوان المختلفة فإذا طرب لزيارة ضيف أضاء عدداً من المصابيح الملونة ثم يطفىء البعض اذا وردت كلمة لاتعجبه وهكذا يثب من مكان الى مكان مشعلا ومطفئا طوال السهرة .

وكان الرجل يبدو دائماً « مقلفطا » متنعما على الرغم من إلحاح الكبر وقد جمع بين قواعد الأدب التركية القديمه كتقبيل الأيدى والوقوف موقف الذل أمام من يحتاج اليه ثم تمليقه بتقبيل طرف « الاتك » وحشد ألفاظ التعظيم والتفخيم ، حتى اذا انتهت مصلحته ولم تنطلِ حيلته أخرج من حنايا نفسه ضد ماكان يظهر من المحبة ويبدى من الزلفى والمجاملة . وأظن هذا الأمر لم يكن مقصوراً على أسعد بل كان عاماً فى

المصريين كلهم ، إلا من عصم ربك وهم قلة .

وكان عمره مذ عرفته فى سنة ١٩١٧ حوالى الخمسين عاما وهو قصير القامة خمرى اللون بصورة موظف وعقلية موظف ونفسية موظف وتراه دائماً باسماً ومنحنياً للتحية ومتقدماً ومتقهقراً وناظراً بزاوية ضيقة من جفنه الملتهب ليبغت ضمير المخاطب فيعرف نيته أو قصده أو ميله فهو دائماً متربص مترصد ليسمع كلمتك أو يرى نظرتك فيفهم قصدك ليسبقك اليها ، وليوافقك على رأيك دون شذوذ أو معارضة وله صوت ناعم ولغة منسجمة كبعض أعيان الخدم فى القصور الكبيرة وهذا يؤيد ماروى من أنه تربى فى بيت أحد السادة الأتراك وأن الرجل انزلقت رجله فى حمام دهن بزبد الصابون فوقع فمرض فمات .

وكان أسعد فى مقتبل العمر فلعب شبابه وجماله بلب الأرملة العجوز فتزوج منها وورث عن زوجها وعنها ثروة الاثنين جميعا ثم بنى مابنى ، وكان مرتبه الحكومى ضئيلا بجانب ثروته . فقد كانت له أراضى زراعية يؤجرها ويظلم مستأجريها وله بيوت يستدر إيرادها . وكان يبدو أحياناً كأنه يموت من النعومة أو كأنه صبى حمام بلدى ينام ويتيقظ فى وسط البخار وبين الأكياس وحجارة التدليك ويلف حول وسطه بشكير الإحرام ولعله كان يعالج كهولته بالبخار والحمام الساخن طريقة ورثها عن سادته . ولكنه حمامى يلبس الردنجوت الثمين والمعاطف الضخمة .

وكانت له نزاعات فى القضاء بينه وبين الفلاحين وبينه وبين أنسبائه من الاعيان ولاسيما أسرة صادق الجواهرجى . وكان مرير الخصومة عنيف العداوات .

ويتبع فى أعماله القضائيه قواعد التأنق فيربط مذكراته بأشرطة الحرير الحمراء والزرقاء ويزين نصوصها بالمداد الأحمر والأخضر ويبالغ فى التنسيق والتزويق كأنه يعير أوراقه جزءاً من التواليت الذى درج عليه فى معالجة نفسه ، ولو استطاع أن يغطسها فى مغطس دافىء ثم يدلكها ويدهنها بالأصباغ ويضمّخها بالعطور ماتردد

ولكن هذا الذى يفيد الجسم الانسانى يضر بالورق الرقيق .

وكان يظن دائماً أنه يربح قضاياه ولن يخسر واحدة منها . ويمهد لهذا الكسْب بوسائل شتى مما يعرفه الموظفون أمثاله من طرائق « الخاطر تشن » و « المحبة نامة » و « اليغنيش » ثم تراه يهمس فى الآذان ويغمز بالأعين ويضغط على الأنامل ليفهمك أن النتيجة مضمونة . وحواجبه تقضى حوائجه وموائده مبتدأ خبرها فوائده ووسيلته فعل فاعله حيلته .

ولكن كثيراً ماكانت تخيب آماله وتحبط أعماله إذا وقف له قاض عادل بالمرصاد أو استعد له محام حريص على شرف صنعته . ولا أريد أن أقول إن محمد أسعد كان فاسد الذمة حاشا لله ، ولكنه كان رجلاً يساير الزمن ويرى بعينه تغلغل الفساد فى الأحكام ووسائل الظلم المنتشرة فيجب أن يغترف من بحر الباطل قبل أن يجف ماؤه فلا يبتكر ولايبتدع ولكنه يقلد ولا يخلق الشر ولكن يسير فى ركابه ولا يرشو حاكماً ولكنه يستلين قلبه ويستعطفه ويلفت نظره الى ظلامته حتى يضمن عنايته ، وقد يبالغ فى هذا السبيل فيقيم مأدبة أو وليمة ويحيى سهرة طويلة ويحسن تقديم ألوان الطعام والشراب ويطلق العنان للضحكات العالية ويضىء المصابيح الملونة وهو بذلك يحفظ كرامته وكرامة الحاكم فلا يبوح ولا يقول شيئاً لو قطعوه أو شووه شيّا ، بل يكتفى بلسان الحال وشواهد العزيمة أو « العزومة » ثم لايقصر فى توكيل أقدر المحامين وإعداد عناصر القضية واستيفاء دفاعها حتى يجعل من كفاءة الدفاع وحسن الاستعداد تكأة للحكم فى مصلحة من يشاء .

وكان محمد أسعد فى كل وقت تراه داخلاً وخارجاً من أبواب المحكمة وصاعداً وهابطاً فى مصاعدها أو منحدراً فى سلالم الدرج محيياً دائماً ومنحنياً ومرحباً كأنه رئيس تشريف سراى العدالة ، لايترك يداً إلا ممسكاً أخرى ولا منتهياً من إلقاء ترحيب وتفخيم إلا ليبدأ غيره نحو القادم الجليل الذى قد يكون مستشاراً أو قاضياً أو

رئيس محكمة فعلى ، طرف لسانه دائماً قوله المأثور « نقبل الأيادى يا مولاى » ثم بطاقة يبذلها بعنوان البيت الفخم ورقم التليفون والاستعداد لأية خدمة . فهو محسوبك ودخيلك وطنيبك واللاجىء الى مروءتك والمتوكل بعد الله على محبتك والداعى لك آناء الليل وأطراف النهار لتصل الى منصب الوزارة أو على الأقل وظيفة مستشار ومن أليق منك بملأ هذا الكرسى والجلوس على هذه المنصة والقبض على ميزان العدل ..... إلخ.

وفجأة اختفى محمد أسعد فلم أره ولم أسمع به فظننته منتدباً كعادته فى إحدى مدن القطر ليقوم بالتفتيش والفحص والتمحيص .. ولكن علمت للأسف أنه توفى بعد مرض قصير لم يمهله أكثر من بضعة أيام ، والحقيقة أنه كان منتهياً من شدة النعومة والطراوة والبخار ، وكان جسمه ناضجاً كاللحم الخارج من الفرن ليكون طعماً للآكلين ولا أدرى كم خلّف من الثروة ، ولكن رأيت أهل الشر قد محوا اسمه الذهبى من زاوية بيته الفخم الذى ركبه السواد وظللته غيوم الفراق وغيبةُ السيد الأنيق رحمه الله .

ولد سنة ١٨٦٥ وتوفى سنة ١٩٢٥ .

محمد البابلي

أحد أعيان القاهرة ومواليد القرن الثالث عشر الهجرى وتوفى فى نصف الرابع عشر . كان من أسرة شهيرة بالغنى والأدب وحسن السمعة ممن ازدهرت حياتهم وانتعشوا بالمناصب والتقرب من الوزراء والأمراء ، وكان رجلا طويل القامة ضخم الجثة أسمر اللون كبير الأنف واسع العينين اشتغل فى أول أمره بوظيفة ضابط فى الشرطة وورث ثروة طائلة أضاع معظمها فى الكرم والإحسان إلى أصدقائه ومعونة الشعراء والأدباء الذين كانوا يلوذون به ويلتفون حوله فى ضيعته بالقرب من المحلة الكبرى أو فى بيته بمصر أو بمشتاه فى حلوان ومن أخصهم حافظ إبراهيم بك الشاعر الذى اتخذ حلوان مستقراً له فى الأعوام الأخيرة من حياته .

وكان البابلى من أصدقاء المرحوم عبده الحمولى وحسن عيد الفاكهى وباسيلى عريان الثرى القبطى وإبراهيم راجى ومحمد عمر الموظف المصرى وكان بعض هؤلاء كالكواكب السيارة تدور حولها نجوم تختلف حجماً ونوراً وتتبعها أينما سارت ، لحسن الألفة وطول العشرة والانتفاع حيناً بما تقتضيه حياة الاجتماع فى أواخر القرن التاسع عشر فى مصر عندما كان الطعام والشراب والسهر الطويل ومجالس السماع والتسلية بلعب الورق هى الخلة الوحيدة التى يتبعها الأعيان وينفقون عليها فى قصورهم وضياعهم وفى مقاهى حى الأزبكية المشهور .

وقد أدركت هذه الحياة وعرفت أنها أول ثمرة مرة من ثمرات الحكم الأجنبى وبداية انحلال الأخلاق وتدهور القومية وتلف المبادىء وفساد الذمم وتفكك روابط المجتمع . فإن هؤلاء الرجال أنفسهم وألوف مثلهم أدركوا حياة المنازل التى كان فيها

الرجال لايخرجون من دورهم ويقضون سهراتهم فى منادرهم أو مناظرهم ثم جاء دور خروجهم وهجرهم دورهم وأسرهم ليشربوا ويلعبوا ويطربوا فى الأماكن العامة التى أسسها الروم والإفرنج وزينوها وجعلوها فتنة للناس واقتنوا فيها أحياناً مشهورات النساء اللواتى يتقن الغناء والرقص كما كان فى قصور الأمراء ، غير أن هذه المناظر كانت عامة ومأجورة وتقتضى أن يبذل الأغنياء أموالهم لهذه المفاسد وقد يفلس أحدهم ويفقد ماله الثابت والمنقول ٠

وكان فى هذه الأماكن مطيبون بالألفاظ ينادون بأعلى أصواتهم « أنظر بعينك وتحسر بقلبك ياقليل الدراهم » ، وكان من أشهر الأماكن التى يغشاها هؤلاء الأعيان محل « الدرادو » أى جنة النعيم «ونزهة النفوس » وحانة دراكاتوس التى حازت شهرة كشهرة الأديرة القديمة فى كتب الأدب وكان يختلف اليها الأمراء « كالبرنس أحمد كمال » والوزراء والأدباء والشعراء والكافيه اجيبسيان ومطعم شولر وكوفاتش وبار أوبليسك وأسبلنديد بار وأوبرا بار وغيرها عشرات مشهورة ، وقد ابتلعت خطة الأزبكية التى لاتزيد فى مساحتها عن عشرة أفدنة ، ألوف الأفدنة وانتهبت الأموال الطائلة ونادى بناكى وكان معدا للمقامرة ولاسيما لعْبة البكارا والروليت وغيرها ٠

وقد أدركت هذه كلها ورأيتها رأى العين ورأيت على مناضدها أكابر الأعيان يقضون سهراتهم ويتباهون بشرب المقادير الكبيرة من الخمر ويطعمون الألوان والأشكال من الطعام ويبذلون الأموال فى الصدقة على الفقراء ممن يترددون على هذه المقاهى والحانات ويقصدون إليهم ، وكان يصعب عليك أن تجد بعد الغروب أحداً من العظماء فى غير هذه الأماكن إلا اذا كان قاضياً شرعياً أو من علماء الأزهر ، أما من عدا هؤلاء فكان هذا مسرحهم وممرحهم ومرتعهم ومربعهم بعد غروب الشمس حتى مطلع الفجر ٠

وكان البابلى بك من أظهر أبطال هذا العصر ، غير أنه كان بجانب ثرائه ونعمته وكرمه وحسن أخلاقه شديد الذكاء حاضر البديهة سريع النكتة حتى قد لايجاريه فيها أحد من أهل زمنه أو من أهل أى زمان سواه . ومما يؤسف له أن أحداً من معاصريه أو جلسائه لم يفطن الى هذا النوع الراقى من الأدب الطريف فلم يسجلوا ولم يدونوا كما فعل صاحب الأغانى ، واكتفوا بأن يرووا ماتعيه الذاكرة بالتواتر . وقد علمت أن أحد أبنائه بعد وفاته بعشر سنين جمع بعضها فى كتيب لايستحق الذكر . وكانت بعض المجلات والصحف الهزلية تروى بعضها ظنا من أصحابها أن هذه البضاعة النفيسة الغالية من اختصاصها ، فكانت كتاجر الصفيح والمعادن الرخيصة الذى يعرض للبيع أقيم الجواهر وأغلاها وأفخرها . وقد سمعت كثيراً من هذه النكات من المرحوم نفسه فى بعض مجالسه فى مصر وحلوان وهى خليط من التورية والجناس واللعب بالألفاظ وليس لها مثيل فى الأدب القديم ويندُر أن يكون فى ألفاظها فحش أو تجريح ولكنها كانت كالسهام الرائشة تصيب ولاتريق دماً . وإن كنت حاولت أحياناً أن أسجل بعضها إلا أننى رأيت أن التدوين يفسدها ويقلل كثيراً من قيمتها إن لم تخلق الجو والملابسات وتصف المتكلم والمخاطب والسامعين وصفاً دقيقاً رائعاً وهذا يحتاج الى كتاب .

وأحب أن أشير هنا الى أن المرحوم إبراهيم المويلحى وولده محمد المويلحى قد حاولا نقل صورة مصغرة من هذه الحياة فى كتاب « عيسى بن هشام » ولكنه كتاب جاف كتباه باللغة الفصحى مخالفين بذلك قواعد الجاحظ الذى حتم على الكاتب فى مقدمة البخلاء أن يروى النكتة أو الخبر أو النادرة والمثل كما سمعها بلغتها ولهجتها وأن يتحرى الأمانة فى الرواية وإلا ذهبت قيمة الاستشهاد هباء .

فمن ذلك أن عوام مصر يقولون « يامولاى كما خلأتنى » يقصدون الى التعبير عن فقر المقول فيه أى أنه كما خلقه ربه يوم مولده عارياً جائعاً عاطشاً ، لايملك

شيئاً. فاذا قلت «خلقتنى» بدل «خلاّتنى» أفسدت المثل . وكان المرحوم حافظ إبراهيم يمد المرحوم محمد إمام العبد الشاعر الزنجى الشهير وكان رجلا أسود خفيف الروح مفطوراً على الأدب . ولا يأنف أن يستمد صديقه الكبير برابطة الشاعرية بينهما وارتفاع الكلفة ، فذكر حافظ يوما فى غيْبة إمام وذكر فضله على إمام فى كل وقت فقال : حافظ إبراهيم مين ده ؟ أنا خلاّته ... فعلم بها حافظ من أولاد الحلال الذين لايستريحون حتى ينقلوا الأقوال والأفعال ويزيدون عليها ، فحدث أن إمام العبد لقى حافظاً بعد أيام وتجمل له وتلطف فى الطلب فهمس حافظ فى أذنه « أنا وخياتك يامولاى كما خلاّتنى » ... وهذه النكته التى تقال فى طرفة عين تحتاج فى تدوينها الى صفحتين غير الشرح والتعليق ووصف الشاعرين ومعرفة أخلاقهما وأطوارهما فلا يضحك لها حقاً ولا يطرب ولايسر إلا الذى يعرف حافظ وصوته ونظرته وضحكته وخفة دمه وكذلك إمام ولونه وأدبه وهيأته وكرامته وإباءه وادعاءه .

وقد روى لى الدكتور على مظهر « دكتور فى الفلسفة من النمسا » أن البابلى انتهز فرصة زيارة بعض التلاميذ ومنهم نجله للمحلة الكبرى فأولم لهم وليمة أنفق عليها خمسين جنيها وأنه ورث أموالاً طائلة كان يكيلها كيلا . ولم أسمع بهذا من عشراء البابلى اللصقاء ولكن استغناءه عن الوظيفة وحيازته ضيعة كبيرة فى بقعة خصيبة واقتناء ه بيوتاً فى مصر وحلوان وعتاب حافظ له فى ديوانه يدل على ثرائه .

ولكن هذه كانت حياة الرخاء والغفلة والاستهتار التى ضيّع فيها أعيان المصريين أموالهم ونجح الروم والسوريون واليهود فى إيقاعهم فى الشراك التى نصبوها لهم فاغتنى المستغلون ممن كانوا لا يأنفون أن يتجروا بالنساء والخمر والقمار ، وانتقلت الأراضى الخصيبة والقصور العالية ودنانير الذهب المكنوز والموروث من حيازة المصريين الى هؤلاء الذين صاروا بارونات وخواجات وتمكنوا ببعضها من تأسيس المصانع والملاجىء لقومهم وإهداء الأساطيل لدولتهم وأمسى الكرام المنفقون

بغير حساب على غاية من الفقر والحاجة يستدينون .

وكذلك سلك اليهود مع الأعيان وعاملوهم بالفوايظ الفاحشة المركبة ونزعوا أملاكهم بأحكام القانون . وأصل هذا البلاء أن إسماعيل باشا الخديو أسرف فى أموال الفلاحين وبذر ثلثماية مليون ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ فى ستة عشر عاما وكان هذا الإسراف وماتخلف منه من الدين القومى سبب البلاء على مصر والاحتلال الأجنبى . فدرج الناس فى مصر ولاسيما طبقة الأعيان على دين ملكهم ولم يجعلوا للمال حساباً ولا قيمة ، وكانت الذئاب والوحوش وحيتان البحر فاغرة أفواهها تلتقف المال وتتفنن فى وسائل اجتذابه واكتسابه ، ومن العجب أننى رأيت بعينى أحد أصحاب هذه الحانات يشرب الحليب فى الوقت الذى كان فيه بعض هؤلاء الأعيان يسممون أبدانهم ويضيعون دينهم بشرب الكونياك والويسكى ويقهقهون ولم يخطر ببال أحدهم أن يسأل مدير الجام وصاحب الحان لم يشرب الحليب وهو صحيح معافى ليس يشكو داء وليس بحكم سنه بحاجة الى الرضاع .

محمد بخيت

من علماء القرن الرابع عشر الهجرى ومن أقطاب الأزهر فى التفسير والحديث ، زرته فى داره مذ كنت ملازماً لأحد أبنائه الأستاذ أحمد مختار بخيت فى المدرسة الخديوية الثانوية ، وكان رجلا أسمر اللون ذا لحية سوداء كثة وبعينه حول وهادىء الطبع وحسن القيافة والبزة ولكن صوته كان يجلجل إذا جلس فى الدرس ، وقد رأيته وهو يربى على الخمسين فلم يكن بوجهه تجعيد ولا بلمته أو لحيته بياض وكأنه لشدة هدوئه واطمئنانه تمثال لايقدر له عمر ، فلما عرف أننى صديق أحد أولاده ورفيقه فى الدرس والمذاكرة دعا لى بخير ودعانى « محمد أفندى » .

وقد أجمع العامة والخاصة على أنه كان من علماء زمانه ومن طبقة البشرى والسمالوطى ومن أئمة الفقه والحديث . ولم ينسبوا إليه مايؤاخذ عليه إلا تدخله فى الأحزاب السياسية وانضمامه الى بعضها وتركه ثم انضمامه الى غيره حتى قيل إنه مع الأمراء والوفد والوزراء ، ونظم الناقدون على لسانه أبياتاً من الشعر بهذا المعنى ، والحقيقة أن الرجل لم يكن مذبذباً ولا متقلباً ولكنه رأى ضرورة تدخله فى السياسة نظراً لمقامه ومكانته الدينية ووجوب ظهوره بمبدأ فى وسط المعمعة السياسية ، لأنه لو لم يخض غمار المعركة على صورة ما فإنه ينسى ويهمل وقد أصبح العلم وحده وحسن السيرة والشرف لاتكفى فى هذا العصر لتقدير الرجال ، فدخل فى أغمار السياسة وهو – يعلم الله – مرغم ليزيد الجماعة التى اختارها وزناً بصفته الدينية ، تعقباً لما كان عليه العلماء فى عهد الاحتلال الفرنسى عندما كان بونابرت يخشاهم ويدنيهم ويبذل لهم الأموال والأوسمة ليعتز بمعونتهم فى نظر الشعب الذى مايزال ينظر الى العالم الأزهرى نظرة إعجاب واحترام وثقة .

ولم تخل فترة من تاريخ مصر من تدخل العلماء فى الشئون العامة لحاجة الحاكم والمحكوم الى فتاويهم وآرائهم ، وكان لهم فى ذلك شأن ووزن وتقدير ، وكانت تكفى كلمة أو إشارة حتى يتبعهم الرأى العام وهذه حالة عامة فى بلاد الشرق الاسلامى كله ، حتى إن شيخ الإسلام فى طهران أفتى بتحريم التنباك نكاية فى شركة أجنبية احتكرت بيعه فاختفت النارجيلة من كل مكان ، حتى من قصر الشاه نفسه ، فإن خادمه الخاص عصاه فى إعدادها محتجاً بأن « شيخ الإسلام نهى عنها » والذى يعلم ولوع الإيرانيين بتدخين النارجيلة وعدم الصبر عنها يعرف سلطة الشيوخ والفقهاء بهذه الحادثة ، ولكن فى مصر تذبذب كثير من المشايخ فى العصر الحديث وخالفوا سنة أسلافهم فهانت أقدارهم وأقبلوا على الدنيا فأدبر عنهم احترام مواطنيهم وملأوا خزائنهم بالمال ففرغت الأفئدة من حبهم .

وبضعف هؤلاء المشايخ واتباعهم أهواء الأمراء والحكام ضعفت العاطفة الدينية تبعاً لذلك ، وقد كفوا من زمن طويل عن بذل النصح والوعظ للحكام وبذلوا على النقيض جهودهم فى استرضائهم والعمل على خدمتهم كما فعل الصوفيّة فى اصطامبول دار الخلافة على إعداد الفتاوى لعزل السلاطين وتولية خلفائهم ، تبعاً لأهواء السياسة وخضوعاً لسلطة الوزراء الأقوياء .

وقليل هم من العلماء الذين احتفظوا بكرامتهم وكرامة الدين والوطن ، وقد يرى أحدهم أن ينشىء أبناءه على الطريقة الحديثة وينحيه عن تعليم الأزهر ويسعى فى بعثه الى أوروبا لينال أعلى الدرجات فيعود الابن أو الأبناء وهم فى حاجة الى التوظف وقبض المرتبات وينتهزون فرصة حياة والديهم ليقدموهم الى الحكام فيفعلون ، حتى أن لكل شيخ ظاهر منهم عشرات الأولاد والأقارب والأصهار فى مناصب الحكومة ، وقد لاترى لأحدهم فضلاً إلا انتسابه الى العالم الشهير بالبنوة أو الأخوة أو العمومة أو الخؤولة أو المصاهرة . فهذا داء دفين ، ولا أنكر أن بينهم أصحاب المواهب كأبناء

المرحوم الشيخ بخيت والظواهرى والمراغى واللبان والشرقاوى والغرباوى وغيرهم ولكن يقلل قدرهم ظن الناس أن هؤلاء النوابغ وصلوا الى أرفع المناصب بفضل آبائهم ووساطتهم ووصايتهم .

ولما كانت المناصب فى أيدى الوزراء والحكام فهى لاتبذل ولاتمنح بسبب الكفاية أو الشهادات العليا أو الأخلاق الكريمة إن لم تكن هذه الصفات الحسنى مصحوبة بالرجاء والقربى ولايمكن للعالم أن يرجو أو يتقرب إذا كان معادياً لأولياء الأمور ومن بيدهم الحل والعقد ، والعطاء والمنع ، ومن هنا يرى بعض العلماء والحق بيدهم فى هذا المجتمع وفى هذا العصر أنهم يجاملون ويلينون ويتسامحون وإلا فقد أضاعوا مستقبل أولادهم الذين أعدوهم للمناصب وثقفوهم الثقافة الأوروبية الحديثة ولم يقبلوا لهم ماقبلوه لأنفسهم من التخرج فى الجامعة الأزهرية التى أصبحت طرازاً قديماً بعد ألف سنة من الحياة العلمية .

وقديماً كان للعالم مأرب واحد وهو أن يكون فى وظيفة التدريس أو الإفتاء أو القضاء الشرعى أو مجلس الأزهر الأعلى أما الآن فقد صارت له مآرب متعددة فى مقدمتها أن يعين أولاده فى الوظائف الحكومية التى لايوجد هواء للتنفس خارج جوها ولا خبز ولا أدام بعيداً عن مقاعدها ولا مال مقبوض مضمون ومعاش مأمون إلا على مكاتبها . فهذه الجنة الدنيوية لاتنال إلا بإرضاء الحاكم والتقرب إليه ومراعاة خاطره وتأييده وبعد أن كان العالم يتقاضى بضع جنيهات فى العام صار يدخل له عشرات الألوف من المناصب .

وبعد أن كان يكتفى ببيت صغير فى حارة ضيقة وفروة يجلس عليها وقفطان من الغزل وبغلة أو حمار يتخذه مطية للدرس، صارت القصور الفخمة فى الضواحى الضاحية والسيارات الغالية والملابس الثمينة .

وقد تضاءل العلم وتوابعه بقدر ماتضخمت الدنيا والمرتبات بالعطايا والمنح ٠ وهذا تطور عصرى لا دخل لنا فيه ٠ ولعل بل لابد أن السادة المشايخ قد أفتوا بصلاحية هذا التحوّل ووجوب هذا الانتقال والتطور لأنهم لايسيرون فى أمور دينهم ودنياهم إلا على قواعد الشرع ولكل مسألة حلان وفيها قولان ؟ بل بضعة حلول وجملة أقوال فلا نتعرض لهذا ٠

ونقول إنه كان فى الجيل الماضى علماء أعلام كالنووى والشنقيطى وعليش وحسن الطويل ساروا على النهج القويم وعاشوا عظماء شرفاء محبوبين من الشعب ومن الله ٠

وممن اشتغل بالسياسة المرحوم محمد عبده ولكنه كان مثال العفة والاستقامة والزهد والترفع وخاصم ملك البلاد علي مصالح الأوقاف وخاصم الإنجليز على خير الوطن كما ثبت فى الكتب الأجنبيه الآتيه :

(١) دى جورڤيل البلجيكى ، مصر الحديثة

(٢) كرومر ، مصر الحديثة

(٣) بلنت ، سائر كتبه ومذكراته

ومات وهو لايملك شيئا يورث وتبرعت الحكومة بألف جنيه لأسرته وليصرف منها على نفقات العلاج والجنازة وقد طبقت شهرته الخافقين ولم يترك ولداً ذكراً وكان له أكبر الأثر فى تاريخ الإسلام الحديث والشرق ومصر « أنظر ترجمته وتاريخ حياته بقلم رشيد رضا ثلاثة أجزاء » ٠

وحوكم الشيخ عليش أمام المحكمة العسكرية فى الثورة العرابية وسجن ومات فى السجن ميته ابن تيمية وفيه قال قصيدته الصوفية الشهيرة : لاتكثر لهمك ماقدر يكون ٠

ووصــفــه برود لى المحــامى الإنجليـزى الذى تولّى الدفــاع عن عــرابى وإخــوانه بالشجاعة والشهامة والشرف والإخلاص وعلو الهمة « انظر كتاب How I defended Orabi ، وفيه تلخيص القضية وصورة المحكمة وبين المتهمين صورة للشيخ عليش وانظر كتاب بلنط .... » .

وفى العهد الأخير لم نسمع بعالم خاطر بمنصبه فى سبيل مبدأه إلا أن يقال لأنه مغضوب عليه فيعود متمسحاً بالأعتاب ليتعلق بأهداب الوظيفة من جديد . ولعله يعمل بفتوى فيرى أنه أصلح من سواه فى عمله فينتدب نفسه لأداء واجبه ولو تكبد مشقة فى هذا السبيل .

ولا نحب أن نبحث قضية العلماء المشايخ بسبيل كلمتنا عن المرحوم الشيخ بخيت الذى كنا نحبه بسبب حبنا أولاده وبسبب علمه ودينه . وهو من بلدة المطيعة بالصعيد ويعرف عنه أنه كان دقيقاً فى الطعام والشراب ، فلا يأكل شيئاً من السوق وكان شديد العناية بصحته ولا يدخّن ولايسهر إلا فى طلب العلم . وقد وضع بضع فتاوى فى الفونوغراف وغيره لأنه كان فى زمنه بدعة ، ووضع فتوى فى نقض مذهب المشاعية فى سنة ١٩٢٤ أوسنة ١٩٢٥ ، وقيل لى إنها جعلت علي ورق أخضر مذهب الحواشى ولكنها نادرة الوجود لأن الذين طلبوها وطبعوها فرقوها على الأمم الإسلامية خارج مصر ، واشتقت كثيراً لقراءتها لعلمى بحسن أسلوب الشيخ ودقته وأردت أن أقف على رأيه فى مسألة لايعلم جميع جوانبها وأن المفتى يجب أن يفتى بعلم يقينى وحاشا للشيخ أن يُستكتب .

فحدث أننى فى إحدى ليالى رمضان بعد الإفطار التمست النسيم « وكنا فى فصل الصيف » على مقربه من جسر الزمالك وجلست على مقهى على ضفاف النيل . فلما أخذت قسطى من الراحة والتهوية انحدرت على قدمىَّ فى شارع بولاق الكبير فرأيت زحاماً شديداً على نور ، فدنوت منه فإذا كنفانى شهير يبيع الكنافة الجيدة

بثمن حسن ويدير كوز العجين على صينية الفرن بمهارة فائقة فيتخاطفها المشترون ، ثم رأيته يلف أرطال الكنافة فى ورق زاه أخضر بلون يسر الناظرين وقد زينت حواشيه بماء الذهب وفيه كتابة ، فساقنى حب استطلاع مافى الورق الى شراء الكنافة التى لم أكن فى حاجة إليها ، فلفّها الرجل فى ورقة من هذا وطلبت ثانية وثالثة لا لرغبة فى الكنافة ولكن لرغبتى فى الفتوى ، فقد قرأت فى الملف الأول أنه هو بعينه فتوى الشيخ بخيت فى المذهب المشاعى وأسرعت بالركوب الى دارى ونشرت إحدى الفتاوى وسهرت فى قراءتها فكانت فى نظرى أغرب وأعجب من المصادفة المواتية التى حصلت بها على هذا المنشور الثمين واحتفظت بالنسخ الثلاث زمناً طويلاً . وعجبت للزمن كيف زادت هذه النسخ عن عدد قرائها حتى بيعت للكنفانى وهى نادرة فى مصر ويود بعض القراء أن يدفع ثمنها ولو جنيها مع سهولة الحصول عليها مع رطل واحد من الكنافة بقرش ونصف قرش ! .

ولكن هذه الفتوى زادت تقديرى للرجل لبراعته وقدرته على مسايرة الزمن . وأذكر له حسنة جميلة وهى خطابه إلىّ ليأذن لى فى المشاركة فى تأبين الشيخ عبده سنة ١٩٢١ « إحياء الذكرى السابعة عشرة » وكان رئيس اللجنة ، ولكن بقية الأعضاء تغلبوا عليه فى منعى لأنى لم أكن من حزبهم السياسى فنلت هذه النعمة وهى أداء واجبى نحو الرجل العظيم فى الشهر نفسه بمدينة الاسكندرية[١] رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) انظر ترجمة الشيخ محمد عبده ، صفحة ٣٠٧ من هذا الكتاب .

محمد حمدى

كان شاباً فى الثلاثين من عمره نجل رجل من أعيان المصريين المنتمين الى الترك بأصولهم والذين يطلقون عليهم صفة الملتزم أى من سادة الإقطاعيات من عهد المماليك . وكان الوالد نفسه رجلا ثرثارا جاهلا لم يعرف لذة العمل والكسب إلا من إيراد أطيانه التى بدد كثيراً منها على الأفراح والليالى الملاح .

وكان متمسكاً بالأشكال والصور فهو دائماً معتدل القامة متأنق فى مظهره ينثنى وينحنى فى التحية والتوديع ويصافح الناس بحسب الطراز المتبع عند السادات والأعيان العائدين من أوروبا وكان ضعيف البصر جداً ولكنه يتعامى عن عماه فيصطدم أحياناً بالناس والأشياء ويعتذر ولا يبالى ولكنه لايعترف بما أصابه من ذبول الشباب وعجز البصر .

وقد أنشأ ابنه « محمد حمدى بك » ، على غراره ، إلا أن الولد كان أنجب من الوالد وأعقل وأعلم ، فقد نال قسطاً من تهذيب المدارس وأتقن اللغة الفرنسية فى معاهدها وأحّب العربية فتعلق بها وأجادها وأكبّ على الكتب واقتنى مكتبة فاخرة ، وأفاد بالأسفار المتكررة الى أوروبا وكان رزيناً رصيناً متزناً فلم يضع كثيراً من ماله ولم يتهاون فى أخلاقه . وكان جميل الصورة حسن البزة لطيف السمت ، تألف العين النظر اليه وترتاح الأذن الى سماع صوته ، فقد كان هادئاً سليماً مقسماً أحسن تقسيم فى كلامه ، لبراعته فى الموسيقا ، وكان الى ذلك ذا أدب جم ووقار وقيافة حسنة ودقة نادرة فى انتقاء ثيابه وطعامه وشرابه ولم يرث عن والده إلا شيئين ، استعداداً لضعف البصر وتفضيل الطربوش الطويل على القصير أو المتوسط .

وكان البيك الكبير يقلد رجال الجيش وإن لم يكن منهم ، حتى فى حمل عصا قصيرة كالضباط مع أنه كان أحوج الى عكاز . ولم يكن عند النجل شىء من العنجهية الوالدية ولا من تلك النفخة الكذابة التى صحبت أهل جيله . بل كان النجل متواضعاً ودوداً عارفاً بقدر نفسه فى غير دعوى .

كان الوالد أسمر اللون طويل القامة أبيض الشعر متمسكاً بالصدارة البيضاء وبُرقع الحذاء « جوتر » يلبسه صيف شتاء والعصا القصيرة والياقة المكوية بالنشاء تحيط بعنقه لامعة وضاءة وقد تخنقه أو تضيق أنفاسه أو تزيد ضغط الدم وهو لا يبالى مادام حافظاً لتقاليد القيافه البيكوية ، أما الابن فكان لايتقيد إلا بما كان ثميناً فاخراً ، نظيفاً حتى الوسوسة ، وأنيقاً حتى يكاد يأنف أن يستعمل أوعية المقاهى ، هادىء الطبع لطيف العشرة ، ولابد أنه ورث عن والدته المصون كثيراً من صفات اللطف والوقار ومكارم الأخلاق . .

كان من العلامة الحسنة فى نظر الوالد - الذى أطلق عليه معارفه لقب كولونيل لأنه كان يقلد الضباط فى كل شىء وإن لم يكن منهم - أن يطعن فى الحزب الوطنى ، لا لأنه يعرف شيئاً فى السياسة ، أو لأنه يميز بين الأحزاب أو أنه يضمر عداءً لمصطفى كامل أو محمد فريد «هذه الحوادث بنت العقد الأول والثانى من القرن العشرين ١٩٠٧ - ١٩١٦» ، ولكن لأن الكولونيل يمت بصلة النسب لأحد كبار الموظفين فى الحكومة ، فظن أن ظهوره بهذا المظهر يسر الحاكمين والمرائين من الموظفين والصيادين فى « بركة الفيل » .

وإليك نبذة من حديثه طبق الأصل الذى فاه به بمسمع من الحاضرين فى سرادق زفاف نجله : «النهارده ياأفندم باروك دونير ، أنا أحكى لك الدُوغْرى ، الباشا بتاعنا «ذلك الموظف الكبير » نسف واحد من شبان الحزب الوطنى حتة نسفة ؟؟ صاحبنا قال له سعادتك ليه مش من الحزب الوطنى مع أنك تحب مصر وتخلص لها

فقال له الباشا بتاعنا «كذا» نحن الآن كبرنا وتخطينا سن الحماسة والبركة فيكم أنتم ياشباب مصر . فلم يقتنع صاحبنا بهذا الجواب اللطيف . بل قال له : أنتم أحق من الشباب بالمناصرة والقيام بالدعوة لأنكم تعرفون تاريخ البلاد وربما عندكم من الحجة والبرهان والأدلة ماتغلبون به من يناقشكم وتفحمونه ، أما نحن فنكون أجنحتكم أو أيديكم التى تكتب وألسنتكم التى تخطب . فقال الباشا بتاعنا ياولدى أنت تعلم أن وظائفنا تحرم علينا الاشتغال بالسياسة ، ولو أنها لاتحرمه فربما كان بعضنا لايوافق على كثير من خطة الحزب الوطنى التى فيها تهور واندفاع قد يؤديان الى الضرر وسوء العاقبة .

فقال صاحبنا الشاب الوظيفة ؟ وماهى الوظيفة ولم لا تستقيلون وتضحون بها كما يفعل أمثالكم فى أوروبا وهل تفضلون الوظيفة على الخير العام وحرية الأوطان . فسكت الباشا بتاعنا وأطرق ولكنه استاء ثم قال : ربما كان بعضنا فى حاجة الى وظيفته . فانفتح صاحبنا وأخذ يطعن فى المال والطمع ويفضل الفقير المخلص على الغنى المداجى وتحمس وظن أنه يخطب على منابر الحزب أو فى كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية . وحينئذ انبرى له الباشا الذى طال صبره واتسع صدره ونسفه نسفة تمام . فقال له أحد الحاضرين : ماذا قال له ؟ هل كنت يابيك حاضراً . أجاب الكولونيل : أنا ... آه لو كنت حاضراً ، إذن لنسفته كنت أنسفه ، تمام ولو غضب الباشا ، أنا ما أعرفش الكلام اللين والأدب فى نسف هؤلاء الشبان الأغرار.. أنا الذى بلغنى نقلا عن الباشا بواسطة الشيخ مرسى سعفان إمام جامع بدر الدين أنه نسفه وقال له وهو ينسفه ...

وتهامس السامعون لأنهم علموا بالأمر قبل علمه ، لأن شاب الحزب الوطنى الذى تحدث بحرية فى مجلس الباشا ، وأطلق العنان لأفكاره ، لم يكن غير محمد حمدى نجل الكولونيل ، وكانت هذه ليلة زفافه ، وخشوا إن هم أخبروه به فربما عطل الزفاف

أو نسف العريس والعروس .

وأعجب من هذا أن صلة النسب التى كانت بينه وبين الباشا بتاعه ، كانت قد قطعت من زمن ، ولكنه مايزال متمحكا ومتمسكا بزعم أنه دخيل الباشا ولزيقه وسنيده الى أن مات .

فلما مات الكولونيل وخلف ثروته لنجله محمد حمدى عاش فترة سعيداً ، وصحب زوجته الى أوروبا وكانت فتاة متعلمة تجيد اللغات والعزف على العود وربما أجادت الغناء ، وكانت ذات أطماع وكان زوجها ينفق عليها نفقة حسنة ويسكنها فى قصر ويلبى مطالبها ويزيد على ماكانت عليه فى بيت أهلها ويكثر من الهدايا والحفلات والولائم ، ويحمل إليها نوابغ الضاربين على العود ويبذل لهم المال الوافر ليزيدوها إتقاناً فى الفن ويتبارى لديه صناع الأعواد فى نقل أفخر أدوات الطرب وآلات الموسيقى حتى صارت لديه مجموعة غالية وعدة كاملة ، وكان من شغفه بزوجته أن علمها القانون وصنع لها ريشتين من الذهب مرصعتين بالجواهر لتجعلهما فى سبابتيها وقت التوقيع فيكون لهما بريق لايضاهيه ويغلبه إلا لمعة الجواهر الأخرى فى نحرها وصدرها وأناملها . وكان رحمه الله طروباً بذالا وكانت أطيان أبيه بعضها مرهوناً ، وناهيك بالبذخ والسهرات الطويلة فى القصور العالية والحدائق الغناء وعلى سطوح الدهبيات فى ضوء القمر والثريات .

وكان للأسرة طبيب شهير « توفى من زمن طويل » يتردد على الدار ويتعهد الزوجه منذ نعومة أظفارها ويعتبرها كأحدى بناته . وكان الطبيب الباشا طروباً وذا ثروة هائلة . ويحتاج حمدى الى المال فيميل على صديق العائلة وطبيب العائلة . وتكثر العيادات وينشغل بال الطبيب على عليلته الرقيقة المزاج ويحدث الشقاق تارة بسبب المال وطوراً بسبب الهوى والشاب الأديب الطروب المتزن يشعر بالعاقبة وقرب النهاية . واختل نظام الحياة وكيست الأعواد الثمينة فى أكياسها المخملية وانفضت مجالس

الأنس والسماع وبيعت الدهبية وضغط الطبيب بالطلب وتنكر للصديق بعد الألفة ، وأخيراً تفاوض مع رسول على أن يتنزل عن ديْنه « ودينه » بكسر الدال ، إذا حصل الطلاق . وبذا أظهر أوراقه الرابحة « كما يقول المقامرون » فرفض الزوج بإباء وعّول على أن يخوض المعركة ولو باع ثيابه . ولكن هذه الثورة النبيلة لم تكن إلا الى حين ، فإن البنت فرت الى آلاس .. « أيضا كما يقول اللاعبون » ، فلما رأى الزوج هذه الخيانة الصارخة حاول المقاضاة وطرق الأبواب فعاد بالفشل وآب بالخيبة وبعد انقضاء العدة عقد الطبيب على العروس المغتصبة وهى تكاد تكون من سن بناته . وانتقلت مجالس الأنس والسماع الى دار الطبيب وهو قصر فخم فى إحدى ضواحى القاهرة . أما ابن الكولونيل الكريم المسماح المهذب الأديب ، فقد اختفى حيناً عن الانظار ثم ضعف ومرض ومات .

هذه صورة صادقة ناطقة للوالد والولد والعروس وصديق العائلة وليس لهم قريب حى .

محمد خالد باشات

صديق حميم وقاضٍ بالمحاكم اشتغل بالمحاماة عشرين عاما ثم انتخبوه للقضاء، وهو من أصل سورى « مدينة حماة » وهى موطن المرحوم توفيق نسيم باشا وكان يمت له برابطة قرابة أو نسب ولكن باشات لم يلجأ إليه فى مروءة أو خدمة وتخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٩١٧ وكان فى مدرسة باب الشعرية الابتدائية فى عهد المرحوم على فوزى بك الذى كان يسهر على تهذيب تلاميذه كما يسهر على حسن تعليمهم .

ولما شب خالد عن الطوق تجلت عليه سيما النجابة والذكاء فكان منكّتاً بارعاً لايقل عن المرحوم البابلى وإن تكن دائرته أضيق من دائرة البابلى وإنما كانت كافية لإظهار موهبته . وهو يجيد النغم ويعتبر فنّاناً بفطرته ، وكان فى المحاماة مجتهداً شغوفاً بدرس قضاياه وإتقان المرافعة فيها ولكن عنصر الطرب والمسرة كان غالباً عليه، وكانت شهرته فى الدوائر القضائية مستفيضة بحذقه فى النكتة البارعة ، فلا يكاد يقف ويبدأ الكلام حتى تشرئّب الأعناق وتتطلع الآفاق لما يقوله وتفتر الثغور عن البسمات قبل أن ينطق والكل ينتظر منه أظرف النكات وألطفها وكان هو أيضاً يبتسم قبل أن يرسل النكتة ويعقبها بضحكة خافتة ، لأنه أول من يعرف قوتها وإصابتها وحدتها وقد حاولت تسجيل بعض نكاته فى مقال فى البلاغ اليومى سنة ١٩٣٠ «سبتمبر أو أكتوبر من تلك السنة فى الصفحة الأدبية» ولكن كل تسجيل كما ذكرت فى كلمتى عن المرحوم البابلى لهذه الأشعة المضيئة وتلك الشرارات المندلعة من وهج الذكاء والبديهة يردها باهتة خافتة ، فكيف تروى ماحدث بينه وبين أحد مشاهير المحامين وكان مشهوراً برثاثة ثيابه لا فقراً ولا زهداً ولكن سوء عادة درج عليها، فقد

طلب من المحكمة تأجيل قضيته فى أحد أشهر الصيف معتذراً بعزمه على السفر للاصطياف . فسأله القاضى فى رفق : أين تصطاف ياسعادة البك . وقبل أن يستطيع الرجل الإجابة ، نطق باشات بتلك النكتة الرهيبة : سعادته يصطاف فى «التانتوريرى» .

والذى يعلم أنها محل تنظيف الثياب بالبخار وأن لها أفرعاً فى كل شارع ، لايسعه إلا أن يستلقى على ظهره من شدة الضحك ، وقد حدثت ضجة واغرورقت أعين بعض الحاضرين من شدة الضحك واضطرت المحكمة أن ترفع الجلسة بضع دقائق للاستراحة . أضف الى هذا وجه البيك وتغيره وذهوله وعجزه عن الرد وهدوء باشات وسكينته ونظرته المطمئنة بعد هذه النكتة الصائبة ، ولأجل أن يقدرها الأديب قدرها عليه أن يعرف الشخصيتين وأن يدرك جو المحكمة القاتم وسكونها المصطنع وانشغال الخواطر بالقضايا والمنازعات وانصراف الأذهان عن النكتة . ثم تنفجر هذه القنبلة الضاحكة فلا يخلو أحد من شظاياها وترغم المحكمة على مشاركة السامعين فى الضحكة حتى تتغلب القهقهة على وقار العدالة فى ساحة المحكمة . ويفرج الناس عن أنفسهم بعض كروبهم ثم تعود الجلسة الى الانعقاد فيبحثون عن البيك المحامى «النظيف» فلا يجدونه ، لأنه انتهز فرصة الاستراحة وزاغ وتخلّى عن القضية فناب عنه فى الحضور صديقه الأستاذ باشات وتعهد بإبلاغه تاريخ الجلسة المقبلة بعد الراحة القضائية ، فأثار موقفه عاصفة أخرى من الضحك لأن فى ظهوره اعترافاً بأن المسافر الذي عجل بالسفر كان ضحيته .

وإنى أسألك هل ترى فى هذا مايغضب أو يجرح الكرامة أو يسىء الى المحامى الشيخ أو يكدّر صفوه أو يحقد قلبه على الناقد الرقيق الحاذق ؟

نعم قد يفحش المنكت وإن يكن لبقاً أو حذراً أحياناً كالذى اشتهر عن نكتة «الصيدلية المفتوحة طول الليل» . ولكن هذا نادر ولايقع إلا فى كل عام مرة .

ولايفوتنى أن باشات فى قضائه رجل فى أعلى درجات النزاهة والعلم والأدب ، وله كرامة خاصة به ومظهر يدعو الى الاحترام ، وسألته مايصنع إن « حزقته » نكته أثناء النظر فى القضايا فهل يطلقها أو يكتمها فقال لى وهو يبتسم ابتسامة أعرف سرها : إنى أمتنع لأن الوسط الريفى لايلائم وأخشى أن يشهر عنى التنكيت فى القضاء وهو يذهب الكرامة . ولكن أقول لك الحق إنى أحياناً لا أطيق الصبر فأرسلها ... فقلت له خيراً لك أن تقيدها وتكتبها أو تبقيها الى النطق بالحكم فضحك وقال « هى حيثيات والا إيه ؟ » ..

ولخالد بك صاحب أو نديم اسمه عبد العزيز السوسى مغربى الأصل ضخم الجسم أهوج عصبى المزاج وآخر محام اسمه م.م يزعم باشات أنه أشبه الناس بحوذى نقل « عربجى كارو » ولايمكن لخالد أن ينطلق ويتجلى إلا إذا كان أحدهما موجوداً ويسميه « عدة الشغل » أى الهدف الذى يوجه إليه نكاته اللاذعة ، فإن منظر أحدهما أو كليهما إذا اجتمعا يلهمه ويوحى إليه فيتخيل ماشاء ويرسل النكات تترى متتالية منتظمة كالجندى الشجاع فى المعركة . وقد بحثت فى أصل هذه الموهبة عند صديقى فقيل إن للوراثة دخلا فإن أباه الذى مايزال على قيد الحياة كان فى شبابه وكهولته من مشاهير المنكِّتين ثم خبا بحكم السن وتحمل هموم الحياة ولكن فى ظنى أن باشات الوالد مهما حذق وذكا فلم يكن يبلغ شأو باشات الولد . وقد ذكرته عرضاً فى كلمتى عن الأستاذ الأديب عبدالله بكرى .

وإنى أحب النكتة الرقيقه البارعة وإن كنت لا أتقنها وأطرب لها وإن لم ترد على لسانى فكفى سماعها والتلذذ بها وتقدير أصحابها ، وفى انجلترا يسمون صاحبها Testeu ، وليست النكتة الانجليزية فاترة أو باردة كما يظن الناس لبرود طبع الإنجليز وفتورهم وطول صمتهم ، فقد اشتهر منهم فى القديم الدكتور چونسون وسجلها له بزويل ودافيد جاريك الممثل الشهير ، وفى العهد الأخير أوسكار وايلد فكان

ملك النكتة فى عصره وهم يفضلون أن يتخذوها وسيلة النجاح فى كتبهم فلا تضيع هباء فى المجالس . وإنى أحبها ولو فى مجلس القضاء المعتم لأنها دواء الخمول والجمود وضياء الظلام المخيم على الخواطر والأفئدة فتشحذ الكليل وتنعش العليل وتبعث الوسنان وتيقظ الهاجع ولا يأباها البليد والأحمق ولايغضب منها إلا المغرور وضيق الصدر .

وإن صديقىَّ العزيزين باشات وبكرى بجانب هذه الموهبة الجميلة يتلطفان فى القول ويخرجان من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرا ويجعلان من الكلام مصايد للقلوب ويعمران المجالس إن جدا أو هزلا ويبلغان الإرادة بأخف مؤونة ويستولى كل منهما على الأمد وهو وادع ويلحق الطريدة ثانياً من عنانه ويمشى رويداً ويكون أولاً ، لأن الغريزة مواتية والطبيعة قابلة جزاهما الله خيراً عن الأدب والأدباء والظرف والظرفاء فإنهما ذخيرة ثمينة وتحفة غالية وأطال عمرهما فهيهات أن يجود الزمان بمثلهما وإنى مهما أطنبت فى الإعجاب بهما أو تعريف قدرهما لمن لم يحظ بعشرة أحدهما واستيعاب مواهبه أكون فى حقهما مقصراً .

محمد شوقى بكير

كان أستاذ عام النبات فى مدرسة الزراعة العليا « قبل أن تصير كلية » وعرفته عن طريق إبراهيم رشاد « التعاون » وعن صاحبه المرحوم طاهر العمرى لأنهم كانوا يقيمون فى حلوان فى منازل فخمة ذات حدائق وأنهار ومنابع ماء وظل ظليل وخير عميم.

وكان شوقى من أصل چركسى وتعلم علومه فى انجلترا وتزوج من امرأة من جنسه وكان فى ظاهر الأمور سعيداً فى حياته مجداً فى عمله ولم يؤخذ عليه شىء إلا أنه كان يبيع كتبه فى علم النبات « وكانت تطبع وتباع لحسابه الخاص » بأثمان مرتفعة تثير ضجيج الطلاب .

ولما أردت أن أشترى أحدها لدراستى الخاصة دفعت غالياً ولم أشأ أن أطلب منه نسخة فقد درج بعض الأساتذة فى جميع درجات التعليم الابتدائى والثانوى والعالى على بيع مؤلفاتهم بمثل هذه الأثمان وأن يجبروا التلاميذ والطلاب على اقتنائها لأن أسئلة الامتحان تستخرج منها بحسب اتفاقية أو مؤامرة واسعة النطاق بين الموظفين فى الوزارة ولجان اختيار الكتب ووضع المناهج وبين مطبعة المعارف وقد أثرى كل من كانت له علاقة بهذا العمل الذى وضع أساسه أحمد حشمت باشا فى الفترة التى ولى فيها وزارة المعارف حتى صارت سنّة تتبع .

ثم ثار بعض الموظفين والأساتذة الذين لم يكن لهم نصيب فى هذه الغنائم التى كانت تدور على ابتزاز أموال التلاميذ بتكليفهم بشراء كتب غالية الثمن ثم لايلبث أن تلغى ويقرر غيرها وابتزاز أموال وزارة المعارف نفسها ، وحوربت هذه الطريقة من

خصوصها ولكن بعد أن أحصيت وحصرت عشرات ألوف الجنيهات بل مئاتها التى دخلت جيوب المنتفعين بهذه الخطة وتعطل طبع الكتب ماعدا المدرسية .

وكان أصحاب المكتبات إذا عرضت عليهم كتاباً يسألونك هل هو مقرر فى الوزارة أو أن لك أمل فى تقريره ، فإن كان الجواب سلباً أعرضوا عنك ؛ ولو كنت ابن المقفع أو ابن سينا بلاغة وحكمة . فنفقت سوق الأدب وازدهرت دولة النهب والسلب ببيع هذه الكتب ، وسرت العدوى من المدارس الابتدائية والثانوية الى كليات الجامعة وهذا أحد الأسباب القوية فى انحطاط مستوى التعليم وفشل نتائج الامتحانات وانحصار مجهود الأساتذة فى كسب الأموال ببيع كتبهم لطلابهم وأشياء كثيرة أخرى رأيتها ووقفت عليها وعرفتها وهى ماتزال جارية ولايحرك أحد ساكناً .

وقد ساقنى الى هذا الاستطراد ذكر المرحوم محمد شوقى بكير بمناسبة غلاء كتبه ، فإن الكتاب الذى لايتكلف قرشين أو ثلاثة كان يباع بثلاثين أو أربعين قرشاً يدفعها الطالب ، وليته كتاب واحد أو اثنان أو ثلاثة ولكنها عدة كتب فى كل علم وفن .

وكانت حياة الأستاذ فى قصره بحلوان محاطا بأهله وأصدقائه حياة سعيدة فى ظاهرها ولكن عوامل كثيرة خفية كانت تعمل على هدم هذه السعادة . وفجأة توفى هذا الأستاذ الفاضل فى مقتبل العمر وقيل فى أسباب هذه الوفاة أشياء كثيرة .

ومما استعذبته منه زيارتى متحفه فى داره وقد جمع معادن ونباتات مختلفة وأحجاراً وآثاراً للتاريخ الطبيعى كان يجمعها من الجبال والأودية المحيطة بحلوان ومن وادى هوف الذى كان يجهز اليه رحلات متعاقبة مع أسرته وأصدقائه ، وهو من مواليد القرن الرابع عشر الهجرى وقد مات ولم يتجاوز الأربعين بعلة إنسانية يتحمل آلامها كثير مما لايقيمون للمروؤة وزناً ، وخلف والدة شيخة وبنتا صغيرة رحمه الله رحمة واسعة ، أما زوجته الشابة الجركسية فلا أدرى ماصنع الله بها .

محمد صدقى الطيّار

توفى فجأة بسكتة قلبية عقيب ذبحة صدرية فى عصر يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٩٤٤ وشيعت جنازته فى عصر السبت من داره بشارع رمسيس بمصر الجديدة وسنه سبع وأربعون سنة تقريباً .

ولد بمصر فى عهد الخديو عباس حلمى لوالد كان مشهوراً بالشمم والإباء والاعتداد بالنفس فأنشأه نشأة حسنة ولكنه لم يتم دراسته لاسباب طرأت على حياة أبيه بسبب انفصاله عن وظيفته بالقصر الخديو لدواع لاتمس شرفه بل تزيده احتراماً وكان طول حياته رافع الرأس . فلما شب الصبى محمد صدقى مارس كثيراً من الأعمال الحرة ولم يوفق التوفيق كله وكانت آخر حرفة مارسها تجارية وهى توريد بضائع من أوروبا ، ثم هاجر الى ألمانيا حوالى سنة ١٩٢٥ عقيب الحرب العالمية الأولى بقصد التعليم فوقع اختياره على الطيران ، وكان جلداً شديد التحمل طموحاً شجاعاً وفى أخلاقه لين العريكة وحسن العشرة والتودد وهدوء الطبع ، فتعلم اللغة الألمانية وأحسنها ولما حصل على شهادة الطيران صمم على أن يعُود الى مصر وطنه طائراً بمفرده على طائرة ضئيلة الحجم رخيصة الثمن يستعملها الهواة للرياضة ، لا الطيران البعيد المدى ، وقد نصحه الفنيون أن لايخاطر بنفسه ونهاه أصدقاؤه عن تجشم هذه المخاطرة فلم يُجد نصحهم ولانهيهم ولم يكن يملك ثمن طائرة أكبر أو أقوى .

وتلك الطائرة تشبه تمام الشبه أختها نينيت التى وصل اليها سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العظمى الطيار الفرنسى قدرين قادماً من باريس الى اصطامبول فآسيا

الصغرى فجبال طرسوس فالشام ، فمصر ، وقد رأيناها فى جوار فندق مينا هاوس فى تلك السنة ، وهى لعبة طفل بالنسبة لأصغر طائرة حربية أو مدنية مما نرى الآن .

ولما نما خبر عزم صدقى تحمس له المصريون تحمساً شديداً ولكن لم يفكر أحد فى معونته بالمال ، بل اكتفوا بأن لهجوا باسمه ، ماعدا المرحوم عبد القادر حمزة الذى كانت تربطه بالمرحوم والد صدقى معرفة سابقه فكتب عنه ودعا له دعاية حسنة وأعّد الأفكار لحسن استقباله وتشجيعه وحصل منه على امتياز بمقالات للبلاغ يصف فيها رحلته الجوية ، وأخذت أخباره تجيء الى مصر بالبرق وقد عانى معاناة شديدة من شوامخ الجبال والضباب ومضائق السحاب وتكبد مشقات جمة وكأنه كان يزداد عناداً كلما زادت مصاعبه شأن الرجل الشهم ذى العزيمة الصادقة .

وأخيراً وصل مطار منشية البكرى وهو سابق لمطار ألماظه فى الإنشاء فى عصر يوم من أيام الشتاء سنة ١٩٣٠ ، وتجمع له من الناس لاستقباله فى المطار والعباسية وشوارع القاهرة بقدر ماجمعوا يوم عودة سعد زغلول سنة ١٩٢١ ، وفى الساعة الرابعة بعد الظهر بعد طول الترقب والانتظار بدت طائرته فى الأفق صغيرة كالحدأة بجناحين (مونوپلان) صفراء داكنة كظبية الوادى غير أنها ذات نحول وهزال وعلا الضجيج والهتاف وتحمس الكبير والصغير تحمساً نادر المثال ، فبدأ الطيار الهمام بتحية المطار بالطواف حوله ثم هبط بحذق ومهارة وكاد المستقبلون يزهقون روحه ضماً وعناقاً وتقبيلاً ومصافحة ، وفى لحظة عين أصبح صدقى بطل الساعة ورجل مصر الأوحد فى هذا الفن العظيم ، ودخل القاهرة دخول الفاتح ، وقد أحصينا أكثر من ألف سيارة تتبعه وكان الزحام بميدان باب الحديد مما لم يسبق له مثيل ، وحضرنا جلسة البرلمان التى منحته أثناءها جائزة مؤقتة قدرها ألف جنيه ، وكان حاضرها ووالده وبعض أقاربه ومنحه الملك فؤاد نوط الجدارة ووهبه هبة مالية واستقبله وحيّاه وهنأه وشكره وشجعه .

وكان صدقى يحمل معه فى الطائرة تمساحاً رضيعاً يعتبره تعويذة (وباروكه) وبادرت شركة بنك مصر بتأليف شركة مساهمة هى شركة مصر للطيران لتشجيع هذا الفن واستثمار مواهب صدقى وخطت خطوطاً للطيران داخل القطر وخارجه وكان صدقى عماد هذه الحركة وأسست مدرسة للطيران وأسس مطار ألماظة للطيران المدنى.

وأخذ صدقى يطير على طائرته وغيرها الى الحجاز والعراق والشام وينقل الركاب والمسافرين من ١٩٣٠ الى ١٩٤٣ وقطع ثلاثة ملايين كيلو متر وهو رقم قياسى يندر أن يجتمع لطيار فى حياته الفنية ، ولكن الأقدار قضت أن يهوى هذا النسر بعد أن حلق بمصر وأحلّها محلاً حسناً فى عالم الطيران فله الفضل الأعظم على هذا الوطن ، فإنه لم يقلده الرجال وحسب بل العذارى الطائرات مثيلات لطفية النادى التى أتقنت الطيران على يديه .

ويمكن القول بحق أنه رجل أنشأ فناً فى بلد محروم منه ، وقد دعوت فى سنتى ٢٩، ٣٠ فى جريدة البلاغ اليومى الى إيجاد الطيران فى مصر[١] بعد أن شهدت حفلات أقيمت فى مطار منشية البكرى الإنجليزى الحربى لمعونة أرامل الطيارين وأيتامهم من الإنجليز ودهشت من مهارتهم وعلمت أن الانجليز يحرمون الطيران على المصريين لأنه سلاح حديث ولأن جو مصر يصلح للطيران طول العام ويعد خير مدرسة لتعليم الطيران فاستأثر به القوم ومنعوا المصريين من ممارسته ولم يسمحوا بدخوله فى الجيش المصرى .

---

(١) كتب لطفى جمعه أيضاً مقالاً نشر بجريدة المساء فى ١١ ابريل سنة ١٩٣١ تحت عنوان « موسم الطيران المصرى » .

وحدث أن طياراً مصرياً « عبد الرحيم مصطفى » زميلى ورفيقى فى دراسة الحقوق بفرنسا أخفق فى علم الحقوق وحذق فن الطيران وعاد بطائرة اشتراها بماله ، فلما وصل ثغر الاسكندرية عائداً من أوروبا حجزوها فى الجمرك ولم يسمحوا بدخولها ولم يسمحوا له بالطيران فى جو مصر . تصور أن المصرى المتعلم ابن عم رئيس الوزارة محمد محمود باشا لم يتمكن من الطيران فى جو مصرى بينما تعج سماؤها بالطائرات الإنجليزية الحربية والمدنية فى البر والنهر والجو ، فكتبت انتقد وأتألم وأشكو وأتظلم ولا حياة لمن تنادى .

فحدث أن أيكنر الألمانى عزم على زيارة مصر بمنطاده ، فتردد الإنجليز فى السماح له ، وعَزّ عليهم أن يدخل الرجل باختراعه « وهو قديما منسوب الى كونت زبلين ، وهو ألمانى » جو مصر قبل أن يصنعوا هم منطاداً مثله ، ولكن ترددهم لم يطل وسمحوا له . وكان آية فى الجمال والعجب . فلما جاء صدقى وطار من أوروبا الى مصر وتحمست البلاد له خجل من يستطيع أن يخجل فسمحوا بتعليم لفيف من الشبان فى انجلترا وأنشأوا سلاح الطيران ، ولكن الأقدار حاربت مصر فكان عدد ضحايا الطيران من الضباط المصريين أكثر من الاحياء مع أنهم لم يشتركوا فى معركة جوية ولم يظهروا كفاية ولم يحوزوا فخراً ، وقد جاءت أيام فى سنتى ٤٣ و ٤٤ كان لايمضى خلالها أسبوع دون أن نقرأ عن مصرع طيار أو طيارين .

وقد كتب الحظ لصدقى أن يكون أقل الطيارين خطأ وأدومهم وأثبتهم وأقواهم قوادم وخوافى وأرشقهم جناحاً وأبرعهم صعوداً وهبوطاً وقد عينته الحكومة منذ خمسة أشهر مفتشاً للطيران بعد أن كان موظفا بالشركة .

كما أتاحت له الأقدار أن يحقق حلم عباس بن فرناس العربى الأندلسى وقد حياه شوقى أمير الشعراء عند وصوله بقصيده رنانة . وربح شهرة ومالاً وأثلج قلب أبيه قبل موته وأثبت أن الأمم المغلوبة على أمرها ينبغ فى غمارها أفراد يؤيدون

حياتها ويؤكدون طموحها .

كان صدقى طويل القامة أسمر اللون عريض الصدر يمشى مكباً بعض الإكباب، بارز الأنف حاد البصر كالنسر الضخم وكان هادئاً هدوء النسر طويل الصمت خافت الصوت مجتمع الأكتاف كأنه لاينفك مصمما على التحفز للصعود .

وقد لقيته وقضيت معه وقتاً طويلاً عند عبد القادر حمزة بمناسبة مقالاته الخمس أو الست التى كتبها عن رحلته الجوية وكانت جيدة الموضوع ذات أسلوب خاص كأنها مكتوبة بلغة أجنبية منقولة عنها الى العربية وليس مطلوباً من مثله أن يكون كاتباً عربياً ، وكفاه أن يقيد خواطره وأن يصف مخاطره ، وهذه المقالات اتخذت بوفاته صفة الوثائق الانسانية ولكنى لا أظن أحداً سوف يعنى بتدوين تاريخ حياته وتسجيل هذه الفترة المجيدة الأولى من أعماله .

وكان صدقى متأهلاً بسيدة ألمانية مرزوقاً منها بغلام سماه « أسامة » وهو اسم بطل عربى قديم ولما شرب من ماء النيل رأى أن يبنى بسيدة مصرية رزق منها ببنتين ورأت أم أسامة أن تبقى بجوار ولدها .

وعن وفاته روى لى الأستاذ مصطفى علوى مدير الحركة فى المطار « وليس طياراً » ابن عم كمال علوى بك نجل المرحوم علوى باشا الرمدى الشهير أنه كان مع صدقى قبيل وفاته وقد خرج مع أسرته فى نزهة خلوية بالسيارة وهو يقودها ثم شعر بتعب فترجل وقصد الى مكان بناد رياضى ليستريح فزاد وجعه فى صدره وذراعه وضاق نفسه واستنجد طبيبا فلما بلغه كان قد قضى نحبه وصعدت روحه الى بارئها فى طريق السماء .

قال مصطفى بك العجيب أن الكومسيون الطبى وهو خرافة حكومية «من عندنا» كشف عليه وفحصه وأقر صلاحيته الصحية من أسبوعين فقط . والذبحة الصدرية تزمن ولها أعراض . فلو أنه كان طائراً وفى عهدته مسافرون ووافته منيته فى بضع

دقائق لهوى ، وهوت طائرته معه ، وقيل إن الطائرة سقطت لخلل فى آلتها أو عطب أصابها ولكن الله سلّم – وهذا لنعلم أن حياة البشر معلقه بخيط أوهى من خيط العنكبوت ولكن أكثر الناس لايعلمون ولايدركون ويخطئون ولا يصيبون ٠

وعلمت أن المرحوم لم يخلف ثروة ولا مالاً كثيراً أو قليلاً وأن أولى الحل والعقد يدبرون لأسرته معاشاً يليق بحالهم وبماضى بطل الطيران المصرى وسابق جهاده ٠

وقال لى المرحوم إن عقدة الطيران فى الهبوط ومعظم الحوادث تقع أثناءه وأن الطائرة أسهل فى قيادتها من السيارة ومثله من يقول ويعتمد على قوله ٠

وقد دل ببعد نظره فى تعليمه على أن اختار حرفة سوف يكون لها أعظم مستقبل فى العالم وعاش حتى رأى شأنها فى الحرب بين الأمة التى تعلم عندها وبين بقية أمم العالم ٠ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ٠

محمد عبد السلام(*)

كتب العالم الطبيعى ألبرت أينشتين ، صاحب نظرية النسبية التى قيل إنها قلبت العلوم الطبيعية رأسا على عقب ، مبحثاً فلسفيا فى العلم والدين جاء فيه « إن الشعور والشوق ، هما العاملان القويان اللذان يدفعان بالإنسان إلى السعى والإنتاج النافع ، وأن الشوق والتطلع نحو المعونة والمحبة والاسترشاد يخلقان فى نفس الإنسان صورة لله يتجلى فيها القانون الخلقى والمبدأ الأدبى الاجتماعى » .

وإذا أنت لاحظت الألفاظ التى استعملها أينشتين زعيم علماء الطبيعة فى هذا العصر المادى نجد ألفاظاً ومعانى تخصّصت للتصوف ، فالشوق والتطلع والمحبة والاسترشاد والتجلى وصورة الله كلها ألفاظ يكتبها المتصوفون ، وقد لجأ اليها العالم الطبيعى لأن معانيها كانت تجول فى نفسه وهو لم يجد غير تلك الألفاظ للتعبيربها عما يخالج ضميره .

ثم تراه يترقى فى بحثه فيقول : « إن بعض الأشخاص المتمايزين فى الشعوب التى بلغت مراتب عالية من المدنية يرتقون بفكرتهم الدينية الى درجة الاختبار الدينى الذى أدعوه Exprience Religieuse « هذا أينشتين الذى يتكلم! » « الشعور الدينى

(*) نثبت هنا مقالا للطفى جمعه نشر فى جريدة البلاغ بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان «التصوف الإسلامى الحديث » . وتجدر الإشارة هنا الى أن هناك رسالة أخرى صغيرة وضعها لطفى جمعه عن الشيخ محمد عبد السلام عنوانها « تذكار الأربعين لوفاة العارف بالله شيخنا السيد محمد عبدالسلام الذى لبّى نداء ربه صباح الأربعاء ١٦ ذى القعده سنة ١٣٤٥هـ » . وتقع هذه الرسالة فى ١٤ صفحة من القطع الصغيرة وماجاء بها لايكاد يخرج عما جاء بالمقال .

الكونى » . وهذا الشعور الدينى الكونى ، ليس باليسير تفسيره لمن لايشعر به ، لأنه لاينطوى على تشبيه مادى للذات الإلهية ولايشمل صورة بشرية للخالق سبحانه ! وإنما من يشعر بهذا « الشعور الدينى الكونى » يدرك أربعة أشياء :

(١) بطلان الرغبات الزائلة والأغراض الانسانية الصغيرة .

(٢) نبالة النظام المدهش الذى يتكشف لنا فى عالمى الطبيعة والفكر وجلاله .

(٣) أن مصير الانسان مقيد بهذا النظام العجيب السائد على الكون .

(٤) ضرورة اختبار ذلك الوجود الكونى بوصفه وحدة مشبعة بأعلى المعانى وأغلاها .

هذه هى المبادىء الصوفية التى وصل اليها أنيشتين بطريق البحث العلمى ومعانيها لاتحتاج الى بيان .

وقبل اينشتين قال برجسون أشهر فلاسفة فرنسا إن الانسان يصل الى العلم الصحيح بطريقة الانفطار Intuition أو إشراف النفس ، وقد ألف فى مذهبه كتباً كثيرة ، وأيده فى أمريكا ويليم جيمس .

وظهرت نظرية فرويد المبنية على التحليل النفسى « بسيكوانااليز » ، وكتب علماء إنجليز عديدون فى العقل الباطن ، وعللوا به علم الغيب والإنباء بالمستقبل . وألف الأستاذ ارتور آدمجون العالم الفلكى الطبيعى الأشهر كتابه « ماهية العالم الطبيعى » جاء فى ص ٣٢٠ منه مايأتى فى الكلام على قوى النفس :

« إن فى الانسان ، فى عقله ونفسه ناحيات وجهات لاتخضع لقوانين الطبيعة وغير مقيدة بأى قيد . فمن ذلك خفاء معنى الكون وخلقه ، ومايحيط بنا من أسرار الوجود ، ووسائل النطق بالفنون وتفسير معانى الحياة بالموسيقا والتصوير والنزوع الى الجمال والطموح الى الله . فى هذا كله تعلو النفس وتطمح متتبعة خواص الشوق المودعة فيها ، وتسمو الى العلى لتحقق أمانيها الكامنة فى ثناياها . وتفسير هذا الطموح أمر باطنى ، هو شعاع من نور مودع فينا وهو سعى واجتهاد من العقل

الظاهر والإدراك الحقيقى لنصل الى معرفة مالا نرى ، أو لتتصل نفسنا بما هو أعظم منها . هو شعور النفس بقوة أعظم من قوتها ، وسلوكها للوصول الى تلك القوة التى هى مكمن الأسرار ومستودع القوة العليا ، فالباحث والفيلسوف والمحقق والعالم الطبيعى والأديب والشاعر والمتفنن الذين يعمل كل منهم فى فرعه إنما يسعون الى الاستزادة الفكرية من العلم والفن ليقربوا من ذلك الضياء الذى يجذبهم رغم أنوفهم كما لو كانوا مسوقين بقوة قاهرة يشعرون بها ولايعرفون كنهها » .

هل هذا كلام عالم طبيعى فلكى إنجليزى أم كلام فيلسوف متصوف شرقى ؟

الجواب إنه كلام الاثنين معا . وقد قرب العلم الصحيح مسافة الخلف بين العلم و « المعرفة » .

وكل قراء العربية يعرفون من هو رومان رولان . فهو أعظم كتاب فرنسا الأحياء، ولكنه مغضوب عليه وغضبان . فقد ألف قصة جان كريستوف فى عشرة مجلدات وترجمت إلى كل لغات العالم . ماعدا اللغة العربية ، وألف « الروح المسحور » فى أربعة مجلدات ، وترجم لعظماء العالم أمثال تولستوى وميكائيل أنجلو ومهاتما غاندى، ودرس رجال الموسيقا المشهورين أمثال لولى وسكارلاتى وهندل وبيتهوفن ، ونال جائزة نوبل .

أما سبب غضبه وخروجه من فرنسا وطنه واستقراره بإحدى قرى سويسرا على شاطىء البحيرة « نيوفيل » ، فهو مقاومته للحرب إبان اشتعالها فى العالم وقد ألف رسالة صغيرة عنوانها « فوق جو المعركة » ، فعدها أبناء وطنه خروجاً على الاجماع ، ونكوصاً إلى الوراء عن فكرة الدفاع القومى ، فقاطعوه وشنعوا به ، واتهموه بممالأة الأعداء ، كعادة الفرنسيين فى أوقات طيشهم وغليانهم لايسمعون من أحد كلمة الحق ، حتى تدقّ أعناقهم أو تحطم رؤوسهم بالجدار .

هذا هو رومان رولان الذى وقف بضع سنين من عمره على تأليف كتاب « حياة راما كريشنا وفيفيكننذا » وهو « مبحث فى الصوفية الفعالة فى الهند الحية » فى ثلاثة أجزاء ٠

وقد سرد فى هذه الأجزاء الثلاثة ترجمة اثنين من أعظم رجال الهند بل أعظم رجال العالم ، أولهما راما كريشنا المتصوف البرهمى العجيب الذى « وصل » عن طريق الإلهة كالى ، وقد وصف نشأته وتهذيبه وسلوكه وملازمته لعتبة الآلهة ، وأسهب فى وصف حالته فى وقت « تطوره » و« جذبه » الذى يسمى بالهندى « سمادهى » وكيف كانت تتجلى له الرؤى ، وخبر الرجل الذى « أوصله » بشق جبينه بقطعة من الزجاج ، وما أصابه من صنوف « البلاء » ٠

ثم انتقل الى ترجمة مريده المفضل على غيره وهو فيفيكننذا ، وكيف كان اجتذابه ، مع أن فيفيكننذا من طبقة الأشراف والأعيان ، وكان على أعظم جانب من الجمال والقوة والذكاء وأن راما كريشنا جذبه ، وأعطاه حاله ، وأنذره بما سيقع له ، فلزمه فيفيكننذا بضع سنين وخدمه ومرضه فى مرض الموت ، وعنى به العناية كلها ٠ وجاء الوقت الأخير فألبسه حاله وقال له « اسمع يافيفيكننذا ، لقد صرت أنت الآن كل شىء ، وأنا لا شىء » ٠

ولما توفى الشيخ ، خرج « الدرويش فى سياحته الأرضية » الأولى فطاف بلاد الهند على قدميه كأفقر « الدراويش » يتوسد الأحجار ، ويتظلل بالأشجار ، ويأكل بالصدقة ، ويخوض غمار المستنقعات ، ويستغنى بثوب واحد ، وهو مع حالة فقره يزداد رفعة وكمالاً ، وأخيراً سافر الى أمريكا وحضر مؤتمر الأديان الذى كان منعقدا فى واشنطون سنة ١٨٩٣ ، فخطب فيه وأخذ بألباب زعمائه المجتمعين به من كل حدب وصوب ، وقد انتخبوه رئيساً عليهم ، فأفاض على علماء أوربا وأمريكا من العلم اللدنى بما أدهشهم « كل هذا ملخص أقوال رومان رولان أعظم كتاب فرنسا الأحياء » ،

فعرضوا عليه الأموال والمناصب فأبى ، ووصل الى انجلترا حيث خطب وكتب وكان له من الشأن أضعاف ماكان له فى امريكا . ثم سافر الى باريس وأخيراً عاد الى وطنه، وقد مات فى الرابعة والثلاثين من عمره .

أما علاقة هذين الرجلين بنهضة الهند الحديثة ، وتسلسل الحركة الوطنية واليقظة القومية من الحركة الصوفية ومن حياة هذين الرجلين بالذات فهذا مانتركه الى وقت آخر لنوفيه حقه من البحث والدرس .

ولما اطلع أحد أصدقائنا المصريين[1] على كتب رومان رولان وقرأ حياة هذين المتصوفين لاحظ أنه رأى متصوفاً مصرياً ينطبق كثير من أحواله على أحوالهما فدرسها ودوّنها وكتب الى رومان رولان يعرضها عليه فأجابه بقبولها على شرط إفراغها فى قالب فرنسى ، وقد رأينا الخطاب الذى ورد على صديقنا من رومان رولان وهو : فيلنيف (فو) فيلا أولفا ٦ مايو سنة ١٩٣٠ .. سيدى العزيز .. أشكرك على كتابك ، إننى أهتم كثيرا بمعرفة المتصوف المصرى الذى كتبت لى عنه ، ولما كنت سأتغيب فترة الصيف بضعة أشهر أرجو أن تبعث إلىّ بمبحثك الطريف أثناء الخريف لأتفرغ لقراءته ودرسه فى أحسن الظروف وأكثرها ملاءمة وتفضل ياسيدى بقبول فائق تحياتى « رومان رولان » .

وقد انقطع مابينى وبين صديقى لسفره إلى مدينة الأسكندرية فلا أدرى عن مؤلفه فى حياة المتصوف المصرى شيئاً ، ولا أعلم هل نقله الى الفرنسية وأرسله الى المؤلف الشهير أم لا ، ولكننى كنت قد حصلت منه على معلومات أولية ألخصها للقراء وإليك ذلك : « توفى ذلك المتصوف فى أواخر العقد السادس من عمره فى يوم الأربعاء ١٦ ذى القعده ١٣٤٥ الموافق ١٨ مايو سنة ١٩٢٧ ، وقد ولد بالقاهرة وكان أبوه من علماء

---

(١) يرمز لطفى جمعه بذلك الى نفسه .

فن تجويد القرآن وكان إماما لإحدى الزوايا بالقاهرة ، وينتسب هذا البيت إلى الشريف الرضى وأصل نشأتهم فى العراق العربى وهم من حيث الإقامة بالقطر المصرى ، ينسبون إلى قرية سرسنا إحدى قرى مديرية المنوفية .

ولما نشأ ذلك الصبى « الذى صار فيما بعد محمد عبد السلام المتصوف » أقرأه أبوه القرآن الشريف فأتقنه حفظاً وتجويداً ، ثم التحق مجاوراً بالأزهر حيث قضى تسع سنين فى طلب العلم وكان أساتذته الشيخ راضى وكان يعتبره الطالب الأول المميز على أقرانه فإذا لم يجده يوماً فى الحلقة عدل عن الإلقاء وذهب الى داره يسأل عنه ويواسيه .

وروى الثقات من عارفيه عن حياته أثناء الطلب أنه كان يلبس ثياباً بسيطة لطيفة للغاية وأنه كان ثابتاً وقورا كثير الصمت قليل الكلام .

وكان فى مستهل العقد السادس متوسط الجسم ، ليس بديناً وليس نحيلا وهو أسمر الوجه جدا جميل الطلعة مقسم التقاطيع ، ما أخذت العين برأس أكمل فى تكوينه الطبيعى من رأسه ، فكان الناظر إلى جمجمته البيضاوية الشكل وجبينه العالى وجبهته العريضة وحاجبيه الدقيقين وأنفه الصغير المستقيم وعينيه النبيلتين وجفونهما الأقرب إلى الضيق منهما إلى الاتساع ، وفمه الجميل المتوسط وشفتيه الرقيقتين فى حسن استدارة وذقنه المتوسط فى الحجم مع تمام المناسبة بينهما وبين فكه الذى لا بروز فيه . وإلى ذلك أذنان جميلتان دقيقتان مرهفتان ، كأنهما أداتان من أدوات التلقى اللاسلكى . من نظر إلى هذه الصورة فى مجموعها وتأمل حجم رأسه بالنسبة الى بدنه وكيفية جمال الوضع مع الانسجام ، أيقن أن هذا الرأس وهذا الدماغ وهذا الوجه انما هو رأس حكيم عاقل عالم قد صنعها الخالق سبحانه وتعالى وأبدع فى صنعها وصبها فى القالب الذى أفرغت فيه رؤوس أكابر الحكماء ، فى سائر الأمم القديمة والحديثة .

وكان أول ظهور حاله منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً فهجر حلقات الدرس تدريجاً ثم أخذ يتردد على آخر مسجد حضر فيه الدروس وهو مسجد الحلوجى ، فيقابل فيه أساتذته ورفاقه ثم انقطع بتاتاً ولزم داره ، وكانت له مكتبة عظيمة أنفق فى تكوينها مالاً طائلاً . فلما أدركته الحال أحرق مكتبته عن آخرها . وتزوج من فتاة ريفية اسمها « شلبية » وأقام معها شهراً فطلقها عنه أبوه وهى لاتزال على قيد الحياة ، ولم تتزوج ، ثم تجرد الشيخ من حاجات الدنيا ومطالبها وزهد فى شهواتها ورغائبها وأعرض عن زهوها وغرورها فآلى على نفسه القوية الأبية أن لاتملك شيئاً بعد أن تبصّرت ونظرت بعين اليقين فى عالم الحقيقة . فكان لايملك ثوباً ولا عمامة ولا قميصاً ولا منديلا ولا قميصاً ولا فراشاً ولا مالاً منقولا ولا ثابتا ولا يتقيد بمكان ولا زمان من حيث المنام أو الطعام أو الشراب .

وكان اذا دخل خلوته خلع ثوبه الوحيد المستعار سواء أكان جلبابا أم عباءة أم رداء ويبقى عارى الجسد .

وقد رؤى فى سنة ١٩١٢ قبيل حروب البلقان يدخل مخازن الثياب الإفرنجية وهو بثيابه الشرقية ومعه رهط من مريديه وأحبابه فيشترى قبعات مختلفة الأشكال والألوان ويلبسها ويسير بها ، وفى تلك الفترة وقعت تلك الحروب المهولة التى تألبت فيها دول البلقان على تركيا .

وكان من عادته أن يحلق لحيته وشاربه وشعر رأسه حيناً من الزمن وأن يرسل ذلك حينا آخر ، وقد رأيناه لأول مرة حليقاً وانتقل الى رحمة الله وهو على أجمل مايكون منظراً وقد أرسل لحيته وشعر رأسه .

وكان من عادته أن يجلس فى خلوته وهى غرفة صغيرة داخلية تطل بنافذتين صغيرتين على حارة تؤدى الى ضريح الشيخ معروف ، على دكة من الخشب عليها وسادة وأمامه موقدان من الحديد أحدهما صغير والآخر كبير وبجوارهما سلة مملوءة

فحماً مصرياً وتكون النار موقدة فى الموقدين أو أحدهما فى معظم الأحيان ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاء وكان بجواره صندوق يضع فيه أعواد الثقاب بمقادير كبيرة ، وكان ورده المعروف « أجزر عينه ! جزر عينه فناه – قتله ، رماه ! . . » .

وكانت من أدواته مرآة ومروحة فيطيل نظره الى المرآة فى الطريق أو فى الخلوة ، أما المروحة المصنوعة من الريش فكان يروح بها هو أو أحد مريديه على النار .

وكانت سياحته اليومية تبدأ من باب الخلق فى صحبة مريد أو أكثر الى شارع تحت الربع فباب المتولى فالغورية فالأزهر فباب النصر أو الحسينية أو المشهد الحسينى أو باب الشعرية ، وقد تستغرق تلك السياحة ساعة أو ساعتين أو نصف يوم أو ليلة بطولها ويزور كثيراً من الأماكن العامة كالقهوات والأفران والمطاعم ويغشى المآتم والأفراح ليسمع القرآن . وكان يحب أن يصغى إلى سورة القصص فى آخر أيامه ويستعيدها مرات عدة .

وكانت عادته أن يستلقى على ظهره بعض اليوم ويندر أن تغمض عيناه أو يستغرق فى النوم ويسهر طول الليل جالساً ، ولم يكن البرد الشديد أو القيظ الشديد يؤثران فى بدنه مطلقاً وقد رأيناه وهو يتصبّب عرقاً بعد جلوسه أمام الموقد ساعات يخرج فى المسهك « تيار الهواء » ويدخل الى محل الماء ويطلق نافورة الماء البارد على بدنه ثم يعود الى حاله مرات متكررة .

وكان يطلب من مريديه نقوداً كثيرة أو قليلة يشترى بها فحما أو حلوى أو صابوناً أو كبريتاً أو مناديل جديدة وكان فصيح اللسان بليغ العبارة وكان أيام الطلب حجة فى علوم اللغة والفقه والأدب والموسيقا والمنطق والفلسفة ، وكان يحفظ الشىء الكثير من الأمثال والحكم والشعر القديم والحديث وغرائب اللغة ، وإذا سئل عن آية من القرآن الشريف دل على موضعها من سورتها بسرعة فائقة . وهو يحفظ أسماء مشايخه ومشايخهم ومؤلفات كل منهم بالتفصيل والدقة .

.ولم ير أهل القاهرة رجلاً أعم محبة عند جميع الطبقات من هذا الشيخ وقد رأينا فى حضرته علماء أعلاماً من أهل الشريعة وأكابر المتصوفة وكلهم مجمعون على تبجيله وتمجيده والتقرب إليه ، وهو يكرم الجميع ويحسن وفادتهم ويجود عليهم بما وهبه الله ويمنحهم من خيره وفضله بما يستحقه كل واحد على قدر نصيبه .

فإقرار علماء الشريعة بفضله دليل على معرفتهم بقدره ، والتفاف المتصوفين حوله اشارة على إدراكهم حقيقة أمره . وكان اذا سار فى الطريق فجراً أو ليلا أو ظهراً هرع الناس من أماكنهم ودنوا منه للسلام عليه . فكان يقبل على معظمهم ويعرض عن بعضهم . وكانت علامة إكرامه لهم أن يطلب إلى أحدهم أن يسقيه ماء فإذا عاد بالإناء أمسكه الشيخ مدة ثم ناوله إياه دون أن يشرب أو يتناول عمامته أو طاقيته أو طربوشه ويبقيها فى يده هنيهة ثم يردها اليه .

وكان فى أول حاله يكثر من ذكر الحلاج ويشبّه نفسه به .

وأخبرنا المرحوم مصطفى بك نصر المدرس بمدرسة الحقوق سابقاً أنه سمع من والده أنه جاءته البشرى قبل مولده بأن رأى فيما يرى النائم أنه وقعت فى حجره فسقية صغيرة من الفضة من شجرة باذخة فى ليلة مقمرة وعقيب تلك الرؤيا ولد له صاحب الترجمة .

كما ولد لوالده ولدان صالحان فاضلان من أرباب الأحوال ومكارم الأخلاق هما الشيخ سيد عبد السلام والشيخ محمود عبد السلام وقد شربا من البحر الزاخر الذى شرب منه أخوهما الأكبر ووالدهما الموقر الذى كان كالشجرة الطيبة التى تهدى أعظم الثمار .

هذا ولم أقف من صديقى على تفصيل ماكتبه عن الشيخ من أنواع الكرامات أو الإنباء بالمستقبل أو الأسرار التى أفضى بها اليه . ولعله اذا اطلع على هذه العجالة لايبخل على قراء العربية بنتف صالحة من تاريخ حياة الشيخ محمد عبد السلام .

الشيخ محمد عبده(*)

وصلت الى يدنا حديثاً رسالة التوحيد تأليف المرحوم الشيخ محمد عبده منقولة الى اللغة الفرنسية ، وقد اشترك فى ذلك العمل الجليل النافع الأستاذ ب. ميشيل والشيخ مصطفى عبدالرازق فصدراها بترجمته ، ويلوح لنا أنهما أخطآ فى نسبة الشيخ الى الجنسية المصرية ، ولم يحققا نقطة ذات شأن ، فقد كان أبوه واسمه الشيخ خير الله كردياً ، وكل ماجاء على لسان الأستاذ الإمام فى وصف أبيه من إبائه الظلم وفراره من بيته فى أواخر عهد محمد على وعودته اليه فى عهد عباس الأول ، وإتقانه ركوب الخيل وحسن الرماية ، وما كان يبدو على سيماه من دلائل الكبرياء والوقار يدل على انحداره من جنس شرقى أجنبى عن مصر ، ولعل هذه الجنسية هى سبب الصداقة المتينة التى كانت تربط الشيخ بالمرحوم قاسم أمين الذى كان كردياً صميماً ، وهى التى جعلته يبادر الى التلقى عن جمال الدين الأفغانى ، فكان أحب تلاميذه إليه ، وكان رفيقه فى حله وترحاله وشريكه فى تأليف كتبه ورسائله وتحرير مجلته ، ولعل الشيخ محمد عبده أكثر المصريين إفادة من جمال الدين .

وإن فى نفور محمد عبده من التعليم النظامى ، والخروج على قيوده ، وحبه ركوب الخيل وحياة الطبيعة الحرة الطليقة ، وانتحاله فكرة الثورة وصيرورته روحها ومرشدها ، وفى التجائه الى التصوف فى بداية أمره ثم عدوله ، واكتفائه من الدين بالعبادة المفروضة والمستنة ، ثم ظهوره بفكرة الإصلاح فى مجلس الشورى وفى الأزهر

(*) مقال نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٠ يوليه سنة ١٩٢٩ تحت عنوان « الشيخ محمد عبده ، وصف مجلسه وأحاديثه وبعض آرائه » .

وفى القضاء وفى الأدب ، فى ذلك كله أدلة على امتزاج الأصل الأجنبى الشرقى بالعنصر المصرى الكريم الفلاحى ، فإننا لاننازع فى مصرية أمه ، التى كانت فضلى الأمهات .

كان الشيخ محمد عبده الذى أدركته عام ١٩٠٣ « ربعة » بين الرجال أسمر اللون ، أبيض الشعر ، حديد البصر ، ليس نحيفاً وليس بادناً ، وكانت تقاسيم وجهه تحببه إلى من يلقاه ، دع عنك خفة الروح والجاذبية القوية التى كانت تشع عنه دأب كل عالم وعظيم ، وكان صوته هادئاً جميلا ، يتكلم بتؤدة وبساطة ويتأنى فى حديثه ، مع استمرار النظر الى المخاطب كأنه يحاول غرش أقواله فى أعماق نفس محدثه ، وقد تعرَّفتُ الى الشيخ بغير واسطة فكتبت إليه خطاباً ثم زرته وتكررت زيارتى له مرات ، وكان مجلسه يحفل بكبراء مصر وأدبائها وبعض الأجانب ، كما كان بيته فى عين الشمس ملجأ الكثيرين من ذوى الحاجات وطلاب المقاصد الشريفة . وكانت بين الشيخ وبين المرحوم ويلفريد سكوين بلنت أواصر مودة قوية ، وكان بلنت يقيم فى قصر فخم ذى حديقة غناء فى « الشيخ عبيد » على مقربة من عين شمس ، وهو الذى أقطع الشيخ الأرض التى بنى عليها بيته بالطوب « الآجر الذى لم تنضجه النار » وكان يزور الشيخ لابساً عباءة وعقالا ، ومعظم حديثهما بالفرنسية ، وكان الأستاذ يدعو بعض نجباء المصريين ويجمعهم لدى بلنت ليأنس اليهم ومنهم محمد المويلحى وعلى يوسف وحافظ إبراهيم ، وكان بلنت يقيد أحاديثهم وكثيراً ما أمد الجمعية الخيرية الإسلامية بماله خفية لوجه الله .

وكان الشيخ محمد عبده فى أيامه الأخيرة مريضاً بسرطان فى الكبد متبرماً بالحياة ضجراً من الذى عاناه فى حياته التى كانت سلسلة جهاد وكفاح ، ومما سمعته منه ودّونته قوله :

« لايوجد فى الوقت الحاضر رجل أشقى حظاً من الرجل المتميز المنور فى مصر

اذا كان مصرى الجنس ، لأنه مقصوص الجناح مقلم الأظفار فى سائر الناحيات التى يمكن أن يكون بها نافعاً . فإن عناصر الخيبة والفشل و وعدد المحاربة الموجهة اليه من الأوساط المختلفة ، لا تمكن مقاومتها مطلقاً . والأدهى والأمر من هذا أن الفوضى الضاربة أطنابها فى جميع مظاهر الحياة المصرية تنقلب نظاماً عجيباً محكماً لدى حشد جيوش المقاومة للرجل النافع أو الرجل العظيم ، وتعمل ضده قوى من قوى الظلام التى تبدو للغير الخبير لا شىء ، وهى فى الحقيقة قوى عظيمة خفية غامضة ، كأنها شيطانية أو سحرية ، وكأن بين جميع الأفراد والجماعات تفاهماً سرياً على الوصول الى نتيجة واحدة وهى تخييب جميع مساعى الفرد النافع ، فى كل اتجاه يقصده !! وقد تصل المحاربات المذكورة الى درجة تجعل حياة الشخص وعقله وكيانه المعنوى فى خطر ولكن الحياة تنجو باتفاقات القضاء والقدر ، وعقله ينجو مصداقاً للنظرية القائلة « بأن العقل السليم لايتهدم أمام الحوادث مهما عظمت ، وإن كان يعتريه ألم أو اضطراب ، ولكنه لايفقد مطلقاً توازنه ولايتأثر جوهره » كذلك كيانه المعنوى يحتفظ بقوة إرادته .

«ومهما يكن الرجل نابغاً أو موهوباً ، ذا صفات فعالة فى عالم الماديات أو الأدبيات فلن يجد ميداناً لأعماله ولن يجد متسعاً لجهاده ، بل سوف يجد سخرية ممن هم أجدر الناس بتشجيعه وأحوجهم الى جهوده ، وسوف يجد تثبيطاً من قرنائه وأصدقائه وأحبابه وأهله ، وسوف يجد النكران والمعاداة والمصادمة من الذين كان ينظر اليهم بعين الرجاء والعشم ، وسيمر به الأشخاص مرور المحبين للاستطلاع كأنه بعض عجائب المخلوقات وسيشيرون اليه بالبنان كما يشيرون الى الكائنات الشاذة ، وهم يعلمون تميزه وظهوره ولكنهم يحاولون قهره وإذلاله والتقليل من قدره لقتل عظمته فى مهدها ، لغيرة خفية فى نفوسهم ، وإن كانوا يعلمون أنهم لن يبلغوا شأوه ولحقد طويت عليه ضمائرهم لايمكنهم تعليله أو تفسيره ، ولعله من بين الرذائل الموروثة . وهم

بالجملة ينظرون الى ذلك الرجل المتميز نظرهم الى إنسان غريب عنهم ، وعن أخلاقهم، بعيد عن إحساسهم وعن طبيعتهم .

«ومن غرائب الظواهر التى ظهرت أخيراً فى مصر وصارت واضحة فاضحة بعد الحوادث العرابية بعشرين عاماً أن كل واحد من الزعانف والصعاليك والمقززين «ترجمة صحيحة للفظ Snobs » والإمّعات أصبح يزاحم بالمناكب أرباب الخصال الحميدة والمواهب الظاهرة والفضائل المحمودة ويقول « لماذا يكون فلان أفضل منى أو أعقل أو أكرم ؟ إننا فى زمن المساواة ! » ولعمرك ماهذا القول إلا دليلا على تردّى قائله فى مهاوى الجهل ، لأن الأمم التى سادت لديها نظريات المساواة والتى نحكيها تقليداً، هى أعظم الجماعات تكبيراً للعظماء وتقديراً لفضلهم وخضوعاً لإرادتهم وتسليماً بمواهبهم واستسلاماً لهم بضمائر خالصة ، وهذه الأمم تساعدهم وتعضدهم وتأخذ بأيديهم وترفعهم على رؤوسها وتعطيهم حقوقهم وتملكهم قيادها ، فعلة سقوط الشرق محاربة شعوبه لعظمائه والتواطؤ على هلاكهم « انتهى كلام الأستاذ الإمام » .

وكان الاستاذ الامام يتكلم متدفعاً كالسيل ولكن فى هوادة ورقة ، ولئن شعر السامع بقوة الحديث وكلامه وتدفقه فإنما يشعر أيضاً بأنه ماء السيل عذب سلسبيل ، تزينها نبرات الصوت المطربة.

وكان الشيخ عدا أحاديثه فى المسائل العامة على هذا الأسلوب الشائق يتفكه أحياناً ويروى ملحاً يطلق عليها اسم « لطائف » ومعظمها مقتبس من الآداب الأجنبية، ومما نذكره ملحة أطلق عليها اسم « لطيفة فارسية » قال رحمه الله : « مر رجل فارسى بآخر كردى جالساً الى جدار وبجواره جراب ممتلىء ، وأمامه كلب مريض يتلوى ويتضور ، والكردى ينظر الى الكلب العليل الذى يعوى عواء النزع بألم ظاهر ويقلب فيه أجفانه بلوعة ظاهرة ويشفق عليه بألفاظ رقيقة ، فاستوقف هذا المنظر العجيب ذلك الفارسى فحيّا الكردى فى رفق وسأله عن الكلب ماذا تكون حاله ؟

فأجاب الكردى : إنه كما ترى كلب يموت !

الفارسى : وممَ يموت ياسيدى ؟

الكردى : من الجوع ..

الفارسى : ولمن يكون هذا الكلب المسكين ؟

الكردى : هو بلا ريب كلبى ...

الفارسى : وما هذا الجراب الذى بجوارك ياسيدى ؟

الكردى : هو جرابى الذى أنقل فيه أمتعتى

الفارسى : أراه منتفخاً فما به ؟

الكردى : مآكل ومطاعم وأقوات وزاد وذخيرة

الفارسى : الحمد لله ! اذا كان الكلب كلبك والجراب بما فيه ملكك ، وأنت مشفق على هذا الحيوان الأعجم الذى يجود بنفسه جوعاً ، ولديك ما يسدّ رمقه فلماذا لاتعطيه فتحييه ؟

الكردى : لم تصل بيننا المودة الى هذا الحد !! » .

وكان الشيخ رحمه الله يضحك لدى الفراغ من روايته هذه اللطيفة ، وهو يستخرج مغزاها بنظراته وإيمائه اللطيف ، ويستدرج السامع ليستنتج بنفسه جمال المعنى وحسن تطبيقه على بعض أمم الشرق التى تجود بالأقوال الفياضة والعواطف المتدفقة وتضن بالمال والفعال ، فهم ذوو دين ووطنية يملآن القلوب ولكنها لاتصل الى الجيوب .

وكان الشيخ رحمه الله يتمثل أحياناً ببعض الشعر ، ومما دونته عنه قول شاعر لا أذكره :

ذرنى وأشياء فى نفسى مخبأة

لألبسنَّ لها درعاً وجلبابا

والله لو ظفـرت نفسـى بطلبتها

مٰاكنت عن ضرب أعناق الورى آبى

حتى أطهّر هذا الكون من دنس

وأوجـب الحـق للسـادات إيجابـا

وأملأ الأرض عدلا بعد ماملئت

ظلمـاً وأفتـح للخيـرات أبـوابـا

وكـان يفـسـر « السـادات » بأنهم أرباب النفوس السـامـية والمواهب العليا ومن يقصدهم الفرنسيون بقولهم Les âmés bien nées

ودخل عليه مرة المرحوم حموده عبده شقيقه وقاطعه ليخاطبه فى شأن جماعة جـاءوا لشـراء قطعـة من الأرض مما كـان يملكه الشـيخ من أصل هبـة بلنت إياه ، فغضب الشيخ وتهاون فى فرار فرصة تلك الصفقة دون قطع حديثه ، وغضب حمودة لذلك واحتدّ ، فلم يأبه الشيخ لغضبه واستمر فى حديثه متمثلا ببيتين للنمرين تولب :

أعاذل إن يصبح صداى بقفرة

بعيداً فاتى صاحبى وقريبى

ترى أن ما أبقيت لم أك ربّه

وأن الذى أنفقت كان نصيبى

واتصل بالشيخ الإمـام أن أمـيراً شـرقـياً كـبيراً تخلى عن زعيم سياسى كـان يصـادقـه ويسـاعـده ويعـضـده ، وقـد وقف الزعيم جـهـوده على الدفـاع عن ذلك الأمـيـر وصيانته ، وكان سبب التخلى وشاية شيخ صحفى ، لمسألة زوجية شهيرة حدثت فى أوائل القرن العشرين ، فـأسف الأستاذ لما حدث بين الأمير والزعيم وقـال يحق لفلان باشا « وذكر اسم الزعيم الشاب » أن يتمثل بقول الشاعر :

وأنت الذى أخلفتنى ماوعدتنى
وأشمتَّ بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى
لهم هدفاً أرمى وأنت سليم
ولو أن قولا يكلم الجسم ، قد غدا
بجسمى ، من قول الوشاة ، كلوم

وكان لهذه الأبيات وقع شديد فى نفوس سامعيها لدقة ظروف التمثيل بها ، وصدق المناسبات التى تذكر فيها حتى يخيل إلينا أن الشيخ رحمه الله هو ناظمها(١).

ومن أعجب ماعلمنا من الصحف أن أرملة الشيخ عاشت أكثر من عشرين عاماً بمرتب شهرى قيمته مائة وخمسون قرشاً صاغا ، ولكن ليس فى مصر شىء عجيب لأنها بلد العجائب !

* * * *

تشرفت بمعرفة الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٣(٢) ، وكان لسبب تعرفى به مطالعتى مقالاته التى كتبها رداً على كتاب «ابن رشد وفلسفته» الذى ألفه صديقى المرحوم فرح انطون ، فكتبت الى الأستاذ الإمام أطلب التشرف

(١) يشير لطفى جمعه الى الخلاف الذى وقع بين الخديو عباس والزعيم مصطفى كامل بسبب قضية الشيخ على يوسف المعروفة بقضية الزوجية ، فاتخذ مصطفى كامل هذه القضية فرصة للنيل من الشيخ على يوسف ، فى حين نصر الخديو عباس صاحب المؤيد الذى كان خادمه الأمين ولسان حاله وعينه وأذنه ، وكان أعظم من عاداهم الشيخ على يوسف بسبب هذه القضية الشيخ محمد عبده لأنه اعتقد ان الشيخ محمد عبده يكيد له « راجع فى تفصيل ذلك كتاب « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الاعلام » تأليف رابح لطفى جمعه ، ص ١٥٥ ، سنة ١٩٩١ .

(٢) ابتداء من هذه الفقره نثبت هنا مقال لطفى جمعه الذى نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٣٠ إبريل سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « كيف حرمت من تابين المرحوم ، الشيخ محمد عبده فى القاهرة وكيف وصلت إلى غايتى فى مدينة الإسكندرية » .

بمقابلته ، فدعاني الى منزله ، وشملني بعطفه ولم تنقطع زيارتي له في صحته ولا في مرضه ، ولما اعتزمت الرحيل الى سوريا لطلب العلم في كلية الأمريكان كتب اليّ مكاتيب توصية الى لفيف من أعيان المدينة ومن بينهم صهره المرحوم السيد محيي الدين حماده الذي كان وكيل شركة البواخر الخديوية ، ولم تنقطع مراسلتي للشيخ ، ولما عدت كان أول رجل زرته هو ذلك الأستاذ العظيم ، وهذه حقائق يعرفها كثيرون من الأحياء والمعاصرين أمثال السيد رشيد رضا ، الذي لاتزال في عهدته مجموعة من مكاتيبي الى الشيخ ، والأستاذ محمد بك حافظ إبراهيم وغيرهما ... وكان آخر لقاء بيني وبينه في رمل الاسكندرية قبيل وفاته بأيام ، وكنت أول شخص قرأ له حافظ إبراهيم الأبيات الأولى من مرثاته البليغة التائية :

سلام على الإسلام بعد محمد

سلام على أيامه النضرات

ولما توفي الشيخ كتبت بضع مقالات في الصحف في تاريخ حياته وأعماله ، وعقدت اجتماعات كثيرة لتأبينه وتشرّفت بالتكلم فيها عن مناقبه . ولا عجب فقد حضرت بعض دروس الأستاذ وغذيت نفسي بكثير من مقالاته ومؤلفاته وتمتعت بحديثه العذب وأخلاقه الكريمة وانتفعت بتوصيته في سوريا فكان طبيعياً بعد هذا كله ، عندما أعلن لفيف من كبراء الأمة عزمهم على إحياء ذكراه بعد سبعة عشر عاماً لموته ، وألّفوا لجنة لذلك وطلبوا من الخطباء والشعراء أن يعلنوا رغبتهم في الاشتراك في تأبينه ، أقول ليس عجيباً ولا مستغرباً أن أبادر حينئذ « شهر يونيو سنة ١٩٢٢ » الى مراسلة اللجنة وطلبي منها أن تتيح لي فرصة للتعبير عن عواطف احترامي وتقديري وإعجابي بأستاذي المرحوم ، وقد كنت أقرب إليه بالفكر والعقيدة والمبادىء من كثيرين ممن دعوا الى هذه الحفلة .

ومهما يكن الخلاف السياسى بينى وبين فريق من السادة الأمجاد الذين قاموا بهذه الحركة ، بعد أن نبههم اليها أديب فاضل من قراء الصحف ، فلم أكن أظن أنهم يفكرون فى حرمانى أنا وغيرى من مريدى الأستاذ وتلاميذه من إظهار عواطفنا نحوه فى تلك الذكرى . ولأجل هذا بادرت فى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٢٢ بالكتابة الى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت أخبره بعزمى على تأبين الأستاذ وأعرض عليه نص الكلمة التى سألقيها كما هى العادة فتفضل ذلك العالم الفاضل وأجابنى بالكتاب الآتى :

الخرنفش فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ « هذا تاريخ طابع البريد على الغلاف » ..
بعد إهداء السلام لقد استلمت خطابك بيد السرور وعلمت مافيه وإنى لا أرى مانعاً من أن تكون بين الخطباء خصوصاً لما أعلمه من أنك مجيد عظيم غير أن مدة الحفلة ستكون ساعتين فقط فأرجوك أن تقابل الشيخ مصطفى عبد الرازق لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء (كذا) ومع ذلك يمكنك أن تلقى كلمة وجيزة بقدر الإمكان وفيّة الكلام وإنى ممنون ومتشكر لهذه الصداقة التى جعلتك تخاطبنى ، فإنى أود أن تدوم العلاقة بينى وبين أولادنا النجباء أمثالك واقبلوا فائق الاحترام .. محمد بخيت

فقرأت هذا الكتاب بسرور عظيم وشكرت لفضيلة الأستاذ كرم أخلاقه وسمو آدابه وعطفه على الضعفاء ، وسرنى جداً قوله « لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء » أى أنه جعل لى وهو رئيس اللجنة مشاركة فى تقسيم الوقت وترتيب الخطباء .. وكان صاحب الفضيلة مصمماً فى كل حال حتى ولو ضاق الوقت ، على أن « ألقى كلمة وجيزة » فبادرت بالكتابة الى صديقى الفاضل صاحب الفضيلة السيد مصطفى عبدالرازق وأرسلت اليه صورة من خطاب فضيلة الشيخ بخيت ونص كلمتى ، وكانت لاتستغرق أكثر من عشر دقائق لأننى أعتقد أن الخطيب الذى لايستطيع أن يقول فى عشر دقائق مايجب أن يقال فخير له أن لايقول ..

وانتظرت النتيجة أى رد فضيلة السيد مصطفى عبدالرازق على خطابى ، وبعد أيام ورد إلى الجواب الآتى :

حضرة الأستاذ لطفى جمعه

قررت لجنة الاحتفال بإحياء ذكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن تشكر لحضرتكم ماتفضلتم به من إظهار الرغبة فى إلقاء كلمة بالحفلة . ولقد كانت اللجنة حريصة على أن تجيب رغبتكم النبيلة لولا أن اضطرها ضيق الوقت الى الاقتصار على عدد من الخطباء محدود جداً لم يتّسع لكثير من أصدقاء الإمام وتلاميذه وأنصاره الذين كانوا يودون أن تمكنهم الفرص من إلقاء شىء فى الاحتفال واللجنة مع اعتذارها لحضرتكم ترجو أن لايحرم الجمهور من تلاوة مقالكم فى المجموعة التى ستنشر متضمنة مايلقى فى الحفلة ومايختار من المقالات والقصائد التى ترد الى اللجنة .

وتفضلوا بقبول تحياتى الخالصة واحترامى ... مصطفى عبد الرازق

وأنا واثق من صداقة السيد مصطفى وإخلاصه ، ولا أوجه اليه عتاباً بعد أن وقفت على الحقيقة ، فإنما كان السيد الفاضل سكرتير اللجنة ، كما كان فضيلة الشيخ بخيت رئيسها ، ولكن كما هو العادة كانت هناك أوامر معينة أو خطة مرسومة أو مايسميه الفرنسيون : mot d'ordre أن لايخطب فى هذا الاحتفال أى إنسان لايتفق مع شخص خفى فى السياسة والمبدأ ، ولكنه لم يكن ليجاهر بهذا اللجنة وفيها رجال أشراف مستقلو الرأى أمثال الشيخ بخيت والشيخ مصطفى ، إنما كان يحصل الرفض بطريقة التنهد وتحويل الوجه ، والشخص الخفى أحول النظرات وبطىء فى الكلمات ويقلد أحياناً ألفاظ الفلاحين تجملا وتظرفاً مع بعده الشاسع عن الجمال والظرافة ، وقد حاولت الوقوف على اسمه لأذكره للقراء فلم أتمكن للأسف الشديد فإذا

ورد أمامه اسم شخص معين لايحبه هو أو لايريد خطابته ، يفعل الحركات التى ذكرتها آنفا ثم يقول فى رزانة وتصنع :

- ما علينا ياشيخ بجا « بقى » إحنا جاعدين « قاعدين » علشان نظهر خطباهم على خطبانا ..

وقد علمت أن هذا هو الذى حدث فى حالتى ، وطبعاً بعض أعضاء اللجنة يضطرون للمجاملة والملاطفة ، فيضحون علاقتى بهم وخطبتى إكراماً لحول عينى ذلك الانسان ، الذى قيل لى بعد ذلك إنه صار من أعدى أعداء المرحوم سعد باشا بعد أن كان من أتباعه وتلاميذه ، والمدهش أن سبب علاقته بالشيخ عبده ترجع الى تحككه بالمرحوم سعد باشا ، فبعد إظهار خصومته للمرحوم سعد باشا استمر يتحكك بالمفتى المتوفى ، فانظر الى هذه المعقولية العجيبة التى لاتنجلى ولا تقبل ولا يسكت عليها إلا فى مصر .

فلما وصل إلىّ خطاب السيد مصطفى عبدالرازق عجبت كثيراً ، ولم أجد مجالاً لمراجعة الشيخ بخيت ، فأين المسافة من « قسّموا الوقت بين الخطباء » وبين « اللجنة تشكركم وتعتذر » فعلمت أن الرجلين بريئان من هذه الدسيسة وأن صاحبها هو ذلك الشخص الذى وصفه محدثى بأنه « محراك الشر » فى كل زمان ومكان ، وقال لى أيضا إن الحوادث أيدت صدق رأيه فيه .

والأعجب من كل ماتقدم أننى انتظرت أن تصل الىّ رقعة الدعوة الى الاحتفال فخاب ظنى ، ولم تفكر اللجنة التى تشكرنى وتعتذر فى دعوتى دعوة بسيطة كما دعت مئات الأشخاص من كل الطبقات ، ومع ذلك قد حضرت الاحتفال غير مدعو ، واستقبلنى بالباب أفندى من الخطباء ، ونظر الىّ شزراً وكان يعلم الحديث كله من البداية الى النهاية ، وكان يعلم أننى غير مدعو ، وهمّ يسألنى عن تذكرة الدعوة أو ينفينى ثم خجل .

وقد سمعنا فى تلك الحفلة المعجب والمطرب ، فقد خطب أحدهم وقال « إن الشيخ محمد عبده كان عظيماً جدا رجل عظيم (كذا) وأننى لم أره ولم أحادثه فى حياتى ، لأننى كنت فى المدرسة ، ولكننى كنت أسير مرة مع بعض أصدقائى ورأينا رجلا عظيما يدخل من باب وزارة الحقانية ، فرأينا ظهره ٠٠ وقيل لنا إنه الشيخ محمد عبده إنه كان رجلا عظيماً جداً » .

وخطب الشيخ الزنكلونى ، فضيّقوا عليه الخناق ومنع من التكلم فى السياسة وعدم التفوه بذكرى سعد والسعديين ، ومن العجب أن الشيخ محمد عبده لم يصل الى شهرته إلا بالسياسة ، لأنه لولا اشتغاله بالحركة العرابية ومشاركته فيها وتحريره فى الصحف وانتخابه عضواً فى المجالس التشريعية لم يكن ليعرفه أحد بأكثر من كونه عالماً مصلحاً مضطهداً ، ومع ذلك قد حرموا الكلام فى السياسة لأنهم يخافون من ذكر سعد ولايرغبون فى تكدير صفو الوزارة الثروتية .

وبعد نهاية الحفلة أرسلت الخطاب الآتى الى أحد أصدقائى من رجال اللجنة ولا أريد التصريح باسمه الآن[(١)] .

سيدى الاستاذ الجليل صاحب الفضيلة والكمال فلان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تسلمت بيد السرور خطاب فضيلتكم المؤرخ ٩ يوليو سنة ١٩٢٢ فاشكر لكم تنازلكم وتفضلكم بالرد وقد علمت منه أن لجنة الاحتفال بإحياء ذكرى الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده تفضلت لطفاً منها وكرماً بشكرى على إظهار رغبتى فى إلقاء كلمة بالحفلة ولكنها فى الوقت ذاته تعتذر عن إجابة ملتمسى لضيق الوقت الذى اضطرها الى الاقتصار على عدد محدود جداً من الخطباء . وإننى ياسيدى الأستاذ الكامل أنتهز هذه الفرصة لأكرر الثناء على اللجنة

---

(١) هو الشيخ مصطفى عبد الرازق .

على عملها الجليل وأشكرها على أنها أنقذتنى من مأزق ولم ترض لى الموقف الحرج . فإنه على الرغم من أننى لم أدع الى الحفلة برقعة كغيرى من خلق الله حتى كدت أنشد مع الشاعر القديم :

ما الذى ضر مدير   الجام لو جاملنا

فإن حبى لإحياء ذكرى الأستاذ الإمام دفعنى الى حضور الحفلة بغير دعوة فاعذر ياسيدى الاستاذ الأجل هذا الاندفاع منى فى سبيل العلم والأدب ، وكان من حسن بختى أن حظيت بسماع الخطباء لاسيما .. فحمدت الله الذى ألهمكم ياسيدى فكرة عدم إجابة رغبتى الأولى الطائشة ، فأين كان يذهب الضعيف كاتب هذه الأسطر بين هؤلاء الفطاحل الذين اعتلوا منبر الخطابة وفى أية سوق كنت أعرض بضاعتى الضئيلة وقد جعلتم من الحفلة عكاظاً أخرى أحق بالثناء وأحرى ، بل ما أبعد أمثالى «العلمانيين» Profane عن هذا الهيكل المقدس والمقام الأسنى والمجال الأعلى ، ولو علمت وحقك ياسيدى الأستاذ أن فلانا هو خطيب الحفلة وسيحف به من رأيت وسمعت من الخطباء والمتكلمين والعلماء الأعلام والأساتذة الكرام ماحدثتنى نفسى أن أتطفل على تلك المائدة بغير فائدة . لأننى أؤكد لسيدى الأستاذ أننى حقا استفدت أولاً وطربت ثانياً وحمدت الله وأثنيت على اللجنة ثالثا ورابعاً فقد كان الوقت من تبر وعسجد ، وكان كل خطيب كالعلم المفرد ولكل قول ألقى علينا لذة تتجدد . هذا وإننى ياسيدى الأستاذ أقسم لك بقبر الاستاذ الامام الأبرّ أننى لم أظهر رغبتى فى الخطابة حباً بها أو سعياً وراء شهرة أستفيدها أو استشفاء من داء الكلام Maladie de la chair الذى أصيب به بعض الناس فى هذه الأيام ، ولكن كان ذلك قياماً بواجب واعترافاً بجميل ، فقد تشرفت بمعرفة الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٣ ولدىّ منه رسائل شتى وكان مرشدى و معينى فى التعليم فى بيروت فى سنه ١٩٠٣ ويعلم ذلك جيداً كل من السيد محيى الدين حمادة والشيخ رشيد رضا ورثيته يوم ١٥

يوليو سنة ١٩٠٥ فى محفل كبير ماسونى وفى جمعية النشأة الحديثة بالقاهرة وبعد أن شاركت فى تشييع الجنازة فى الثغر وفى مصر ، وحفلة التأبين المذكورة مثبتة فى الصحف - فانظر ياسيدى إلى عجائب الدهر التى جعلتنى فى العشرين من عمرى كفوءاً لتأبين هذا الرجل العظيم والاشتراك فى تكريمه وحرمتنى هذه النعمه إذ شارفت على الأربعين، حقاً إن فى ذلك لعبرة لمن يتأمل ، ولعل الناس فى أوائل هذا الجيل كانوا من البساطة بحيث أباحوالى تكريم العظماء وكان من الأجدر بهم أن يحتكروه تعظيماً لقدره ورفعة شأنه وأن يقصروا الاشتراك فى إحياء ذكره على كل عالم عظيم أو نبيل جليل أوسرى كريم ، واعلم سيدى الأستاذ فى الختام أننى لم أجرؤ على الكتابة السالفه إلى مقامك إلا بعد أن ورد لى خطاب من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت بخط يده الكريمة جاء فيه « ومع ذلك فيمكنك أن تلقى كلمة وجيزة بقدر الإمكان وإنى منون .. الخ » وبقيت بعد ذلك أفكر فى « تنظيم الاضطهاد » الذى أتقنه جماعة المصريين أو Clique أى شلة معينة سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الأدب ، وإننى أعتبر هذا العمل مضراً بالمجتمع ضرراً بالغاً ، فقد ظهر أن الخطباء الذين خطبوا فى الحفلة ، ماعدا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق المؤرخ الفاضل والكاتب البليغ والمفكر الصادق ، كانوا كلهم خطباء ضرورة ، تغتم نفس الشيخ محمد عبده لو سمعهم حياً أو ميتاً . ولاسيما ذلك المطربش الذى قال إنه عرف الشيخ من ظهره ، وقيل له إنه الشيخ محمد عبده !

إذن لم يكن منعي لتقديم فطاحل الخطباء ولا لتفضيل علماء مصر على غيرهم ، ولكن لمجرد عدم انتمائى لهذه « الشله » سياسياً ولاعقلياً ولاأخلاقياً .

ولاحظ جيداً أن رجالاً أمثال الشيخ بخيت والشيخ مصطفى عبد الرازق هم أنفسهم ضحايا لهذة الشلة ، لأنهم يتخذونهم ستاراً لما اشتهروا به من العلم والفضل وكرم الأخلاق وسعة الصدر فتعمل تلك الشله وراء اسميهما وهذا من أغرب الأمور ،

وطبعاً هذه « الشلة» قد انفضحت الآن تماماً وظهر أنهم جماعة من الوصوليين ودعاة الهزيمة والاندحاروفريق من المغامرين فى السياسة والعلم والآدب وقد أنقذ الله من مخالبها بعض رجالنا الصادقين الذين كانوا على وشك الذهاب ضحية لها أمثال صديقى العزيز الفاضل الأستاذ الدكتور منصور بك فهمى ، فانه كان فى فترة ما مسحوراً بأقوالهم الخلابة ومخادعتهم البراقه حتى استبان النور من الظلام ونجابعلمه وخلقه وعقله وقلبه والحمد لله .

نرجع إلى تأبين الشيخ فى الاسكندرية ، فقد علمت أن اللجنة قد تألفت فى الثغر لهذا الغرض فبادرت بالكتابة اليها وبادرت اللجنة بدعوتى ، لانه لم يكن بين أعضائها دساسون ولا مراءون ولا متنطعون مدّعون كصاحبنا الأحول المرذول الذى يقلد أقوال الفلاحين تظرفاً وهو أبرد وأسخف خلق الله إنساناً .

وأرسل إلىّ الصديق الدكتور الاستاذ مرسى محمود المحامى الخطاب الآتى :

الاسكندريه فى ١٢ يوليو

عزيزى لطفى

سلاماً وشوقاً ، وبعد فقد وزعت لجنة الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده المواضيع على الخطباء وخصتكم بموضوع دقيق ألا وهو التكلم عن الأستاذ الإمام كمصلح للقضاء وهو موضوع يتناول البحث فى المشروعات الإصلاحية كالمحاكم الشرعية وماذا كان يريد بها الفقيد رحمه الله وكيف أنه فى الواقع لامس مسألة من أدق المسائل الحيوية ، ولو تم كل أو أكثر ما فكر فيه لما شكا الناس هذه الشكوى التى نسمعها كل يوم ، واللجنة ترجوك أن تتفضل بالحضور للاسكندرية قبل الاحتفال بيوم أو يومين لتشاركها النظر فيما هولازم ، سيكون الاحتفال بتياترو الحمراء يوم الاثنين ١٧ يوليو سنه ١٩٢٢ الساعة الخامسه مساء وإليك تحيتى وحبى .

وكان مرسح الاحتفال فخماً.وبين أعضاء اللجنة كرسى المغفور له صاحب الدولة محمد سعيد باشا وعرفان باشا وسليمان بك يسرى وكل قضاة البلد الأهليين والشرعيين ومحاميها وأساتذتها وبعض رجال النيابة .

وقد حدث فى هذه الحفلة حادث غريب وهو أن إبراهيم الهلباوى بك حاول الخطابة ، فحدث أن فريقاً كبيراً من السيدات عارضن فى ذلك ، ونطقن بعبارات تاريخية وذكرن اسم إحدى قرى الفلاحين إشارة الى بعض الحوادث[١] وعطلن الاحتفال بكل ما فيهن من قوة على الصراخ والصياح « وهى عظيمة » ، وعلى الرغم من قوة إرادة الهلباوى بك وشدة شكيمته غلبه اجتماع الأصوات . ولكن بعض أعضاء اللجنة صمم على أن يخطب الهلباوى وأن يسود السكون ، وعندئذ انضم الرجال الى النساء وعلت أصوات الجميع على أصوات الأمواج وأصبح مسرح الحفل كأنه سوق عظيمه هائجة . وأخيراً وقعت القرعة على شخص معروف أن يخطب ذلك الجمهور الهائج المكون من جنسين ، فتقدم وألقى كلمة وجيزة وأثر فى آذانهم بحجة قوية واستدرجهم بنادرة لطيفة ، وما زال بهم حتى أدخل السرور على أنفسهم فابتسموا ثم ضحكوا ..... ثم تسامحوا ، لأن الضحك ينزع سلاح الغضبان . فرجاهم فى أن يسمحوا للأستاذ الهلباوى بك بالكلام ، فسمحوا وتكلم الرجل ودفع دينه لصديقه ، وأظن أن حضرة صاحب العزة الهلباوى بك يذكر هذة الحادثة وأشخاصها وإن كان قد مضى عليها ثمان سنوات .وانتهت الحفلة فى الساعة التاسعة بعدأن دامت أربع ساعات ، وقضيت وقتاً سعيداً فى بيت صديقى سليمان يسرى بك وعدت الى القاهرة فى قطار الصباح بعد أن أديت دينى للأستاذ الراحل .

---

(١) يشير لطفى جمعه الى موقف إبراهيم الهلباوى من تمثيل الاتهام فى حادثة دنشواى حتى أن الشيخ عبد العزيز جاويش أطلق عليه وصف « جلاد دنشواى » ، ووجه اليه الشاعر حافظ إبراهيم قصيدته الدالية التى يقول فيها :

أيها المدعى العمومى مهلاً	بعض هذا فقد بلغت المرادا
إيه يا مدره القضاء ويامن	ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا	قد لبسنا على يديك الحدادا

يقال فى الكتب العربية القديمة ، تبعا لحديث محمدى شريف « إن الله يبعث على رأس كل قرن رجلا يجدد حياة هذه الأمة »(١) .

وقد أجمع العلماء والمؤرخون فى كل الأقطار الشرقية أن رجل الإحياء والنهضة فى القرن الرابع عشر الهجرى كان المغفور له محمد عبده بن خير الله المولود فى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة سنة ١٢٦٥ هجرية والمتوفى برمل الاسكندرية فى يوليو سنة ١٩٠٥ - سنة ١٣٢٣ هجرية .

وقد نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة فى القرى المصرية وتعلم القراءة فى بيت والده ودخل المكتب « كتاب البلدة » ، ولما نما وترعرع قصد بأمر والده الى مدينة طنطا ليدرس العلم فى الجامع الأحمدى الشهير ، ولكنه فر على ظهر جواده إلى بلدة أورين ليلهو بالفروسية واللعب بالسلاح . فحزن والداه لأنهما أراداه على أن يتلقى العلم . فأطاعهما ولوى عنان فرسه نحو القاهرة والأزهر واجتمع للمرة الأولى بالسيد جمال الدين الأفغانى الذى كان له أكبر الأثر فى حياته فى سنة ١٢٨٦ ، بعد التحاقه بالجامعة الأزهرية خمس سنوات ، فلازمه من أول لقاء وأخلص له الحب ، إلى أن فرق الدهر بينهما فى باريس بعد ذلك بعشر سنوات .

واشتغل الأستاذ الإمام يدرس الفلسفة وتعلم اللغة الفرنسية واجتمع بمستر ويلفريد سكاوين بلنت ليعلمه اللغة العربية فأعجب به الأديب الانجليزى ولفت نظره إلى الشئون السياسية .

وحاز الشيخ شهادة العالمية من الدرجة الثانية لأن بعض الممتحنين نفسوا عليه ذكاءه الخارق وحقدوا عليه لاتصاله بالحكيم الأفغانى . فلما نجح بدأ بالتدريس

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقال لطفى جمعه الذى نشر بمجلة اللطائف المصورة فى ١٩٤١/٧/١٤ تحت عنوان « الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مؤسس الإصلاح الدينى والاجتماعى والقضائى فى مصر ، بمناسبة انقضاء ست وثلاثين سنة على وفاته » .

والإصلاح فى الأزهر وهو فى ريعان الشباب ، ولما ظهر نبوغه فى حلقات التدريس اختارته نظارة المعارف مدرساً فى بعض مدارس الحكومة ، ثم عينوه فى إدارة المطبوعات وكلفوه بالتحرير فى الجريدة الرسمية فلم يصل الثلاثين من عمره إلا وتقلب فى التعليم طالباً فأستاذاً فطالب فلسفة فسياسيا فمصلحاً فموظفاً فمحرراً فى الجريدة الوحيدة التى كانت تصدرها الحكومة ، يكتب فيها فطاحل الرجال .

وفى سنة ١٨٨٠ ظهرت بوادر الثورة العرابية « وأسبابها المباشرة استدانة مصر المبالغ الطائلة ومسالك بعض حكامها وحلول الفوضى فى الجيش محل النظام ونفوذ الأجانب ووزارة رياض باشا » .

وقد ثبت بأحدث المعلوم والمكتوب من تاريخه أن الأستاذ الإمام لم يكن راضياً كل الرضى عن أعمال العرابيين ، كما جاء على لسان مستر برودلى محامى عرابى فى دفاعه وقد قال هذا المحامى الانجليزى نفسه « إن مصر لاتستغنى عن مثله إذا قدر لها الاستقلال » .

ولكن على الرغم من هذا فقد قبض على الشيخ وسجن وحكم عليه بالنفى فى مصر ، وأثناء سجنه خانه نفر من الذين كان يثق بهم ويظهرون له الصداقة نفاقاً . فانتقل إلى بيروت منفياً . فلم يركن إلى الراحة بل عمل فى تدريس اللغة العربية ببعض مدارس الأجانب وأتقن اللغة الفرنسية وشرح كتابين من أهم الكتب العربية وهما « نهج البلاغة » للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه و« مقامات بديع الزمان الهمذانى » وأشرف على طبعهما ونشرهما .

وكان دائم الاتصال بالأفغانى سواء أكان هذا الحكيم بتركيا أم بالهند أم بأوروبا .

وانتقل الأستاذ الإمام من بيروت إلى باريس فأسس بمعونة السيد الحكيم «جمعية العروة الوثقى» ونشرا معا مجلة بهذا الاسم لم يصدر منها إلا ثمانية أعداد .

وكـان فى خـدمـتـهـمـا فى ذلك الوقت رجل إسـرائيلى مـخلص اسـمـه يعـقـوب سنوا (صنوع)[1] صاحب جريدة « أبو نضاره زرقا » السياسية الهزلية .

واهتمت الحكومات بمجلة العروة الوثقى فصادرتها ومنعت دخولها إلى بعض البلاد الشرقية لخطورة المقالات التى كانت تنشر فيها .

وسافر الشيخان الأفغانى ومحمد عبده الى لندن واتصلا برجال السياسة وتوثقت العلاقات بينهما وبين بعض ساسة الانجليز مثل ويلفريد سكاوين بلنت ، وفكرا فى إصلاح الدولة العثمانية فسعى الإمام لإقناع حكومة السلطان عبد الحميد بإصلاح التعليم والتربية بلائحة « مشروع قانون » أرسلها الى شيخ الإسلام فى استامبول بيّن فيها الأخطار على الدول من فساد التربية والتعليم الرسمى وحلول التعليم الاجنبى محله .

وفى نوفمبر سنة ١٨٩٢ أمر الخديو توفيق بمشورة حكومة انجلترا بالعفو عن المتهمين بالثورة العرابية فعاد الشيخ الى مصر فتنكر له فريق من أصدقائه الأقدمين ولم يبق على مودته إلا المرحوم سعد زغلول وإبراهيم اللقانى .

وسعى ليكون معلماً فى دار العلوم فلم يقبل الخديو توفيق سعيه لأن الوشاة مشوا بينهما . فعينته الحكومة المصرية قاضياً فى المحاكم الأهلية وجعلوا مقره محكمة عابدين ، فأظهر نبوغاً كبيراً واستعان بعلمه الفقهى وذكائه الفطرى واللغة التى تعلمها على فهم القانون الفرنسى وصار يحكم باجتهاده أحكاماً موفقة جدا ونفذ أحكامه على الأجانب ولم يعترض عليه أحد واعتنى فى قضائه بالأخلاق وإصلاح ذات البين بين العائلات وتشدد أحياناً فى عقاب الفاجرات من النساء ، وبرع فى تحقيق القضايا وصدقت فراسته فى أمور كثيرة أدهشت القضاة والمتقاضين ، ولما سمع ناظر

---

(١) انظر ترجمة يعقوب صنوع صفحة ٣٧٤ من كتاب .

الحقانية ببعض حوادثه قال « اتقوا فراسة المؤمن » ، ولما اقتنع ولاة الأمور بجدارته وعلو كعبه رقوه الى منصب المستشار بالإستئناف الأعلى .

وفى أواخر سنة ١٨٩٤ والشيخ فى أوائل العقد الخامس ، وقد مضى عامان على حكم الخديوى عباس ، وقد رأى الأستاذ الإمام جرأته وجهاده للأخذ بناصية الأمور وإنهاض البلاد ، مال اليه وتقرب منه بواسطة المرحوم محمد ماهر باشا ، فاستقبله عباس بترحاب وعطف وأحبه لما آنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى فاجتمعا مرات عديدة فى قصور الخديو الثلاثة وتحدثا فيما يمكن عمله لخدمة الوطن وتحقيق أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه ثلاث طرائق للإصلاح وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية .

وأشار الأستاذ على الخديو عباس بأن يبدأ بإصلاح الأزهر وقدم الشيخ له مذكرة بما يراه . وفى يناير سنة ١٨٩٥ أمر الخديو بكتابة الأمر الى نوبار باشا بتأليف المجلس الأعلى للأزهر فصدر فى شهر يونيو من تلك السنة .

وبعد ذلك بعامين اختاره الأمير لمنصب الإفتاء ، وطلب الأستاذ أن يحتفظ بمركزه فى محكمة الاستئناف . فلم توافق الحكومة بإيعاز من بعض خصومه وحاسديه فدسوا له بأن محافظته على زيه الشرقى وعمامته لا يلتئم والعصر الحديث وإن كان لايقل عن أحد من المستشارين الأجانب الذين اكتظت بهم محكمة الاستئناف من كل جنس وملة .

وفى سنة ١٩٠٤ استجدت ظروف سيئة بين الخديو والأستاذ محمد عبده لعبت فيها الدسائس دورها ، وكان لصاحب المؤيد يد قوية فيما حدث من الفتور فى العلاقات فصمم عباس على إقصاء الشيخ عن الأزهر . فجمع العلماء فى قصر عابدين « مارس سنة ١٩٠٤ » فى حفلة ظاهرها الإنعام على الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الأزهر بخلعة سنية « كسوة تشريفة » وباطنها التعريض بالمفتى وإرغامه على الاستقالة من

مجلس الأزهر . وألقى الخديو خطبة مشهورة نشرت فى المؤيد ، وجعلها فى إطار مزين بالنقوش ، لإظهار أهميتها ، وإفهام غايتها للعامة . وقد جاء فيها على لسان الأمير «وقد جريت منذ أثنتى عشرة سنة على هذه القاعدة وهى أن أقبل استقالة كل من يستقيلنى من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالة الشيخ الببلاوى « ثم نظر الى الشيخ محمد عبده واسترسل فى خطبته » ومن يستقيلنى من وظيفته سواه ، فأنا مستعد أن أقبل استقالته جرياً على العادة التى اتبعتها فى ذلك »[1] .

وأضاف سموه أنه لايريد فلاسفة فى الأزهر ولايريد شغباً من أى نوع كان «مشيراً الى حادثة رواق المغاربة » وقد أدرك كل من كان سامعاً وشاهداً – والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم – أنه هو المقصود بطلب الاستقالة ، فخرج من القصر وقدم الاستقالة ، وكانت قبل ذلك قضية الزوجية الشهيرة والمصاهرة بين صاحب المؤيد وشيخ السادات . وتفصيل هذه القضية أن الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد عقد زواجه على كريمة المرحوم السيد عبد الخالق السادات فى قصر المرحوم السيد توفيق البكرى زوج شقيقتها بدون إذن والدها، وأخرجها الى بيته فرفع والدها عليه قضية شرعية طلب فيها فسخ العقد لعدم الكفاءة بين الزوجين فحكم القاضى الشرعى بعد مرافعة الشيخ عثمان الفندى عن الوالد ، أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر فى القضية « ولكن هذا الحكم لم ينفذ » وآخراً ببطلان العقد ، فاشتغلت الأمة بهذه القضية التى حكم فيها المرحوم الشيخ محمد أبو خطوة وكان صديقاً حميماً للشيخ محمد عبده وكان الخديو ميالا للشيخ على يوسف لأن جريدته كانت لسان حال سموه فاتهموا المفتى بأنه عون للسادات .

وكانت هذه القضية أيضاً سبباً فى الجفاء بين الخديو ومصطفى كامل وأدت به الى كتابة خطاب التقاطع بينه وبين الأمير[2] .

---

(١) ، (٢) راجع صفحة ١٩٨ من هذا الكتاب

وحدث أثناء ذلك حادثة رواق المغاربة وهى نزاع بين الطلاب وشيخهم والحكومة المصرية وسفير فرنسا انتهت بذبح شيخ الرواق فى المسجد أثناء صلاة الجمعه بيد أفراد من بنى وطنه .

وقد استمع الخديو لأقوال الوشاة والدسّاسين من أن إصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة فيه أدى الى الشغب والفوضى ولكن العامل الأول كان قضية الزوجية .

فلما استقال الشيخ محمد عبده من مجلس الأزهر الأعلى اضطربت عقول المسلمين فى سائر بقاع الأرض ووجمت نفوسهم لهذا النبأ فى كل قطر ووردت احتجاجات من السودان وسوريا وبلاد المغرب والمشرق ، وكتب علماء فارس وأمراء الهند ولاسيما الكاتب الأشهر النواب محسن الملك عميد جامعة عليكرة .

ولكن هذه الاستقالة لم تزد الشيخ إلا سمواً واحتراماً فى نظر الأمة لوقوفهم على الحقيقة . وكان المفتى قد أصدر بعض الفتاوى توافق الشريعة وروح العصر الحديث كإباحة لبس القبعة فى بلاد الترنسفال للمسلم وأكل ذبائح غير المسلمين للضرورة ، وكلها مؤيدة بكتب الفقه ، ولكن خصومه زعموا أنه أباح ماحرم الله كذباً وبهتاناً ، ومنها أن المفتى أراد أن يتم منهاج الإصلاح الذى اتفق عليه والخديو فى الأوقاف والمحاكم الشرعية . فتم إصلاح المحاكم الشرعية وتعطل إصلاح الأوقاف لأسباب كثيرة لايتسع المقام لتفصيلها ، ولكن المفتى رحمه الله كان متشدداً فى هذه الناحية ، ويروى ثقة أن المرحوم خليل باشا حماده « وكان صهر المفتى » وقد تولى إدارة الأوقاف العامة فى مصر ثم وزارة الأوقاف فى الأستانه ، دعا الشيخ الى العشاء عنده وقال له على المائدة « ياسيدى الأستاذ أبوس إيدك والله إن إطلاق الحرية لك فى إصلاح الأزهر خير لك وللإسلام والمسلمين فى الدنيا والآخرة من كل ماتوفره من مال الأوقاف لديوانها » فقال الشيخ : « أنا أعلم هذا ولكن وجدانى ومراقبتى لله تعالى لاتمكننى من إقرار مالا يبيحه الشرع والباطل لايكون وسيلة الى الحق » .

ويروى بعض مؤرخى الشيخ وتلاميذه أنه كان ضعيفاً فى هذه الناحية ، فالمصالح العامة تبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين وتقديم أرجح المصلحتين . ويتفق هذا مع مذهب الإمام مالك رحمه الله الذى نشأ الأستاذ عليه . هذا هو السبب الأول وعلة العلل لتحول قلب رجل عظيم عن هذا المفتى المصلح الذى كان يجب أن يجعله عمدته فيما يصلح شعبه وبلاده . ولما تنكر قلبه تجددت عنده أسباب أخرى للكراهية تنحصر فى ثلاثة :

الأول - ماكان يراه من عزة نفس المفتى على ضد مايراه من غيره من الذلة له ، بل لم يكن يرى من الأمراء ولا من الوزراء مايراه من المفتى من الشمم والإباء ، وكانت آداب الشيخ مع « الرجل العظيم » تحجب عنه كبر نفسه فى طور رضائه عنه ، فلما سخط عليه صار يراه بمنظار أسود مكبر حتى صار يقول « إنه يدخل علىّ كأنه فرعون » ولما بلغ الشيخ هذا القول من أحد أصدقائه قال « جزاه الله .... أنا لست فرعوناً بل أحد الرعية » .

الثانى - اتهام بعض الوشاة النمامين للشيخ بأنه غير مخلص «للرجل العظيم» ولا راض عنه وأنه يعاكسه ويقاومه .

الثالث - ماكان من حسن العلاقة بين الشيخ ولورد كرومر ، فقد كان اللورد يجله ويقدره ويستشيره فى بعض المسائل الحكومية المهمة ويتحاشى أن يهيج وجدانه ، ووجدان حزبه الراقى . وكان الأستاذ يداريه لعلمه بأنه لايستطيع البقاء فى مصر بدون هذه المداراة . وكان المفسدون والنمامون يتهمون الشيخ فى إخلاصه لوطنه مع أن حاكم البلاد فى ذلك الوقت الخديو عباس لم يكن يشك فى وطنية الأستاذ الامام محمد عبده ولايرتاب فى ترفع فضيلته عن التقرب الى اللورد بمساعته ، فإن لم يكن هذا الترفع للإخلاص لأميره فهو لكرامة نفسه وإبائها .

كان المفتى يشغل منصب الإفتاء منذ منتصف سنة ١٨٩٩ وكان الأمير هو الذى اختاره لذلك عقب حادثة قاضى مصر وفصل الشيخ النواوى من الإفتاء ومشيخة الأزهر . وقال الأمير لمستشار الحقانية « الآن أوجدت لك مفتياً تستطيع أن تفهم منه ويفهم منك بلا واسطة ولا ترجمة » ، وقد هيأت له هذه الوظيفة إصلاح المحاكم الشرعية فصار زعيم الإصلاح الدينى والقضائى فى مصر كما صار زعيم الاصلاح الاجتماعى .

وكان الاستاذ على كثرة أعماله وامتلاء وقته بالواجبات ، يلقى دروساً فى التفسير ، فى الأزهر الشريف بالرواق العباسى صارت مع الزمن دروساً دولية يحضرها العلماء من كل جنس وملة كالمستشرقين الأوربيين من ألمان وإنجليز وفرنسيين وغيرهم .

وكان يكتب مقالات فى مجلة المنار لصاحبها المرحوم السيد محمد رشيد رضا . كما أسس بعد عودته من المنفى الجمعية الخيرية الإسلامية واتخذ لها مركزاً فى « قبة الغورى » وشجع الأدب والأدباء . فكان شاعره المختار المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك الذى أهدى اليه ترجمته لكتاب البؤساء ورثاه بعد وفاته بقصيدة عامرة أولها :

سلام على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات

وترجم كتاب سبنسر فى التربية ورد على هانوتو بالعربية والفرنسية وأفحم مجلة الجامعة فى بحثها عن الفلسفة فى الإسلام ، واتصل به كبار رجال الدين الذين حاولوا توحيد العقائد أمثال لوازون الفرنسى واسحق طيلر الانجليزى وخريستوف جباره السورى ، وسافر الى أوروبا مراراً وقابل البابا ليون الثالث عشر برومه وإلى تونس والجزائر . واجتمع بالفيلسوف سبنسر . ومن أقواله فى هذا « إن الحق عند أهل أوربا للقوة ولا قيمة له بذاته وإن الأفكار المادية محقت الفضيلة وأنه لا علاج لأوروبا إلا بالتدين » .

ومرض الشيخ بالسرطان فى الكبد وعانى آلاما شديدة ، وكان يقصد السفر الى أوربا فى يونيو سنة ١٩٠٥ ولكن منيته وافته فى بيت صهره بالرمل فنقل الى القاهرة ودفن بالمجاورين وحزن عليه كل إنسان عرفه وسمع عنه أو قرأ كتبه ودروسه ، وأقيمت فى عرض البلاد وطولها حفلات التأبين وألفت عليه الكتب العربية والأفرنجية ونقلت بعض مؤلفاته الى اللغة الفرنسية ولاسيما رسالة التوحيد . وكتب عنه فى دائرة المعارف الاسلامية بكل الألسنة وشهد فى حقه أصدق الشهادات وأشرفها لورد كرومر - إدوارد براون - مختار باشا الغازى - عبد الله جودت الكاتب التركى - ذكاء الملك الإيرانى - طاهر بن عاشور المفتى التونسى - الأستاذ الكواكبى - الزهراوى - كرد على - الكاظمى - جورج زيدان - رياض باشا - اليازجى - سعد زغلول - فتحى زغلول - قاسم أمين - الأميرة نازلى - على يوسف - أسرة عبد الرازق - حسن عاصم باشا .... إلخ .

واحتفل أول مرة فى سنة ١٩١٧ بالجامعة المصرية بمرور اثنتى عشرة سنة على وفاته وأقيم له حفلة فى الإسكندرية فى السنة نفسها ، وقد مضى الآن ست وثلاثون يزداد فضله أثناءها انتشاراً ويعلو فيها اسمه اشتهاراً وتجمع العامة والخاصة على تعظيمه وتقديره وتعترف بأنه المقصود بالحديث الشريف وهو أن الله يبعث على رأس مائة كل سنة رجلا يصلح من أمر هذه الأمة . رحمه الله رحمة واسعة .

محمد على وهبة بحراوى

أحد أهل بحرا قرية بين جدة ومكة وكان موظفاً بجمرك جدة واتخذه الملك حسين أميناً على أمواله ، ونزح الى السويس وقيل إنه مولود بها وهاجر الى الحجاز ثم عاد منه الى السويس بثروة طائلة وأسس وبنى واشترى واستحدث بيوتاً ومتاجر ومخازن وتعاطى التجارة فى دكان له ليشغل نفسه بالبيع والشراء وإن لم تكن به حاجة اليه . وقد عرفته سنة ١٩٣٠ فى قضية جنائية كبيرة وطال أمدها وانتهت لصالحه . وهو رجل يتكلم بلهجة أهل الحجاز ويطيل تدخين النارجيلة شديد الحرص على ماله كمن تعب فى تحصيله ، ولندرة المشاهير فى السويس تراه فى مقدمة المعروفين فى البلد ، ويتبرأ من الفعل ثم يفعله ويبدو حسن النية وهو شديد المكر ولا يهمه إلا نفسه .

وقد عرفتُ أثناء اتصالى به رجلاً فاضلاً هو الشيخ إسماعيل إسماعيل الباز أحد أولياء السويس تمت على يده كرامات يعرفها ذووها ممن رأوها وهو مقصود بالتحية والإكرام والمطالب من كل فج حتى الأجانب والروم يحيونه ويرجونه فى أمور ، وقد كتبت عنه فى أوراق مبعثرة كثيراً من أخباره . وهو يملك أرضاً وبيتاً فى السويس وكان يتجر فى الحليب وفى عربات الركوب وعلف الخيل وله أولاد وكان فى أول أمره حداداً ثم جعل لنفسه مطعماً فى القاهرة أثناء الحرب الكبرى الأولى ثم استقر فى وطنه، وكان البحراوى أثناء قضيته يلازمه ويلتمس بركته ويدعوه الى داره ويجلس إليه فى كل يوم وليلة . فلما قضى له وربح تنحى عن مودته وتخلى عن صحبته فدل بذلك على حقيقة خلقه ، فإنه لم يستبق المحبة التى أسسها على مصلحته حتى قضيت عاد الى ماكان عليه من منافرة الخلق وفى مقدمتهم شيخه الذى كان يقبل يده صباح مساء

ولا يتذوق طعاماً إلا بصحبته ، وللشيخ إسماعيل عندى مكانة رفيعة ومحبة عميقة واحترام وتقدير فقد رأيت من إخلاصه وصدقه ورجولته ماحببه الىّ .

وللبحراوى جانب مشرق ولكنه ليس فى السويس ولكنه فى جدة وهو ابنه وهبة البحراوى الذى ورد اسمه فى القضية كثيراً « حكم فيها فى سنة ١٩٣٤ » ، والذى رأيته أثناء عودتى من الحج سنة ١٩٤١ « ١٣٥٩ هجرية » فقد انتهز فرصة مرورى بجدة واحتفى بى وخاطبنى كأنه يعرفنى معرفة قديمة وجدد شكره لى على ماكان منى فى قضية والده ، فأخبرته أنه كان سبباً فى نجاته بخطابه الذى حرره الى أحد الشركاء .

ووهبة يختلف عن أبيه صحة ومظهراً وخلقاً فهو لين العريكة طيب الأخلاق صادق الود وفىّ لأهله وأصحابه وهو لحسن نيته يظن أن أباه بعد قضيته لاينقطع عن زيارتى أو السؤال عنى لأنه كان المتهعم الوحيد الذى نجا من الأحكام الشديدة التى وقعت على بقية المتهمين وعددهم تسعة ، فكان خليقاً به أن يعرف لى هذه المكرمة وأن يواظب على مودتى فقلت له « لو هبة » نعم إنه مواظب « جبراً لخاطره » وأنه لايزور القاهرة دون أن يزورنى ويسأل عنى عدا عن كتبه ورسائله ، وخجلت أن أخبره أننى لم أر وجه أبيه منذ الحكم ببراءته ، لأن الولد لا ذنب له وهو وإن يكن مظلوماً بعد وفاة أمه وتيتمه وتأهل أبيه بأخرى ، إلا أنه كثير الاحترام له ولعل من دواعى هذا الاحترام بعد المسافة بينهما بعداً يمنع الاحتكاك ، ولم يرزق الوالد غير هذا الابن النجيب ، ولكن وهبة مرزوق طائفة من الأولاد والبنات كالأقمار عجبت للجد كيف يطيق البعد عنهم وقد رآهم فى أسفاره الى الحجاز ذاهباً الى جدة وعائداً منه ، فكيف لم يتعلق قلبه بهم أو بأحدهم ولم يتفرغ من عمره عاماً لإتقان ذلك الفن الذى ذكره فكتور هيجو فن الجدودة l'art d'etre grand pére وأحياه فى الشرق أحمد شوقى ، وقد سألت الأطفال فى جدة « أتحبون جدكم » فقالوا نعم ونحب أن نراه ونحبّ أن نذهب الى

السويس ، وأحببت أن أنقل هذه الصورة الجميلة الى ذهن محمد على وهبة بحراوى عند عودتى فلم ينتظرنى على الباخرة كما وعد فكتبت إليه ولم يصلنى منه رد ، كتبت لأشكر ابنه فى شخصه وكان نجله طلب الىّ أن أبلغه رسالة أو رسالتين · ولو أن هذا الشخص ترك للأقدار فى قضيته لحدث له مالا تحمد عاقبته ·

نعم إن أعمال المحامى والطبيب والمعلم مأجورة ، ولكن شتان بين من يقوم بعمل مأجور لأنه مأجور لايبالى بنتيجته وبين من يبذل جهوداً ليحصل على ثمرة حلوة وغاية نبيلة ، ولكن فى مصر يقولون « كله عند العرب صابون» ، ولا تظن أن واحداً من هؤلاء يرد لك جميلا أو يذكر لك جميلا أو يقابلك بمثل فعلك فى الخير ، كما هى طبيعة البشر فى انتظار الإثابة · ولكننى وطدت نفسى من قديم على احتقار الجزاء أو الشكر ولو باللسان لعلمى أنه ضد طبيعة الإنسان · وأنهم أثناء حاجتهم إليك لو شئت لاشتريتهم وبعتهم رقيقاً حتى إذا بلغوا مآربهم هيهات أن يبذلوا لك التحية ، وهذا وإن يكن مأثوراً عن بنى آدم عامة وعن الشرق أيضاً إلا أنه أظهر مايكون فى مصر وبين المسلمين ، فإن المعاملات تنقلب هاهنا مغامرات وأحابيل ومحايلات ولصوصية وأطماع وليس المدهش أن الأمر كذلك ولكن المدهش أن الأمور تظهر بمظهر السير بانتظام كأننا فى مدينة فاضلة أو عادلة مع أننا فى مدينة خاطئة فاسقة جاهلة خائنة ينتهز أشرارها الفرص لاغتيال حقوق الأخيار والانتقام منهم والوقيعة بهم فلا حول ولا قوة إلا بالله ·

محمد ماضى أبو العزايم

شيخ طريقة صوفية معروفة باسمه توفى فى آخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى بالقاهرة وقد رأيته بضع مرات قبل وفاته ، كان رجلاً طويل القامة ضخم الجسم أبيض اللون أبيض الشعر فى الرأس واللحية ، فصيح اللسان جداً شديد الذكاء وكان يقيم ببيت يملكه فى سكة مسكة أو زقاق مسكة بجوار درب الجماميز .

عرفت أخباره من والدى وبعض أقاربى ومن رجال عاشروه وأول حاله أنه كان مدرساً للغة العربية بالسودان ثم أسس هذه الطريقة وأطلق عليها اسمه ، وقد ألف كتباً كثيرة فى التصوف أهدى الىّ معظمها ، وكان ينشىء مجلة باسم المدينة المنورة قرأت معظم أعدادها . واتخذ من بيته مقراً لطريقته فكان يرد عليه أتباعه ومريدوه بالهدايا والتحف والنذور والمال الكثير من سائر أنحاء القطر المصرى ، وكان له دعاة يرسلهم فى المديريات يجمعون له « العادة » وهى نذور من الحبوب والنقود ويسافر بنفسه وحاشيته ويقيم أشهراً وأسابيع فى القرى فيكون موضع الضيافة والإكرام ممن ينزل ببلادهم .

ورأيت بعض أتباعه يقبِّلون قدمه وبعضهم يدلِّك أعضاء بدنه وهو شديد الحفظ قوى الذاكرة فيتكلم بفصاحة وسرعة ويرتجل الخطب البليغة المنمقة المرصعة بآيات القرآن والأحاديث والشعر الصوفى . وكان فى حلقات الذكر يرتجل الشعر للسماع، وكان كاتب يده وأمين سره الشيخ مفتاح وهو رجل صالح جداً يكاد يعبده ويجلس نهارا وليلا تحت أقدامه ويدون فى كناشات أقواله المنثورة والمنظومة ووحى الخاطر والقصائد المرتجلة ثم يجمع هذه المقولات وتطبع فى المجلة أو فى كتب على حدتها فى

مطبعة المدينة المنورة الملحقة بمنزله ، وقد تخرج من بيته المدعو عبد الظاهر السمالوطى الذى صار أشهر شاهد ملك فى القضايا السياسية فى سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ ولقى كثيرون من الشبان حتفهم بشهادة السمالوطى هذا الذى اختفى بعد ذلك وقيل إنه نزح الى السودان لينجو بجلده من انتقام الأبرياء وقيل إنه تعين فى وظيفة حكومية مكافأةً له على شهاداته التى أوقع فيها بالكثيرين ٠

وكان الشيخ بجانب تصوفه يشتغل بالأمور العامه والسياسية ، ولذا كان بيته يعج أثناء الحركات الوطنية بالجواسيس ٠ وله مكاتبات مع ملوك العرب على طريقة الشيخ رشيد رضا وأظهر اهتماماً بمسألة الخلافة دون أن يعرف حقيقة كنهها ولكنه كان يستمد نفوذاً من الاشتغال بها ٠

أما علاقته بالحكومة المصرية فكانت مبهمة ولكن له أولاداً يزيدون على الستة يطلقون أقدامهم فى الدواوين ويتصلون بالوزراء ويقضون المصالح باسم الشيخ ولا سيما فى وزارة الأوقاف ويهتمون بتأليف الوزارات الجديدة ويفرحون كلما جاء فى بعض مناصب الحكم رجال مشهورون بالميول الإسلامية ٠ وبعضهم يمارس التجارة وقد خلفه على طريقته ابنه أحمد وكان يلبس ثياب الأفندية ثم خلعها ولبس ثياب المشيخة بعد وفاة أبيه ٠

وقد روى لى بعض من أثق به عن كرامات تتم على يد الشيخ وخصوصاً فى عقوبة النساء والرجال الذين يرتابون فى أمره كأن يسقطون من حالق ، ويأتى المريد الذى له قريب أو صديق أصيب بحادث ويحكى فى مجلس الشيخ أن الله انتقم من قريبه لأنه نهاه عن الشيخ ثم يروى آخرون مثل قصته كنوع من الدعاية والشيخ يبش لهم ويفرح بأخبارهم ٠

ونظر مرة الى القاعة الكبرى التى فيها مجلسه أو عرشه وكان بها ثلاثة أو أربعة أشخاص وقال كان يجلس ها هنا مئتا شخص قبل مرضى ٠ وبيان ذلك أنه حوالى

سنة ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ أصيب بفالج ولكنه عولج علاجاً حسناً واتبع أوامر الأطباء بدقة وكان فى بداية مرضه ينزل الى الحلقة ثم اعتكف بأعلى الدار .

وكانت له زوجة صبّية رزقت منه أطفالاً صغاراً يداعبهم أثناء مرضه ويطعمهم بيده على مائدته التى تجمع أصناف الخضر والفاكهة منذ حرمت عليه اللحوم بسبب مرضه . ولكنه كان واعياً يقظاً يخطب وينظم الشعر ويملى الحكم على خادمه المطيع الشيخ مفتاح .

وكان ذا فراسة فى الأشخاص مستقاة من الكتب . وأهم أتباعه محمد عبد ربه أحد المقاولين بالإسكندرية أعد له بيتاً فى سيدى جابر برمل الاسكندرية يصطاف فيه كل عام الى أن أفسدت بينهما امرأة كانت معلمة فى مدارس البنات بالإسكندرية جمع الشيخ بينهما فى الحلال وعقد لهما وهو يعلم أن عبد ربه متزوج وله أولاد وزوجته الأولى على قيد الحياة ، فلما نزعت هذه الزوجة ملك زوجها حرمت على الشيخ النزول بالبيت بسيدى جابر وامتنعت عن الشيخ هدايا عبد ربه لارتباك أحواله الذى نشأ من استيلاء الزوجة المعلمة على ثروته . وفترت العلاقات بين الشيخ ومريده .

وكان يحيى ليلة الإسراء بخطب طويلة وسهرات وولائم الى ماقبل وفاته بقليل وقبلت الحكومة بعد وفاته أن يدفن فى بيته وجعل له ضريح ووافقت الحكومة على إحياء مولد له ثلاثة أيام فى آخر رجب وآخرها فى سنة ١٩٦١[١] بشرط الاكتفاء بإحياء الشعائر فى المسجد الملحق بالمقبرة ، وكان له أخ « توفى قبله » اسمه محمود أبو العزائم خرج عليه فى حياته واتخذ طريقة جديدة ذكر لى الشيخ محمد أن فيها إباحية وإلحاداً وانتقد أخاه انتقاداً مراً ودعا عليه كان الأخ يقيم فى إحدى مدن الصعيد وله أتباع كثيرون ولا أعلم من أمره أكثر مما رواه لى أخوه الأكبر، غير أنه فى سنة ١٩٣٤

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها سنة ١٣٦١ هـ .

حضر إليَّ جماعة قالوا إنهم من أتباع محمود ماضى أبو العزائم جاءوا القاهرة خصيصاً ليسألونى عن مؤلفات الحلاج بمناسبة كتابتى عنه فى فصول متتابعة بعنوان « التصوف المصرى الحديث » بجريدة البلاغ ، وفهمت من حديثهم ورسالتهم أن شيخهم لم يسمع قبل الآن بهذا الولى العظيم « الحلاج » فدللتهم على المطبوع من كتب الحلاج كالطواسين وبعض المراجع الأخرى .

وقال لى الشيخ محمد أبو العزائم مرة : لك عندى أمانة ولكن كيف أقدمها لك أو أوصى لك بها مادمت لم تكسنى ثوباً من الشاهى أو قفطاناً من القطن ، وكان أحد أقاربى يعتقد به اعتقاداً ثم عاد فانقلب عليه وقد حققت هذه المسألة أن أصل النزاع بينهما أمور دنيوية أهمها سعى الشيخ فى زواج محمد عبد ربه ألصق أتباعه من المعلمة أو ناظرة المدرسة الدمياطية وقد عاد هذا الزواج بضرر بليغ علي الزوجة القديمة وأولادها من عبد ربه وهى تمت الى قريبى بصلة الرحم فغاظه هذا الأمر وانقلب على الشيخ وصار ينال منه بعد أن كان يقدسه ويبكى فى حضرته ، ولابد أنه قبَّل أقدامه مرات عدة .

وقد حققت مسألة الزواج فعلمت أن للشيخ اليد الطولى فى تمامه ، وكان يأمره بأن يصحبها فى سيارته ليوصلها الى منزلها ثم قال له فى إحدى الليالى « خذ زوجتك وقم » ولم أعرف ماهية العقد الذي تم على يديه إن كان فى داره فى هذه الليلة أو قبلها .

وله تدخل فى بعض أمور النساء ، من ذلك أنه لما أراد الحج واصطحب كاتب يده الشيخ مفتاح أمره بطلاق زوجته المرزوقة منه أولاداً فعارض مفتاح أولاً ثم أطاع وطلق ، ولما عاد من الحجاز رد زوجته الى عصمته . ولعل الشيخ أراد امتحانه بهذه المسألة لأن مفتاحا لم يعصه فيها . ولكن بعد وفاة الشيخ وتقسيم التركة وتنظيم أحوال الأرملة الفتية وشراء عقار لها بنصيبها ونصيب أولادها تنمر أولاد الشيخ

لمفتاح وطالبوه بمؤلفات والدهم واتهموه بإخفائها ، حتى كان يخرج ويترك زوجته وأولاده ويسافر الى الصعيد ويقيم أشهراً طويلة . فكان مظلوماً محسوراً .

وكان الأثر الذى تركته مقابلة الشيخ لايشعرنى بتصديقه فى أكثر من أنه رجل ذكى عالم ، وقد حاول تفسير القرآن فى مجلته تفسيراً عادياً منقولاً من التفاسير القديمة ولكن أولاده وأتباعه طنطنوا به طنطنة كبيرة ، ومات الشيخ دون أن يتمه . وكذلك كان يشرح الأحاديث وكانت له نزاعات طويلة على البيت الكبير الذى سكنه ثم امتلكه ، فإنه دخله مستأجراً من مالكيه من عائلة الفريق ثم وضع يده عليه وانتهى بشرائه بطريقة مبهمة وهو ذو مساحة واسعة ولكنه متهدم .

وكان من عادته أن يستهوى الأشخاص الذين يتوسم فيهم النجابة أو الشهرة ويبذل جهداً كبيراً فى استمالتهم اليه ليعترفوا به أو يقبلوا يده ويتخذ لكل واحد منهم الخطة التى تؤدى الى استمالته كبذل المنافع والاشادة بالذكر ، وحسن اللقاء أو اطلاعهم على بعض مايظنونه أسراراً أو دعوات .... إلخ .

وعدتُه مريضاً ورأيته يتيمَّم وقت الصلاة ويؤدى الفريضة جالساً ، وكان أسلوبه فى كتابته عادياً فيه بعض الإبهام وله كتاب حسن فى وصف شعائر الحج قد أغرب فيه وأطنب وأبهم أموراً من شأنها الوضوح والجلاء فذهب ببهجة الموضوع وخلط بين الشرع والتصوف خلطاً شديداً . ولم أحضر وفاته ولا دفنه .

وكان له سائق سيارة رومى الأصل وأسلم من الفقر أو التقوى فأطلق عليه اسم صهيب كالصحابى الذي كان يحمل هذا الاسم فى صدر الإسلام وقد غاظنى ذلك لأن فيه تشبهاً بالرسول وليس هو كالرسول وليس السائق الرومى كصهيب .

وكان كثير الشكوى من أولاده شديد الأسف من مخالفتهم وكلهم متزوجون وكل منهم ينفق مايصل الى يده فى مصلحة زوجته وأولاده وكل منهم يعنى بأمره الخاص ولايلتفت الى مصلحة الجماعة أى الشيخ وأسرته الجديدة والأتباع المقيمين فى المنزل

بعائلاتهم كالشيخ مفتاح وصهيب ، وتشتد هذه التهمة بالعقوق كلما أنس من الضيف احتراماً له أو تقديراً . وكل أولاده أقوياء فحول فى مقتبل العمر مندفعون يستمدون سلطة دينية من أبيهم لجلب المنافع لأنفسهم .

وعلى كل حال فطريقة آل العزائم طريقة فيها حب الدنيا وتبادل المنفعه وتمجيد الشيخ والخضوع له الى درجة العبادة ومنها تقبيل أقدام الشيخ وطاعته طاعة مطلقة وقد ماتت الطريقة فى حياة مؤسسها وتفرعت عنها حركة مذمومة وهى حركة أخيه المخالف له محمود ماضى أبو العزائم .

وعلى الرغم من شهرته المستفيضة فى السودان والصعيد والقاهرة والاسكندرية وكثرة كتبه ومجلاته وخطبه وقصائده وخواطره التى سلخ مفتاح حياته فى تسويدها وتبييضها ، لم يستطع الشيخ أن ينفخ فى أتباعه روحاً معنوية أو دينية تمكنهم من الاستمرار بعد موته أو تمنعهم عن التخلى عنه فى حياته ، ولم يبث فيهم مبادىء دينية ولا اجتماعية تجعل منهم هيأة تكون أهلا للبقاء والاستمرار ، ولم يخرج تلميذاً واحداً نابغاً أو خليفة يحمل أعباء الطريقة بعده . وكان الكل فى الكل أثناء حياته فى صحته ومرضه وقد تركزت فيه السلطة والنفوذ ، ولم يعين بعده خليفة ولو أرادوا الحق لاختاروا الشيخ مفتاح لأنه كان أكثرهم صحبة له ، ولكن ابنه أحمد وثب عليها ولم يفلح فى شىء أبعد من لبس العمامة والقفطان بعد السترة والسراويلات والطربوش وصادف أول أمره تعيين أحمد مراد البكرى خليفة لأبيه فتقرب اليه أبو العزائم الثانى وأقام له الحفلات والولائم وكان يخاطبه بالانجليزية ، زيادة فى الاتصال به ، ثم انشق عليه مع عشرة مشايخ طرق من أنحاء القطر ، فأصدر البكرى الجديد أمراً صوفياً بعزلهم جميعاً وحرمانهم من حقوق المشيخة ، وهكذا تطورت المسألة الى صورة هزلية توافق العصر الحديث ، وقد قيل لى إن الشيخ محمد ماضى لم يتصل طول حياته بالمرحوم عبدالحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفيه لا استصغاراً لشأنه ولكن اعتزازاً

بمكانته فى العواصم والريف ولاسيما الاسكندرية عندما كان يصطاف اصطياف الأمراء فى بيت مريده محمد عبد ربه · وقد توفى فى الثمانين من عمره ولابد أنه ولد فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى ١٢٧٠ – ١٣٥٠ رحمه الله وغفر له ·

من أفضل كتبه – ولعله أفضلها – كتاب النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين ألفه فى زمان شبابه ونشره سنة ١٣٣٢هـ بمصر فى أكثر من مائتى صفحة وقال فيه إن غرضه إرشاد المؤمنين الى طريق النجاة وهى الاقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام وأن نيل السعادتين « فى الدنيا والآخرة » لايكون إلا بالإسلام ، وأوصى فيه باليقظة من الغفلة وبالوفاء والصبر ونصح المسلم بالتفكير فيما يحيط به فى قالب قصيدة من القصائد التى كان يرتجلها فى تجلى السهرات ويمليه على الشيخ مفتاح ، وباح فيها ببعض الأسرار الصوفية ومنه التفكر فى النفس وأفعالها وتأثيرها ، وبعد أن تكلم فى الرسول عليه الصلاة والسلام انتقل الى الإمام العادل ووجوب طاعته· ويظهر لنا أن هذا الكتاب من تأليفه أراد أن يودعه آراءه فى الدين والدنيا ولكن تفكيره وخطته بدائية ينطبقان على حالة أتباعه وبيئة الدراويش الذين ألفه لهم ، ولكن اجتهاده ملحوظ فيه ورغبته فى أن يكون كتاباً متداولاً بأيدى الكافة لا مقصوراً على تلاميذه ·

وكانت سنة ١٣٣٢هـ · توافق سنة ١٩١٤م التى أعلنت فيها الحرب وكان الشيخ فى ذلك العهد مقصودا من عدد كبير من الأعيان والخاصة من قرى الصعيد والوجه البحرى ومجالسهُ آهلة بالذاكرين والمنتفعين والمتبركين من كل فج فكانت فترة عصره الذهبى وقد استمرت هذه الفترة نحواً من عشر سنوات فترت بعدها شهرة الشيخ لسببين الأول ، ظهور بعض الجواسيس فى حاشيته أمثال عبد الظاهر السمالوطى وكانت له شهرة فظيعة فى القضايا السياسية العسكرية وظهر أن الشيخ

لايتحرى فى اختيار أتباعه حتى رمى الشبان بهذا الفحل الصعيدى الذى لا ضمير له ولا شرف ، فشهد الزور فى المحاكم شهادات أدت الى ضياع أعمار عدد كبير من الشبان . والأمر الثانى انشقاق أخيه المرحوم الشيخ محمود أبو العزائم وظهوره فى أحد بلدان الصعيد بمذهب لايقره الشيخ ولا يوافق عليه فكان ذلك سبباً فى غضبه وحزنه ، وبمناسبة ذكر هذا الأخ الذى كان طالحاً فى نظر أخيه الشيخ الكبير نذكر أخاً آخر صالحاً هو أصل ظهور هذه الأسرة وواضع أساس شهرتها ومنشىء كيانها وهو المرحوم الشيخ أحمد ماضى أبو العزم (كذا) ويظهر أن هذا أصل هذه الكنية قبل أن يجعلها الشيخ محمد بصيغة الجمع فيصير أبا العزائم .

وهذا الرجل الفاضل السيد أحمد أبو العزم الموصوف فى كتابه الذى نشر بعد وفاته بأنه « شيخ الصحافيين والعالم الكاتب الصحافى الشهير» كان فعلا شيخ صحافة عصره لأنه ورَّث الشيخ على يوسف هذه الصناعة وشاركه فى نشر جريدة الآداب التى صارت بعد ذلك جريدة المؤيد الشهيرة . وكانت إدارة الجريدتين فى نفس البناء الذى صار « دار المؤيد » بعد ذلك بعشر سنوات .

ولكن اتجاه السيد أحمد أبو العزم كان دينياً وأدبياً ، فألف قبل موته كتاب وسائل إظهار الحق الذى نشره فى سنة ١٣٣٢هـ شقيقه محمود أبو العزائم الذى خرج بعد ذلك على أخيه وهو فى مقدمته يقول « يقول المسكين محمود أبو العزائم أن سيدى ومرشدى شقيقى السيد محمد ماضى أبو العزائم أشار علىّ هو وأخوه السيد محمود أحمد بطبع تلك الرسالة التى تركها السيد أحمد وديوان شعر وبعض سوانح أدبية» ، ولم يشر بكلمة الى تاريخ أخيه المتوفى الصحافى وترك هذا البيان للمؤلف المتوفى نفسه الذى قال « دعانى الشوق الى تعليم لغات أجنبية (كذا) حتى اشتغلت بالسياسة وأسست وصديقى الشيخ على يوسف جريدة المؤيد وتحملت أهم أعمالها فكنت مديراً ومحرراً لها فى زمن كان الوطن العزيز .... إلخ » ، وقد توفى الشيخ على يوسف قبل

نشر هذا الكتاب بعام « أكتوبر سنة ١٩١٣ » .

أمـا كتـاب إظهـار وسـائل الحق فـهـو نقض للديانة المسـيحـيـة وتقليل من قـدر الحضارة الحديثة وتمجيد للاسلام وفيه تعرض لأمور لايعرفها المؤلف كدعوى « أخذ القانون الرومانى من أحكام الإسلام » وهذه دعوى باهتة لأن روما تأسست سنة ٥٣ ق.م وعاشت قبل الإسلام أربعة عشر قرنا ، ولما ظهر الإسلام كان نذير زوالها وهلاك دولتها بعد أن ملكت العالم ، ولايعقل بالبديهة أن دولة كهذه انتظرت هذه المدة لتأخذ قانونها من دولة جديدة ، هذا بالبديهة لمن يعلم تواريخ السنين ، فأما الذى يعلم علم التاريخ وتاريخ الرومان ونشوء قوانينهم يضرب بهذا القول عرض الحائط ولايراه معظما لشأن الإسلام فى شىء . فكان تعلم اللغات الأجنبية والاشتغال بالسياسة والإدارة والصحافة لم يغن الشيخ رحمه الله شيئاً .

وأعجب من هذه الدعوى معالجتها فإن المؤلف اكتفى فى بيانها بسطرين قال ص ٩١ «إن الرومان ترجموا تلك القوانين (؟؟؟) من كتب مذهب الإمام مالك ولما خافوا أن تأبى الأمة الرومانية قبوله قالوا إنه قانون قديم للرومان فقبله القوم » رحمه الله وغفر له.

فأية فكرة كانت لديه عن رومه ونظمها السياسية ومجلس شيوخها وآراء علمائها وبحوث مخترعيها - وهو لو عرف شيئاً من ذلك لعرف أن دول العالم انتحلت القانون الرومانى وجعلته قانونها . وكل الذين قرأوا كتابى إهرنج وممسن الألمانيين فى تاريخ رومه وتشريعها يتحسرون على تورط أمثال هذا الرجل الطيب فيما لا علم له به .

وعلى كل حال فنحن نعتبره مجتهداً فى دينه ووطنيته وعلمه وأدبه وللمجتهد إن أخطأ أجر لايفوته . ولا نعد هذا عيباً عليه فقد نشأ نشأة أزهرية منذ ستين عاماً ولم تكن العلوم الحديثة أو الثقافة العصرية قد احتلت مكانتها التى تحتلها الآن . ويكفى هذا الشيخ فخراً أنه كان صحفياً شريفاً طاهر اليد لم يلوث ضميره ولا نفسه بأقذار الحياة التى استجدت بعده بفترة قصيرة واستمرت واستفاضت حتى أغرقت الخير والفضيلة . فأين لنا الآن صحفى متصوف وأزهرى ميّال الى الخير يخدم وطنه لينبه أبناءه ويوقظهم من سباتهم .

محمـود الأيوبـى

طبـيب أسنان نجل صـلاح الدين الأيوبى المحـامى بطنطا فى أوائل القـرن العشرين ، وعمه الأستاذ إلياس الأيوبى المؤرخ لمصر الإسلامية وحاز جائزة ملكية فى تاريخ الخديو إسماعيل ، وشقيقته الآنسه نعيمه الأيوبى . وقد تعلم طب الأسنان فى ألمانيا فى فترة الحرب الكبرى الأولى . وقد عرفت أباه وكان رجلاً شهماً ذا غيرة على الدين والأخلاق ، أما عمه « إلياس الأيوبى » فكان بين بين وقد انتحل الإسلام وتزوج بسيدة مسلمة وتوظف بالمحكمة المختلطة ثم انتقل الى القصر الملكى بعد تأليف تاريخ إسماعيل وتوفى فى صيف سنة ١٩٣١ فى إحدى قرى الشام وهى مسقط رأسه فتنازع جثته المسلمون والنصارى مرات عدة وانتهى الأمر بدفنه فى قبور المسيحيين مع ثبوت إسلامه .

وقد ذكر فى تاريخ إسماعيل عبارات أليمة كقوله إن مارييت باشا كان يضحك فى سقارة كلما رأى غضب المسلمين من استحمام حلوفه « حلوف مارييت » فى الميضأة التى أعدها عمال التنقيب فى سقارة للوضوء ، وكان الأيوبى يشارك مارييت الضحك هازئاً بهذه الشعائر المقدسة . وكذلك كتاب مصر الإسلامية قد حشده بالنقد المرير والتحامل على العرب والإسلام مما دلّ قراءه على أنه انتحل الاسلام لمأرب .

أما أخوه صلاح الدين فكان صادق الإيمان منزها عن الأطماع وكان رجلا مهيب الطلعة قصير القامة سريع الغضب للشرف والاستقامة عدواً لكل اعوجاج فى الأخلاق ، وأما محمود الأيوبى طبيب الأسنان فقد جمعتنى به مأدبة فى دهبية نيلية يملكها من يدعى أحمد بهجت نجل أحد القضاة وخاله مصطفى الشوربجى من أعيان

القاهرة وكان مقره بباب الخلق ٠

فتكلم عن تعليمه فى ألمانيا ثم انحدر الى الكلام عن المستشرقين ففتح أحد الحاضرين الحديث فى السيرة النبوية ٠ فانبرى محمود الأيوبى « الدكتور » وهو ذو فهاهة ولثغة وقال إنه عندما كان بألمانيا سمع أو قرأ أن المستشرقين يقولون إن الرسول ليس له والد معروف ولذا سمى ابن عبد الله وهذه عادة كل ولد مجهول النسب، ثم توسع فى هذه المسألة توسعاً عجيباً وكان أحد المدعوين صامتاً صابراً حتى انتهى الأيوبى من قصته فقال له : هل تعرف على التحقيق من هو المستشرق الذى كتب هذا وفى أى كتاب من كتبه وفى أى صفحة من صفحاته ٠

فقال : لا أتذكر

قال المعترض : إذا سلمنا جدلا بأن مسألة على هذا الجانب من الخطورة يصح الاستشهاد فيها بكلام طيّار على لسان مسلم متعلم فهل تظن محمداً لو كان كما زعمت أو زعم المستشرق المجهول كانت قريش تسكت عنه وهى التى كانت تتلمس مواطن الضعف فى ماله أو دعوته حتى سبوه ونسبوا اليه السحر والجنون ومعاشرة الفقراء والأراذل مما ذكره القرآن ولم يخفه ٠ حتى عتاب الله فى حديث ابن أم مكتوم « عبس وتولى » ٠

قال : لا اظن

قال المعترض : ولو فرضنا والده مجهولا فهل كان يتطوع اثنان من أشراف قريش وهما عبد المطلب وأبو طالب ليتكفلاه ويكون أحدهما جده والآخر عمه ٠ وهل كان أبو لهب وهو ألد أعدائه يكتم هذا الأمر ويقول « ابن أخى » وهل كان يوفد جاريته ثويبة لترضعه ثم يعتقها لأنها بشرته بمولد محمد ٠ واذا كان مستشرق واحد قد قال هذا فهل صدق وكذب مئات المستشرقين الذين أقرو بنسبه ٠

فنهض المعترض عن المائدة وقال : إن لم تغادر هذه الدهبية فإننى أغادرها فالجلوس مع مثلك والطعام معك حرام لا لأجل الدين أو شرف الرسول ولكن لجهلك واستهتارك .

ولا أدرى ماحدث بعد هذه الضجة . ولكن هذا الحادث ولّد الرعب فى قلب الأيوبى فلم يذكر النبى بشر بعد ذلك[1] .

أما شقيقته فقد سافرت فى بعثة الى بلجيكا وعادت بأستاذ شاب من بروكسيل وحتمت على الحكومة أن تسمح لها بالزواج منه ، وقيل بعد ذلك إنه أسلم ووافقت الحكومة المصرية على تعيينه أستاذاً فى الجامعة المصرية فحظى بالمنصب والعروس والإسلام ولو ظاهرا . وهى فتاة متعلمة حازت إجازة الحقوق ونالت شرف الانتساب الى المحاماة فكانت أولى الفتيات المصريات اللواتى قيد اسمهن فى جدول المحامين ثم خلعت رداء الدفاع وتقلدت وظيفة فى وزارة المعارف ثم ارتدت ثياب الزفاف وهى الآن من دائرة السيدة هدى هانم شعراوى تلازم مجالسها وتحضر محاضراتها وتعينها فى الإصلاح الاجتماعى لأنها متحررة الفكر الى أبعد مدى وتلبس القبعة والفستان القصير وتتخذ زينتها عند كل محفل . وهى على النقيض من أخيها محمود فإنه سمين قصير مبهم التقاطيع ذو لكنة ولثغة ولا أعرف مهارته فى طب الأسنان وربما كان تثبته من فنه كتثبته من أنساب الأنبياء .

---

(١) الواضح أن المعترض هو لطفى جمعه نفسه .

ولا يفوتنى أن أذكر أن إلياس الأيوبى بذل لى جميلا فى مصاحبتى ليلة ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٢ بالاسكندرية بعد حفلة المرحوم الشيخ محمد عبده فقد خطبت فيها ومرضت فرافقنى الى دار صديقى وصديقه القاضى سليمان يسرى بك رئيس جمعية العروة الوثقى ، وقضينا سهرة الى أن آن موعد سفر قطار نصف الليل الى القاهرة من محطة سيدى جابر ، وقد وقفت على أمر مهم فى تلك الليلة وهو أن يسرى بك اقتنى كل مطبوع عن تاريخ مصر فى مكتبة جميلة وأباحها للأيوبى فكانت فيها سائر المراجع التى استعان بها فى وضع تاريخ إسماعيل فى جزئين ضخمين وهو لايساوى ثمن الورق الذى طبع عليه .

محمود بسيونى

رجل فاضل بحبوح محبوب من جميع من عرفه من زملائه وعملائه ، وكان منذ شبابه وطنياً مخلصاً ومن أنصار مصطفى كامل وترافع عن الوردانى وجملة من مشاهير المحامين أمثال الهلباوى وعلوبه باشا . ثم اتصل بالوفد فى أول حركته وكان وزيراً للأوقاف ورئيساً لمجلس الشيوخ ورئيس الوفد الذى سافر إلى الهند لرد زيارة البانديت نهرو وأمير الحج فى سنة ١٩٣٨ أو سنة ١٩٣٩ ونقيباً للمحامين مرات متتالية وبالجملة نال بإخلاصه وثباته ووفائه وحسن نيته كل ماتصبو إليه نفوس الرجال عن جدارة واستحقاق ولم ينل شيئا محاباة أو مجاملة .

وله كعب عالية فى المحاماة وقدرة ماهرة فى المرافعة واختار أسيوط مقراً لعمله منذ نشأته فحصل على ثروة جيدة فى العقار والمنقول وربّى أولاده تربية حسنة وبوأهم المناصب العالية فى حياته .

وهو رجل بسيط المظهر طيب القلب لاتعرف العداوة طريقاً الى فؤاده ولايتخذ من الحزبية وسيلة للبغضاء أو التقاطع ، ولايعتبر الخصومة السياسية سبباً للتنافر ويعتبر كل الوطنيين مخلصين وإن اختلفت مشاربهم ووسائل عملهم .

ويظهر لى أن سبب السكوت عليه من الزعماء أنه هو نفسه زعيم ورجل كبير وذو مكانة وحرمة غير منكورة، ولما كان مسلكه هو الصحيح والواجب الاتباع ومذهبه هو الأحق بالتقدير فلم يعرض له أحد بالنقد وهو مستقل اقتصادياً فلا يحتاج إلى أحد وإن كان يخدم كل محتاج ويحمى كل ضعيف فإنه إن عرض له أحد بنقد فلا يؤثر منصبه على حريته ولايبيع شهرته بالأفق الضيق ، مهما دفع له فيه من ثمن . وقد مرض مدة طويلة وتعطل عن حضور مجلس الشيوخ وكان زعيم المعارضة فيه قبل يوسف الجندى ومايزال ملازماً داره وهو عضو فى ذلك المجلس الى أن يمن الله عليه بالشفاء .

معـــروف ارنـــاؤط

معروف أرناؤط أديب دمشقى وصحفى يدير جريدة ألف باء ، حضر الى مصر بمناسبة وفاة المرحوم أحمّد شوقى أمير الشعراء « أكتوبر ١٩٣٢ » وأقام بها شهرا وعرفته مع زملائه ونسيبه نبيه شيخ الأرض وصديقه الأستاذ شفيق جبرى أستاذ الأدب العربى بجامعة دمشق ٠

وأرناؤط كهل قصير سمين حسن الخلق متساهل يميل الى المرح والمزاح ٠ أهدى الىّ كتابه سيد قريش فى ثلاثة أجزاء وهو فخور به وإن يكن معظمُه فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتاريخ تيودورا بنت الأمبراطور وأخبار عشقها فخلط عملا صالحا بآخر سىء ٠ ولغة الكتاب ضعيفة ومراجعه ضئيلة وهو على نسق روايات الهلال الإسلامية وإن يكن جورجى زيدان قد قصر كتبه على أخبار الخلفاء ولم يتقدم الى تاريخ الرسول فى رواية ٠ ولعله لو فعل ذلك كان كتابه يكون أفضل من سيد قريش ٠ ومعظم أوصاف الرجال وأهم الحوادث من نسيج خيال معروف ، واكتفى بذكر بعض المراجع فى أقدام الصفحات ٠ وله أسلوب غريب فى تكوين الأفعال والأسماء على طريقة تخالف قواعد اللغة العربية ٠ وفى وصف مكة يجعل كل أبطاله مقيمين فى قصور عالية مشرفة على المسجد الحرام ويضع على ألسنتهم أقوالاً لم ترد ببال أحدهم ولاسيما عند وصفه موت ورقة بن نوفل ٠ فقد جعله فى هيأة بطريق المدينة والقبيلة وزعيمها وعالمها وكاهنها وهو لم يكن شيئاً من ذلك ، وتخيل صورة شاذة لسطيح وبالغ فى احتشاد القبائل فى استقباله وتلقى أنبائه وأخباره على طريقة القصاصين ٠

وبالجملة فإن الكتاب لايعد ذا قيمة من الوجهة الإسلامية وهو الى تمجيد النصرانية أقرب ، ولذا قال لى وهو فى غير وعى إن إقبال نصارى الشام عليه أكثر من إقبال المسلمين ، وعلى حسب العادة المتبعة استكتب خليل مطران الشاعر مقدمة الكتاب ، وعندى أن شاعر القطرين (؟؟) لم يقرأ منه كثيراً ولا قليلا .

وقد قرأت بعد ذلك أن معروفاً « عفا الله عنه » وضع كتباً أخرى فى تاريخ بعض الخلفاء الراشدين ، ولو أنه بذل جهده فى تحسين كتابه الأول لكان أجدى عليه وعلى القراء ولاسيما لو أنه حذف الخرافات الوثنية والمسيحية التى أفعم بها هذه السيرة الخيالية .

وقد وجه اليه بعضهم نقداً فى وضع العنوان ، فقال له ليس محمد سيد قريش بل سيد العالمين لأنه أرسل رحمة إليهم ولم يقتصر عمله على هداية قريش ، بل امتدت دعوته الى أنحاء العالم ونجحت فى جزيرة العرب كلها ثم انتشرت فى الشرق والغرب.

وعلى كل حال فإن إسلام معروف فاتر وحميته الدينية محدودة وتحمسه مصطنع. وليته لم يتعرض لهذا الموضوع واكتفى بقصة هيرقل وتيودورا وسطيح . على أن هذا الرأى لايطعن فى أدب الرجل الخلقى . ولكن أعتقد أن تاريخ الأنبياء لايتخذ للتجارة بالأدب ولايجوز لرجل غير متحمس لشخص النبى تحمساً عالياً مجدياً وعالماً علماً صحيحاً بسيرته أن يمد يده لتاريخ حياته ، فإن أمثال هذه التراجم الخالية من حرارة الإيمان ومن صدق العقيدة فى بطولة النبى تضر أكثر مما تنفع وتسىء ولا تحسن ولأجل هذا فطن قراء الشام من غير المسلمين الى هذه الناحية فأقبلوا على الكتاب .

وقد روى لى معروف أثناء إقامته ، تاريخ الجناية الفظيعة التى جنتها زوجة المرحوم فوزى الغزى أحد أبطال الدستور السورى وكيف دست السمّ فى الدواء وتآمرت عليه مع بعض أقاربه ودبروا القتل وسرقة المال والفرار الى إيران . وقال لى فى وصفها إنها فتاة بلهاء لثغة فى السين تنطقها تاء وأنها طائشة قد لعب الأدنياء بعقلها وسيطروا عليها حتى قضت على حياة زوجها العظيم الذى كان يعيبه شدة تعلقه بها على مابينهما من الفرق فى السن .

وكان بعض رفاق معروف أثناء روايته عن جريمة المرأة يظهرون التأفف وَيظنون فى سرد وقائعها الأليمة حطة فى قدر السوريين ، فقال معروف : إن أخبار هذه الجريمة منشورة فى الصحف وفى كل الممالك خونة وقتلة وفسقة وربما كانت هذه المرأة آلة فى يد من هم أقوى منها للقضاء على هذا الرجل فلا مساس بشرف سوريا ودمشق . وهذا هو التاريخ إن لم نروه نحن فلابد أن يرويه سوانا فنحن أعلم به وأقدر على روايته . وقال أديب آخر إن الأستاذ فيلكس فارس الشاعر الأديب اللبنانى والموظف الآن (١٩٣٢) بالمجلس البلدى بالإسكندرية قد كتب مقالات طويلة مفصلة عن هذه الجريمة . وقد عرفها المصريون معرفة تامة .

وقد التقيت بهذا الأديب « فيلكس » فى سنة ١٩٣٣ فى حفلة تأبين المرحوم محمد حافظ إبراهيم بدار الأوبرا وقضيت معه فترة قصيرة من الوقت وسرد علىّ تفاصيل جناية امرأة الغزى . وطلبت من الأرناؤطى أن يوافينى بما يحدث فى المحاكمة فقال إن المحكمة اكتفت بعقوبة السجن المؤبد بدل الإعدام نظراً لحملها وقت المحاكمة وكانت اللعنة عليها عامة فى دمشق لأن جريمتها اقترنت بالزنا والخيانة وهى زوجة

رجل عظيم ، ومايزال قتل الأزواج بالسم سلاح المرأة فى كل زمان ومكان فى الشرق والغرب وأذكر قضية السموم Affaire des poisons وقضية مدام لافارج « فى فرنسا » وجرائم الانجليز بالسم لأجل الحصول على أموال التأمين والتخلص من الأزواج مشهورة .

ورأيت معروف الأرناؤطى مرة ثانية فروى لى نوادر مضحكة عن الدكتور محجوب ثابت أثناء إقامته فى دمشق والشام عند فراره من تهمة كاذبة كادت تلصق به فى قضية القنابل وكان هذه المرة ضيفاً على الدكتور عبد الرحمن شهبندر وهو خال زوجته على ما علمت .

موريـــك بــران

أستاذ فرنسى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية أسس جماعة إحياء الثقافة الفرنسية بالقاء المحاضرات فى إحدى قاعات فندق كونتننتال يدعو إليها الأدباء من كل جنس ودين ويدعو إليها كبار الأساتذة والخطباء ويظهر لى أنه من جنوب فرنسا أو شرقها ، وأصل معرفتى به عن طريق أحمد رشاد صاحب مجلة « الوهّاج » فلامبو وتوطدت بيننا المحبة وعمل على ترجمة شعر شوقى الى الفرنسية وترشيحه لجائزة نوبل، وينشر مجلة أدبية بلغتهم القومية ودعانى الى إلقاء محاضرة فى الفولكلور المصرى فألقيتها فى إحدى صالات الكونتننتال وهى التى أقيم فيها معرض التصاوير والتماثيل فى ربيع ١٩٤٢(١) وحضرها شوقى بك وسرّ بها .

وأراد بران أن يقف على حالة الأدب فى مصر بعد سنة ١٩٣٠ وبعد وفاة شوقى وحافظ فى سنة ١٩٣٢ وسمع مصادفة عن مقالاتى فى المرحوم أحمد العاصى الذى انتحر فى سنة ١٩٣٠ فحملت ديوانه وكتبه ومخطوطاته « التى أودعها عندى قبل وفاته» وتعاونت وبران على نقلها الى اللغة الفرنسوية وكان ينوى نشرها فى مجلة واشتغلنا يومين شغل الجد فى بيته ثم انقطعنا لأسباب شتى كبعد المسافة وكثرة المشاغل .

ومايزال بران دائباً علي عمله فى نشر الثقافة الفرنسية ، ولكن أظن هذه الثقافة لن يكون لها أى شأن بعد تدهور فرنسا وانهيارها فإن آداب الأمم لاتنتعش ولا تنتشر إلا بعاملين الأول كثرة القارئين « كما هى الحال بالنسبة للأمة الأنجليزية المنتشرة فى

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها سنة ١٩٣٢ .

الجزر البريطانية وفى أمريكا واستراليا وآسيا وافريقيا »والعامل الثانى ظهور الحضارة فى الأمة ، وكلا الأمرين قد قصرت فيهما فرنسا ، فعدد أهلها آخذ فى الانحطاط وظلها تقلص من البلاد الأجنبية وسيبقى أدبها تذكاراً أثرياً للمثقفين والمنقطعين لدراسة الآداب الميتة كاليونانية واللاتينية القديمتين ، ولاسيما أن كتابهم انقطعوا للقصة الغرامية وتحايل النساء وهذا شىء فرغ العالم منه وزهد فيه . نعم إن قانونها قوى والمؤلفات فيه قيمة ولكن أثره كالقانون الرومانى وما وقع لفرنسا الآن قد وقع للعرب والإسلام بعد انهيار دولهم .

وستبقى تلك اللغة والآداب لمصلحة الأساتذة الذين يتعيشون منها فى هذا الجيل، ومن محاسن بران أنه محب لمصر ويلبس الطربوش ولا يتخلى عنه .

نجيب اسكندر

طبيب عالم ومحلل قدير وصديق لمرضاه مخلص فى عمله مجد فى علمه ، ولد سنة ١٨٨٥ فى مدينة القاهرة وكان أبوه إسكندر مسيحة بك وكيل البطريركية القبطية الأرثوذكسية ، وهو شاب حسن الصورة شديد الوفاء محب لوطنه كان يعمل فى وظيفة كبيرة فى معامل الصحة ثم اشتغل بالحركة الوطنية من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٤٢، وانضم الى الوفد المصرى واجتمعنا معا فى عيادته للنظر فى كثير من أعمال الحركة الثورية التى كانت سرية واجتمع معنا كثير ممن صاروا بعد ذلك وزراء ورؤساء وزارات. ولكنه كان مستقيم الأخلاق لايعرف التفريط فى مبادئه وأخلاقه وقد عرض نفسه لأخطار كثيرة وتهم خطيرة فى سبيل وطنه ولم يربح شيئاً غير النيابة ، ولو أنه بقى فى منصبه بالحكومة لوصل الى منصب وكالة الوزارة على الأقل فقد وصل إليه من كانوا أقل منه بمراحل فى العلم ومن لم يبذلوا دانقاً ولا تعب ساعة فى خدمة وطنهم .

وقد وضحت لذهنه هذه المسألة فكان يصوغها فى القالب الآتى يقول « لقد رأيت الحركة المصرية وراقبتها عن كثب من عهد المرحوم مصطفى كامل الى الآن فرأيت أفضل الرجال وأخلصهم يُهضمون وتبلع حقوقهم وينساهم الشعب الذى خدموه وأن الكسالى والعاطلين والأنانيين هم الذين يجنون ثمرات هؤلاء المجاهدين ويستولون على المناصب والمنافع . ورأيت أن سبب ذلك راجع إلى حياء الفضلاء وأدبهم وعفتهم فى بلد وفى زمن لايفلح فيه إلا المنافقون والأوغاد والهجامون والمغامرون الذين يشبهون بنات آوى والذئاب والثعالب التى تتبع الأسد لتأكل فريسته . والفرق أن الأسود فى مصر لايمسّون الغنيمة ويتركونها للذئاب والثعالب وبنات آوى . وقد رأيت النجاح فى

وقد استبان الدكتور نجيب هذه الحقيقة أثناء حياة سعد وبعد وفاته ولكنه صبر الصبر الجميل الى سنة ١٩٣٢ . فوقعت قضية القنابل واتهم بتحريض العمال على صنع القنابل وإطلاق الرصاص واغتيال رجال حكومة إسماعيل صدقى باشا الذى وثب الى الحكم فى سنة ١٩٣١ وألغى الدستور واضطهد الوفديين .... إلخ ، وبقى الدكتور نجيب إسكندر عاما فى سجن الأجانب وقد قبض عليه فى سبتمبر سنة ١٩٣١ فى مصيفه بالإسكندرية وتاريخه فى هذه الفترة هو تاريخ تلك القضية ، وتطوع للدفاع عنه سبعة محامين أحدهم الأستاذ مكرم عبيد وحدث بينهما جدال ونزاع وخصام أدى الى انسحاب مكرم وخمسة من زملائه وكادت تتعطل الدعوى لولا أن الله سلّم وتسلّم زمامها غيرهم من المحامين الذين قاموا بالدفاع خير قيام حتى حكم ببراءة نجيب وتسعة معه بعد اعتراف إبراهيم الفلاح بتلفيق القضية .

ولما خرج نجيب من السجن في أغسطس سنة ١٩٣٢ أقيم له احتفال فى يوم النيروز ١٠ سبتبمر سنة ١٩٣٢ حضره البطريرك يؤنس وجميع أعيان الطائفة ، وألوف من المصريين وخطب فيه عشرات الخطباء والشعراء ، ولكن الوفد نبذه وقاطعه وأعرض عنه الرؤساء وتجاهلوا وجوده بعد تعذيبه عاماً . فانضم الى المنشقين مرغماً وهم الحزبُ المعروف بالسبعة ونصف إشارة الى أن ثامنهم على الشمسى باشا قصير فلا يعد إلا بنصف رجل . وكانت أعماله فى تلك الفترة مبْهمة لأن هؤلاء السبعة ونصف كانوا من أعجز الرجال وأجبنهم وأضعفهم وهم حمد الباسل وسلامة ميخائيل والشريعى والجزار وفخرى عبد النور وفتح الله بركات وعلى الشمسى . فلم يجتمعوا ولم يستقروا فى مكان ولم يخطبوا ولم يكتبوا ، ولم يذيعوا بياناً جبناً وخوراً وخوفاً من قوة الوفد ، وأخيراً اتخذوا نادياً يتيماً فى شارع فؤاد يختلفون اليه ويجتمعون فيه سراً ويطيلون الاجتماع ثم يخرجون صفر الأيدى كأنهم كانوا فى مأتم ويجيدون تمثيل الصمت .

مصر مقدراً بالمال الذى يخطفه الرجل ولا يسأل من أين يأتى به . ورأيت المناصب والنفوذ فى أيدى الرجال الذين لايستحقونه ، ورأيت الكفاءة مجهولة مهضومة وصاحبها محسود مبغوض . ورأيت الأشرار واقفين للأخيار بالمرصاد لمحاربتهم ومزاحمتهم وحرمانهعم بكل الوسائل من حقوقهم وحرمان الأمة من خدمتهم . ورأيت الأحزاب كلها من نوع واحد كأنهم قبيلة واحدة ، وأن الأفراد كلهم على وتيرة واحدة فى أخلاقهم وأعمالهم وسيرتهم كأنهم جمعية سرية ذات خطة واحدة غايتها سرقة الحكم والاستئثار بفوائده ومنافعه - فهم يختلفون اسما وهيأة وشكلا وصورة ولكن كلهم رجل واحد فى محاربة الحق والعدل وهضم الحقوق وإقصاء أهل الكفاءة والذمة وليس لديهم صداقة ولا إخلاص ولا شرف ولا مبدأ » .

« وقد أدهشنى هذا الأمر دهشة لم أفق منها حتى الساعة ، فقد كنت أحسن الظن بالجميع وأصدق مايزعمونه ويدعونه من الإخلاص للوطن والعمل على خدمته ولكننى فوجئت باليقظة فى عالم صغير ينهش بعضه بعضاً والجرم واقع على الزعماء والرؤساء الذين هم عبيد شهواتهم وعبيد سادتهم » .

ثم يضرب الأمثال بالأسماء والألقاب والوقائع . ويقول « لقد كان مصطفى كامل أصدق الوطنيين ولم يخلفه إلا فريد وسعد ، أما فريد فقد حيل بينه وبين خدمة وطنه ولم يكن يصلح لها لأن أخلاقه الشريفة وأصله الطيب ونبل مقاصده كانت تمنعه من المداهنة والمجاملة والمساومة التى هى ضرورات السياسة المصرية فى جميع أدوارها ، أما سعد فقد التفت حوله من الساعة الأولى جماعات لا أستطيع وصفها الحقيقى لأننى أحد أفرادها . وقد اندمجت فى زمرتهم أنا وأخى راغب مخدوعين ، وجاهدنا وفقدنا المال والمركز وكافحنا ونفينا وسجنا ثم أهانونا وأقصونا وطردونا واضطهدونا ثم استداروا يأكلون بعضهم بعضاً وينهشون بعضهم بعضاً ، وكلما خرجت فئة لعنت التى قبلها والتى أخرجتها وهكذا » .

ومن أخبارهم أن حمد الباسل كان يحسن الحديث فى البهو الكبير ويقلد اللهجة البدوية ويروى أشعاراً ونوادر ويذكر ماقرأ من الكتب وينطق أحياناً برطانة فرنسية ولكنه جم الأدب كريم الخلق وكأنَّ فى فمه ماء فيما يتعلق بالسياسة . فيصغون اليه كأن على رؤوسهم الطير ثم ينفض المجلس .

وكان فخرى عبد النور وهو قسيس فى زى الأعيان يفتخر بأن له أقوى ذاكرة فى العالم فيما يتعلق بحوادث الوفد وأشخاصه وأيامه فيسردها سرداً منظماً، وعندى أن الرجل كان يقتنى الصحف وكان يسجل الحوادث أولا بأول وأنه كان يديم مذاكرتها ومراجعتها فلا تفوته فائتة ، وكان يعتبر حياته ومصلحته مستمدتين من الوفد وتاريخ الوفد وأخبار الوفد ، ومازال هكذا يمالىء السبعة ونصف الى أن صالح الوفد وعاد الى أحضانه مغفور الذنب . وكان سلامة ميخائيل صنماً صامتاً يعوج الطربوش ويقلب السبحة ويتهيج فيتكلم فى نوبة عصبية ثم ينسحب . أما الشريعى والجزار مع فضلهما فقد كانا كالممثلين الذين لاينطقون بحرف « كومبارس » وقد اصطلح أحدهما وهو الجزار وتوفى الشريعى فلم يشيع الوفد جنازته ولم يوفد رجلاً واحداً لمرافقته الي مقره الأخير انتقاماً . كل هذا جرى سنة ١٩٣٣ .

وقد خانهم الدهر بوفاة المرحوم فتح الله باشا عقيب عملية جراحية ، ولو أنه عاش لانتعشوا فما قيمة قوم ينهضهم رجل ويقعدهم رجل . فكان موته « دقة حظ حسن » لخصومهم وقد حل محله نجله الأديب بهى الدين ولكنه لم يملأ فراغه .

وكان يحوم حول هؤلاء السبعة كثير من الناقمين أمثال الغرابلى باشا « لعله أحدهم » وعبد الرحمن عزام وعبد القادر مختار وموريس أرقش ولفيف المحامين الذين لم يتبعوا إشارة مكرم فى الانسحاب من قضية القنابل ومدَّ إليهم محمد محمود باشا يده مصافحاً وخاطباً ودهم وخطب يعضدهم مرة فى بيت حمد الباسل ودعاهم حمد يوماً للإفطار فى رمضان وأقاموا بعض الحفلات لضيوف مصر من العراقيين وغيرهم

تركوا خصومهم ينهشون لحومهم مع أنهم كانوا فى عهد الوزارة الصدقية المعادية للوفد ، ولكن هذا الوفاء الصامت وهذا الجميل الناطق بالإخلاص حتى خافوا على الوفد شماتة الأعداء ، ولم يجد نفعاً . واندس فى هذا المجتمع كثير من المنافقين والجواسيس واتخذ أصحابنا غرفة للاجتماع السرى كأنهم مجلس الكرادلة عند انتخاب البابا . ولكنهم لم يفعلوا شيئا ولم يأتوا بثمرة ناضجة وتفككوا بالتدريج ، فالشمسى هاجر الى سويسرا أو عاد الى مناصب المال والسياسة والتمثيل فى عصبة الأمم ، وسلامة ميخائيل هوى من أفق شهرته وتخلى عنه غالى ميخائيل الذى جلبه من قريته يافعاً وقدمَّه نائباً ورشحه لانتخابات النقابة وأغدق عليه، وكان آخر العهد به سنة ١٩٣٨ بعد خروج ماهر والنقراشى ، فقد سافر الى إحدى القرى ليرشح نفسه فأهين واعتدى عليه وألقوا بطربوشه فى الترعة وحطموا سيارته فحزن فمرض فمات .

وهكذا برهن أعضاء الوفد على أنهم لايصلحون للعمل منفردين ولم يطل العهد بهؤلاء السبعة ونصف فإنهم اضمحلوا وتخاذلوا الى سنة ١٩٣٤ فتغيرت الوزارة وحل توفيق نسيم محل إسماعيل صدقى ..... إلخ .

وتمكن نجيب إسكندر من دخول البرلمان فى سنة ١٩٣٨ وكنت أظن أنه لايعود بعد قضية القنابل الى هذه المهازل ولكنه عاد تحت راية أحمد ماهر ولم تكن حاله فى هذا العهد بأسعد منها فى العهود السالفة وقد فشل أخوه الأستاذ راغب إسكندر بك فى الانتخابات فى نفس بلده وفشل سلامة ميخائيل فشلاً ذريعاً واختاروا الدكتور حامد محمود لوزارة الصحة وكان المأمول أن يقع الاختيار على نجيب بك فإن كان قياس الوطنية قضاء مدة فى السجون فقد سجن نجيب عاماً ولم يخرج من التهمة المحكمة إلا بشق الأنفس . ومازال فى البرلمان خافت الصوت شديد الحياء عاجزاً عن المطالبة بحقه وإخوانه قد جعلوا « ودن من طين وودن من عجين » ولايقدمون إلا الذين يخافون جانبهم أو يقيمون لهم الولائم الرداح أو يساهرونهم ويسامرونهم حتى مطلع الصباح .

ولكن الدكتور نجيب إسكندر لم يشك ولم يتململ ولم يغضب ولم يظهر ضجراً ولا غضباً ، ولكننى رأيت هضم الحقوق والاستئثار يربّى الحزازات ويغير النفوس ويحوّل القلوب عن المقاصد العليا الى النظر فيما أيدى الناس ، فبئس الحيلة والقوة عند الاستيلاء على القوة والنفوذ ثم التربع فى دست السلطة ، وغض الطرف عن كل من خدموا وضحوا وبذلوا .

نعم إن الوطنى الصادق لايطلب أجراً على عمله وإخلاصه لأن العمل والإخلاص لايقدران بمال ولامنصب ، ولكن الوصوليين يستحلون الأجور لأنفسهم ويحرمونها على إخوانهم وأعوانهم الذين تسلقوا على أكتافهم ، وقد روى له أحد هؤلاء الذين سُخّروا للوصوليين أن هؤلاء الوصوليين كانوا أثناء جهاده يقبّلونه ويحتضنونه ويقبلون عليه فى محبة ظاهرة وعطف مصطنع ، فلما أن مسكوا أطراف حبال السلطة تنمروا له وصاروا يغضون أطرافهم ويتجاهلونه كأنهم لم يسْمروا معه ولم يأنسوا به ولم يرحبوا به بالأمس ، وهذه صناعة خبيثة منهم ليردوا أهل الحياء والإباء أو يرهبوا أصحاب الجرأة ، حتى إذا هاجمهم أحد « وهذا نادر » أظهروا له « الشلق » وشنعوا عليه وقالوا له « خلاص أنت خدمت وطنك باختيارك ولم يرغمك أحد على ذلك ونحن ليس عندنا خزائن الأرض ومناصب الحكومة ليست ملكا ، بينما يقربون السفلة والقوادين وسياس الخيل وسماسرة السوء ، وأصحاب التهم وأرباب السوابق وأهل الشهرة الرديئة والأسماء الخبيثة وجعلوهم رؤساء وكبراء وبذلوا لهم ما استطاعوا من المنافع ، فيرى الرجل الطيب هذا المسلك فلا يحتاج الى العتاب ، خوفاً من تفشى العدوات وينسلخ عنهم بالتدريج بعد أن يكون قد رأى بعينه وسمع بأذنه وتأكد بعقله أنهم لايختلفون عن أسلافهم وهم يعتمدون فى خطتهم على أنهم إن فقدوا زيداً أو عبيداً سوف تنبت طبقة أخرى من المخلصين والجاهلين وقليلى التجربة يلقون بأنفسهم فى أفرانهم ليكونن حطباً لنارهم ومطايا لأغراضهم .

وخلة أخرى خبيثة عندهم وهى أنهم كلما صعدوا كلما نعمت أخلاقهم وتهاونوا فيما كانوا يتشددون فيه وزادوا استهتاراً واستصغاراً للشئون العامة ، وكان المنطق أن يضاعفوا جهودهم فى خدمة أوطانهم .

ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن كل هؤلاء الناس ماعدا مصطفى كامل ومحمد فريد وأفراداً معدودين من كل الأحزاب ، لا غاية لهم إلا الوصول الى الرتب والمرتبات ولاسيما الذين سبقت لهم قبل اشتغالهم بالسياسة وظائف فى الحكومة ، فكم يكون طرب أحدهم عظيماً عندما يصبح وزيراً ورئيساً لرؤسائه السابقين ، وغير هذا من أنواع الصغار النفسى والضعة الخلقية .

وقد لقيت واحداً من مرشحى أنفسهم للمناصب انضم الى فئة غدرت به ، فكان الرجل يكاد ينفجر من الغيظ ويعجز عن الإفضاء بما فى صدره من الغل والحقد والتعبير عما لحقه من الإهانة وعدم الاكتراث على مدى أربع سنوات قضاها فى كنف هيأة أصدقائه الذين طلق لأجلهم أصدقاءه الأقدمين . وأكثر من ذلك أنه كان منذ ثلاثين سنة بشّرته منجمة بأن يكون وزير خارجية فى وطنه ، وقد بذل جهوداً جبارة فى هذا السبيل ليحقق كهانة المنجم دون جدوى وقد شارفت حياته على الفناء دون أن يحققها وفُلتت الفرصة فعلاً من يده ، ودع جانباً كفاية الرجل وأخلاقه وجدارته فإنه كان يستحق المواساة والتشجيع بالرجاء على الأقل ولكن أصحابه جعلوا « ودن من طين وودن من عجين » وعموا وصموا عنه كما عمو وصموا عن سواه .

فأين يذهب نجيب إسكندر فى وسط هذه المعمعة الحمقاء . وأين تذهب « عيشه فى سوق الغزل » . فهذه معركة حامية ومجزرة دامية وسلب ونهب وأحقاد وأضغان ، وهناك لصوص وقطاع طريق فى ثياب عظماء وذئاب فى جلود حملان .

وماتزال الحال هكذا فى مصر الى أن تمر أجيال وأجيال فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى التوأمان ... !!

نيقولا بالاماريس

شاب مهندس يونانى الجنس والأصل ولد فى المنصورة من أسرة حسنة وتعلم الهندسة فى كلية الملك بلندن ، وقد عرفته فى سنة ١٩٠٩ فى البيت الذى نزلنا فيه أيام كنا ندعو للمؤتمر الوطنى المصرى الذى عقد فى مدينة جنيف سنة ١٩٠٩ . وعلى الرغم من جنسه ودينه وإقامته فى انجلترا يتلقى العلم فى كلياتها ويرجو أن يدخل خدمه الحكومة المصرية بمعونتهم ، فقد بذل لنا معونة كريمة وتكبد مشقات فى أعمالنا الكتابية وقضى أياما وليالى طويلة فى إدلالنا على مانطلب وصحبنا الى مجلس النواب وكان فى أوقات الفراغ يدعونا الى النزهة والحفلات الاجتماعية وينفق من حر ماله بينما كان عدد كبير من الطلاب المصريين يتحاشى القرب منا أو الاتصال بنا خوفاً على مستقبله منهم ح. باشا . ش . وتوفيق دياب . وقد كان لهذين وغيرهما بعد ذلك شأن فى الحياة السياسية فى مصر وبذلوا وضحوا ، فدلنى ذلك على أنهم مذ كانوا فى انجلترا على الرغم من شبابهم وذكائهم كانوا لم يبلغوا حلمهم السياسى ولم يصلوا الى الرشد الذى يوحى اليهم خدمة أوطانهم فى أى زمن ، فلما نضجوا وبلغوا الرشد بعد ذلك بعشر سنوات لم يتأخروا عن العمل ولكنهم تجاهلوا المؤسسين الأول والذين زرعوا الزرع الأول وهزّوا الأقلام وأعواد المنابر ، فوجب علىّ أن أسجل هذه المكرمة لهذا اليونانى الفاضل وأعتبره من ورثة الحضارة اليونانية القديمة .

وبعد عودته الى مصر ببضع سنين لم يقطع مودتى وشرفنى بزيارته وصداقته ثم اشتغل فى أعمال الخزانات ومقاولات السودان ومصر ، ولم يقف شىء مما قدمه لمصر فى سالف وقته عقبة فى طريقه بل حببه الى الناس وأعانه حتى تزوج وأثرى وزرت أهله فى المنصورة أثناء غيبته كما وعدته فقوبلت بالترحاب وقالت لى والدته وهى شيخة متقدمة فى السن لقد أحسنت إلىّ فكأننى رأيت ولدى .

ويلفريد سكوين بلنت

أحد زعماء الفكر والأدب والسياسة فى القرن التاسع عشر والعشرين فى انجلترا ، وكان صديق مصر المخلص الوفى وحبيب الإسلام والشرق ونصير كل مظلوم في أنحاء العالم طوال حياته .

وقد ترجمت له مرات متعددة ولاسيما فى جريدة الأفكار فى شهر اغسطس سنة ١٩٢٢ عندما توفى إلى رحمة الله فى الثمانين من عمره .

وليس هذا الرجل العظيم قليل الشهرة فى العالم ولكن بعض أهل السوء فى مصر من الجواسيس والمأجورين زعموا كذبا ومينا أنه كانت له يد فى احتلال القطر المصرى وتحريض عرابى وإخوانه على الفتنة ليجعلوا للإنجليز وسيلة للتدخل الحربى وغزو البلاد وحكمها . وهذه أكذوبة ضخمة وتهمة ملفقه ونبأ باطل أتى به أكثر من فاسق ليفسد بين هذا الرجل وأصدقائه من الشرقيين والمصريين .

وليس يوجد دليل على إخلاص الرجل وصدقه وغضبه على حكومته وشعبه من بقاء المرحومين السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل والخديو عباس حلمى وأحمد المنشاوى باشا على صداقته ومحبته وتقديره ، وليس بين هؤلاء أبله ولا مخدوع ولا رجل سهل القياد ويخدع بالظواهر .

وقد زرته وعاشرته فى سنة ١٩٠٩ فى قصره المنيف المدعو بالمبانى الحديثة New buildings place بجنوب انجلترا الشرقى Sussex عن طريق هورشام .

وتحدثت اليه وكان يمد يد المعونة الى مصطفى كامل طوال مدة جهاده ثم الى المرحوم محمد فريد بك وقد نشر كتبا كثيرة أولها سر الإحتلال ثم غوردون فى

السودان والهند فى عهد رييون ومذكراته فى مجلدين و مذكراته عن فترة الحرب العظمى ، وكل هذه الكتب المطبوعة المنشورة تدل على إخلاصه للشرق والإسلام ومصر فخير ما أقوله فى الدفاع عنه لمن يجهلون شأنه أن يقرأوا بضع صفحات من أى كتاب مطبوع من كتبه ومن لايعرف الإنجليزية فليكلف من يعرفها بالنقل اليه بالعربية .

وكان الرجل خصم غلادستون وكرومر وجراى ولورد مورلى الألد ولم يكن بينهم وبينه مايقتضى الخصومة وهو من أعيان بلاده وأكبر أغنيائهم وقاضى مديريته ، وأكبر ملاكها إلا ماكان ينازعهم عليه من المظالم فى الشرق وقد سجن مرة بسبب مناصرته لأيرلاندا ورحل فى الهند وسافر الى اصطامبول ولقى السلطان عبد الحميد وساح فى جزيرة العرب .

وكانت هوايته اقتناء الخيل العربية الأصيلة واشتهر مقره فى العالم أجمع بأجود الجياد وأثمنها ، ونزح الى واحة السيوة ليعتنق الإسلام ونقلت زوجته لادى بلنت المعلقات الى الإنجليزية وكانت حفيدة لورد بيرون الشاعر الإنجليزى الشهير .

وكان الرجل كاثوليكى المذهب حكما وشهرة ، ولكنه فى الواقع كان يعيش على قواعد الإسلام حتى إنه أوصى قبل موته أن يغسل ويكفن ويدفن على طريقة الإسلام . فلم يلبس ثياباً ولم يوضع فى صندوق ولم يباشر أحد القساوسه توصيته أو الغفران له أو يتمم واجباته الدينيه كما يصنع أهل الكثلكة .

وكانت له ضيعة أخرى ابتنى فيها قصراً آخر ولعله مووث وهو قصر crabbets وكان مقر الوزراء والأمراء والأعيان ومحفل الأرستوقراطية من أنحاء العالم وقد زاره المرحوم الأفغانى فى هذا القصر وزاره مصطفى كامل وفريد وعشرات من الوطنيين وكاتب هذه الأسطر فى قصره الجديد وقابلنا بثيابه العربية « الكوفية والعقال والعباءة» وحيانا باللغة العربية وعرض علينا فى وضح النهار بعض خيوله الشهيرة الأصيلة . وإن لم تكن من أهل المعرفة بها ولا هواتها .

وكان رجلا طويل القامة نحيف البدن « وقد رأيناه قبل وفاته بثلاثة عشر عاما » رقيق الصوت ناعم القول ، شديد التحمس للحق يعيش عيشة الزهد والعزلة ، لأن زوجته كانت تساكن كريمته فى قصر كرابيت ، وقد ذكره لورد كرومر فى كتبه ورد عليه فى عنف وعنجهية بعض المسائل وأراد أن يشكك القراء فى صدق روايته ، ولكن الواقفين على حقيقه الأمور يعلمون الصادقين من الكاذبين ومن له مصلحة فى الحق ومن له مثلها فى الباطل . وليس هنا مجال الإسهاب فى هذا الباب وليس هذا مجاله.

وقد مضى الآن ثلاث وعشرين سنة على اجتماعنا به ولاننسى وجهه الأصبح وجبينه العريض العلى وأنفه الأقنى وعينيه الهادئتين الخارقتين ولحيته الكثة البيضاء وقامته المعتدلة الرقيقه ويده الناعمة اللينة وصوته الرقيق العذب عندما قال لنا « أهلا وسهلاً ومرحباً لقد شرفتم داركم فتفضلا » ، وكان معى رفيق فى هذه الزيارة « حامد العلايلى صحبة اضطرار فإنه قضى خمس سنوات قبل ذلك فى انجلترا ولم يخطر بباله أن يتعرف الى هذا الرجل العظيم » .

وكان أهم حديثه توجيه النصح إلينا وإظهارنا على خفايا السياسة الاستعمارية قال عن عرابى « لاترفعوا له تمثالاً ولا تضعوه فى التراب » فإنه لم يكن زعيما قويا ولا قائداً قديراً بل كان فلاحاً راقياً وكان ذا أحلام جميلة ومقاصد طيبة . وأثنى أجمل الثناء على المرحومين محمد عبده ومصطفى كامل ، ورفعهما الى درجة المصلحين العالميين والأبطال .

وأنفق بلنت أموالا طائلة فى سبيل خدمة الشرق والإسلام ونشر جريدة للدفاع فيها عن مصالحنا واستمرت بضع سنوات وقد عدّه المؤرخون الإنجليز بين المستشرقين والرحالين فى بلاد العرب والشرق ، واستشهد كثير من كتابهم وغيرهم بأقواله وآرائه. وأذكر الآن أننى كتبت عليه فى البلاغ اليومى والبلاغ الأسبوعى ونشرت صورته التى تفضل بأهدائها إلىّ فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ قبيل انعقاد مؤتمر جنيف بأيام معدودة .

كان اسم بلنت(*) يذكر دائماً مقرونا باسم موسيو ديلونكل النائب الفرنسى الشهير ، وكان بعض الحاقدين على الوطنية المصرية يطلقون على بلنت اسم « محرر مصر نمرة ١ » وعلى ديلونكل « محرر مصر نمرة ٢ » ، وذلك من قبيل السخرية والتهكم ، لأن اسم بلنت اقترن بالحركة العرابية ، بالدفاع عن عرابى فى قضيته الشهيرة ، كما اقترن اسم ديلونكل بمصر فى مجلس نواب فرنسا وصحافتها التى كانت إلى ماقبل ١٩٠٤ « تاريخ المعاهدة الانجليزية الفرنسية » تعطف على مصر وتشاركها فى مواقفها الدولية ، وتمد يد المعونة الى بعض الوطنيين المصريين الذين رفعوا أصواتهم بالدفاع عن مصر فى أوربا فى أواخر القرن الماضى .

وبعد أن انتهى الدور الأول ، دور التهكم والسخرية من بلنت لأنه ظهر بمظهر المدافع عن الاستقلال المصرى ، وبذل فى سبيل ذلك المال والوقت والذكاء ، جاء الدور الثانى دور النميمة والوشاية والاتهام الكاذب ، فادعى لفيف من الكتاب السوريين المقيمين فى مصر ، أن بلنت لم يكن مخلصاً للوطنية المصرية ، وإنما كان جاسوساً للإنجليز ، وكان وكيلا مهيجاً Agent provocateur وأنه هو الذى أشعل نيران الثورة العرابية ليمهد السبيل لدخول الإنجليز مصر ، وغاية أرباب هذه الشائعة الذميمة أن يبغضوه إلينا وأن يجعلوه ممقوتاً فى نظر المصريين الوطنيين ليحرموه عطف أصدقائه فى هذه البلاد كما حرم العطف فى وطنه من كبار قومه !

(*) ابتداءً من هذه الفقرة نثبت هنا مقالاً للطفى جمعه نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٨ يناير سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « ويلفريد سكوين بلنت صديق مصر والعرب والاسلام بمناسبة مضى ثمانين عاماً على ميلاده » .

واستمر هذا الدور ، طول المدة التى قضاها المنفيون العرابيون خارج هذه البلاد، ولما عاد بعضهم أمثال المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم محمود سامى البارودى ونشر بلنت مذاكراته و« تاريخ الاحتلال البريطانى فى مصر » للمرة الثانية «مايو سنة ١٩١٧» ، وهو الكتاب الذى نقلته إدارة البلاغ للغة العربية ، ومهد له الأستاذ عبد القادر حمزة بمقدمة بليغة ، بدأ الجيل الحاضر يعيد النظر فى كل ماعلم وسمع عن بلنت ، وأخيراً ظهر الحق واستقر قرار الكتاب والمؤرخين فى جيلين متعاقبين من الأفرنج أمثال دكتور كوشرى فى كتابه « المركز الدولى لمصر والسودان » والمصريين ، « أمثال المرحومين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك» ، أن بلنت لم يكن مهيجاً ، ولا مستعمراً ولا مستفيداً ، إنما كان شريفاً إنجليزياً مخلصا للإنسانية والعروبة والإسلام والوطنية المصرية ، كما كان مخلصاً للشعر والأدب والفلسفة وللوطنيتين الهندية والأيرلندية ، وقد أثبت ذلك بما قاساه فى هذا السبيل من سجن وتنكيل واضطهاد من أقرب الناس إليه ومن مليكه ادوارد السابع ومن فصيلة الأشراف والأعيان الذين كانوا يخالفونه فى مشربه ، وقد استمر على مبادئه الإنسانية السامية الى أن توفى رحمه الله فى صيف سنة ١٩٢٢ بعد أن رأى انتصار مصطفى كمال علي جنود اليونان فى سهول الأناضول ، وكان لدى موته فى الثانية والسبعين من عمره ، وقد أوصى بأن يغسل ويكفن ويدفن على شبه الطريقة الإسلامية ، وطلب الى ممرضيه بأن لايلبسوه ثياباً ، وأن لايضعوه فى صندوق ، بل ألحدوه فى قبر فرش بالرمل ، على سجادة شرقية ثمينة . وقد نفذت ممرضته التى حضرت وفاته وصيته بمنتهى الدقة .

كان عصر اليوم الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩٠٩ عند ما رأيت المرحوم بلنت للمرة الأولى فى قصره العتيق الفخم واسمه « مقر المبانى الجديدة »New building place بجوار هورشام بسسكس بجنوب انجلترا الشرقى ، فقد وصلت مع

رفيقى فى السفر فى الساعه الخامسة ، بناء على دعوة من رب الدار ، فسافرنا من لندن « محطة كلابهام جنكشن » الى هورشام حيث غيرنا القطار ، وركبنا مركبة يجرها جياد الخيول العربية لمسافة ساعة تقريباً فى وسط الحقول والأحراش النضرة.

ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم Butler وأبلغنا تحية السيد. واعتذر لنا بأنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنا ، فصعدنا الى غرفنا ، وأخبرنا أن العشاء يكون بثياب التدخين « سموكنج » .

وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار الرحبة رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة ، يلبس الثياب العربية من عباءة وكوفية وعقال وقفطان ، لى رقة العود أقرب منها الى ضخامة الهراوة ، [illegible] جمين رقيق كأنه صوت فتى فى مقتبل العمر ، وقال لنا [illegible] يلبس الثياب العربية فى منزله ، ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء ، وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديهته ووافر أدبه وحلو حديثه ، وكان يتكلم أثناء الطعام عن مشاهير من عرفهم من المصريين كلاما وجيزاً يدل على شديد حبه لمصر وأهلها .

وبعد العشاء انتقلنا الى قاعة الجلوس ، وهى قاعة فسيحة جداً وعالية جداً يكاد ارتفاع سقفها يكون سبعة أمتار « عشرين أو واحداً وعشرين قدماً » ، وقد زينت بأثاث قديم ، يدل على عراقة أصحاب القصر فى النبل والثروة ، ولها مدفأ من المرمر الملون ضخم جداً ، نقلوا اليه شجيرات بأسرها للإحراق ، فكان منظر تلك الشجيرات وهى تحترق وذلك الشيخ الجليل العربى الثوب والمنطق وهو يتكلم فى ضوء تلك النار ، وذكرياته القديمة الجليّة الواضحة ، الجليلة بصدقها ودقتها ، يجعلنا نتخيل أننا فى إحدى خيام أمراء العرب الكرام ، الذين مثلوا فى تاريخ الانسانية دوراً عظيماً ، وقد

عادوا الى بيوتهم ليقضوا الأيام الأخيرة من حياتهم بعد طول الجهاد فى هدوء وسلام، ويروون على أخصائهم مايذكرون من أيام الشباب والكهولة الناضجة .

لقد دام هذا المجلس خمس ساعات من الساعة الثامنة الى الساعة الأولى صباحا ، ولا أذكر أننى قضيت أمتع منها ، ولا أنفع ولا أكثر لذة ، وقد كان شوقى الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم الذى كان قطعة حية من تاريخ مصر العزيزة ، وصدقه فى روايته ، وتحمسه مع شيخوخته لكل مافيه نفع لمصر من أكبر العوامل على جعل ذلك المجلس من ألذ المجالس وأمتعها وأنفعها .

كان الحديث عبارة عن أسئلة وأجوبتها ، أسئلة منا وأسئلة منه ، كل يريد أن يقف على الحقيقة من صاحبيه فى مسائل تحيّره وتهمه . سألناه عن رأيه فى عرابى «وكان لايزال على قيد الحياة ، وقد قضى بعد ذلك بثلاث سنين » ، فقال : « لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل ، وآخر اتصالى به كان بشأن مراجعة ترجمته التى كتبها بيده ، ونقلتها الى كتاب « التاريخ السرى » وقد أرسل الىّ بعد ذلك برسائل ، لم أتمكن من الرد عليها ، لقد كان عرابى صادقاً ومخلصاً فى وطنيته حقاً ، ولكنه كان كثير الكلام قليل العمل ، وكان ذا استعداد خطابى عظيم ، ولكنه كان ضعيفاً فى السياسة والحرب He was a mediocre captain ويظهر أن لتعليمه الدينى دخلاً فى تكوين حالته هذه ، لقد كنا نود جميعاً أن يموت فى ساحة الوغى ، لأن فراره وطاعته لخادمه « ذلك الخادم دخل فى خدمة بلنت بصفة بستانى فى ضيعته بالشيخ عبيد بالقرب من المطرية ، وبقى بها الى أن مات منذ بضع سنين ، وهو فى خدمة شركة مصر الجديدة بصفة رئيس البستانيين » . قد أساءت سمعته فى نظر الأجانب والمصريين معاً ، ولم يكن عرابى مطلقاً خائناً ، ولا مرتشياً ، ولا بائعاً وطنه ، ولكنه كان شديد التردد وشديد الخوف من أوربا .

سألناه : ماذا يجب على المصريين نحو هذا الرجل ؟

أجاب : لايجوز لهم أن يحقروه أو يمقتوه ، ولا يليق بهم أن ينصبوا له تمثالا ! بل يكفى أن يقفوا على تاريخه ويعذروه ، ومعاملته بالاحترام والتسامح أولى وأجدر .

سألناه : هل كان دخول الإنجليز مبنياً على غلطة من عرابى ، أم أنه كان أمراً محتماً من حيث الحرب والسياسة ومنطق الحوادث .

أجاب : الخطأ الوحيد الذى أدى الى دخول الجيوش البريطانية ، اقترفه عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل التلّ الكبير بأيام ، وهو الذى حضره أركان حربه ، وعبد الله النديم ، وجان نينيه المؤرخ السويسرى المحب للمصريين ، فقد أجمع رأى هذا المجلس على تعطيل قناة السويس تعطيلاً مادياً يمنع الجيش الإنجليزى من الوصول الى الشاطىء الغربى لها ، فأرسل عرابى تلغرافاً الى ديلسبس يخبره بأن الإنجليز يخرقون حياد القناة ، وأنه مضطر لتعطيلها ، مادامت دخلت فى ميدان الحرب ، فرد عليه فردنان ديلسبس بتلغرافه الشهير « لاتلمس قناتى (!!؟؟) بسوء ، وأنا الكفيل لك بإنزال عسكريين فرنسويين مع كل عسكرى إنجليزى » .. فتمسك عرابى بهذا التلغراف وقال له أعضاء المجلس « إن ديلسبس هذا مجنون وكاذب ، وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطّان فرنسيان فضلا عن الجنود وأنه لانفوذ له فى بلده ، وأن أعمال الهندسة شىء والحرب والسياسة شىء آخر .. فلم يعمل عرابى بنصحهم ، وقال « أنا خائف من أوربا !! » وفى الليلة التالية دخل الجيش بدَسيسة بعض الضباط ، وبعض الباشوات المصريين « وهنا ذكرهم لى واحداً واحداً ، وكان أحدهم رئيسا لمجلس النواب ، وصار فيما بعد من أكبر الأغنياء ... » .

سألناه عن المرحوم مصطفى كامل ، وكان قد توفى منذ عام لنقف على رأيه فيه لأننا كنا نعلم مابينهما من الصداقة والمعونة فى خدمة مصر فقال : « لقد كان هذا

الشاب عجيبا Miraculous وكانت له حدة ذكاء ونشاط لم أرَ مثلهما عند كبار الرجال الأوربيين . فقد كان عندى هنا فى سنة ١٩٠٦ « عام دنشواى » وكانت صحته ضعيفة ولكنه بعد الغداء ، استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوب لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كأحد أبنائها « كان المرحوم بلنت نفسه يتقن اللغة الفرنسية حديثاً وكتابة ، وقد أنشأ بها ، وبالقلم الرصاص الخطاب الشهير الذى تلى فى مؤتمر بروكسيل فى ١٤ سبتمبر ١٩١٠ ونقلته جميع صحف العالم » وقد أسفت كثيراً لموته قبل الآوان لأنه كان يرجى على يديه لمصر خير كبير .

وتكلم عن علاقته بسمو الخديوى السابق فقال إن علاقتى به قد انقطعت منذ بضع سنين ، فقد عرض علىّ أن يزور مربط خيلى Stud فى الصيف وفى يوم الأحد ، فدعوت لفيفاً من أكبر أهل أنجلترا ، وأشرافها وساستها وأنفقت مبالغ طائلة لاستقباله، وقامت ابنتى علي ترتيب الاحتفال ، واستأجرت قطاراً خاصاً ، لأن مصلحة السكة الحديدية تمنع الأسفار على خطوط الضواحى أيام الأحد ، وفى اللحظة الأخيرة ، أرسل الىّ بتلغراف يعتذر فيه عن الحضور ... فكان مركزى حرجاً جداً أمام أضيافى الذين حضروا للاجتماع بسموه ، وقد علمت بعد ذلك ، أنه أطاع فى هذا الخلف أمر جلالة ملك الانجليز ادوار السابع الذى نهاه عن زيارتى لأسباب سياسية . فلما علمت بهذا العذر ، أرسلت لسموه الذى كان لى قبل ذلك صديقاً حميماً أقول «إن كان يطيع أمر جلالة ملك الانجليز ، وهو ليس من رعاياه فأنا بطاعة جلالته أولى مرات، لأننى حقاً من رعايا جلالة ملك بريطانيا » وقد حاول سمو الخديوى تجديد المودة بعد ذلك فلم تمكنه من ذلك الظروف ..

وتكلم عن فريد بك الذى كان على قيد الحياة فقال : إننى معجب به بوصف كونه رجلا مهذباً من أسرة شريفة Gentleman ولكنه سيء الحظ لأنه خلف زعيماً عظيماً بنفسه ، ولم تكن لديه مواهبه ، إن فريد بك رجل طيب فحسب ، وهو صادق أيضا .

وسألناه عن رأيه في بلاد العرب : فقال إنه ينتظر للجزيرة مستقبلاً عظيماً ، ولابد أن يتحد العرب لتأسيس دولة حرة مستقلة ، وأن أخلاق العرب أعظم أخلاق فى العالم ، ولهذا فهو لايخشى عليها ضياعاً ولا استعمارا ٠٠

ثم سألنا هو عن بنيامين موزلى وظهر لنا أنه لغاية ١٩٠٩ لم يكن يعرفه ولم يره، ولم يعلم بالدور الذى مثله موزلى فى السياسة المصرية بمعونة الخديوى وبعض رجال سياسة انجلترا ، فأفدناه مانعلمه عن الرجل وحبه مصر ورغبته فى اتفاقها مع انجلترا على قدم المساواة ، وحبه لسمو الخديو حباً شخصياً وبغضه للورد كرومر وحقده عليه ، فكتب ذلك فى مذكراته وقد مات موزلى هذا فى سنة ١٩١٧ فى مدينة نيس بجنوب فرنسا ٠

ثم توسط بلنت بيننا وبين مستر روتستين ليسافر مندوباً عن بعض الصحف الإنجليزية ليصف المؤتمر ويكتب عنه مايجب أن يكتب خدمة لمصر ، لوقوفه على المسألة المصرية وقوف خبير صديق ٠ ودفع الدين الذى كان فى عنق صحف الحزب الوطنى لروتستين ، مذ كان مكاتبا لها فى لندن ٠ وأخبرنا أن روتستين يعد كتاباً عظيما عن مصر ، وقد نشره فعلا ، واسمه خراب مصر Egypt's Ruin ودفع بلنت سائر نفقات طبعه ، وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ، واستأذنا فى نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته وكان يطيب لنا أن نبقى معه أياماً متتالية ، ولم تغمض لنا عين بعد فراقه ، وكانت الغرفة التى نمنا بها حافلة بمؤلفات نيرون حميه فقرأنا فيها حتى الصباح ٠

وفى الصباح أفطرنا معه ، وزرنا بقيادته مربط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه ووصفه العربى كقوله « هذا محجل اليمين » وهذا « الأغر » وهكذا وبينها خيول بيعت بألوف الجنيهات فى أمريكا ٠

وزودنا بصورته بإهدائه بخطه ، وهى تحمل تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ ، وقد علمنا منه عرضاً أنه يعيش منفصلا عن زوجته « لادى آن بلنت حفيدة لورد بيرون » وأن ابنه البكر مات فى السابعة عشرة من عمره وأن ليس له سوى بنت واحدة ، وقد حدثت بينهما قضايا مدنية بشأن ميراث الزوجة بعد وفاتها فى سنة ١٩١٧ وقد تركت ثروة طائلة ، وهى التى كانت وهبت أرضاً للشيخ محمد عبده بنى بيته بعين شمس على جزء منها ، وباع جزءاً منها ، وكانت لها ترجمة جيدة للمعلقات السبع بالإنجليزية معتمدة فى جامعة اكسفورد وكانت سيدة قصيرة القامة ، بالغة منتهى الكبر ، كثيرة التجاعيد فى الوجه والجبين ، وعاشت فى مصر وصحبت بلنت فى أسفاره وأتقنت العربية .

وقد أصيب بلنت في حياته بدائين من الأدواء العضالة ، الأول حمى الملاريا التى عانى منها أهوالا شداداً وصفها فى مذكراته الأخيرة (١٩٢٠) ومرض الشلل النصفى فلم يقعده عن العمل والتأليف الى ماقبل وفاته بعامين ، ولم يزر مصر بعد سنة ١٩٠٣ رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما أحسن الى مصر وأهلها بقلمه وقلبه وماله .

يعقـوب صنوع « ابو نظارة »

كان يسمى نفسه شاعر الملك ويقيم فى باريس بشارع ريشيه نمرة ٤٣ ويحمل خمسة عشر وساماً فرنسوية وأجنبية ومترجم شرف وزارتى البريد والبرق بباريس ورئيس جمعيات علمية وأدبية كثيرة ويدير جريدتى « أبو نظارة ، والعالم الاسلامى » ، ويراسل جرائد الشرق . هذه الألقاب كلها كان يسجلها مطبوعة فى بطاقته .

أول اتصالى به فى مصر سنة ١٩٠١ عن طريق أعداد من جريدته أبو نظارة التى كان يحررها ويصدرها علانية ثم سراً في عهد الخديو محمد توفيق باشا ، أيام الثورة العرابية ، وكان متصلا بالثوار وينطق بلسانهم ويطعن فى أحزاب التأخر والرجعيين وحزب القصر الخديو والاحتلال ، وهو الإسرائيلى الأوحد الذى اشتغل بالسياسة المصرية وكان فى صف الوطنيين وقد أنحى على الخديو توفيق باشا باللائمة وقال له النقد المرير والسب المقذع ، وكان يرسل اليه جريدته بطرق خفية حتى بعد مصادرتها ومنعها ، فكان الخديو محمد توفيق باشا يفاجأ بأعدادها فى زجاجات الدواء وفى لفائف الصحف وفى الخبز الأفرنجي وفى جيوب ملابسه حتى ضاق به ذرعاً .

وقد عثرت على مائة عدد منها فى دولاب مهجور في منزل عزمى بك بمصر العتيقة وكان موظفاً سابقاً فى وزارة المالية وعرفته عن طريق أولاده وهو فى المعاش وأحد أولاده محمد توفيق عزمى كان رفيقى فى المدرسة الخديوية وكنا نذاكر الدروس فى فترة الامتحان فى منزل والده الواقع على شاطىء النيل مقابل حديقة المناسترلى وله شرفة مطلة على النهر وله مدخل كبير على الشارع الذى يخترقه الترام . فلما قرأت

أحد الأعداد طلبت من صاحبى أن يسمح لى بقراءة الأعداد كلها فأهدانى إياها جميعاً وكان هذا أول اتصالى بالحركة العرابية عن طريق مطبوعات مؤيدة لها كانت تنشر فى مصر وتعضد الحركة الوطنية ثم قرأت فى كتب أخرى عن تاريخ الحركة وعن الدور الذى قام به الإسرائيلى سنوا أبو نظارة ، فاحترمته .

وفى سنة ١٩٠٨ فى ليون وصلت الىّ أعداد جريدته التى استمر فى إصدارها بعد نفيه من مصر وأرسل الىّ كتاباً بخط يده وهو الخط الذى كان يحرر به جريدته ويطبعها على الحجر ويزينها بصور كثيرة ولا سيما صورته فى زى شيخ مصرى وعلى عينيه نظارته الزرقاء وهى جريدة سياسية هزلية سبقت جريدة النديم « الأستاذ » و«حمارة منيتى» وكانت تصل الى أيدى الشعب لأنها محررة باللغة العامية . وكان لها أثر كبير .

ولما توجهنا الى باريس لأجل المؤتمر سنة ١٩١٠ زارنا أبو نظارة وكتب عن المؤتمر فى جريدته كما سبق له أن كتب عن مؤتمر جنيف وكانت تربطه بالمرحوم مصطفى كامل صداقة متينة وكذلك بالمرحوم محمد فريد . ومازال يكتب وينشر الى أن وافته منيته بعد الحرب الكبرى الأولى فى الثمانين من عمره . وقد قرأت نعيه فى جريدة الطان الفرنسية فاذا هو متصل بالقرابة والنسب بأكثر من عشرين أسرة من كبار أسر اليهود بفرنسا وله مكانة كبيرة وثروة حسنة وقد أقام فى فرنسا حوالى أربعين عاما لم ينس خلالها وطنه الأول ولم يغير زيّه ولم يفتر عن تحرير جريدته ونشرها وإرسالها هدية الى مشاهير المصريين والشرقيين .

وقد كتب عنه مؤرخو الأجانب الذين كتبوا عن الحركة العرابية فى كتبهم ولكن المصريين جهلوه تماما لأن جريدته كانت ممنوعة من دخول القطر المصرى فى عهد الخديو عباس أى الى سنة ١٩١٤[١] ، وإن كنت رأيت بعض أعداد مصادفة ، ولا أظن أن لها مجموعة تامة فى إحدى المكاتب العامة ماعدا مكتبة باريس الوطنية وهو اليهودى الأول والأخير الذى استحق لقب الوطنى من مصر لوفائه وإخلاصه ومثابرته واحتفاظه بشرفه وضميره واحترامه للإسلام والمسلمين حتى أسس جريدة العالم الإسلامى بالفرنسوية والعربية تأييداً لحركة المرحوم مصطفى كامل وكان ينفق على صحفه من ماله الخاص .

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الدكتورة نجوى إبراهيم فؤاد عانوس وضعت كتاباً عنوانه « مسرح يعقوب صنوع » أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ ضمن سلسلة « دراسات أدبية » .

كما نشر الدكتور محمد يوسف نجم مسرحيات مختارة ليعقوب صنوع وقدم لها ضمن سلسلة « المسرح العربى – دراسات ونصوص ٣٠ » ، طبع دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٣ .

الفهـــرس

الصفحــة

الصفحـــة

الصفحــة

الصفحـــة

رقم الإيداع ٥٩٠٩ / ٩٨

الترقيم الدولى

977 - 232 - 139 - 4

مطبعة السلام الحديثة

١٠ش عبد السلام منسى
المتفرع من الشهيد أحمد حمدى
مدكور - فيصـــل
ت : ٥٨٣١٩٣٠